روح المعاني

في

تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني

لخاتمة المحققين وعمدة المدققين مرجع أهل العراق
ومفتى بغداد العلامة أبى الفضل
شهاب الدين السيد محمود الالوسى البغدادى
المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ سقى الله ثراه
صبيب الرحمة وأفاض عليه سجال
الاحسان والنعمة آمين

الجزء السابع والعشرون

عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه للمرة الثانية باذن من ورثة المؤلف بخط وامضاء علامة العراق
﴿المرحوم السيد محمود شكرى الألوسى البغدادى﴾

إدارة الطباعة المنيرية
دار
إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

مصر : درب الاتراك رقم ١

﴿ سورة الذاريات (١) ﴾

﴿ مكية ﴾ كما روى عن ابن عباس. وابن الزبير رضى الله تعالى عنهما ـ ولم يحك فى ذلك خلاف ـ وهى ستون آية بالاتفاق كما فى كتاب العدد ، ومناسبتها لسورة (ق) أنها لما ختمت بذكر البعث واشتملت على ذكر الجزاء والجنة والنار وغير ذلك افتتحت هذه بالإقسام على أن ما وعدوا من ذلك لصادق ، وأن الجزاء لواقع ، وأنه قد ذكر هناك إهلاك كثير من القرون على وجه الاجمال ، وذكر هنا إهلاك بعضهم على سبيل التفصيل إلى غير ذلك مما يظهر للمتأمل *

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ١ ﴾ أى الرياح التى تذروا التراب وغيره من ـ ذرا ـ المعتل بمعنى فرق وبدد مارفعه عن مكانه ﴿ فَالْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ٢ ﴾ أى حملا وهى السحب الحاملة للمطر *

﴿ فَالْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ٣ ﴾ أى جريا سهلا إلى حيث سيرت وهى السفن ﴿ فَالْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ٤ ﴾ هى الملائكة الذين يقسمون الأمور بين الخلق على ماأمروا به ، وتفسير كل بما فسر به قد صح روايته من طرق عن على كرم الله تعالى وجهه ، وفى بعض الروايات أن ابن الكواء سأله عن ذلك وهو رضى الله تعالى عنه يخطب على المنبر فأجاب بما ذكر ، وفى بعض الأخبار مايدل على أنه تفسير مأثور عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم *

أخرج البزار . والدارقطنى فى الافراد . وابن مردويه . وابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال: «جاء صبيغ التميمى إلى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقال: أخبرنى عن (الذاريات ذروا) قال: هى الرياح، ولولا أنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقوله ماقلته ، قال: فأخبرنى عن (الحاملات وقرا) قال: هى السحاب ولولا أنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقوله ماقلته ، قال: فأخبرنى (عن الجاريات يسرا) قال: هى السفن ولولا أنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقوله ماقلته، قال: فأخبرنى عن (المقسمات أمرا) قال: هى الملائكة ولولا أنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقوله ماقلته ثم أمر به فضرب مائة وجعل فى بيت فلما برأ دعاه فضربه مائة أخرى وحمله على قتب وكتب إلى أبى موسى الأشعرى امنع الناس من مجالسته فلم يزالوا كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف له بالايمان المغلظة مايجد فى نفسه مما كان يجد شيئاً فكتب إلى عمر رضى الله تعالى عنه ماأخاله إلا قد صدق فخل بينه وبين مجالسة الناس » *

ويدل هذا أن الرجل لم يكن سليم القلب وأن سؤاله لم يكن طلبا للعلم وإلا لم يصنع به عمر رضى الله تعالى عنه ماصنع*

وفى رواية عن ابن عباس أن ـ الحاملات ـ هى السفن الموقرة بالناس وأمتعتهم ، وقيل : هى الحوامل من جميع الحيوانات ، وقيل: الجاريات السحب تجرى وتسير إلى حيث شاء الله عز وجل ، وقيل: هى الكواكب

---

(١) ﴿ تنبيه ﴾ جرينا هنا فى تقسيم هذا الجزء هكذا لما هو المشهور من تجزئة الأجزاء الأربعة الأواخر لذلك ليكون أول كل جزء منها أول سورة وإن كانت تجزئة المصاحف فى هذا الجزء هى قوله .(قال فما خطبكم أيها المرسلون)

التي تجرى فى منازلها وكلها لها حركة وإن اختلفت سرعة وبطأ كما بين فى موضعه ، وقيل: هى الكواكب السبعة الشهيرة وتسمى السيارة ، وقيل : (الذاريات) النساء الولود فانهن يذرين الأولاد كأنه شبه تتابع الأولاد بما يتطاير من الرياح ، وباقى المتعاطفات على ماسمعت أولا ، وقيل : (الذاريات) هى الأسباب التى تذرى الخلائق على تشبيه الاسباب المعدة للبروز من العدم بالرياح المفرقة للحبوب ونحوها ، وقيل : الحاملات الرياح الحاملة للسحاب ، وقيل : هى الاسباب الحاملة لمسبباتها مجازاً ، وقيل: الجاريات الرياح تجرى فى مهابها ، وقيل: المقسمات السحب يقسم الله تعالى بها أرزاق العباد ، وقيل : هى الكواكب السبعة السيارة - وهو قول باطل - لا يقول به إلا من زعم أنها مدبرة لعالم الكون والفساد ، وفى صحيح البخارى عن قتادة « خلق الله تعالى هذه النجوم لثلاث جعلها زينة للسماء . ورجوما للشياطين . وعلامات يهتدى بها فمن تأول فيها بغير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف مالا يعلم » وزاد رزين « ومالا علم له به وماعجز عن علمه الانبياء والملائكة » وعن الربيع مثله وزاد « والله ماجعل الله تعالى فى نجم حياة أحد ولا رزقه ولا موته وإنما يفترون على الله تعالى الكذب ويتعللون بالنجوم » ذكره صاحب جامع الاصول ، وقدمر الكلام فى إبطال ماقاله المنجمون مفصلا فتذكر ، ولعله سيأتى إن شاء الله تعالى شئ من ذلك ، وجوز أن يراد بالجميع الرياح فانها - كما تذر - وما تذروه تثير السحاب وتحمله، وتجرى فى الجو جرياً سهلا - وتقسم الامطار بتصريف السحاب فى الاقطار - والمعول عليه ماروى عن عمر رضى الله تعالى عنه سامعاً له من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم - وقاله باب مدينة العلم كرم الله تعالى وجهه على المنبر - واليه كما نقل عن الزجاج ذهب جميع المفسرين أى المعتبرين ، وقول الامام بعد نقله له عن الأمير: الأقرب أن تحمل هذه الصفات الأربع على الرياح جسارة عظيمة على مالا يسلم له ، وجهل منه بما رواه ابن المسيب من الخبر الدال على أن ذلك تفسير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأين منه الامام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه *

وقول صاحب الكشف : إنه شديد الطباق للمقام ولذا آثره الامام لا أسلمه له أيضا إذا صح الحديث ثم إذا حملت هذه الصفات على أمور مختلفة متغايرة بالذات كما فى المعول عليه فالفاء للترتيب فى الاقسام ذكراً ورتبة باعتبار تفاوت مراتبها فى الدلالة على كمال قدرته عز وجل ، وهذا التفاوت إما على الترقى أو التنزل لما فى كل منها من الصفات التى تجعلها أعلى من وجه وأدنى من آخر إذا نظر لها ذو نظر صحيح ، وقيل : الترتيب بالنظر إلى الأقرب فالأقرب منا ، وإن حملت على واحد وهو الرياح فهى لترتيب الافعال والصفات إذ الريح تذر الأبخرة إلى الجو أولا حتى تنعقد سحاباً فتحمله ثانيا وتجرى به ثالثاً ناشرة وسائقة له إلى حيث أمرها الله تعالى ثم تقسم أمطاره ، وقيل : إذا حملت الذاريات والحاملات على النساء ، فالظاهر أنها للتفاوت فى الدلالة على كمال القدرة فتدبر *

ونصب (ذرواً) على أنه مفعول مطلق ، (ووقراً) على أنه مفعول به ، وجوز الامام أن يكون من باب ضربته سوطا ، و(يسراً) على أنه صفة مصدر محذوف بتقدير مضاف أى جريا ذا يسر ، أو على أنه حال أى ميسرة كما نقل عن سيبويه ، و(أمراً) على أنه مفعول به وهو واحد الامور ، وقد أريد به الجمع ولم يعبر به لان الفرد أنسب برءوس الآى مع ظهور الامر ، وقيل : على أنه حال أى مأمورة ، والمفعول به محذوف أو الوصف منزل منزلة اللازم أى تفعل التقسيم مأمورة ، وقرأ أبو عمرو . وحمزة (والذاريات ذرواً) بادغام التاء فى الذال ، وقرئ (وقراً) بفتح الواو على أنه مصدر وقره إذا حمله - كما أفاده كلام الزمخشرى - وناهيك

به إماماً فى اللغة ، وعلى هذا هو منصوب على أنه مفعول به أيضا على تسمية المحمول بالمصدر أو على أنه مفعول مطلق ـ لحاملات ـ من معناها كأنه قيل : فالحاملات حملا . وقوله تعالى شأنه :

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ٦ ﴾ جواب للقسم، و(ما) موصولة والعائد محذوف أى إن الذى توعدونه، أو توعدون به، ويحتمل أن تكون مصدرية أى إن وعدكم، أو وعيدكم إذ توعدون يحتمل أن يكون مضارع وعد ، وأن يكون مضارع أوعد ، ولعل الثانى أنسب لقوله تعالى : (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) ولأن المقصود التخويف والتهويل ، وعن مجاهد أن الآية فى الكفار وهو يؤيد الوعيد ومعنى صدقه تحقق وقوعه ، وفى الكشاف وعد صادق - كعيشة راضية ـ و (الدين) الجزاء ووقوعه حصوله ، والاكثرون على أن الموعود هو البعث ، وفى تخصيص المذكورات بالإقسام بها رمز إلى شهادتها بتحقق الجملة المقسم عليها من حيث أنها أمور بديعة فمن قدر عليها فهو قادر على تحقيق البعث الموعود ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ٧ ﴾ أى الطرق جمع حبيكة كطريقة ، أو حباك كمثال ومثل ، ويقال : حبك الماء للتكسر الجارى فيه إذ مرت عليه الريح ، وعليه قول زهير يصف غديراً :

مكلل بأصول النجم تنسجه ريح خريق لضاحى مائه حبك (١)

وحبك الشعر لآثار تثنيه وتكسره ، وتفسيرها بذلك مروى عن مقاتل . والكلبى . والضحاك ، والمراد بها إما الطرق المحسوسة التى تسير فيها الكواكب ، أو المعقولة التى تدرك بالبصيرة وهى ما تدل على وحدة الصانع وقدرته وعلمه وحكمته جل شأنه إذا تأملها الناظر ، وقال ابن عباس . وقتادة . وعكرمة . ومجاهد . والربيع : ذات الخلق المستوى الجيد ، وفى رواية أخرى عن مجاهد المتقنة البنيان ، وقيل : ذات الصفاقة وهى أقوال متقاربة وكأن الحبك عليها من قولهم : حبكت الشئ أحكمته وأحسنت عمله وحبكت العقدة أوثقتها ، وفرس محبوك المعاقم ـ وهى المفاصل ـ أى محكمها ، وفى الكشف أصل الحباكة الصفاقة وجودة الاثر، وعن الحسن ـ حبكها ـ نجومها ، والظاهر أن إطلاق الحبك على النجوم مجاز لأنها تزين السماء كما يزين الثوب الموشى حبكه وطرائق وشيه فكأنه قيل : ذات النجوم التى هى كالحبك أى الطرائق فى التزيين ، واستظهر فى السماء أنه جنس أريد به جميع السموات وكون كل واحدة منها ذات حبك بمعنى مستوية الخلق جيدته ، أو متقنة البنيان أو صفيقة ، أو ذات طرق معقولة ظاهر ، وأما كون كل منها كذلك بمعنى ذات طرق محسوسة فباعتبار أن الكواكب فى أى سماء كانت تسير مسامتة لسائر السموات ، فممراتها باعتبار المسامتة طرق، وبمعنى ذات النجوم فباعتبار أن النجوم فى أى سماء كانت تشاهد فى سائر السموات بناءاً على أن السموات شفافة لا يحجب كل منها إدراك ما وراءه ، وأخرج ابن منيع عن على كرم الله تعالى وجهه أنه قال : هى السماء السابعة ، وعن عبد الله بن عمرو مثله فتدبر ولا تغفل *

وقرأ ابن عباس . والحسن بخلاف عنه . وأبو مالك الغفارى . وأبو حيوة . وابن أبى عبلة . وابو السمال .

---

(١) قوله : (مكلل) مجرور على الوصف فى قوله : قبله ثم استعانت ـ بماء مكلل ـ ذلك الماء بأصول النبات وصارت حوله كالاكليل ، (والخريق) الريح الباردة الشديدة الهبوب و (الضاحى) الظاهر ، و (حبك الماء طرائقه) . اه إدارة الطباعة المنيرية

ونعيم عن أبى عمرو ـ الحبك ـ بإسكان الباء على زنة القفل، وعكرمة بفتحها جمع حبكة مثل طرفة وطرف وبرقة (١) وبرق، وأبو مالك الغفارى. والحسن بخلاف عنه أيضا بكسر الحاء والباء ـ كالابل ـ وهو على ماذكر الخفاجى اسم مفرد ورد على هذا الوزن شذوذاً وليس جمعاً، وأبو مالك والحسن. وأبو حيوة أيضا بكسر الحاء وإسكان الباء كالسلك ـ وهو تخفيف فعل مكسور الفاء والعين وهو اسم مفرد لاجمع لأن فعلا ليس من أبنية الجموع ـ قاله فى البحر ـ وابن عباس. وأبو مالك أيضا بفتحهما كالجبل ـ قال أبو الفضل الرازى ـ فهو جمع حبكة مثل عقبة وعقب، والحسن أيضا بكسر الحاء وفتح الباء كالنعم، وأبو مالك أيضا بكسر الحاء وضم الباء وذكرها ابن عطية عن الحسن أيضا ثم قال: هى قراءة شاذة غير متوجهة وكأنه بعد أن كسر الحاء توهم قراءة الجمهور فضم التاء (٢) وهذا من تداخل اللغات وليس فى كلام العرب هذا البناء أى لأن فيه الانتقال من خفة إلى ثقل على عكس ضرب مبنياً للمفعول، وقال صاحب اللوامح: هو عديم النظير فى العربية فى أبنيتها وأوزانها ولا أدرى ماوراءه انتهى *

وعلى التداخل تأول النحاة هذه القراءة، وقال أبو حيان: الأحسن عندى أن يكون ذلك مما أتبع فيه حركة الحاء لحركة تاء (ذات) فى الكسر ولم يعتد باللام الساكنة لأن الساكن حاجز غير حصين *

﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ٨ ﴾ أى متخالف متناقض فى أمر الله عزوجل حيث تقولون: إنه جل شأنه خالق السموات والارض وتقولون بصحة عبادة الأصنام معه سبحانه، وفى أمر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فتقولون: تارة إنه مجنون، وأخرى إنه ساحر ولا يكون الساحر إلا عاقلا، وفى أمر الحشر فتقولون: تارة لاحشر ولاحياة بعد الموت أصلا، وتزعمون أخرى أن أصنامكم شفعاؤكم عند الله تعالى يوم القيامة إلى غير ذلك من الأقوال المتخالفة فيما كلفوا بالايمان به، واقتصر بعضهم على كون القول المختلف فى أمره صلى الله تعالى عليه وسلم، والجملة جواب القسم ولعل النكتة فى ذلك القسم تشبيه أقوالهم فى اختلافها وتنافى أغراضها بطرائق السموات فى تباعدها واختلاف هيآتها، أو الاشارة إلى أنها ليست مستوية جيدة، أو ليست قوية محكمة، أو ليس فيها مايزينها بل فيها مايشينها من التناقض ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ٩ ﴾ أى يصرف عن الايمان بما كلفوا الايمان به لدلالة الكلام السابق عليه، وقال الحسن. وقتادة: عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال غير واحد: عن القرآن، والكلام السابق مشعر بكل من صرف الصرف الذى لا أشد منه وأعظم، ووجه المبالغة من إسناد الفعل إلى من وصف به فلولا غرض المبالغة لكان من توضيح الواضح فكأنه أثبت للمصروف صرف آخر حيث قيل: (يصرف عنه) المصروف فجاءت المبالغة من المضاعفة ثم الاطلاق فى المقام الخطابى له مدخل فى تقوية أمر المضاعفة وكذلك الابهام الذى فى الموصول، وهو قريب من قوله تعالى: (فغشيهم من اليم ماغشيهم)، وقيل: المراد (يصرف عنه) فى الوجود الخارجى من (صرف عنه) فى علم الله تعالى وقضائه سبحانه، وتعقب بأنه ليس فيه كثير فائدة لأن كل ماهو كائن معلوم أنه ثابت فى سابق علمه تعالى الأزلى وليس فيه المبالغة السابقة، وأجيب عن الأول بأن فيه الاشارة إلى أن الحجة البالغة لله عزوجل فى صرفه وكفى بذلك فائدة وهو مبنى أن العلم تابع للمعلوم فافهمه، وحكى الزهراوى أنه يجوز أن يكون الضمير (لما توعدون) أو ـ للدين ـ أقسم سبحانه ـ بالذاريات ـ على أن وقوع أمر القيامة حق ثم أقسم بالسماء على أنهم فى (قول مختلف) فى وقوعه، فنهم شاك،

(١) هى أرض ذات حجارة (٢) هكذا بالتاء الفوقية والظاهر أنها بالباء الموحدة

ومنهم جاحد ثم قال جل وعلا : (يؤفك) عن الاقرار بأمر القيامة من هو المأفوك ، وذكر ذلك الزمخشرى ولم يعزه ، وادعى صاحب الكشف أنه أوجه لتلاؤم الكلام ، وقيل: يجوز أن يكون الضمير ـ لقول مختلف ـ ـ وعن ـ للتعليل كما فى قوله تعالى: (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) وقوله :

ينهون عن أكل وعن شرب مثل المها يرتعن فى خصب (١)

أى يصرف بسبب ذلك القول المختلف من أراد الاسلام ، وقال الزمخشرى : حقيقته يصدر إفكهم عن القول المختلف، وهذا محتمل لبقاء ـ عن ـ على أصلها من المجاوزة واعتبار التضمين، وفيه ارتكاب خلاف الظاهر من غير داع مع ذهاب تلك المبالغة، وجوز ابن عطية رجوع الضمير إلى القول إلا أنه قال : المعنى يصرف عن ذلك القول المختلف بتوفيق الله تعالى للاسلام من غلبت سعادته ، وتعقبه بأن فيه مخالفة للعرف فان عرف الاستعمال فى الافك الصرف من خير إلى شر فلذلك لا تجده إلا فى المذمومين ، ثم إن ذلك على كون الخطاب فى أنكم للكفار ـ وهو الذى ذهب اليه ابن زيد وغيره ـ واستظهر أبو حيان كونه عاما للمسلم والكافر ، واستظهر العموم فيما سبق أيضا ، والقول المختلف حينئذ قول المسلمين بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقول الكفار بنقيض ذلك ، وقرأ ابن جبير . وقتادة (من أفك) مبنيا للفاعل أى من أفك الناس عنه وهم قريش، وقرأ زيد بن على ـ يأفك عنه من أفك ـ أى يصرف الناس عنه من هو أفاك كذاب ، وقرئ ـ يؤفن عنه من أفن ـ بالنون فيهما أى يحرمه من حرم من أفن الضرع إذا أنهكه حلباً ﴿ قُتِلَ الْخَرَّٰصُونَ ١٠ ﴾ أى الكذابون من أصحاب القول المختلف ، وأصل الخرص الظن والتخمين ثم تجوزبه عن الكذب لانه فى الغالب يكون منشأه، وقال الراغب: حقيقة ذلك أن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له : خرص سواء كان مطابقاً للشئ أو مخالفا له من حيث أن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع بل اعتمد فيه على الظن والتخمين كفعل خارص الثمرة فى خرصه، وكل من قال قولا على هذا النحو قد يسمى كاذباً وإن كان قوله مطابقاً للمقول المخبر به كما فى قوله تعالى: (إذا جاءك المنافقون) الآية انتهى*

وفيه بحث وحقيقة ـ القتل ـ معروفة ، والمراد ـ بقتل ـ الدعاء عليهم مع قطع النظر عن المعنى الحقيقى * وعن ابن عباس تفسيره باللعن قال ابن الانبارى : وإنما كان القتل بمعنى اللعن هنا لان من لعنه الله تعالى بمنزلة المقتول الهالك ، وقرئ ـ قتل الخراصين ـ أى قتل الله الخراصين ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ ﴾ فى جهل عظيم يغمرهم ويشملهم شمول الماء الغامر لما فيه ﴿ سَاهُونَ ١١ ﴾ غافلون عما أمروا به ، فالمراد بالسهو مطلق الغفلة *

﴿ يَسْـَٔلُونَ ﴾ أى بطريق الاستعجال استهزاءاً ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ١٢﴾ معمول ليسألون على أنه جار مجرى يقولون لما فيه من معنى القول، أو لقول مقدر ـ أى فيقولون متى وقوع يوم الجزاء . وقدر الوقوع ليكون السؤال عن الحدث كما هو المعروف فى (أيان) ولا ضير فى جعل الزمان زمانياً فان اليوم لما جعل موعوداً ومنتظراً فى نحو قوله تعالى: (فارتقب يوم تأتى السماء) صار ملحقاً بالزمانيات وكذلك ـ كل يوم له شأن مثل يوم العيد . والنيروز ـ وهذا

(١) يصف الشاعر مضيافا يصدر الاضياف عنه شباعا يتناهون فى السمن بسبب الاكل والشرب وقالوا جمل ناه اذا كان عريقاً فى السمن اه

جار فى عرفى العرب والعجم على أنه يجوز عند الأشاعرة أن يكون للزمان زمان على مافصل فى مكانه ، وقرئ (إيان) بكسر الهمزة وهى لغة ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ١٣ ﴾ أى يحرقون، وأصل الفتن إذابة الجوهر ليظهر غشه ثم استعمل فى الاحراق والتعذيب ونحو ذلك، و(يوم) نصب على الظرفية لمحذوف دل عليه وقوع الكلام جوابا للسؤال مضاف للجملة الاسمية بعده - أى يقع يوم الدين يوم هم على النار - الخ ، وقال الزجاج : ظرف لمحذوف وقع خبراً لمبتدأ كذلك أى هو واقع ، أو كائن يوم الخ، وجوز أن يكون هو نفسه خبر مبتدأ محذوف، والفتحة فتحة بناء لاضافته إلى غير ، وهى الجملة الاسمية فان الجمل بحسب الاصل كذلك على كلام فيه بين البصريين والكوفيين مفصل فى شرح التسهيل - أى هو يوم هم - الخ، والضمير قيل : راجع إلى وقت الوقوع فيكون هذا الكلام قائماً مقام الجواب على نحو - سيقولون لله - فى جواب (من رب السموات والأرض) لان تقدير السؤال فى أى وقت يقع ، وجوابه الأصلى فى يوم كذا، وإذا قلت : وقت وقوعه يوم كذا كان قائما مقامه . ويجوز أن يكون الضمير لليوم والكلام جواب بحسب المعنى ، فالتقدير يوم الجزاء - يوم تعذيب الكفار - ويؤيد - كونه مرفوع المحل خبراً لمبتدأ محذوف - قراءة ابن أبى عبلة . والزعفرانى (يوم هم) بالرفع، وزعم بعض النحاة أن - يوم - بدل من (يوم الدين) وفتحته على قراءة الجمهور فتحة بناء، و(يوم) ومافى حيزه من جملة كلام السائلين قالوه استهزاءاً، وحكى على المعنى، ولو حكى على اللفظ لقيل : يوم نحن على النار نفتن، وهو فى غاية البعد كما لا يخفى، وقوله تعالى: ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ بتقدير قول وقع حالا من ضمير (يفتنون) أى مقولا لهم (ذوقوا فتنتكم) أى عذابكم المعد لكم، وقد يسمى ما يحصل عنه العذاب - كالكفر - فتنة ، وجوز أن يكون منه ماهنا كأنه قيل : ذوقوا كفركم - أى جزاء كفركم - أو يجعل الكفر نفس العذاب مجازاً وهو كما ترى ﴿ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ١٤ ﴾ جملة من مبتدأ وخبر داخلة تحت القول المضمر - أى هذا العذاب الذى كنتم تستعجلون به بطريق الاستهزاء - وجوز أن يكون هذا بدلا من (فتنتكم) بتأويل العذاب ، وفيه بعد ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ١٥ ﴾ لا يبلغ كنهها ولا يقادر قدرها ﴿ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أى قابلين لكل ما أعطاهم عز وجل راضين به على معنى إن كل ما آتاهم حسن مرضى يتلقى بحسن القبول ، والعموم مأخوذ من شيوع ما وإطلاقه فى معرض المدح وإظهار منته تعالى عليهم، واعتبار الرضا لأن الأخذ قبول عن قصد ، ونصب (آخذين) على الحال من الضمير فى الظرف ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ فى الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ١٦ ﴾ أى لأعمالهم الصالحة آتين بها على ماينبغى فلذلك استحقوا ما استحقوا من الفوز العظيم، وفسر إحسانهم بقوله تعالى: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ١٧ ﴾ الخ على أن الجملة فى محل رفع بدل من قوله تعالى : (كانوا قبل ذلك محسنين) حصل بها تفسيره ، أو أنها جملة لا محل لها من الاعراب مفسرة كسائر الجمل التفسيرية، وأخرج الفريابى . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال فى الآية : (آخذين ما آتاهم ربهم) من الفرائض (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) أى كانوا قبل تنزل الفرائض يعملون ، ولا أظن صحة نسبته لذلك الحبر ، ولا يكاد تجعل جملة (كانوا) الخ عليه تفسيراً إذا صح مانقل عنه فى تفسيرها ، وسيأتى إن شاء الله تعالى *

و - الهجوع - النوم، وقيده الراغب بقوله : ليلا ، وغيره بالقليل ، و (ما) إما مزيدة - فقليلا -

معمول الفعل صفة لمصدر محذوف أي ـ هجوعا قليلا ـ و (من الليل) صفة، أو لغو متعلق ـ بيهجعون ـ و (من) للابتداء، وجملة (يهجعون) خبر ـ كان ـ أو (قليلا) صفة لظرف محذوف ـ أي زمانا قليلا ـ و (من الليل) صفة على نحو ـ قليل من المال عندي ـ وإما موصولة عائدها محذوف فهي فاعل (قليلا) وهو خبر ـ كان ـ و (من الليل) حال من الموصول لمقدم كأنه قيل: كانوا قد قل المقدار الذي يهجعون فيه كائناً ذلك المقدار (من الليل) وإما مصدرية فالمصدر فاعل (قليلا) وهو خبر كان أيضاً، و (من الليل) بيان لا متعلق بما بعده لأن معمول المصدر لا يتقدم، أو حال من المصدر، و (من) للابتداء كذا في الكشف فهما من الكشاف، وذهب بعضهم إلى أن (من) على زيادة ـ ما ـ بمعنى في كما في قوله تعالى: (إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة) واعترض ابن المنير احتمال مصدريتها بأنه لا يجوز في (من الليل) كونه صفة، أو بيانا ـ للقليل ـ لأنه فيه واقع على الهجوع ولا صلة المصدر لتقدمه، وأجيب بأنه بيان للزمان المبهم؛ وحكى الطيبي أنه إما منصوب على التبيين أو متعلق بفعل يفسره (يهجعون) وجوز أن يكون (ما يهجعون) على ذلك الاحتمال بدلا من اسم كان فكأنه قيل: كان هجوعهم قليلا وهو بعيد، وجوز في (ما) أن تكون نافية، و (قليلا) منصوب ـ بيهجعون ـ والمعنى ـ كانوا لا يهجعون من الليل قليلا ويحيونه كله ـ ورواه ابن أبي شيبة. وأبو نصر عن مجاهد، ورده الزمخشري بأن (ما) النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها لأن لها صدر الكلام وليس فيها التصرف الذي في أخواتها كلا فإنها قد تكون كجزء مما دخلت عليه نحو ـ عوتب بلا جرم ـ ولم. ولن ـ لاختصاصهما بالفعل كالجزء منه، وأنت تعلم أن منع العمل هو مذهب البصريين، وفي شرح الهادي أن بعض النحاة أجازه مطلقاً، وبعضهم أجازه في الظرف خاصة للتوسع فيه، واستدل عليه بقوله:

﴿ ونحن عن فضلك ما استغنينا ﴾ نعم يرد على ذلك أن فيه كما في الانتصاف خللا من حيث المعنى فإن طلب قيام الليل غير مستثنى منه جزء للهجوع وإن قل غير ثابت في الشرع ولا معهود اللهم إلا أن يدعي أن من ذهب إلى ذلك يقول. بأنه كان ثابتاً في الشرع، فقد أخرج ابن أبي شيبة. وابن المنذر عن عطاء أنه قال في الآية: كان ذلك إذ أمروا بقيام الليل كله فكان أبو ذر يعتمد على العصا فمكثوا شهرين ثم نزلت الرخصة (فاقرءوا ما تيسر منه) وقال الضحاك: (كانوا قليلا) في عددهم، وتم الكلام عند (قليلا) ثم ابتدأ (من الليل ما يهجعون) على أن (ما) نافية؛ وفيه ما تقدم مع زيادة تفكيك للكلام، ولعل أظهر الأوجه زيادة (ما) ونصب (قليلا) على الظرفية، و (من الليل) صفة. قيل: وفي الكلام مبالغات لفظ الهجوع بناءاً على أنه القليل من النوم، وقوله تعالى: (قليلا) و (من الليل) لأن الليل وقت السبات والراحة وزيادة (ما) لأنها تؤكد مضمون الجملة فتؤكد القلة وتحققها باعتبار كونها قيداً فيها ﴿

والغرض من الآية أنهم يكابدون العبادة في أوقات الراحة وسكون النفس ولا يستريحون من مشاق النهار إلا قليلا، قال الحسن: كابدوا قيام الليل لا ينامون منه إلا قليلا، وعن عبد الله بن رواحة هجعوا قليلا ثم قاموا، وفسر أنس بن مالك الآية ـ كما رواه جماعة عنه وصححه الحاكم ـ فقال: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء وهي لا تدل على الاقتصار على ذلك ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ١٨ ﴾ أي هم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار في الاسحار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم ولم يتفرغوا فيه للعبادة، وفي بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم الاحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار كأنهم المختصون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه ﴿

وفي الآية من الإشارة إلى مزيد خشيتهم وعدم اغترارهم بعبادتهم ما لا يخفى، وحمل الاستغفار على حقيقته المشهورة هو الظاهر ـ وبه قال الحسن ـ

أخرج عنه ابن جرير . وغيره أنه قال : صلوا فلما كان السحر استغفروا ، وقيل : المراد طلبهم المغفرة بالصلاة ، وعليه ما أخرج ابن المنذر . وجماعة عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه قال : (يستغفرون) يصلون،وأخرج ابن مردويه عنه ذلك مرفوعاً ولا أراه يصح ، وأخرج أيضا عن أنس قال : « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن آخر الليل فى التهجد أحب إلى من أوله لأن الله تعالى يقول : (وبالاسحار هم يستغفرون) » وهو محتمل لذلك التفسير والظاهر ﴿ وَفِى أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ ﴾ أى نصيب وافر يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله عز وجل وإشفاقاً على الناس فهو غير الزكاة كما قال ابن عباس . ومجاهد . وغيرهما ﴿ لِّلسَّآئِلِ ﴾ الطالب منهم ﴿ وَٱلْمَحْرُومِ ١٩ ﴾ وهو المتعفف الذى يحسبه الجاهل غنياً فيحرم الصدقة من أكثر الناس ٭

أخرج ابن جرير. وابن حبان. وابن مردويه عن أبى هريرة قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان والأكلة والأكلتان قيل: فمن المسكين؟ قال: الذى ليس له ما يغنيه ولا يعلم مكانه فيتصدق عليه فذلك المحروم » وفسره ابن عباس بالمحارف الذى يطلب الدنيا وتدبر عنه ولا يسأل الناس، وقيل: هو الذى يبعد منه ممكنات الرزق بعد قربها منه فيناله الحرمان ، وقال زيد بن أسلم: هو الذى اجتيحت ثمرته ، وقيل: من ماتت ماشيته ، وقيل: من ليس له سهم فى الاسلام ، وقيل: الذى لا ينمو له مال ، وقيل: غير ذلك -قال فى البحر: وكل ذلك على سبيل التمثيل ويجمع الأقوال أنه الذى لا مال له لحرمان أصابه - وأنا بقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقول -وقال منذر بن سعيد هذا الحق هو الزكاة المفروضة ، وتعقب بأن السورة مكية وفرض الزكاة بالمدينة ، وقيل: أصل فريضة الزكاة كان بمكة والذى كان بالمدينة القدر المعروف اليوم ، وعن ابن عمر أن رجلا سأله عن هذا الحق فقال الزكاة وسوى ذلك حقوق فعمم، والجمهور على الأول ٭

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ ﴾ دلائل من أنواع المعادن. والنباتات. والحيوانات، أو وجوه دلالات من الدحو وارتفاع بعضها عن الماء ، واختلاف أجزائها فى الكيفيات والخواص ، فالدليل على الاول ما فى الارض من الموجودات والظرفية حقيقية والجمع على ظاهره، وعلى الثانى الدليل نفس الارض، والجمعية باعتبار وجوه الدلالة وأحوالها، والظرفية من ظرفية الصفة فى الموصوف والدلالة على وجود الصانع جل شأنه وعلمه وقدرته وإرادته ووحدته وفرط رحمته عز وجل ﴿ لِّلْمُوقِنِينَ ٢٠ ﴾ للموحدين الذين سلكوا الطريق السوى البرهانى الموصل إلى المعرفة فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة ، وقرأ قتادة -آية- بالافراد ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى فى ذواتكم آيات إذ ليس فى العالم شئ إلا وفى ذات الانسان له نظير يدل مثل دلالته على ما انفرد به من الهيآت النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة والتمكن من الأفعال البديعة واستنباط الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة، وآيات الأنفس أكثر من أن تحصى، وقيل: أريد بذلك اختلاف الألسنة والصور والالوان والطبائع، ورواه عطاء عن ابن عباس ، وقيل: سبيل الطعام وسبيل الشراب والحق أن لا حصر ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٢١ ﴾ أى ألا تنظرون فلا تبصرون بعين البصيرة ، وهو تعنيف على ترك النظر فى الآيات الأرضية والنفسية ، وقيل: فى الاخير ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾ أى تقديره وتعيينه ، أو أسباب رزقكم من النيرين والكواكب والمطالع

والمغارب التى تختلف بها الفصول التى هى مبادى الرزق إلى غيرذلك ، فالكلام على تقدير مضاف أو التجوز بجعل وجود الاسباب فيها كوجود المسبب ، وذهب غير واحد إلى أن السماء السحاب وهى سماء لغة ، والمراد بالرزق المطر فانه سبب الاقوات وروى تفسيره بذلك مرفوعاً وقرأ ابن محيصن ـ أرزاقكم ـ على الجمع *

﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ ﴾ عطف على رزقكم أى والذى توعدونه من خير وشر كما روى عن مجاهد، وفى رواية أخرى عنه وعن الضحاك ـ ماتوعدون ـ الجنة والنار وهو ظاهر فى أن النار فى السماء وفيه خلاف ، وقال بعضهم : هو الجنة وهى على ظهر السماء السابعة تحت العرش ، وقيل : أمر الساعة ، وقيل : الثواب والعقاب فانهما مقدران معينان فيها، وقيل : إنه مستأنف خبره *

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ على أن ضمير (إنه) (لما) وعلى ماتقدم ، فإما له أو للرزق ، أولله تعالى ، أوللنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أوللقرآن ، أو للدين فى (إن الدين لواقع) أو لليوم المذكور فى (أيان يوم الدين) أو لجميع المذكور (أما ما أقوال) ، واستظهر أبو حيان الأخير منها وهو مروى عن ابن جريج أى أن جميع ماذكرناه من أول السورة إلى هنا لحق ﴿ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ أى مثل نطقكم كما أنه لاشك لكم فى أنكم تنطقون ينبغى أن لاتشكوا فى حقية ذلك وهذا كقول الناس : إن هذا لحق كما أنك ترى وتسمع ، ونصب (مثل) على الحالية من المستكن فى (لحق) وهو لايتعرف بالاضافة لتوغله فى التنكير ، أو على الوصف لمصدر محذوف أى إنه حق حقاً مثل نطقكم ، وقيل : إنه مبنى على الفتح فقال المازنى : لتركبه مع (ما) حتى صارا شيئاً واحداً نحو ـ ويحما ـ وأنشدوا لبناء الاسم معها قول الشاعر :

أثور (ما) أصيدكم أم ثورين   أم هذه الجماء ذات القرنين

وقال غيره : لاضافته إلى غير متمكن وهو (ما) إن كانت نكرة موصوفة بمعنى شئ ، أو موصولة بمعنى الذى و (أنكم) الخ خبر مبتدأ محذوف أى هو (أنكم) الخ ، والجملة صفة ، أوصلة ، أوهو أن بما فى حيزها إن جعلت (ما) زائدة ، وهو نص الخليل ومحله على البناء الرفع على أنه صفة (لحق) أو خبر ثان ويؤيده قراءة حمزة . والكسائى . وأبى بكر . والحسن . وابن أبى إسحق . والأعمش بخلاف عن ثلاثتهم (مثل) بالرفع ، وفى البحر أن الكوفيين يجعلون ـ مثلا ـ ظرفا فينصبونه على الظرفية ويجيزون زيد مثلك بالنصب، وعليه يجوز أن يكون فى قراءة الجمهور منصوبا على الظرفية ـ واستدلالهم، والرد عليهم مذكور فى النحو ـ وفى الآية من تأكيد حقية المذكور مالايخفى ، وأخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم عن الحسن أنه قال فيها : بلغنى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « قاتل الله قوماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا » وعن الاصمعى أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابى على قعود فقال : ممن الرجل ؟ قلت: من بنى أصمع قال : من أين أقبلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن قال : اتل على فتلوت (والذاريات) فلما بلغت (وفى السماء رزقكم) قال : حسبك فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فاذا أنا بمن يهتف بى بصوت رقيق فالتفت فاذا بالأعرابى قد نحل واصفر فسلم على واستقرأ السورة فلما بلغت الآية صاح وقال : قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقاً ثم قال : وهل غيرهذا ؟ (فقرأت فورب السماء والارض إنه لحق) فصاح وقال : ياسبحان الله من ذا أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين قالها

ثلاثا وخرجت معها نفسه ».

﴿ هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ فيه تفخيم لشأن الحديث وتنبيه على أنه ليس مما علمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بغير طريق الوحى قاله غير واحد ، وفى الكشف فيه رمز إلى أنه لما فرغ من إثبات الجزاء لفظاً بالقسم ومعنى بما فى المقسم به من التلويح إلى القدرة البالغة مدمجا فيه صدق المبلغ ، وقضى الوطر من تفصيله مهد لاثبات النبوة وأن هذا الآتى الصادق حقيق بالاتباع لما معه من المعجزات الباهرة فقال سبحانه : (هل أتاك) الخ ، وضمن فيه تسليته عليه الصلاة والسلام بتكذيب قومه فله بسائر آبائه وإخوانه من الأنبياء عليهم السلام أسوة حسنة هذا إذا لم يجعل قوله تعالى :(وفى موسى) عطفاً على قوله سبحانه (وفى الأرض آيات) وأما على ذلك التقدير فوجهه أن يكون قصة الخليل . ولوط عليهما السلام معترضة للتسلى بإبعاد مكذبيه وأنه مرحوم منجى مكرم بالاصطفاء مثل أبيه إبراهيم صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم - والترجيح مع الأول انتهى - وسيأتى إن شاء الله تعالى مايتعلق بقوله سبحانه :(وفى موسى)، و(الضيف) فى الأصل مصدر بمعنى الميل ولذلك يطلق على الواحد والمتعدد ، قيل : كانوا اثنى عشر ملكا، وقيل : ثلاثة . جبرائيل . وميكائيل . وإسرافيل عليهم السلام وسموا ضيفاً لأنهم كانوا فى صورة الضيف ولأن إبراهيم عليه السلام حسبهم كذلك ، فالتسمية على مقتضى الظاهر والحسبان ، وبدأ بقصة إبراهيم وإن كانت متأخرة عن قصة عاد لأنها أقوى فى غرض التسلية ﴿ ٱلْمُكْرَمِينَ ٢٤ ﴾ أى عند الله عز وجل كما قال الحسن فهو كقوله تعالى فى الملائكة عليهم السلام : (بل عباد مكرمون) أو عند إبراهيم عليه السلام إذ خدمهم بنفسه وزوجته وعجل لهم القرى ورفع مجالسهم كما فى بعض الآثار ، وقرأ عكرمة (المكرمين) بالتشديد ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ ظرف للحديث لأنه صفة فى الأصل، أو للضيف ، أو (المكرمين) إن أريد إكرام إبراهيم لان إكرام الله تعالى إياهم لايتقيد، أو منصوب بإضمار اذكر ﴿ فَقَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ أى نسلم عليك سلاماً ، وأوجب فى البحر حذف الفعل لأن المصدر سادمسده فهو من المصادر التى يجب حذف أفعالها ، وقال ابن عطية : يتجه أن يعمل فى (سلاماً)قالوا :على أن يجعل فى معنى قولا ويكون المعنى حينئذ أنهم قالوا: تحية وقولا معناه (سلام)ونسب إلى مجاهد وليس بذاك ».

﴿ قَالَ سَلَـٰمٌ ﴾ أى عليكم سلام عدل به إلى الرفع بالابتداء لقصد الثبات حتى يكون تحيته أحسن من تحيتهم أخذاً بمزيد الأدب والإكرام ، وقيل : (سلام) خبر مبتدأ محذوف أى أمرى (سلام) وقرئا مرفوعين ، وقرئ - سلاماً قال سلما - بكسر السين وإسكان اللام والنصب ، والسلم السلام، وقرأ ابن وثاب . والنخعى . وابن جبير . وطلحة - سلاماً قال سلم - بالكسر والإسكان والرفع ، وجعله فى البحر على معنى نحن أو أنتم سلم ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ٢٥ ﴾ أنكرهم عليه السلام للسلام الذى هو علم الاسلام ، أو لانهم عليهم السلام ليسوا ممن عهدهم من الناس ، أولان أوضاعهم وأشكالهم خلاف ماعليه الناس ، و(قوم) خبر مبتدأ محذوف والأكثر على أن التقدير أنتم قوم منكرون وأنه عليه السلام قاله لهم للتعرف كقولك لمن لقيته :أنا لاأعرفك تريد عرف لى نفسك وصفها ، وذهب بعض المحققين إلى أن الذى يظهر أن التقدير هؤلاء (قوم منكرون) وأنه عليه السلام قاله فى نفسه ، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه من غير أن يشعرهم بذلك فانه الانسب بحاله

عليه السلام لأن فى خطاب الضيف بنحو ذلك إيحاشا ما ، وطلبه به أن يعرفوه حالهم لعله لايزيل ذلك .
وأيضا لو كان مراده ذلك لكشفوا أحوالهم عند القول المذكور ولم يتصد عليه السلام لمقدمات الضيافة *

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ ﴾ أى ذهب اليهم على خفية من ضيفه ، نقل أبو عبيدة أنه لايقال : راغ إلا إذا ذهب على خفية ، وقال : يقال روغ اللقمة إذا غمسها فى السمن حتى تروى ، قال ابن المنير : وهو من هذا المعنى لأنها تذهب مغموسة فى السمن حتى تخفى ، ومن مقلوب الروغ غور الأرض والجرح لخفائه وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى ، وقال الراغب : الروغ الميل على سبيل الاحتيال ، ومنه راغ الثعلب ، وراغ فلان إلى فلان مال نحوه لأمر يريده منه بالاحتيال ، ويعلم منه أن لاعتبار قيد الخفية وجهاً وهو أمر يقتضيه المقام أيضاً لان من يذهب إلى أهله لتدارك الطعام يذهب كذلك غالباً ، وتشعر الفاء بأنه عليه السلام بادر بالذهاب ولم يمهل وقد ذكروا أن من أدب المضيف أن يبارد بالقرى من غير أن يشعر به الضيف حذراً من أن يمنعه الضيف، أو يصير منتظراً ﴿ فَجَآءَ بِعِجْلٍ ﴾ هو ولد البقرة كأنه سمى بذلك لتصور عجلته التى تعدم منه إذا صار ثوراً ﴿ سَمِينٍ ٢٦ ﴾ ممتلىء الجسد بالشحم واللحم يقال : سمن ـ كسمع ـ سمانة بالفتح وسمناً ـ كعنب ـ فهو سامن وسمين ، وكحسن السمين خلقة كذا فى القاموس ، وفى البحر يقال : سمن سمناً فهو سمين شذوذاً فى المصدر، واسم الفاعل . والقياس سمن وسمن ، وقالوا : سامن إذا حدث له السمن انتهى ، والفاء فصيحة أفصحت عن جمل قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها ، وإيذانا بـكمال سرعة المجىء بالطعام أى فذبح عجلا فحنذه فجاء به ، وقال بعضهم إنه كان معداً عنده حنيذاً قبل مجيئهم لمن يرد عليه من الضيوف فلا حاجة إلى تقدير ماذكر ، والمشهور اليوم أن الذبح للضيف إذا ورد أبلغ فى إكرامه من الاتيان بما هو من الطعام قبل وروده ، وكان كما روى عن قتادة عامة ماله عليه السلام البقر ولوكان عنده أطيب لحماً منها لاكرمهم به *

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ ﴾ بأن وضعه لديهم ،وفيه دليل على أن من إكرام الضيف أن يقدم له أكثر مما يأكل وأن لا يوضع الطعام بموضع ويدعى الضيف إليه ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ٢٧ ﴾ ،قيل : عرض للأكل فان فى ذلك تأنيساً للضيف ، وقيل : إنكار لعدم تعرضهم للأكل ، وفى بعض الآثار أنهم قالوا: إنا لا نأكل إلا ما أدينا ثمنه فقال عليه السلام : إنى لا أبيحه لكم إلا بثمن قالوا : وما هو ؟ قال : أن تسموا الله تعالى عند الابتداء وتحمدوه عز وجل عند الفراغ فقال بعضهم لبعض: بحق اتخذه الله تعالى خليلا ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ فأضمر فى نفسه منهم خوفاً لما رأى عليه الصلاة والسلام إعراضهم عن طعامه وظن أن ذلك لشر يريدونه فان أكل الضيف أمنة ؛ ودليل على انبساط نفسه وللطعام حرمة وذمام والامتناع منه وحشة موجبة لظن الشر . وعن ابن عباس أنه عليه السلام وقع فى نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب فخاف ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ إنا رسل الله تعالى، عن يحيى بن شداد مسح جبريل عليه السلام العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه فعرفهم وأمن منهم ، وعلى ماروى عن الحبر أن هذا لمجرد تأمينه عليه السلام ، وقيل: مع تحقيق أنهم ملائكة وعلمهم بما أضمر فى نفسه إما باطلاع الله تعالى إياهم عليه، أو إطلاع ملائكته الكرام الكاتبين عليه وإخبارهم به ، أو بظهور أمارته فى وجهه الشريف فاستدلوا بذلك على الباطن ﴿ وَبَشَّرُوهُ ﴾ وفى سورة الصافات (وبشرناه) أى بواسطتهم ﴿ بِغُلَٰمٍ ﴾

هو عند الجمهور إسحق بن سارة وهو الحق للتنصيص على أنه المبشر به فى سورة هود ، والقصة واحدة ، وقال مجاهد. إسمعيل ابن هاجر كما رواه عنه ابن جرير وغيره ولا يكاد يصح ﴿ عَلِيمٍ ٢٨ ﴾ عند بلوغه واستوائه ، وفيه تبشير بحياته وكانت البشارة بذكر لانه أسر للنفس وأبهج ، ووصفه بالعلم لانها الصفة التى يختص بها الانسان الكامل لا الصورة الجميلة والقوة ونحوهما، وهذا عند غير الاكثرين من أهل هذا الزمان فان العلم عندهم لا سيما العلم الشرعى رذيلة لا تعادلها رذيلة والجهل فضيلة لا توازنها فضيلة، وفى صيغة المبالغة مع حذف المعمول ما لا يخفى مما يوجب السرور، وعن الحسن (عليم) نبى، ووقعت البشارة بعد التأنيس، وفى ذلك إشارة إلى أن درء المفسدة أهم من جلب المصلحة ، وذكر بعضهم أن علمه عليه السلام بأنهم ملائكة من حيث بشروه بغيب *

﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ ﴾ سارة لما سمعت بشارتهم إلى بيتها وكانت فى زاوية تنظر اليهم ، وفى التفسير الكبير إنها كانت فى خدمتهم فلما تكلموا مع زوجها بولادتها استحيت وأعرضت عنهم فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الاقبال على الأهل دون الإدبار عن الملائكة، وهو إن صح مثله عن نقل وأثر لا يأباه الخطاب الآتى لأنه يقتضى الاقبال دون الادبار إذ يكفى لصحته أن يكون بمسمع منها وإن كانت مدبرة، نعم فى الكلام عليه استعارة ضدية ولا قرينة ههنا تصححها ، وقيل : أقبلت بمعنى أخذت كما تقول أخذ يشتمنى ﴿ فِى صَرَّةٍ ﴾ فى صيحة من الصرير قاله ابن عباس، وقال قتادة وعكرمة . صرتها رنتها ، وقيل: قولها أوه ، وقيل: ياويلتى ، وقيل : فى شدة ، وقيل : الصرة الجماعة المنضم بعضهم إلى بعض كأنهم صروا أى جمعوا فى وعاء - وإلى هذا ذهب ابن بحر - قال: أى أقبلت فى صرة من نسوة تبادرن نظراً إلى الملائكة عليهم السلام، والجار والمجرور فى موضع الحال، أو المفعول به إن فسر (أقبلت) بأخذت قيل: إن (فى) عليه زائدة كما فى قوله : * يجرح فى عراقيبها نصلى * والتقدير أخذت صيحة ، وقيل : بل الجار والمجرور فى موضع الخبر لأن الفعل حينئذ من أفعال المقاربة ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ قال مجاهد: ضربت بيدها على جبهتها وقالت: ياويلتاه ، وقيل: إنها وجدت حرارة الدم فلطمت وجهها من الحياء ، وقيل: إنها لطمته تعجباً وهو فعل النساء إذا تعجبن من شئ ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ ﴾ أى أنا عجوز ﴿ عَقِيمٌ ٢٩ ﴾ عاقر فكيف ألد ، وعقيم فعيل قيل : بمعنى فاعل أو مفعول وأصل معنى العقم اليبس ﴿ قَالُوا كَذَٰلِكِ ﴾ أى مثل ذلك القول الكريم الذى أخبرنا به ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ وإنما نحن معبرون نخبرك به عنه عز وجل لا أنا نقوله من تلقاء أنفسنا، وروى أن جبريل عليه السلام قال لها : انظرى إلى سقف بيتك فنظرت فاذا جذوعه مورقة مثمرة ﴿ إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ٣٠ ﴾ فيكون قوله عز وجل حقاً وفعله سبحانه متقناً لا محالة، وهذه المفاوضة لم تكن مع سارة فقط بل كانت مع إبراهيم أيضاً حسبما تقدم فى سورة الحجر، وإنما لم يذكر ههنا اكتفاءاً بما ذكر هناك كما أنه لم يذكر هناك سارة اكتفاءاً بما ذكر - ههنا وفى سورة هود - *

﴿ قَالَ ﴾ أى إبراهيم عليه السلام لما علم أنهم ملائكة أرسلوا لأمر ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ أى شأنكم الخطير الذى لأجله أرسلتم سوى البشارة ﴿ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ٣١ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ٣٢ ﴾ يعنون قوم لوط عليه السلام ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى بعد قلب قراهم عاليها سافلها حسبما فصل فى سائر السور الكريمة

﴿ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ٣٣ ﴾ أى طين متحجر وهو السجيل؛ وفى تقييد كونها من طين رفع توهم كونها برداً فان بعض الناس يسمى البرد حجارة ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ معلمة من السومة وهى العلامة على كل واحدة منها اسم من يهلك بها؛ وقيل: أعلمت بأنها من حجارة العذاب، وقيل: بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا، وقيل: مسومة مرسلة من أسمت الابل فى المرعى، ومنه قوله تعالى: (ومنه شجر فيه تسيمون) ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أى فى محل ظهور قدرته سبحانه وعظمته عز وجل، والمراد إنها معلمة فى أول خلقها، وقيل: المعنى إنها فى علم الله تعالى معدة ﴿ لِلْمُسْرِفِينَ ٣٤ ﴾ المجاوزين الحد فى الفجور، وأل عند الامام للعهد أى لهؤلاء المسرفين، ووضع الظاهر موضع الضمير ذماً لهم بالاسراف بعد ذمهم بالاجرام، وإشارة إلى علة الحكم، وقوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ إلى آخره حكاية من جهته تعالى لما جرى على قوم لوط عليه السلام بطريق الاجمال بعد حكاية ماجرى بين الملائكة وبين إبراهيم عليهم السلام من الكلام، والفاء فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت ثقة بذكرها فى موضع آخر كأنه قيل: فقاموا منه وجاءوا لوطا فجرى بينهم وبينه ماجرى فباشروا ماأمروا به فأخرجنا بقولنا (فأسر باهلك) الخ ﴿ مَنْ كَانَ فِيهَا ﴾ أى فى قرى قوم لوط وإضمارها بغير ذكر لشهرتها * ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٣٥ ﴾ ممن آمن بلوط عليه السلام ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ ﴾ أى غير أهل بيت للبيان بقوله تعالى: ﴿ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٣٦ ﴾ فالكلام بتقدير مضاف، وجوز أن يراد بالبيت نفسه الجماعة مجازاً، والمراد بهم - كما أخرج ابن المنذر. وابن أبى حاتم - عن مجاهد لوط وابنتاه، واخرج ابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير أنه قال: كانوا ثلاثة عشر، واستدل بالآية على اتحاد الإيمان والإسلام للاستثناء المعنوى فان المعنى فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فلم يكن المخرج إلا أهل بيت واحد وإلا لم يستقم الكلام، وأنت تعلم أن هذا يدل على أنهما صادقان على الأمر الواحد لاينفك أحدهما عن الآخر كالناطق والانسان إما على الاتحاد فى المفهوم وهو المختلف فيه عند أهل الأصول والحديث فلا، فالاستدلال بها على اتحادهما فيه ضعيف، نعم تدل على أنهما صفتا مدح من أوجه عديدة استحقاق الاخراج واختلاف الوصفين وجعل كل مستقلا بأن يجعل سبب النجاة ومافى قوله تعالى: (من كان) أولا، و(غير بيت) ثانياً من الدلالة على المبالغة فان صاحبهما محفوظ (من كان) وأين كان إلى غير ذلك، ومعنى الوجدان منسوباً إليه تعالى العلم على ماقاله الراغب، وذهب بعض الأجلة إلى أنه لايقال: ماوجدت كذا إلا بعد الفحص والتفتيش، وجعل عليه معنى الآية فأخرج ملائكتنا (من كان فيها من المؤمنين) فماوجد ملائكتنا فيها (غير بيت من المسلمين) أو فى الكلام ضرب آخر من المجاز فلا تغفل *

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا ﴾ أى فى القرى ﴿ ءَايَةً ﴾ علامة دالة على ما أصابهم من العذاب، قال ابن جريج: هى أحجار كثيرة منضودة، وقيل: تلك الاحجار التى أهلكوا بها، وقيل: ماء منتن قال الشهاب: كانه بحيرة طبرية، وجوز أبو حيان كون ضمير (فيها) عائداً على الاهلاكة التى أهلكوها فانها من أعاجيب الاهلاك بجعل أعالى القرية أسافل، وإمطار الحجارة، والظاهر هو الأول ﴿ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٣٧ ﴾ أى من شأنهم أن يخافوه لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم دون من عداهم من ذوى القلوب القاسية فانهم لايعتدون بها

ولا يعدونها آية ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ ﴾ عطف على (وتركنا فيها) بتقدير عامل له أى وجعلنا فى موسى ، والجملة معطوفة على الجملة ، أو هو عطف على (فيها) بتغليب معنى عامل الآية، أو سلوك طريق المشاكلة فى عطفه على الاوجه التى ذكرها النحاة فى نحو ۞ علفتها تبناً وماءاً بارداً ۞ لا يصح تسليط الترك بمعنى الإبقاء على قوله سبحانه . (وفى موسى) فقول أبى حيان · لاحاجة إلى إضمار (تركنا) لانه قد أمكن العامل فى المجرور تركنا الاول فيه بحث ، وقيل : (فى موسى) خبر لمبتدأ محذوف أى (وفى موسى) آية ، وجوز ابن عطية وغيره أن يكون معطوفا على قوله تعالى (وفى الارض وما بينهما) اعتراض لتسليته عليه الصلاة والسلام على مامر، وتعقبه فى البحر بأنه بعيد جداً ينزه القرآن الكريم عن مثله ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ ﴾ قيل: بدل من (موسى)، وقيل. هو منصوب بآية ، وقيل · بمحذوف أى كائنة وقت إرسالنا ، وقيل: بتركنا ۞

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ٣٨ ﴾ هو ماظهر على يديه من المعجزات الباهرة، والسلطان يطلق على ذلك مع شموله للواحد والمتعدد لأنه فى الأصل مصدر ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ فأعرض عن الإيمان بموسى عليه السلام على أن ركنه جانب بدنه وعطفه، والتولى به كناية عن الإعراض ، والباء للتعدية لان معناه ثنى عطفه ، أو للملابسة ، وقال قتادة : تولى بقومه على أن الركن بمعنى القوم لأنه يركن إليهم ويتقوى بهم ، والباء للمصاحبة أو الملابسة وكونها للسببية غير وجيه ، وقيل: تولى بقوته وسلطانه ، والركن يستعار للقوة - كما قال الراغب -

وقرئ بركنه بضم الكاف اتباعا للراء ﴿ وَقَالَ سَـٰحِرٌ ﴾ أى هو ساحر ﴿ أَوْ مَجْنُونٌ ٣٩ ﴾ كأن اللعين جعل ماظهر على يديه عليه السلام من الخوارق العجيبة منسوبة إلى الجن وتردد فى أنه حصل باختياره فيكون سحراً ، أو بغير اختياره فيكون جنوناً ، وهذا مبنى على زعمه الفاسد وإلا فالسحر ليس من الجن كما بين فى محله - فأو - للشك ، وقيل : للإبهام ، وقال أبو عبيدة : هى بمعنى الواو لأن اللعين قال الامرين قال : (إن هذا لساحر عليم) وقال : (إن رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون) وأنت تعلم أن اللعين يتلون تلون الحرباء فلا ضرورة تدعو إلى جعلها بمعنى الواو ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ ﴾ طرحناهم غير معتدين بهم ﴿ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ فى البحر، والمراد فأغرقناهم فيه ، وفى الكلام من الدلالة على غاية عظم شأن القدرة الربانية ونهاية قمأة فرعون وقومه ما لا يخفى ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ٤٠ ﴾ أى آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان فالافعال هنا للاتيان بما يقتضى معنى ثلاثيه كأغرب إذا أتى أمراً غريباً ، وقيل : الصيغة للنسب ، أو الاسناد للسبب - وهو كما ترى - وكون الملام عليه هنا الكفر والطغيان هو الذى يقتضيه حال فرعون وهو مما يختلف باعتبار من وصف به فلا يتوهم أنه كيف وصف اللعين بما وصف به ذو النون عليه السلام ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا ﴾ على طرز ما تقدم ﴿ عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ٤١ ﴾ الشديد التى لا تلقح شيئا كما أخرجه جماعة عن ابن عباس وصححه الحاكم، وفى لفظ هى ريح لا بركة فيها ولا منفعة ولا ينزل منها غيث ولا يلقح بها شجر كأنه شبه عدم تضمن المنفعة بعقم المرأة فعيل بمعنى فاعل من اللازم وكون هذا المعنى لا يصح هنا مكابرة ، وقال بعضهم وهو حسن : سميت عقيما لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم على أن هناك استعارة تبعية شبه إهلاكهم وقطع دابرهم بعقم النساء وعدم

حملهن لما فيه من إذهاب النسل ثم أطلق المشبه به على المشبه واشتق منه العقيم ، وفعيل قيل : بمعنى فاعل أو مفعول ، وهذه الريح كانت الدبور لما صح من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » وأخرج الفريابي وابن المنذر عن علي كرم الله تعالى وجهه أنها النكباء ، وأخرج ابن جرير وجماعة عن ابن المسيب أنها الجنوب ، وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أنها الصبا، والمعول عليه ماذكرنا أولا ، ولعل الخبر عن الأمير كرم الله تعالى وجهه غير صحيح ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ ﴾ ماتدع شيئا ﴿ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾ جرت عليه ﴿ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ٤٢ ﴾ الشيء البالي من عظم ، أو نبات ، أو غير ذلك من رم الشيء بلي ، ويقال للبالي : رمام كغراب، وأرم أيضاً لكن قال الراغب: يختص الرم بالفتات من الخشب والتبن، والرمة بالكسر تختص بالعظم البالي، والرمة بالضم بالحبل البالي، وفسره السدي هنا بالتراب، وقتادة بالهشيم، وقطرب بالرماد ، وفسره ابن عيسى بالمنسحق الذي لا يرم أي لا يصلح كأنه جعل الهمزة في أرم للسلب ، والجملة بعد (إلا) حالية، والشيء هنا عام مخصوص أي من شيء أراد الله تعالى تدميره وإهلاكه من ناس، أو ديار . أو شجر، أو غير ذلك، روي أن الريح كانت تمر بالناس فيهم الرجل من عاد فتنتزعه من بينهم وتهلكه ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ٤٣ ﴾ أخرج البيهقي في سننه عن قتادة أنه ثلاثة أيام ـ وإليه ذهب الفراء . وجماعة ـ قال : تفسيره قوله تعالى: (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام) واستشكل بأن هذا التمتع مؤخر عن العتو لقوله تعالى : (فعقروها فقال تمتعوا) الخ ، وقوله تعالى : ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ يدل على أن العتو مؤخر، وأجيب بأن هذا مرتب على تمام القصة كأنه قيل : وجعلنا في زمان قولنا ذلك لثمود آية أو وفي زمان قولنا ذلك لثمود آية ، ثم أخذ في بيان كونه آية فقيل . (فعتوا عن أمر ربهم) أي فاستكبروا عن الامتثال به إلى الآخر، فالفاء للتفصيل قال في الكشف. وهو الظاهر من هذا المساق ، وكذلك قوله تعالى : (فتولى بركنه) مرتب على القصة زمان إرسال موسى عليه السلام بالسلطان ، وإن كان هناك لا مانع من الترتب على الارسال وذلك لأنه جيء بالظرف مجيء الفضلة حيث جعل فيه الآية ، والقصة من توليهم إلى هلاكهم انتهى ، وقال الحسن . هذا أي ـ القول لهم تمتعوا حتى حين ـ كان حين بعث إليهم صالح أمروا بالايمان بما جاء به ، والتمتع إلى أن تأتي آجالهم ـ ثم عتوا بعد ذلك ـ قال في البحر ، ولذلك جاء العطف بالفاء المقتضية تأخر العتو عما أمروا به فهو مطابق لفظاً ووجوداً واختاره الإمام فقال . قال بعض المفسرين . المراد بالحين الأيام الثلاثة التي أمهلوها بعد عقر الناقة وهو ضعيف لأن ترتب فعتوا بالفاء دليل على أن العتو كان بعد القول المذكور ، فالظاهر أنه ما قدر الله تعالى من الآجال فما من أحد إلا وهو ممهل مدة الأجل كأنه يقول له . تمتع إلى آخر أجلك فان أحسنت فقد حصل لك التمتع في الدارين وإلا فمالك في الآخرة من نصيب انتهى ، وما تقدم أبعد مغزى ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ أي أهلكتهم ، روي أن صالحا عليه السلام وعدهم الهلاك بعد ثلاثة أيام ، وقال لهم . تصبح وجوهكم غداً مصفرة . وبعد غد محمرة . واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب ، ولما رأوا الآيات التي بينها عليه السلام عمدوا إلى قتله فنجاه الله تعالى فذهب إلى أرض فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم الصاعقة وهي نار من السماء ، وقيل . صيحة منها فهلكوا ، وقرأ عمر . وعثمان رضي الله تعالى عنهما . والكسائي الصعقة

وهى المرة من الصعق بمعنى الصاعقة أيضا ، أوالصيحة ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ٤٤ ﴾ اليها ويعاينونها ويحتاج إلى تنزيل المسموع منزلة المبصر على القول بأن الصاعقة الصيحة وأن المراد ينظرون اليها ، وقال مجاهد: (ينظرون) بمعنى ينتظرون أى وهم ينتظرون الأخذ والعذاب فى تلك الايام الثلاثة التى رأوا فيها علاماته وانتظار العذاب أشد من العذاب ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُواْ من قِيَامٍ ﴾ كقوله تعالى: (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) وقيل: هو من قولهم: مايقوم فلان بكذا إذا عجز عن دفعه ، وروى ذلك عن قتادة فهو معنى مجازى ، أو كناية شاعت حتى التحقت بالحقيقة ﴿ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ٤٥ ﴾ بغيرهم كما لم يتمنعوا بأنفسهم ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ أى وأهلكنا قوم ، فان ماقبله يدل عليه ، أو واذكر ، وقيل : عطف على الضمير فى (فأخذتهم) ، وقيل : فى (فنبذناهم) لأن معنى كل فأهلكناهم - وهو كما ترى - وجوز أن يكون عطفاً على محل (وفى عاد) أو (وفى ثمود) وأيد بقراءة عبدالله . وأبى عمرو . وحمزة . والكسائى . وقوم بالجر ، وقرأ عبد الوارث . ومحبوب . والاصمعى عن أبى عمرو . وأبو السمال . وابن مقسم . وقوم بالرفع والظاهر أنه على الابتداء ، والخبر محذوف أى أهلكناهم ﴿ مِّن قَبْلُ ﴾ أى من قبل هؤلاء المهلكين ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ٤٦ ﴾ خارجين عن الحدود فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصى ﴿ وَالسَّمَاءَ ﴾ أى وبنينا السماء ﴿ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ أى بقوة قاله ابن عباس . ومجاهد . وقتادة ، ومثله -الآد- وليس جمع (يد) وجوزه الامام وإن صحت التورية به ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧ ﴾ أى لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة ، فالجملة تذييل إثباتا لسعة قدرته عز وجل كل شئ فضلا عن السماء ، وفيه رمز إلى التعريض الذى فى قوله تعالى : (وما مسنا من لغوب) ، وعن الحسن (لموسعون) الرزق بالمطر وكأنه أخذه من أن المساق مساق الامتنان بذلك على العباد لا لإظهار القدرة فكأنه أشير فى قوله تعالى : (والسماء بنيناها بأيد) إلى ماتقدم من قوله سبحانه : (وفى السماء رزقكم) على بعض الأقوال فناسب أن يتمم بقوله تعالى :(وإنا لموسعون) مبالغة فى المن ولايحتاج أن يفسر الأيد بالانعام على هذا القول لأنه يتم المقصود دونه ، واليد بمعنى النعمة لا الإنعام ، وقيل : أى لموسعوها بحيث أن الأرض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة اليها كحلقة فى فلاة ، وقيل : أى لجاعلون بينها وبين الأرض سعة ، والمراد السعة المكانية ، وفيه على القولين تتميم أيضا ﴿ وَالْأَرْضَ ﴾ أى وفرشنا الارض ﴿ فَرَشْنَاهَا ﴾ أى مهدناها وبسطناها لتستقروا عليها ولا ينافى ذلك شبهها للكرة على ما يزعمه فلاسفة العصر ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ٤٨ ﴾ أى نحن ، وقرأ أبو السمال . ومجاهد . وابن مقسم برفع السماء ورفع الأرض على أنهما مبتدآن وما بعدهما خبر لهما ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى من كل جنس من الحيوان ﴿ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ نوعين ذكراً وأنثى - قاله ابن زيد . وغيره - وقال مجاهد : هذا إشارة إلى المتضادات والمتقابلات كالليل . والنهار . والشقوة . والسعادة . والهدى . والضلال . والسماء . والأرض . والسواد . والبياض . والصحة . والمرض . إلى غير ذلك ، ورجحه الطبرى بأنه أدل على القدرة ، وقيل : أريد بالجنس

المنطقى ، وأقل مايكون تحته نوعان فخلق سبحانه من الجوهر مثلا المادى والمجرد ، ومن المادى النامى والجامد ، ومن النامى المدرك والنبات ، ومن المدرك الصامت والناطق وهو كما ترى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٤٩ ﴾ أى فعلنا ذلك كله كى تتذكروا فتعرفوا أنه عز وجل الرب القادر الذى لا يعجزه شئ فتعملوا بمقتضاه ولا تعبدوا ماسواه ، وقيل : خلقنا ذلك كى تتذكروا فتعلموا أن التعدد من خواص الممكنات وأن الواجب بالذات سبحانه لا يقبل التعدد والانقسام ، وقيل : المراد التذكر بجميع ماذكر لامر الحشر والنشر لأن من قدر على إيجاد ذلك فهو قادر على إعادة الاموات يوم القيامة وله وجه ، وقرأ أبى « تتذكرون » بتاءين وتخفيف الذال ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ تفريع على قوله سبحانه : (لعلكم تذكرون) وهو تمثيل للاعتصام به سبحانه وتعالى وبتوحيده عز وجل ، والمعنى قل يا محمد : (ففروا إلى الله) لمكان ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ ﴾ أى من عقابه تعالى المعد لمن لم يفر إليه سبحانه ولم يوحده ﴿ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٥٠ ﴾ بين كونه منذراً من الله سبحانه بالمعجزات ، أو (مبين) ما يجب أن يحذر عنه *

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ عطف على الأمر ، وهو نهى عن الإشراك صريحاً على نحو وحدوه ولا تشركوا ، ومن الأذكار المأثورة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وكرر قوله تعالى :

﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٥١ ﴾ لاتصال الأول بالأمر واتصال هذا بالنهى والغرض من كل ذلك الحث على التوحيد والمبالغة فى النصيحة ، وقيل : إن المراد بقوله تعالى : (ففروا إلى الله) الأمر بالإيمان وملازمة الطاعة ، وذكر (ولا تجعلوا) الخ ، إفراداً لأعظم ما يجب أن يفر منه ، و (إنى لكم) الخ ، الأول مرتب على ترك الايمان والطاعة ، والثانى على الإشراك فهما متغايران لتغاير ماترتب كل منهما عليه ووقع تعليلا له ولا يخلو عن كدر ، وقال الزمخشرى : فى الآية : (فروا إلى) طاعته وثوابه من معصيته وعقابه ووحدوا ولا تشركوا به ، وكرر (إنى لكم) الخ عند الأمر بالطاعة والنهى عن الشرك ليعلم أن الايمان لا ينفع إلا مع العمل كما أن العمل لا ينفع إلا مع الايمان وأنه لا يفوز عند الله تعالى إلا الجامع بينهما انتهى ، وفيه أنه لا دلالة فى الآية على ذلك بوجه ثم تفسير الفرار إلى الله بما فسره أيضاً لينطبق على العمل وحده غير مسلم على أنه لو سلم الانذار بترك العمل فمن أين يلزم عدم النفع ، وأهل السنة لا ينازعون فى وقوع الانذار بارتكاب المعصية ، فالمنساق إلى الذهن على تقدير كون المراد بالفرار إلى الله تعالى العبادة أنه تعالى أمر بها أولا وتوعد تاركها بالوعيد المعروف له فى الشرع وهو العذاب دون خلود ، ونهى جل شأنه ثانياً أن يشرك بعبادته سبحانه غيره وتوعد المشرك بالوعيد المعروف له وهو الخلود ، وعلى هذا يكون الوعيدان متغايرين وتكون الآية فى تقديم الأمر على النهى فيها نظير قوله تعالى : (فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) ، وقوله سبحانه : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) وأين هذا مما ذكره الزمخشرى عامله الله تعالى بعدله *

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى الأمر مثل ذلك تقرير وتوكيد على ما مر غير مرة ، ومن فصل الخطاب لأنه لما أراد سبحانه أن يستأنف قصة قولهم المختلف فى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن تقدمت عموماً أو خصوصاً فى قوله تعالى : (إنكم لفى قول مختلف) وكان قد توسط ما توسط قال سبحانه : الأمر كذلك أى مثل ما يذكر ويأتيك

خبره إشارة إلى الكلام الذى يتلوه أعنى قوله عز وجل : ﴿ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ إلى آخره فهو تفسير ماأجمل وهو مراد من قال: الإشارة إلى تكذيبهم الرسول عليه الصلاة و السلام وتسميتهم إياه وحاشاه ساحراً ومجنوناً ، ويعلم بماذكر أن كذلك خبر مبتدأ محذوف ولا يجوز نصبه بأتى على أنه صفة لمصدره ، والإشارة إلى الإتيان أى (ماأتى الذين من قبلهم) من رسول إتياناً مثل إتيانهم (إلاقالوا) إلخ لأن مابعد (ما) النافية لا يعمل فيما قبلها على المشهور ، ولا يأتى مقدراً على شريطة التفسير لأن مالا يعمل لا يفسر عاملا فى مثل ذلك كما صرح به النحاة ، وجعله معمولا لقالوا، والإشارة للقول أى إلا قالوا ساحر أو مجنون قولا مثل ذلك القول لا يجوز أيضاً على تعسفه لمكان (ما) وضمير قبلهم لقريش أى ماأتى الذين من قبل قريش ﴿ مِّن رَّسُولٍ ﴾ أى رسول من رسل الله تعالى ﴿ إِلَّا قَالُوا ﴾ فى حقه ﴿ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ٥٢ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هو ساحر، و ـ أو ـ قيل : من الحكاية أى (إلا قالوا ساحر)، أو (قالوا مجنون) وهى لمنع الخلو وليست من المحكى ليكون مقول كل مجموع (ساحر أو مجنون) وفى البحر هى للتفصيل أى قال بعض: ساحر؛ وقال بعض: مجنون، وقال بعض: ساحر و مجنون لجمع القائلون فى الضمير ودلت ـ أو ـ على التفصيل انتهى فلا تغفل *

واستشكلت الآية بأنها تدل على أنه مامن رسول إلا كذب مع أن الرسل المقررين شريعة من قبلهم كيوشع عليه السلام لم يكذبوا وكذا آدم عليه السلام أرسل ولم يكذب . وأجاب الامام بقوله : لانسلم أن المقرر رسول بل هو نبى على دين رسول ومن كذب رسوله فهو يكذبه أيضاً وتعقب بأن الأخبار وكذا الآيات دالة على أن المقررين رسل، وأيضا يبقى الاستشكال بآدم عليه السلام وقد اعترف هو بأنه أرسل ولم يكذب وأجاب بعض عن الاستشكال بالمقررين بأن الآية إنما تدل على أن الرسل الذين أتوا من قبلهم كلهم قد قيل فى حقهم ما قيل، ولا يدخل فى عموم ذلك المقررون لان المتبادر من إتيان الرسول قوما مجيئه إياهم مع عدم تبليغ غيره إياهم ماأتى به من قبله وذلك لم يحصل للمقرر شرع من قبله كما لا يخفى ، وعن الاستشكال بآدم عليه السلام بأن المراد ـ ماأتى الذين من قبلهم من الامم الذين كانوا موجودين على نحو وجود هؤلاء رسول إلا قالوا ـ الخ ، وآدم عليه السلام لم يأت أمة كذلك إذ لم يكن حين أرسل إلا زوجته حواء ، ولعله أولى مما قيل : إن المراد من رسول من بنى آدم فلا يدخل هو عليه السلام فى ذلك، واستشكلت أيضا بأن (إلاقالوا) يدل على أنهم كلهم كذبوا مع أنه ما من رسول إلا آمن به قوم، وأجاب الامام بأن إسناد القول إلى ضمير الجمع على إرادة الكثير بل الأكثر ، وذكر المكذب فقط لأنه الأوفق بغرض التسلية ،وأخذ منه بعضهم الجواب عن الاستشكال السابق فقال :الحكم باعتبار الغالب لأن كل أمة من الامم أتاها رسول فكذبته ليرد آدم والمقررون حيث لم يكذبوا ـ وفيه مافيه ـ وحمل بعضهم الذين من قبلهم على الكفار ودفع به الاستشكالين ـ وفيه مالا يخفى ـ فتأمل جميع ذلك ولا تظن انحصار الجواب فيما سمعت فأمعن النظر والله تعالى الهادى لأحسن المسالك ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ تعجيب من إجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة أى كأن الاولين والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول حتى قالوه جميعاً ، وقيل : إنكار للتواصي أى ماتواصوا به *

﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ٥٣ ﴾ إضراب عن أن التواصي جامعهم إلى أن الجامع لهم على ذلك القول مشار كتهم فى الطغيان الحامل عليه *

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عن جدالهم فقد كررت عليهم الدعوة ولم تأل جهداً فى البيان فأبوا إلا إباءاً وعناداً ﴿ فَمَا أَنْتَ بِمَلُوم ٥٤ ﴾ على التولى بعد مابذلت المجهود وجاوزت فى الابلوغ كل حد معهود *

﴿ وَذَكِّرْ ﴾ آدم على فعل التذكير والموعظة ولاتدع ذلك فالأمر بالتذكير للدوام عليه والفعل منزل منزلة اللازم ، وجوز أن يكون المفعول محذوفا أى فذكرهم وحذف لظهور الامر *

﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ٥٥ ﴾ أى الذين قدر الله تعالى إيمانهم ، أو المؤمنين بالفعل فإنها تزيدهم بصيرة وقوة فى اليقين ، وفى البحر يدل ظاهر الآية على الموادعة وهى منسوخة بآية السيف ، وأخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله تعالى : (فتول عنهم) الخ ، قال: أمره الله تعالى أن يتولى عنهم ليعذبهم وعذر محمداً ﷺ ثم قال سبحانه : (وذكر) الخ فنسختها *

وأخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم . والبيهقى فى الشعب . والضياء فى المختارة . وجماعة من طريق مجاهد عن على كرم الله تعالى وجهه قال : لما نزلت (فتول عنهم فما أنت بملوم) لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة إذ أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتولى عنا فنزلت (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) فطابت أنفسنا ، وعن قتادة أنهم ظنوا أن الوحى قد انقطع وأن العذاب قد حضر فأنزل الله تعالى (وذكر) الخ *

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦ ﴾ استئناف مؤكد للامر مقرر لمضمون تعليله فان خلقهم للذكر سبحانه وتعالى بمايدعوه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى تذكيرهم ويوجب عليهم التذكر والاتعاظ ، ولعل قديم الجن فى الذكر لتقدم خلقهم على خلق الانس فى الوجود ، والظاهر أن المراد من يقابلون بهم وبالملائكة عليهم السلام ولم يذكر هؤلاء قيل : لأن الامر فيهم مسلم ، أو لأن الآية سيقت لبيان صنيع المكذبين حيث تركوا عبادة الله تعالى وقد خلقوا لها ؛ وهذا الترك مما لا يكون فيهم بل هم عباد مكرمون لا يستكبرون عن عبادته عز وجل ، وقيل : لانه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس مبعوثاً اليهم فليس ذكرهم فى هذا الحكم بمايدعوه عليه الصلاة والسلام إلى تذكيرهم ، وأنت تعلم أن الاصح عموم البعثة فالاولى ماقيل بدله لاستغنائهم عن التذكير والموعظة ، وقيل : المراد بالجن مايتناولهم لانه من الاستتار وهم مستترون عن الانس ، وقيل : لايصح ذكرهم فى حيز الخلق لانهم كالأرواح من عالم الأمر المقابل لعالم الخلق، وقد أشير اليهما بقوله تعالى : (له الخلق والامر) ورد بقوله سبحانه : (خالق كل شئ وله الخلق والامر) ليس كما ظن والعبادة غاية التذلل ، والظاهر أن المراد بها ماكانت بالاختيار دون التى بالتسخير الثابتة لجميع المخلوقات وهى الدلالة المنبهة على كونها مخلوقة وأنها خالق فاعل حكيم ، ويعبر عنها بالسجود كما فى قوله تعالى : (والنجم والشجر يسجدان) وأل فى الجن والانس على المشهور للاستغراق ، واللام قيل : للغاية والعبادة وإن لم تكن غاية مطلوبة من الخلق لقيام الدليل على أنه عز وجل لم يخلق الجن والانس لاجلها أى لارادتها منهم إذ لو أرادها سبحانه منهم لم يتخلف ذلك لاستلزام

الإرادة الالهية للمراد كما بين فى الاصول مع أن التخلف محقق بالمشاهدة، وأيضا ظاهر قوله تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس) يدل على إرادة المعاصى من الكثير ليستحقوا بها جهنم فينافى إرادة العبادة لكن لما كان خلقهم على حالة صالحة للعبادة مستعدة لها حيث ركب سبحانه فيهم عقولا وجعل لهم حواس ظاهرة وباطنة إلى غير ذلك من وجوه الاستعداد جعل خلقهم مغياً بها مبالغة بتشبيه المعد له الشئ بالغاية ومثله شائع فى العرف ، ألا تراهم يقولون للقوى جسمه : هو مخلوق للمصارعة ، وللبقر : هى مخلوقة للحرث *

وفى الكشف أن أفعاله تعالى تنساق إلى الغايات الكمالية واللام فيها موضوعها ذلك ، وأما الارادة فليست من مقتضى اللام إلا إذا علم أن الباعث مطلوب فى نفسه وعلى هذا لا يحتاج إلى تأويل فانهم خلقوا بحيث يتأتى منهم العبادة وهدوا اليها وجعلت تلك غاية كمالية لخلقهم ، وتعوق بعضهم عن الوصول اليها لا يمنع كون الغاية غاية ، وهذا معنى مكشوف انتهى . فتأمل ، وقيل : المراد بالعبادة التذلل والخضوع بالتسخير ، وظاهر أن الكل عابدون إياه تعالى بذلك المعنى لا فرق بين مؤمن ، وكافر ، وبر ، وفاجر ، ونحوه ماقيل : المعنى ماخلقت الجن والإنس إلا ليذلوا لقضائى ، وقيل : المعنى ماخلقتهم إلا ليكونوا عباداً لى ، ويراد بالعبد العبد بالايجاد وعموم الوصف عليه ظاهر لقوله تعالى : (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) لكن قيل عليه : إن عبد بمعنى صار عبداً ليس من اللغة فى شىء ، وقيل : العبادة بمعنى التوحيد بناءاً على ما روى عن ابن عباس أن كل عبادة فى القرآن فهو توحيد فالكل يوحدونه تعالى فى الآخرة أما توحيد المؤمن فى الدنيا هناك فظاهر ، وأما توحيد المشرك فيدل عليه قوله تعالى : (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) وعليه قول من قال : لا يدخل النار كافر ، أو المراد كما قال الكلبي : إن المؤمن يوحده فى الشدة والرخاء والكافر يوحده سبحانه فى الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء ، كما قال عزوجل : (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) ولا يخفى بعد ذلك عن الظاهر والسياق ، ونقل عن على كرم الله تعالى وجهه ، وابن عباس رضى الله تعالى عنهما ما خلقتهم إلا لآمرهم وأدعوهم للعبادة فهو كقوله تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله) فذكر العبادة المسببة شرعاً عن الأمر أو اللازمة له ، وأريد سببها أو ملزومها فهو مجاز مرسل ، وأنت تعلم أن أمر كل من أفراد الجن وكل من أفراد الإنس غير متحقق لاسيما إذا كان غير المكلفين كالأطفال الذين يموتون قبل زمان التكليف داخلين فى العموم ، وقال مجاهد : إن معنى (ليعبدون) ليعرفون وهو مجاز مرسل أيضاً من إطلاق اسم السبب على المسبب على ما فى الإرشاد ، ولعل السر فيه التنبيه على أن المعتبر هى المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة قيل : وهو حسن لأنهم لو لم يخلقهم عز وجل لم يعرف وجوده وتوحيده سبحانه وتعالى ، وقد جاء «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف» وتعقب بأن المعرفة الصحيحة لم تتحقق فى كل بل بعض قد أنكر وجوده عز وجل كالطبيعيين اليوم فلا بد من القول السابق فى توجيه التعليل ثم الخبر بهذا اللفظ ذكره سعد الدين سعيد الفرغانى فى منتهى المدارك ، وذكر غيره كالشيخ الأكبر فى الباب المائة والثمانية والتسعين من الفتوحات بلفظ آخر وتعقبه الحفاظ فقال ابن تيمية : إنه ليس من كلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف ، وكذا قال الزركشي والحافظ ابن حجر . وغيرهما : ومن

يرويه من الصوفية معترف بعدم ثبوته نقلا لكن يقول : إنه ثابت كشفاً ، وقد نص على ذلك الشيخ الأكبر قدس سره فى الباب المذكور ، والتصحيح الكشفى شنشنة لهم ، ومع ذلك فيه إشكال معنى إلا أنه أجيب عنه ثلاث أجوبة ستأتى إن شاء الله تعالى ، وقيل : أل فى (الجن والانس) للعهد ، والمراد بهم المؤمنون لقوله تعالى : (ولقد ذرأنا) الآية أى بناءاً على أن اللام فيها ليست للعاقبة ، ونسب هذا القول لزيد بن أسلم . وسفيان ، وأيد بقوله تعالى قبل : (فان الذكرى تنفع المؤمنين) وأيده فى البحر برواية ابن عباس عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين » ورواها بعضهم قراءة لابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، ومن الناس من جعلها للجنس ، وقال . يكفى فى ثبوت الحكم له ثبوته لبعض أفراده وهو هنا المؤمنون الطائعون وهو فى المآل متحد مع سابقه ، ولا إشكال على ذلك فى جعل اللام للغاية المطلوبة حقيقة وكذا فى جعلها للغرض عند من يجوز تعليل أفعاله تعالى بالأغراض مع بقاء الغنى الذاتى وعدم الاستكمال بالغير ـ كما ذهب اليه كثير من السلف ، والمحدثين ـ وقد سمعت أن منهم من يقسم الارادة إلى شرعية تتعلق بالطاعات وتكوينية تتعلق بالمعاصى وغيرها ، وعليه يجوز أن يبقى (الجن والإنس) على شمولهما للعاصين ، ويقال : إن العبادة مرادة منهم أيضاً لكن بالارادة الشرعية إلا أنه لايتم إلا إذا كانت هذه الارادة لاتستلزم وقوع المراد كالارادة التفويضية القائل بها المعتزلة *

هذا وإذا أحطت خبراً بالأقوال فى تفسير هذه الآية هان عليك دفع مايتراءى من المنافاة بينها وبين قوله تعالى : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) على تقدير كون الاشارة إلى الاختلاف بالتزام بعض هاتيك الأقوال فيها ، ودفعه بعضهم بكون اللام فى تلك الآية للعاقبة والذى ينساق إلى الذهن أن الحصر إضافى أى خلقتهم للعبادة دون ضدها أو دون طلب الرزق والاطعام على مايشير اليه كلام بعضهم أخذاً من تعقيب ذلك بقوله سبحانه : ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ٥٧ ﴾ وهو لبيان أن شأنه تعالى شأنه مع عباده ليس كشأن السادة مع عبيدهم لأنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم وأرزاقهم ، ومالك ملاك العبيد نفى عز وجل أن يكون ملكه إياهم لذلك فكأنه قال سبحانه : ماأريد أن أستعين بهم كما يستعين ملاك العبيد بعبيدهم فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتى ، وذكر الامام فيه وجهين : الأول أن يكون لدفع توهم الحاجة من خلقهم للعبادة ، والثانى أن يكون لتقرير كونهم مخلوقين لها ، وبين هذا بأن الفعل فى العرف لا بد له من منفعة لكن العبيد على قسمين : قسم يتخذون لاظهار العظمة بالمثول بين أيادى ساداتهم وتعظيمهم إياهم كعبيد الملوك ، وقسم يتخذون للانتفاع بهم فى تحصيل الأرزاق أو لاصلاحها ، فكأنه قال سبحانه : إنى خلقتهم ولا بد فيهم من منفعة فليتفكروا فى أنفسهم هل هم من قبيل أن يطلب منهم تحصيل رزق وليسوا كذلك فما أريد منهم من رزق ، وهل هم ممن يطلب منهم إصلاح قوت كالطباخ ومن يقرب الطعام ؟ وليسوا كذلك (فما أريد أن يطعمون) فاذا هم عبيد من القسم الأول ، فينبغى أن لايتركوا التعظيم ، والظاهر أن المعنى ما أريد منهم من رزق لى لمكان قوله سبحانه : (وما أريد أن يطعمون) واليه ذهب الامام ، وذكر فى الآية لطائف : الاولى أنه سبحانه كرر نفى الارادتين لان السيد قد يطلب من العبد التكسب له وهو طلب الرزق وقد لا يطلب حيث كان له مال وافر لكنه يطلب قضاء

حوائجه من حفظ المال وإحضار الطعام من ماله بين يديه، فنفى الارادة الاولى لا يستلزم نفى الارادة الثانية فكرر النهى على معنى لا أريد هذا ولا أريد ذلك ، الثانية أن ترتيب النفيين كما تضمنه النظم الجليل من باب الترقى فى بيان غناه عز وجل كأنه قال سبحانه : لا أطلب منهم رزقاً ولا ماهو دون ذلك وهو تقديم الطعام بين يدى السيد فان ذلك أمر كثيراً ما يطلب من العبيد إذا كان التكسب لا يطلب منهم ، الثالثة أنه سبحانه قال: ما أريد منهم من رزق دون ما أريد منهم أن يرزقون لان التكسب لطلب العين لا الفعل ، وقال سبحانه : (ما أريد أن يطعمون) دون ما أريد من طعام لأن ذلك للإشارة الى الاستغناء عما يفعله العبد الغير المأمور بالتكسب كعبد وافر المال والحاجة اليه للفعل نفسه ، الرابعة أنه جل وعلا خص الاطعام بالذكر لأن أدنى درجات الاستعانة أن يستعين السيد بعبده فى تهيئة أمر الطعام ونفى الأدنى يتبعه نفى الأعلى بطريق الأولى فكأنه قيل : ما أريد منهم من عين ولا عمل ، الخامسة أن (ما) لنفى الحال إلا أن المراد به الدنيا وتعرض له دون نفى الاستقبال لأن من المعلوم البين أن العبد بعد موته لا يصلح أن يطلب منه رزق أو إطعام انتهى ، فتأمله *

ويفهم من ظاهر كلام الزمخشرى أن المعنى ما أريد منهم من رزق لى ولهم ، وفى البحر ما أريد منهم من رزق أى أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم (وما أريد أن يطعمون) أى أن يطعموا خلقى فهو على حذف مضاف قاله ابن عباس انتهى ، ونحوه ماقيل : المعنى ما أريد أن يرزقوا أحداً من خلقى ولا أريد أن يطعموه ، وأسند الإطعام إلى نفسه سبحانه لأن الخلق كلهم عيال الله تعالى . ومن أطعم عيال أحد فكأنما أطعمه ، وفى الحديث « ياعبدى مرضت فلم تعدنى وجعت فلم تطعمنى » فانه كما يدل عليه آخره على معنى مرض عبدى فلم تعده وجاع فلم تطعمه ، وقيل : الآية مقدرة بقل فتكون بمعنى قوله سبحانه : (قل لا أسألكم عليه أجراً) والغيبة فيها رعاية للحكاية إذ فى مثل ذلك يجوز الأمران الغيبة والخطاب ، وقد قرئ بهما فى قوله تعالى : (قل للذين كفروا ستغلبون) ، وقيل : المراد قل لهم وفى حقهم فتلائمه الغيبة فى (منهم) و (يطعمون) ولا ينافى ذلك قراءة ـ أنى أنا الرزاق ـ فيما بعد لانه حينئذ تعليل للأمر بالقول ، أو الائتمار لا لعدم الارادة ، نعم لاشك فى أنه قول بعيد جداً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ الذى يرزق كل مفتقر إلى الرزق لا غيره سبحانه استقلالا ، أو اشتراكا و يفهم من ذلك استغناؤه عز وجل عن الرزق ﴿ ذُو ٱلْقُوَّةِ ﴾ أى القدرة ﴿ ٱلْمَتِينُ ٥٨ ﴾ شديد القوة ، والجملة تعليل لعدم الارادة قال الامام : كونه تعالى هو الرزاق ناظر إلى عدم طلب الرزق لأن من يطلبه يكون فقيراً محتاجا ، وكونه عز وجل هو ذو القوة المتين ناظر إلى عدم طلب العمل المراد من قوله سبحانه: (وما أريد أن يطعمون) لأن من يطلبه يكون عاجزاً لاقوة له فكأنه قيل : ما أريد منهم من رزق لأنى أنا الرزاق وما أريد منهم من عمل لأنى قوى متين ، وكان الظاهر ـ أنى أنا الرزاق ـ كما جاء فى قراءة له ﷺ لكن التفت إلى الغيبة ، والتعبير بالاسم الجليل لاشتهاره بمعنى المعبودية فيكون فى ذلك إشعار بعلة الحكم ولتخرج الآية مخرج المثل كما قيل ذلك فى قوله تعالى : (إن الباطل كان زهوقاً) والتعبير به على القول بتقدير قل فيما تقدم هو الظاهر ، وتحتاج القراءة الاخرى إلى ما ذكرناه آنفا ، وآثر سبحانه ذو القوة على القوى قيل : لأن فى (ذو) كما قال ابن حجر الهيتمى وغيره تعظيم ما أضيفت اليه ، والموصوف بها والمقام يقتضيه ولذا جئ

بالمتين بعد ولم يكتف به عن الوصف بالقوة ؛ وقال الامام : لما كان المقصود تقرير ماتقدم من عدم إرادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير جئ بوصف الرزق على صيغة المبالغة لأنه بدونها لا يكفى فى تقرير عدم إرادة الرزق وبوصف القوة بما لامبالغة فيه لكفايته فى تقرير عدم الاستعانة فان من له قوة دون الغاية لا يستعين بغيره لكن لما لم يدل ذو القوة على أكثر من أن له تعالى قوة (ما) زيد الوصف بالمتين وهو الذى له ثبات لا يتزلزل ، ثم قال: إن القوى أبلغ من ذى القوة والعزة أكمل من المتانة وقد قرن الأكمل بالأكمل وما دونه بما دونه فى قوله تعالى:(ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز) وفى قوله تعالى : (إن الله هو الرزاق) الخ لما اقتضى المقام ذلك ، وقد أطال الكلام فى هذا المقام وما أظنه يصفو عن كدر ، وقرأ ابن محيصن ـ الرازق ـ بزنة الفاعل ، وقرأ الاعمش ، وابن وثاب ـ المتين ـ بالجر ، وخرج على أنه صفة القوة ، وجاز ذلك مع تذكيره لتأويلها بالاقتدار أو لكونه على زنة المصادر التى يستوى فيها المذكر والمؤنث ، أو لاجرائه مجرى فعيل بمعنى مفعول ، وأجاز أبو الفتح أن يكون صفة ـ لذو ـ وجر على الجوار ـ كقولهم هذا جحر ضب خرب ـ وضعف

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى إذا ثبت أن الله تعالى ماخلق الجن والانس إلا ليعبدوه وأنه سبحانه مايريد منهم من رزق إلى آخر ماتقدم فان للذين ظلموا أنفسهم باشتغالهم بغير ماخلقوا له من العبادة وإشراكهم بالله عز وجل وتكذيبهم رسوله عليه الصلاة والسلام وهم أهل مكة وأضرابهم من كفار العرب ﴿ ذَنُوبًا ﴾ أى نصيبا من العذاب ﴿ مِّثْلَ ذَنُوبِ ﴾ أى نصيب ﴿ أَصْحَـٰبِهِمْ ﴾ أى نظرائهم من الامم السالفة ، وأصل الذنوب الدلو العظيمة الممتلئة ماءاً أو القريبة من الامتلاء ، قال الجوهرى : ولا يقال لها ذنوب وهى فارغة ، وهى تذكر وتؤنث وجمعها أذنبة وذنائب فاستعيرت للنصيب مطلقاً شراً كان كالنصيب من العذاب فى الآية ، أو خيراً كما فى العطاء فى قول علقمة بن عبدة التميمى يمدح الحرث بن أبى شمر الغسانى وكان أسر أخاه شأسا يوم عين أباغ :

وفى كل حى قد خبطت بنعمة فحق لشأس من نداك (ذنوب)

يروى أن الحرث لما سمع هذا البيت قال نعم وأذنبة (١) ومن استعمالها فى النصيب قول الآخر :

لعمرك والمنايا طارقات لكل بنى أب منها (ذنوب)

وهو استعمال شائع ، وفى الكشاف هذا تمثيل أصله فى السقاة يقتسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب قال الراجز :

إنا إذا نازلنا غريب له (ذنوب) ولنا (ذنوب) وإن أبيتم فلنا القليب

﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ٥٩ ﴾ أى لا يطلبوا منى أن أعجل فى الاتيان به يقال استعجله أى حثه على العجلة وطلبها منه ، ويقال: استعجلت كذا أن طلبت وقوعه بالعجلة ، ومنه قوله تعالى : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وهو على مافى الارشاد جواب لقولهم : (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

---

(١) « شأس » هو جد علقمة بن عبيدة مدح بهذه القصيدة الحرث بن أبى شمر الغسانى لما كان عنده أسيراً فأمر باطلاقه وجميع أسرى بنى تميم و « الخابط » الطالب ، ومعنى البيت أنت الذى أنعمت على كل حى بنعمة واستحق نداك ذنوباً اه إدارة الطباعة

أى فويل لهم، ووضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بما فى حيز الصلة من الكفر وإشعاراً بعلة الحكم، والفاء لترتيب ثبوت الويل لهم على أن لهم عذاباً عظيما كما أن الفاء التى قبلها لترتيب النهى عن الاستعجال على ذلك، و (مِنْ) فى قوله سبحانه: ﴿ من يَوْمِهِمُ الَّذى يُوعَدُونَ ٦٠ ﴾ للتعليل؛ والعائد على الموصول محذوف أى يوعدونه أو يوعدون به على قول، والمراد بذلك اليوم قيل: يوم بدر، ورجح بأنه الأوفق لما قبله من حيث أنه ذنوب من العذاب الدنيوى، وقيل: يوم القيامة، ورجح بأنه الأنسب لما فى صدر السورة الكريمة الآتية، والله تعالى أعلم.

ومما قاله بعض أهل الاشارة فى بعض الآيات: (والذاريات ذرواً) إشارة إلى الرياح التى تحمل أنين المشتاقين المتعرضين لنفحات الألطاف إلى ساحات العزة، ثم تأتى بنسيم نفحات الحق إلى مشام المحبين فيجدون راحة مامن غلبات اللوعة (فالحاملات وقراً) إشارة إلى سحائب ألطاف الألوهية تحمل أمطار مراحم الربوبية فتمطر على قلوب الصديقين (فالجاريات يسراً) إشارة إلى سفن أفئدة المحبين تجرى برياح العناية فى بحر التوحيد على أيسر حال (فالمقسمات أمراً) إشارة إلى الملائكة النازلين من حظائر القدس بالبشائر والمعارف على قلوب أهل الاستقامة، وإن شئت جعلت الكل إشارة إلى أنواع رياح العناية فمنها مايطير بالقلوب فى جو الغيوب، وقد قال العاشق المجازى:

خذا من صبا نجد أماناً لقلبه ... فقد كاد رياها يطير بلبه
وإيا كما ذاك النسيم فانه ... متى هب كان الوجد أيسر خطبه

ومنها (الحاملات وقراً) دواء قلوب العاشقين كما قيل:

أيا جبلى نعمان بالله خليا ... نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها
أجد بردها أو تشف منى حرارة ... على كبد لم يبق إلا صميمها
فان الصبا ريح إذا ماتنسمت ... على نفس مهموم تجلت همومها

ومنها (الجاريات) من مهاب حضرات القدس إلى أفئدة أهل الانس بسهولة لتنعش قلوبهم، ومنها (المقسمات) ماجاءت به مما عبق بها من آثار الحضرة الالهية على نفوس المستعدين حسب استعداداتهم وإن شئت قلت غير ذلك فالباب واسع (والسماء ذات الحبك) إشارة إلى سماء القلب فانها ذات طرائق إلى الله عز وجل (إن المتقين فى جنات وعيون) إشارة إلى جنات الوصال وعيون الحكمة (وبالأسحار هم يستغفرون) يطلبون غفر أى ستر وجودهم بوجود محبوبهم، أو يطلبون غفران ذنب رؤية عبادتهم من أول الليل إلى السحر (ومن كل شىء خلقنا زوجين) إشارة إلى أن جميع ما يرى بارزاً من الموجودات ليس واحداً وحدة حقيقية بل هو مركب ولا أقل من كونه مركباً من الامكان، وشىء آخر فليس الواحد الحقيقى إلا الله تعالى الذى حقيقته سبحانه إنيته (ففروا الى الله) بترك ما سواه عز وجل (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) أى ليعرفون، وهو عندهم إشارة إلى ما صححوه كشفاً من روايته صلى الله تعالى عليه وسلم عن ربه سبحانه أنه قال: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف» وفى كتاب الأنوار السنية للسيد نور الدين السمهودى بلفظ «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت هذا الخلق ليعرفونى فبي عرفونى» وفى المقاصد الحسنة للسخاوى بلفظ «كنت كنزاً لا أعرف فخلقت خلقاً فعرفتهم بى

فعرفونى »إلى غير ذلك،وهو مشكل لأن الخفاء أمر نسبي فلا بد فيه من مخفي ومخفى عنه فحيث لم يكن خلق لم يكن مخفى عنه فلا يتحقق الخفاء،وأجيب أولا بأن الخفاء عن الأعيان الثابتة لأن الأشياء فى ثبوتها لا إدراك لها وجوديا فكان الله سبحانه مخفياً عنها غير معروف لها معرفة وجودية ـ فأحب أن يعرف معرفة حادثة من موجود حادث ـ فخلق الخلق لأن معرفتهم الوجودية فرع وجودهم فتعرف سبحانه إليهم بأنواع التجليات على حسب تفاوت الاستعدادات فعرفوا أنفسهم بالتجليات فعرفوا الله تعالى من ذلك فبه سبحانه عرفوه،وثانيا بأن المراد بالخفاء لازمه وهو عدم معرفة أحد به جل وعلا ، ويؤيده مافى لفظ السخاوى من قوله: لا أعرف بدل مخفياً ، وثالثاً بأن مخفيا بمعنى ظاهراً من أخفاه أى أظهره على أن الهمزة للازالة أى أزال خفاءه،وترتيب قوله سبحانه: « فأحببت أن أعرف » الخ عليه باعتبار أن الظهور متى كان قوياً أوجب الجهالة بحال الظاهر فخلق سبحانه الخلق ليكونوا كالحجاب فيتمكن معه من المعرفة ، ألا يرى أن الشمس لشدة ظهورها لا تستطيع أكثر الابصار الوقوف على حالها إلا بواسطة وضع بعض الحجب بينها وبينها وهو كما ترى لايخلو عن بحث ، وأما إطلاق الكنز عليه عز وجل فقد ورد ، روى الديلمى فى مسنده عن أنس مرفوعا كنز المؤمن ربه أى فان منه سبحانه كل مايناله من أمر نفيس فى الدارين ، والشيخ محيي الدين قدس سره ذكر فى معنى الكنز غير ذلك فقال فى الباب الثلثمائة والثمانية والخمسين من فتوحاته : لولم يكن فى العالم من هو على صورة الحق ماحصل المقصود من العلم بالحق أعنى العلم الحادث فى قوله : « كنت كنزاً » الخ فجعل نفسه كنزاً ، والكنز لا يكون إلا مكتنزاً فى شئ فلم يكن كنز الحق نفسه إلا فى صورة الانسان الكامل فى شيئية ثبوته هناك كان الحق مكنوزاً فلما ألبس الحق الانسان ثوب شيئية الوجود ظهر الكنز بظهوره فعرفه الانسان الكامل بوجوده وعلم أنه سبحانه كان مكنوزاً فيه فى شيئية ثبوته وهو لايشعر به انتهى ، وهو منطق الطير الذى لانعرفه نسأل الله تعالى التوفيق لما يحب ويرضى بمنه وكرمه ٭

﴿ سورة الطور ﴾

﴿ مكية ﴾ كما روى عن ابن عباس . وابن الزبير رضى الله تعالى عنهم ولم نقف على استثناء شيء منها،وهي تسع وأربعون آية فى الكوفى والشامى ، وثمان وأربعون فى البصرى ، وسبع وأربعون فى الحجازى،ومناسبة أولها لآخر ماقبلها اشتمال كل على الوعيد ، وقال الجلال السيوطى : وجه وضعها بعد الذاريات تشابههما فى المطلع والمقطع فان فى مطلع كل منهما صفة حال المتقين،وفى مقطع كل منهما صفة حال الكفار،ولا يخفى مابين السورتين الكريمتين من الاشتراك فى غير ذلك ٭

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالطُّورِ ١ ﴾ الطور اسم لكل جبل على ماقيل: فى اللغة العربية عند الجمهور، وفى اللغة السريانية عند بعض ، ورواه ابن المنذر . وابن جرير عن مجاهد،والمراد به هنا (طور سينين) الذى كلم الله تعالى موسى عليه السلام عنده ، ويقال له : طور سيناء أيضا.والمعروف اليوم بذلك ماهو بقرب التيه بين مصر والعقبة ، وقال أبو حيان فى تفسير سورة (والتين): لم يختلف فى طور سيناء أنه جبل بالشام وهو الذى كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام ، وقال فى تفسيره : هذه السورة فى الشام جبل يسمى الطور وهو طور سيناء فقال نوف البكالى : إنه الذى أقسم الله سبحانه به لفضله على الجبال ، قيل: وهو الذى كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام انتهى فلا تغفل ، وحكى الراغب أنه جبل محيط بالأرض ولا يصح عندى،وقيل: جبل من جبال

الجنة،وروى فيه ابن مردويه عن أبى هريرة ، وعن كثير بن عبدالله حديثاً مرفوعاً ولا أظن صحته،واستظهر أبو حيان أن المراد الجنس لاجبل معين،وروى ذلك عن مجاهد . والكلبى ، والذى أعول عليه ماقدمته *

﴿ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ٢ ﴾ مكتوب على وجه الانتظام فان السطر ترتيب الحروف المكتوبة ، والمراد به على ماقال الفراء الكتاب الذى يكتب فيه الاعمال ويعطاه العبد يوم القيامة بيمينه أو بشماله وهو المذكور فى قوله تعالى: (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً) ، وقال الكلبى: هو التوراة،وقيل: هى.والانجيل.والزبور وقيل:القرآن ، وقيل:اللوح المحفوظ ، وفى البحر لاينبغى أن يحمل شئ من هذه الاقوال على التعيين وإنما تورد على الاحتمال،والتنكير قيل:للافراد نوعا،وذلك على القول بتعدده،أو للافراد شخصاً،وذلك على القول المقابل، وفائدته الدلالة على اختصاصه من جنس الكتب بأمر يتميز به عن سائرها ، والاولى على وجهى التنكير إذا حمل على أحد الكتابين أعنى القرآن والتوراة أن يكون من باب (ليجزى قوما) ففى التنكير كمال التعريف، والتنبيه على أن ذلك الكتاب لايخفى نكر أو عرف ، ومن هذا القبيل التنكير فى قوله تعالى :

﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ٣ ﴾ والرق بالفتح ويكسر ، وبه قرأ أبو السمال جلد رقيق يكتب فيه وجمعه رقوق وأصله على مافى مجمع البيان من اللمعان يقال . ترقرق الشئ إذا لمع . أو من الرقة ضد الصفاقة على ماقيل ، وقد تجوز فيه عما يكتب فيه الكتاب من ألواح وغيرها . والمنشور المبسوط والوصف به قيل : للاشارة إلى صحة الكتاب وسلامته من الخطأ حيث جعل معرضاً لنظر كل ناظر آمنا عليه من الاعتراض لسلامته عما يوجبه ، وقيل : هو لبيان حاله التى تضمنتها الآية المذكورة آنفا بناءاً على أن المراد به صحائف الأعمال ولبيان أنه ظاهر للملائكة عليهم السلام يرجعون اليه بسهولة فى أمورهم بناءاً على أنه اللوح ، أو للناس لايمنعهم مانع عن مطالعته والاهتداء بهديه بناءاً على الأقوال الأخر، وفى البحر (منشور)منسوخ مابين المشرق والمغرب ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ٤ ﴾ هو بيت فى السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لايعودون اليه حتى تقوم الساعة كما أخرج ذلك ابن جرير . وابن المنذر . والحاكم وصححه . وابن مردويه . والبيهقى فى الشعب عن أنس مرفوعاً *

وأخرج عبد الرزاق . وجماعة عن أبى الطفيل أن ابن الكواء سأل علياً كرم الله تعالى وجهه فقال :ذلك الضُّرَاح بيت فوق سبع سموات تحت العرش يدخله كل يوم سبعون ألف ملك الخ ، وجاء فى رواية عنه كرم الله تعالى وجهه ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه حيال الكعبة بحيث لو سقط سقط عليها *

وروى عن مجاهد . وقتادة . وابن زيد أن فى كل سماء بحيال الكعبة بيتاً حرمته كحرمتها وعمارته بكثرة الواردين عليه من الملائكة عليهم السلام كما سمعت ، وقال الحسن:هو الكعبة يعمره الله تعالى كل سنة بستمائة ألف من الناس فان نقصوا أتم سبحانه العدد من الملائكة، وأنت تعلم أن من المجاز المشهور مكان معمور بمعنى مأهول مسكون تحل الناس فى محل هو فيه،فعمارة الكعبة بالمجاورين عندها وبحجاجها صح خبر الحسن المذكور أم لا ﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ٥ ﴾ أى السماء كما رواه جماعة،وصححه الحاكم عن الامير كرم الله تعالى وجهه ،وعن ابن عباس هو العرش وهو سقف الجنة ، وأخرجه أبو الشيخ عن الربيع بن أنس ، وعليه لابأس فى تفسير البيت المعمور بالسماء كما روى عن مجاهد ، وعمارتها بالملائكة أيضا فما فيها موضع إهاب إلا وعليه ملك ساجد

أو قائم ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ٦ ﴾ أى الموقد ناراً ه
أخرج ابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم . وأبو الشيخ فى العظمة عن سعيد بن المسيب قال : قال على كرم الله تعالى وجهه لرجل من اليهود : أين موضع النار فى كتابكم ؟ قال: البحر فقال كرم الله تعالى وجهه: ماأراه إلا صادقا ، وقرأ (والبحر المسجور) (وإذا البحار سجرت) وبذلك قال مجاهد . وشمر بن عطية . والضحاك . ومحمد بن كعب . والأخفش، وقال قتادة: المسجور المملوء يقال : سجره أى ملأه، والمراد به عند جمع البحر المحيط ، وقيل : بحر فى السماء تحت العرش، وأخرج ذلك ابن أبى حاتم وغيره عن على كرم الله تعالى وجهه ، وابن جرير عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ، وفى البحر إنهما قالا فيه ماء غليظ ، ويقال له :بحر الحياة يمطر العباد منه بعد النفخة الاولى أربعين صباحا فينبتون فى قبورهم ، وأخرج أبو الشيخ عن الربيع أنه الملأ الأعلى الذى تحت العرش وكأنه أراد به الفضاء الواسع المملوء ملائكة ، وعن ابن عباس (المسجور)الذى ذهب ماؤه ، وروى ذو الرمة الشاعر ، وليس له كما قيل حديث غير هذا عن الحبر قال : خرجت أمة لتستقى فقالت : إن الحوض مسجور أى فارغ فيكون من الاضداد ،وحمل كلامه رضى الله تعالى عنه على إرادة البحر المعروف ، وأن ذهاب مائه يوم القيامة ، وفى رواية عنه أنه فسره بالمحبوس ، ومنه ساجور الكلب وهى القلادة التى تمسكه وكأنه عنى المحبوس من أن يفيض فيغرق جميع الارض ، أو يغيض فتبقى الارض خالية منه ، وقيل :(المسجور) المختلط ،وهو نحو قولهم للخليل المخالط : سجير ،وجعله الراغب من سجرت التنور لأنه سجير فى مودة صاحبه ، والمراد بهذا الاختلاط تلاقى البحار بمياهها واختلاط بعضها ببعض،وعن الربيع اختلاط عذبها بملحها،وقيل:اختلاطها بحيوانات الماء،وقيل:المفجور أخذاً من قوله تعالى : (وإذا البحار فجرت) ويحتمله ما أخرجه ابن المنذر عن ابن عباس من تفسيره بالمرسل ، وإذا اعتبر هذا مع ماتقدم عنه آنفا من تفسيره بالمحبوس يكون من الاضداد أيضا ، وقال منبه بن سعيد: هو جهنم سميت بحراً لسعتها وتموجها ، والجمهور على أن المراد به بحر الدنيا ـ وبه أقول ـ وبأن المسجور بمعنى الموقد ، ووجه التناسب بين القرائن بعد تعين ماسيق له الكلام لائح ، وهو ههنا إثبات تأكيد عذاب الآخرة وتحقيق كينونته ووقوعه ، فأقسم سبحانه له بأمور كلها دالة على كمال قدرته عز وجل مع كونها متعلقة بالمبدأ والمعاد، فالطور لأنه محل مكالمة موسى عليه السلام، ومهبط آيات البدأ والمعاد يناسب حديث إثبات المعاد وكتاب الاعمال كذلك مع الايماء إلى أن إيقاع العذاب عدل منه تعالى فقد تحقق ، ودون فى (الكتاب) ماجر اليه قبل ، (والبيت المعمور) لأنه مطاف الرسل السماوية ، ومظهر لعظمته تعالى ، ومحل لتقديسهم وتسبيحهم إياه جل وعلا، (والسقف المرفوع) لأنه مستقرهم ومنه تنزل الآيات ، وفيه الجنة : (والبحر المسجور) لانه محل النار ، وإذا حمل الكتاب على التوراة كان التناسب مع ماقبله حسب النظر الجليل أظهر ولم يحمله عليها كثير لزعم أن ـ الرق المنشور ـ لا يناسبها لانها كانت فى الألواح ، ولايخفى عليك أن شيوع الرق فيما يكتب فيه الكتاب مطلقاً يضعف هذا الزعم فى الجملة، ثم إن المعروف أن التوراة لايكتبها اليهود اليوم إلا فى ـ رق ـ وكأنهم أخذوا ذلك من أسلافهم، وقال الامام : يحتمل أن تكون الحكمة فى القسم ـ بالطور . والبيت المعمور . والبحر المسجور ـ أنها أماكن خلوة لثلاثة أنبياء مع ربهم سبحانه ، أما الطور فلموسى عليه السلام وقد خاطب عنده ربه عز وجل بما خاطب ، وأما البيت المعمور فلرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد قال عنده : « سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين لاأحصى

ثناءاً عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ؛ وأما البحر فليونس عليه السلام قال فيه : (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) فلشرفها بذلك أقسم الله تعالى بها ، وأما ذكر (الكتاب) فلأن الانبياء كان لهم فى هذه الاماكن كلام والكلام فى الكتاب ، وأما ذكر السقف المرفوع فلبيان رفعة البيت المعمور ليعلم عظمة شأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم ذكروجها آخر ، ولعمرى إنه لم يأت بشئ فيهما ، والواو الاولى للقسم ومابعدها على ماقال أبو حيان للعطف ، والجملة المقسم عليها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ ﴾ أى لكائن على شدة كأنه مهيأ فى مكان مرتفع فيقع على من يحل به من الكفار ؛ وفى إضافته إلى الرب مع إضافة الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام أمان له صلى الله تعالى عليه وسلم وإشارة إلى أن العذاب واقع بمن كذبه ، وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما ـ واقع ـ بدون لام ، وقوله تعالى : ﴿ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ٨ ﴾ خبر ثان ـ لان ـ أو صفة (لواقع) أوهو جملة معترضة ، و (من دافع) إما مبتدأ للظرف أو مرتفع به على الفاعلية ، و (من) مزيدة للتأكيد ولايخفى مافى الكلام من تأكيد الحكم وتقريره ؛ وقد روى أن عمر رضى الله تعالى عنه قرأ من أول السورة إلى هنا فبكى ثم بكى حتى عيد من وجعه وكان عشرين يوما ، وأخرج أحمد . وسعيد بن منصور . وابن سعد عن جبير بن مطعم قال : قدمت المدينة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأكلمه فى أسارى بدر فدفعت اليه وهو يصلى بأصحابه صلاة المغرب فسمعته يقرأ (والطور) إلى (إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع) فكأنما صدع قلبي ، وفى رواية فأسلمت خوفا من نزول العذاب وما كنت أظن أن أقوم من مقامى حتى يقع بى العذاب ، وهو لا يأبى أن يكون المراد الوقوع يوم القيامة ﴿ ومن غريب مايحكى ﴾ أن شخصاً رأى مكتوباً فى كفه خمس واوات فعبرت له بخير فسأل ابن سيرين فقال : تهيأ لما لا يسر فقال له : من أين أخذت هذا ؟ فقال : من قوله عزوجل : (والطور) إلى (إن عذاب ربك لواقع) فما مضى يومان أو ثلاثة حتى أحيط بذلك الشخص ، وقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ٩ ﴾ منصوب على الظرفية (١) وناصبه (واقع) أو (دافع) أومعنى النفى وإيهام أنه لاينتفى دفعه فى غير ذلك اليوم بناءاً على اعتبار المفهوم لاضير فيه لعدم مخالفته للواقع لانه تعالى أمهلهم فى الدنيا وماأهملهم ، ومنع مكى أن يعمل فيه ـ واقع ـ ولم يذكر دليل المنع ولادليل له فيما يظهر ، ومعنى (تمور) تضطرب كما قال ابن عباس أى ترتج وهى فى مكانها ، وفى رواية عنه تشقق ، وقال مجاهد : تدور ، وأصل المور التردد فى المجئ والذهاب ، وقيل : التحرك فى تموج ، وقيل : الجريان السريع ، ويقال للجرى مطلقا وأنشدوا للأعشى

كأن مشيتها من بيت جارتها ... (مور السحابة لاريث ولا عجل)

﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠ ﴾ عن وجه الارض فتكون هباءاً منبثاً ، والإتيان بالمصدرين للايذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة أى موراً عجيباً وسيراً بديعاً لا يدرك كنههما ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى إذا وقع ذلك (٢) أو إذا كان الامر كما ذكر فويل يوم إذ يقع ذلك ﴿ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١١ الَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢ ﴾ أى فى اندفاع عجيب فى الاباطيل والاكاذيب يلهون ، وأصل الخوض المشى فى الماء ثم تجوز فيه عن الشروع

(١) لانه مفعول فيه (٢) يشير إلى أن الفاء فصيحة فى جواب شرط مقدر ، اه إدارة الطباعة

فى كل شئ وغلب فى الخوض فى الباطل كالاحضار عام فى كل شئ ثم غلب استعماله فى الاحضار للعذاب ٭

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣ ﴾ أى يدفعون دفعاً عنيفاً شديداً بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعون إلى النار ويطرحون فيها، وقرأ زيد بن على . والسلمى . وأبو رجاء (يدعون) بسكون الدال وفتح العين من الدعاء فيكون (دعا) حالا أى ينادون اليها مدعوعين (١) و (يوم) إما بدل من يوم (تمور) أوظرف لقول مقدر محكى به قوله تعالى : ﴿ هَـٰذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ ﴾ أى فيقال لهم ذلك (يوم) الخ ، ومعنى التكذيب بها تكذيبهم بالوحى الناطق بها ، وقوله تعالى :

﴿ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَا ﴾ توبيخ و تقريع لهم حيث كانوا يسمونه سحراً كأنه قيل: كنتم تقولون للوحى الذى أنذركم بهذا سحراً أفهذا المصدق له سحر أيضا و تقديم الخبر لأنه المقصود بالانكار والمدار للتوبيخ ٭

﴿ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ١٥ ﴾ أى أم أنتم عمى عن المخبر به كما كنتم فى الدنيا عمياعن الخبر والفاء مؤذنة بماذكر وذلك لأنها لما كانت تقتضى معطوفا عليه يصح ترتب الجملة أعنى سحر هذا عليه وكانت هذه جملة واردة تقريعا مثل هذه النار الخ لم يكن بد من تقدير ذلك على وجه يصح الترتب ويكون مدلولا عليه من السياق فقدر كنتم تقولون إلى آخره، ودل عليه قوله تعالى: (فى خوض يلعبون) وقوله سبحانه: (هذه النار التى كنتم بها تكذبون) وفى الكشف إن هذا نظير ماتستدل بحجة فيقول الخصم: هذا باطل فتأتى بحجة أوضح من الأول مسكتة وتقول: أفباطل هذا ؟! تعيره بالالزام بأن مقالته الأولى كانت باطلة ، وفى مثله جاز أن يقدر القول على معنى أفتقول باطل هذا وأن لا يقدر لابتنائه على كلام الخصم وهذا أبلغ ، و(أم) كما هو الظاهر منقطعة، وفى البحر لما قيل لهم: هذه النار وقفوا على الجهتين اللتين يمكن منهما دخول الشك فى أنها النار وهى إما أن يكون ثم سحر يلبس ذات المرأى ، وإما أن يكون فى ناظر الناظر اختلال ، والظاهر أنه جعل (أم) معادلة والأول أبعد مغزى ٭

﴿ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ﴾ أى ادخلوها وقاسوا شدائدها فافعلوا ماشئتم من الصبر وعدمه ٭

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى الامران سواء عليكم فى عدم النفع إذ كل لايدفع العذاب ولا يخففه ـ فسواء ـ خبر مبتدأ محذوف وصح الإخبار به عن المثنى لانه مصدر فى الاصل ، وجوز كونه مبتدأ محذوف الخبر وليس بذاك ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦ ﴾ تعليل للاستواء فان الجزاء حيث كان متحتم الوقوع لسبق الوعيد به وقضائه سبحانه إياه بمقتضى عدله كان الصبر وعدمه مستويين فى عدم النفع ٭

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ١٧ ﴾ شروع فى ذكر حال المؤمنين بعد ذكر حال الكافرين كما هو عادة القرآن الجليل فى الترهيب والترغيب، وجوز أن يكون من جملة المقول للكفار إذ ذاك زيادة فى غمهم وتنكيدهم والاول أظهر، والتنوين فى الموضعين للتعظيم أى فى جنات عظيمة و نعيم عظيم، وجوز أن يكون للنوعية أى نوع من الجنات ونوع من النعيم مخصوصين بهم وكونه عوضاً عن المضاف اليه أى جناتهم ونعيمهم ليس بالقوى كما لا يخفى ٭

﴿ فَاكِهِينَ ﴾ متلذذين ﴿ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ من الاحسان، وقرئ ـ فكهين ـ بلا ألف ، ونصبه فى القراءتين على الحال من الضمير المستتر فى الجار والمجرور أعنى فى جنات الواقع خبراً لان ، وقرأ خالد ـ فاكهون ـ بالرفع على أنه

(١) الحال مقدرة لان الدفع بعد الدعوة ، وقيل : إنها مقارنة باجراء قرب الوقوع مجرى المقارنة ؛ وفيه نظر

الخبر ، وفى جنات متعلق به لكنه قدم عليه للاهتمام ، ومن أجاز تعدد الخبر أجاز أن يكون خبراً بعد خبر ﴿ ووقيهم ربهم عذابَ الجحيم ١٨ ﴾ عطف على (فى جنات) على تقدير كونه خبراً كأنه قيل: استقروا (فى جنات) (ووقاهم ربهم) الخ. أو على (آتاهم) إن جعلت (ما) مصدرية أى فاكهين بإيتائهم ربهم ووقايتهم عذاب الجحيم، ولم يجوز كثير عطفه عليه إن جعلت موصولة إذ يكون التقدير فاكهين بالذى وقاهم ربهم فلا يكون راجع إلى الموصول، وجوزه بعض بتقدير الراجع أى وقاهم به على أن الباء للملابسة ، وفى الكشف لم يحمل على حذف الراجع لكثرة الحذف ولو درج لصاً ، والفعل من المتعدى إلى ثلاثة مفاعيل وهو مسموع عند بعضهم ، ولايخفى أنه وجه سديد أيضاً ، والمعنى عليه أسد لأن الفكاهة تلذذ يشتغل به صاحبه والتلذذ بالايتاء يحتمل التجدد باعتبار تعدد المؤتى إما بالوقاية أى على تقدير المصدرية فلا ، وأقول لعله هو المنساق إلى الذهن، وجوز أن يكون حالا بتقدير قد أو بدونه إما من المستكن فى الخبر أو فى الحال. وإما من فاعل آتى. أو من مفعوله . أو منهما، وإظهار الرب فى موقع الاضمار مضافا إلى ضميرهم للتشريف والتعليل. وقرأ أبو حيوة (وقاهم) بتشديد القاف

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا ﴾ أى يقال لهم (كلوا واشربوا) أكلا وشربا هنيئا ، أو طعاما وشرابا هنيئاً ، فالكلام بتقدير القول ، و(هنيئاً) نصب على المصدرية لانه صفة مصدر . أو على أنه مفعول به ، وأياً ما كان فقد تنازعه الفعلان ، والهنئ كل مالا يلحق فيه مشقة ولا يعقب وخامة ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٩ ﴾ أى بسببه أو بمقابلته والباء عليهما متعلق - بكلوا واشربوا - على التنازع ، وجوز الزمخشرى كونها زائدة وما بعدها فاعل هنيئاً كما فى قول كثير :

هنيئا مريئا غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت(١)

فان مافيه فاعل هنيئا على أنه صفة فى الاصل بمعنى المصدر المحذوف فعله وجوبا لكثرة الاستعمال كأنه قيل : هنؤ لعزة المستحل من أعراضنا ، وحينئذ كما يجوز أن يجعل ماهنا فاعلا على زيادة الباء على معنى هنأكم ماكنتم تعملون يجوز أن يجعل الفاعل مضمراً راجعاً إلى الاكل أو الشرب المدلول عليه بفعله ، وفيه أن الزيادة فى الفاعل لم تثبت سماعا فى السعة فى غير فاعل كفى على خلاف ولاهى قياسية فى مثل هذا ومع ذلك يحتاج الكلام إلى تقدير مضاف أى جزاء ماكنتم الخ، وفيه نوع تكلف ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ نصب على الحال قال أبو البقاء: من الضمير فى (كلوا) أو فى (وقاهم) أو فى (آتاهم) أو فى (فاكهين) أو فى الظرف يعنى فى جنات، واستظهر أبو حيان الأخير ﴿ عَلَى سُرُرٍ ﴾ جمع سرير معروف ، ويجمع على أسرّة وهو من السرور إذ كان لأولى النعمة ، وتسمية سرير الميت به للتفاؤل بالسرور الذى يلحق الميت برجوعه إلى جوار الله تعالى وخلاصه من سجن الدنيا، وقرأ أبو السمال سرر بفتح الراء وهى لغة لكلب فى المضعف فراراً من توالى ضمتين مع التضعيف ؞

---

(١) هذا البيت من قصيدة مشهورة لكثير أولها

خليلى هذا ربع عزة فاعقلا قلوصكما ثم احللا حيث حلت

قيل كان كثير فى حلقة البصرة ينشد أشعاره فمرت به عزة مع زوجها فقال لها : أغضبيه فاستحيت من ذلك فقال لتغضبيه أو لأضربنك فدنت من الحلقة فأغضبته ، وذلك أن قالت: هذا وهذا بفم الشاعر فقال ذلك.

﴿ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ مجعولة على صف وخط مستو ﴿ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ٢٠ ﴾ أى قرناهم بهن ـ قاله الراغب ـ ثم قال : ولم يجئ فى القرآن زوجناهم حوراً كما يقال زوجته امرأة تنبيها على أن ذلك لا يكون على حسب المتعارف فيما بيننا من المناكحة ، وقال الفراء : تزوجت بامرأة لغة أزد شنوءة ، والمشهور أن التزوج متعد إلى مفعول واحد بنفسه و التزويج متعد بنفسه إلى مفعولين ، وقيل : فيما هنا أن الباء لتضمين الفعل معنى القران أو الالصاق، واعترض بأنه يقتضى معنى التزويج بالعقد وهو لا يناسب المقام إذ العقد لا يكون فى الجنة لانها ليست دار تكليف أو أنها للسببية والتزويج ليس بمعنى الانكاح بل بمعنى تصييرهم زوجين زوجين أى صيرناهم كذلك بسبب حور عين ، وقرأ عكرمة بحور عين على إضافة الموصوف إلى صفته بالتأويل المشهور ، وقوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ الخ كلام مستأنف مسوق لبيان حال طائفة من أهل الجنة إثر بيان حال الكل وهم الذين شاركتهم ذريتهم فى الايمان ، والموصول مبتدأ خبره ألحقنا بهم ، وقوله تعالى :﴿ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم ﴾ عطف على آمنوا ، وقيل اعتراض للتعليل ، وقوله تعالى : ﴿ بِإِيمَـٰنٍ ﴾ متعلق بالاتباع أى أتبعتهم ذريتهم بايمان فى الجملة قاصر عن رتبة إيمان الآباء إما بنفسه بناءاً على تفاوت مراتب نفس الايمان، وإما باعتبار عدم انضمام أعمال مثل أعمال الآباء اليه ، واعتبار هذا القيد للايذان بثبوت الحكم فى الايمان الكامل أصالة لا إلحاقا قيل : هو حال من الذرية ، وقيل : من الضمير وتنوينه للتعظيم،وقيل : منهما وتنوينه للتنكير والمعول عليه ماقدمنا ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ فى الدرجة.أخرج سعيد بن منصور . وهناد . وابن جرير. وابن المنذر. وابن أبى حاتم. والحاكم . والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : «إن الله تعالى ليرفع ذرية المؤمن معه فى درجته فى الجنة وإن كانوا دونه فى العمل لتقر بهم عينه ثم قرأ الآية » وأخرجه البزار . وابن مردويه عنه مرفوعا إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وفى رواية ابن مردويه.والطبرانى عنه أنه قال: « إن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال له : إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك فيقول : يارب قد عملت لى ولهم فيؤمر بإلحاقهم به » وقرأ ابن عباس الآية ، وظاهر الاخبار أن المراد بإلحاقهم بهم إسكانهم معهم لا مجرد رفعهم اليهم واتصالهم بهم أحيانا ولو للزيارة . وثبوت ذلك على العموم لا يبعد من فضل الله عز وجل ، وماقيل : لعله مخصوص ببعض دون بعض تحجير لإحسانه الواسع جل شأنه ، وقد يستأنس للتخصيص بما روى عن ابن عباس إن الذين آمنوا المهاجرون والانصار ، والذرية التابعون لكن لا أظن صحته ﴿ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم ﴾ أى ومانقصنا الآباء بهذا الالحاق ﴿ مِّنْ عَمَلِهِم ﴾ أى من ثواب عملهم ﴿ مِّن شَىْءٍ ﴾ أى شيئاً بأن أعطينا بعض مثوباتهم أبناءهم فتنقص مثوباتهم وتنحط درجتهم وإنما رفعناهم إلى منزلتهم بمحض التفضل والاحسان ، وقال ابن زيد ـ الضمير عائد على الأبناء أى وما نقصنا الأبناء الملحقين من جزاء عملهم الحسن والقبيح شيئاً بل فعلنا ذلك بهم بعد مجازاتهم بأعمالهم كملا ـ وليس بشئ وإن قال أبو حيان يحسن هذا الاحتمال قوله تعالى : (كل امرئ بما كسب رهين) وإلى الأول ذهب ابن عباس . وابن جبير . والجمهور . والآية على ماذهب اليه المعظم فى الكبار من الذرية ، وقال منذر بن سعيد : هى فى الصغار * وروى عن الحبر . والضحاك أنهما قالا : إن الله تعالى يلحق الأبناء الصغار وإن لم يبلغوا زمن الايمان بآبائهم

المؤمنين ، وجعل بإيمان عليه متعلقاً بألحقنا أي ألحقنا بسبب إيمان الآباء بهم ذريتهم الصغار الذين ماتوا ولم يبلغوا التكليف فهم في الجنة مع آبائهم قيل : وكأن من يقول بذلك يفسر (اتبعتهم ذريتهم) بماتوا ودرجوا على أثرهم قبل أن يبلغوا الحلم ، وجوز أن يتعلق بإيمان باتبعتهم على معنى اتبعوهم بهذا الوصف بأن حكم لهم به تبعاً لآبائهم فكانوا مؤمنين حكما لصغرهم وإيمان آبائهم ، والصغير يحكم بإيمانه تبعاً لأحد أبويه المؤمن والكل كما ترى ، وقيل : الموصول معطوف على حور ، والمعنى قرناهم بالحور وبالذين آمنوا أي بالرفقاء والجلساء منهم فيتمتعون تارة بملاعبة الحور ؛ وأخرى بمؤانسة الاخوان المؤمنين ، وقوله تعالى : (واتبعتهم) عطف على زوجناهم ، وقوله سبحانه : بإيمان متعلق بما بعده أي بسبب إيمان عظيم رفيع المحل ، وهو إيمان الآباء ألحقنا بدرجاتهم ذريتهم وإن كانوا لا يستأهلونها تفضلا عليهم وعلى آبائهم ليتم سرورهم ويكمل نعيمهم ، أو بسبب إيمان داني المنزلة وهو إيمان الذرية كأنه قيل : بشيء من الايمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم ، وصنيع الزمخشري ظاهر في اختيار العطف على حور فقد ذكره وجهاً أول ، وتعقبه أبو حيان بأنه لا يتخيل ذلك أحد غير هذا الرجل ، وهو تخيل أعجمي مخالف لفهم العربي القح كابن عباس . وغيره ، وقيل عليه : إنه تعصب منه ، والانصاف أن المتبادر الاستئناف ، وإن أحسن الأوجه في الآية وأوفقه للمقام ما تقدم *

وقرأ أبو عمرو (وأتبعناهم) بقطع الهمزة وفتحها ، وإسكان التاء ، ونون بعد العين وألف بعدها أي جعلناهم تابعين لهم في الايمان ، وقرأ أيضاذرياتهم جمعاً نصباً ، وابن عامر كذلك رفعاً ، وقرأ ذرياتهم بكسر الذال (واتبعتهم ذريتهم) بتاء الفاعل ، ونصب ذريتهم على المفعولية ، وقرأ الحسن . وابن كثير - ألتناهم - بكسر اللام من ألت يألت كعلم يعلم ، وعلى قراءة الجمهور من باب ضرب يضرب ، وابن هرمز آلتناهم بالمد من آلت يؤلت ، وابن مسعود . وأبي لتناهم من لات يليت وهي قراءة طلحة . والأعمش ، ورويت عن شبل . وابن كثير ، وعن طلحة . والأعمش أيضا - لتناهم - بفتح اللام ، قال سهل : لا يجوز فتح اللام من غير ألف بحال وأنكر أيضا آلتناهم بالمد ، وقال : لا يروى عن أحد ولا يدل عليه تفسير ولا عربية - وليس كما قال - بل نقل أهل اللغة آلت بالمد كما قرأ هرمز ، وقرئ وما ولتناهم من ولت يلت ، ومعنى الكل واحد ، وجاء ألت بمعنى غلظ يروى أن رجلا قام إلى عمر رضي الله تعالى عنه فوعظه فقال : لا تألت على أمير المؤمنين أي لا تغلظ عليه ﴿ كُلُّ أمْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ ﴾ أي بكسبه وعمله ﴿ رَهِينٌ ٢١ ﴾ أي مرهون عند الله كأن الكسب بمنزلة الدين ونفس العبد بمنزلة الرهن ولا ينفك الرهن مالم يؤد الدين فان كان العمل صالحا فقد أدى لأن العمل الصالح يقبله ربه سبحانه ويصعد اليه عز وجل وإن كان غير ذلك فلا أداء فلا خلاص إذ لا يصعد اليه سبحانه غير الطيب ، ولذا قال جل وعلا : (كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين) فان المراد كل نفس رهن بكسبها عند الله تعالى غير مفكوك إلا أصحاب اليمين فانهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم *

ووجه الاتصال على هذا أنه سبحانه لما ذكر حال المتقين وأنه عز وجل وفر عليهم ما أعده لهم من الثواب والتفضل عقب بذلك الكلام ليدل على أنهم فكوا رقابهم وخلصوها وغيرهم بقي معذباً لأنه لم يفك رقبته ، وكان موضعه من حيث الظاهر أن يكون عقيب قوله تعالى : (هو البر الرحيم) ليكون كلاماً راجعاً إلى حال الفريقين - المدعوين . والمتقين - وإنما جعل متخللا بين أجزية المتقين عقيب ذكر توفير ما أعد لهم ، قال في الكشف :

ليدل على أن الخلاص من بعض أجزيتهم أيضاً ويلزم أن عدم الخلاص جزاء المقابلين من طريق الايماء وموقعه وقع الاعتراض تحقيقاً لتوفير ماعدد لأنه إنما يكون بعد الخلاص ، وفيه إيماء إلى أن إلحاق الأبناء إنما كان تفضلا على الآباء لاعلى الأبناء ابتداءاً لأن التفضل فرع الفك وهؤلاء هم الذين فكوا فاستحقوا التفضل ، وجعله استئنافا بيانياً لهذا المعنى كما فعل الطيبي بعيد ، وقيل : (رهين) فعيل بمعنى الفاعل والمعنى كل امرئ بما كسب راهن أى دائم ثابت ، وفى الارشاد أنه أنسب بالمقام فان الدوام يقتضى عدم المفارقة بين المرء وعمله ، ومن ضرورته أن لاينقص من ثواب الآباء شئ ، فالجملة تعليل لما قبلها ، وأنت تعلم أن فعيلا بمعنى المفعول أسرع تبادراً إلى الذهن فاعتباره أولى ووجه الاتصال عليه أوفق وألطف كما لايخفى ¤

﴿ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ٢٢ ﴾ أى وزدناهم على ماكان لهم من مبادى التنعم وقتاً فوقتاً مما يشتهون من فنون النعماء وألوان الآلاء ، وأصل المد الجر ، ومنه المدة للوقت الممتد ثم شاع فى الزيادة ، وغلب الإمداد فى المحبوب ، والمد فى المكروه وكونه وقتا بعد وقت مفهوم المد نفسه ﴿ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ أى يتجاذبونها فى الجنة هم وجلساؤهم تجاذب ملاعبة كما يفعل ذلك الندامى بينهم فى الدنيا لشدة سرورهم قال الاخطل :

نازعته طيب الراح الشمول وقد صاح الدجاج وحانت وقعة السارى

وقيل : التنازع مجاز عن التعاطى ، والكأس مؤنث سماعى كالخمر ، ولا تسمى كأسا على المشهور إلا إذا امتلأت خمراً أو كانت قريبة من الامتلاء ، وقد تطلق على الخمر نفسها مجازاً لعلاقة المجاورة ، وقال الراغب : الكأس الإناء بما فيه من الشراب ويسمى كل واحد منهما بانفراده كأسا ، وفسرها بعضهم هنا بالإناء بمافيه من الخمر ، وبعضهم بالخمر ، والاول أوفق بالتجاذب ، والثانى بقوله سبحانه : ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أى فى شربها حيث لايتكلمون فى أثناء الشرب بلغو الحديث وسقط الكلام ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ ولا يفعلون مايؤثم به فاعله أى ينسب إلى الاثم لو فعله فى دار التكليف كما هو ديدن الندامى فى الدنيا وإنما يتكلمون بالحكم وأحاسن الكلام ويفعلون مايفعله الكرام ، وقرأ ابن كثير . وأبو عمرو (لا لغو) (ولا تأثيم) بفتحهما ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى بالكأس ﴿ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ أى مماليك مختصون بهم كما يؤذن به اللام ولم يقل غلمانهم بالاضافة لئلا يتوهم أنهم الذين كانوا يخدمونهم فى الدنيا فيشفق كل من خدم أحداً فى الدنيا أن يكون خادماً له فى الجنة فيحزن بكونه لايزال تابعا ، وقيل : أولادهم الذين سبقوهم فالاختصاص بالولادة لا بالملك ، وفيه أن التعبير عنهم بالغلمان غير مناسب وكذا نسبة الخدمة إلى الاولاد لا تناسب مقام الامتنان ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ٢٤ ﴾ مصون فى الصدف لم تنله الايدى ـ كما قال ابن جبير ـ ووجه الشبه البياض والصفاء ، وجوز أن يراد بمكنون مخزون لانه لايخزن إلا الحسن الغالى الثمن ، أخرج عبد الرزاق . وابن جرير . وابن المنذر عن قتادة قال : « بلغنى أنه قيل : يارسول الله هذا الخادم مثل اللؤلؤ فكيف بالمخدوم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « والذى نفسى بيده إن فضل مابينهم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » وروى « أن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه فيجئ ألف ببابه لبيك لبيك » ¤

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ ﴾ أى يسأل كل بعض منهم بعضاً آخر عن أحواله وأعماله فيكون

كل بعض سائلا ومسئولا لا أنه يسأل بعض معين منهم بعضاً آخر معيناً ثم هذا التساؤل فى الجنة كما هو الظاهر، وحكى الطبرى عن ابن عباس أنه إذا بعثوا فى النفخة الثانية ولا أراه يصح عنه لبعده جداً ﴿ قَالُوا ﴾ أى المسئولون وهم كل واحد منهم فى الحقيقة ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ ﴾ أى قبل هذا الحال ﴿ فى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ٢٦ ﴾ أرقاء القلوب خائفين من عصيان الله عز وجل معتنين بطاعته سبحانه ، أو وجلين من العاقبة ، و (فى أهلنا) قيل: يحتمل أنه كناية عن كون ذلك فى الدنيا، ويحتمل أن يكون بياناً لكون إشفاقهم كان فيهم وفى أهلهم لتبعيتهم لهم فى العادة ويكون قوله تعالى : ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أى بالرحمة والتوفيق ﴿ وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ٢٧ ﴾ أى عذاب النار النافذة فى المسام نفوذ السموم وهو الريح الحارة المعروفة ، ووجه الشبه وإن كان فى النار أقوى لكنه فى ريح السموم لمشاهدته فى الدنيا أعرف فلذا جعل مشبهاً به ، وقال الحسن : (السموم) اسم من أسماء جهنم عاماً لهم ولأهلهم، فالمراد بيان مامنّ الله تعالى به عليهم من اتباع أهلهم لهم، وقيل : ذكر (فى أهلنا) لإثبات خوفهم فى سائر الأوقات والأحوال بطريق الاولى فان كونهم بين أهليهم مظنة الأمن ولا أرى فيه بأساً ، نعم كون ذلك لأن السؤال عما اختصوا به من الكرامة دون أهليهم ليس بشئ ، وقيل : لعل الاولى أن يجعل ذلك إشارة إلى الشفقة على خلق الله تعالى كما أن قوله عزوجل : ﴿ إِنَّا كُنَّا من قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ إلى آخره إشارة إلى التعظيم لامر الله تعالى وترك العاطف بجعل الثانى بيانا للاول ادعاءاً للمبالغة فى وجوب عدم انفكاك كل منهما للآخر ولا يخفى مافيه ، والذى يظهر أن هذا إشارة إلى الرجاء وترك العطف لقصد تعداد ماكانوا عليه أى إنا كنا من قبل ذلك نعبده تعالى ونسأله الوقاية ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ ﴾ أى المحسن كما يدل عليه اشتقاقه من البر بسائر مواده لأنها ترجع إلى الاحسان ـ كبرّ فى يمينه ـ أى صدق لأن الصدق إحسان فى ذاته ويلزمه الاحسان للغير ،وأبرّ الله تعالى حجه أى قبله لأن القبول إحسان وزيادة ، وأبرّ فلان على أصحابه أى علاهم لانه غالباً ينشأ عن الإحسان لهم فتفسيره باللطيف كما روى عن ابن عباس ، أو العالى فى صفاته ، أو خالق البرّ ، أو الصادق فيما وعد أولياءه كما روى عن ابن جريج بعيد إلا أن يراد بعض ماصدقات ، أو غايات ذلك البر ؟ ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ الكثير الرحمة الذى إذا عبد أثاب وإذا سئل أجاب ،وقرأ أبو حيوة (ووقانا) بتشديد القاف ، والحسن . وأبو جعفر . ونافع. والكسائى (أنه) بفتح الهمزة لتقدير لام الجر التعليلية قبلها أى لأنه ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ فاثبت على ماأنت عليه من التذكير بما أنزل عليك من الآيات والذكر الحكيم ولا تكترث بما يقولون مما لاخير فيه من الاباطيل *

﴿ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ ﴾ هو الذى يخبر بالغيب بضرب من الظن ، وخص الراغب الكاهن بمن يخبر بالأخبار الماضية الخفية كذلك، والعرّاف بمن يخبر بالأخبار المستقبلة كذلك ، والمشهور فى الكهانة الاستمداد من الجن فى الإخبار عن الغيب ، والباء فى (بكاهن) مزيدة للتأكيد أى ماأنت كاهن ﴿ وَلَا مَجْنُونٍ ٢٩ ﴾ واختلف فى باء (بنعمة) فقال أبو البقاء : للملابسة ، والجار والمجرور فى موضع الحال والعامل فيه كاهن ، أو مجنون ، والتقدير ماأنت كاهن ولا مجنون ملتبسا بنعمة ربك وهى حال لازمة لانه عليه الصلاة والسلام مازال ملتبسا بنعمة ربه عز وجل ، وقيل : للقسم فنعمة ربك مقسم به ، وجواب القسم ماعلم من الكلام وهو ـ ماأنت بكاهنٍ ولا مجنونٍ ـ وهذا كما تقول : مازيد والله بقائم وهو بعيد ، والاقرب عندى أن الباء للسببية

وهو متعلق بمضمون الكلام ، والمعنى انتفى عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله تعالى عليك ، وهذا كما تقول ماأنا معسر بحمد الله تعالى وإغنائه ، والمراد الرد على قائل ذلك ، وإبطال مقالتهم فيه عليه الصلاة والسلام وإلا فلا امتنان عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بانتفاء ماذكر مع انتفائه عن أكثر الناس ، وقيل : الامتنان بانتفاء ذلك بسبب النعمة المراد بها ماأوتيه صلى الله تعالى عليه وسلم من صدق النبوة ورجاحة العقل التى لم يؤتها أحد قبله ، والقائلون بذلك هم الكفرة قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون ، وممن قال كاهن : شيبة بن ربيعة ، وممن قال مجنون : عقبة بن أبى معيط ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ أى بل أيقولون ﴿ شَاعِرٌ ﴾ أى هو شاعر ﴿ نَّتَرَبَّصُ ﴾ أى ننتظر ﴿ به رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ٣٠ ﴾ أى الدهر ، وهو فعول من المنّ بمعنى القطع لأنه يقطع الأعمار وغيرها ، ومنه حبل منين أى مقطوع ، والريب مصدر رابه إذا أقلقه أريد به حوادث الدهر وصروفه لانها تقلق النفوس وعبر عنها بالمصدر مبالغة ، وجوز أن يكون من راب عليه الدهر أى نزل ، والمراد بنزوله إهلاكه ، وتفسير المنون بالدهر مروى عن مجاهد . وعليه قول الشاعر :

(تربص بها ريب المنون) لعلها   تطلق يوماً أو يموت حليلها

وبيت أبى ذؤيب

أمن (المنون وريبه) يتوجع   والدهر ليس بمعتب من يجزع

قيل: ظاهره ذلك ، وكذلك قول الأعشى :

أألن رأت رجلا أعشى أضرّ به   (ريب المنون) ودهر متبل خبل

ولهذا أنشده الجوهرى شاهداً له ، وأخرج ابن جرير . وغيره عن ابن عباس تفسيره بالموت وهو مشترك بين المعنيين فقد قال المرزوقى فى شرح بيت أبى ذؤيب المار آنفا : المنون قد يراد به الدهر فيذكر وتكون الرواية ريبه ، وقد يراد به المنية فيؤنث ، وقد روى ريبها ، وقد يرجع له ضمير الجمع لقصد أنواع المنايا وريبها نزولها انتهى فلا تغفل ، وهو أيضا من المنّ بمعنى القطع فانها قاطعة الأمانى واللذات ، ولذا قيل : المنية تقطع الأمنية ، وريب المنون عليه نزول المنية ، وجوز أن يكون بمعنى حادث الموت على أن الاضافة بيانية ، روى أن قريشاً اجتمعت فى دار الندوة وكثرت آراؤهم فيه عليه الصلاة والسلام حتى قال قائل منهم وهم بنو عبد الدار ـ كما قال الضحاك ـ تربصوا به ريب المنون فانه شاعر سيهلك كما هلك زهير . والنابغة . والاعشى فافترقوا على هذه المقالة فنزلت ، وقرأ زيد بن على (يتربص) بالياء مبنياً للمفعول ، وقرئ (ريب) بالرفع على النيابة *

﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا ﴾ تهكم بهم ، وتهديد لهم ﴿ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ٣١ ﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكى ، وفيه عدة كريمة بإهلاكهم ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم ﴾ أى عقولهم وكانت قريش يدعون أهل الاحلام والنهى ـ وذلك على ما قال الجاحظ ـ لأن جميع العالم يأتونهم ويخالطونهم وبذلك يكمل العقل وهو يكمل بالمسافرة وزيادة رؤية البلاد المختلفة والاماكن المتباينة ومصاحبة ذوى الاخلاق المتفاوتة وقد حصل لهم الغرض بدون مشقة ، وقيل لعمرو بن العاص : مابال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله تعالى بالعقل ؟! فقال : تلك عقول كادها الله عز وجل أى لم يصحبها التوفيق فلذا لم يؤمنوا وكفروا ـ وأنا لا أرى فى الآية دلالة على رجحان عقولهم ـ

ولعلها تدل على ضد ذلك ﴿ بِهَٰذَا ﴾ التناقض فى المقال فان الكاهن والشاعر يكونان ذا عقل تام وفطنة وقادة والمجنون مغطى عقله مختل فكره وهذا يعرب عن أن القوم لتحيرهم وعصبيتهم وقعوا فى حيص بيص حتى اضطربت عقولهم وتناقضت أقوالهم و كذبوا أنفسهم من حيث لايشعرون ، وأمر الاحلام بذلك مجاز عن التأدية اليه بعلاقة السببية كما قيل ،وقيل : جعلت الاحلام آمرة على الاستعارة المكنية فتشبه الاحلام بسلطان مطاع تشبيها مضمراً فى النفس، وتثبت له الامر على طريق التخييل ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ٣٢ ﴾ مجاوزون الحدود فى المكابرة والعناد لايحومون حول الرشد والسداد ولذلك يقولون مايقولون من الاكاذيب المحضة الخارجة عن دائرة العقول ، وقرأ مجاهد (بل هم) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ أى اختلقه من تلقاء نفسه *

وقال ابن عطية : معناه قال : عن الغير أنه قاله فهو عبارة عن كذب مخصوص، وضمير المفعول للقرآن ﴿ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ٣٣ ﴾ فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه الاباطيل كيف لاومارسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا واحد من العرب فكيف أتى بماعجز عنه كافة الأمم من العرب والعجم ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ مماثل القرآن فى النعوت التى استقل بها من حيث النظم ومن حيث المعنى ﴿ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ٣٤ ﴾ فيما زعموا فان صدقهم فى ذلك يستدعى قدرتهم على الاتيان بمثله بقضية مشاركتهم له عليه الصلاة والسلام فى البشرية والعربية مع مابهم من طول الممارسة للخطب والاشعار ، وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر، والمبالغة فى حفظ الوقائع والأيام ؛ ولاريب فى أن القدرة على الشئ من موجبات الاتيان به ودواعى الأمر بذلك ، فالكلام ردّ الأقوال المذكورة فى حقه عليه الصلاة والسلام ، والقرآن بالتحدى فاذا تحدوا وعجزوا علم رد ماقالوه وصحة المدعى ، وجوز أن يكون رداً لزعمهم التقول خاصة فان غيره مماتقدم حتى الكهانة كما لايخفى أظهر فساداً منه ومع ذلك إذاظهر فساد زعم التقول ظهر فساد غيره بطريق اللزوم، وقرأ الجحدرى، وأبو السمال بحديث مثله على الاضافة أى بحديث رجل مثل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى كونه أمياً لم يصحب أهل العلم ولا رحل عن بلده ، أومثله فى كونه واحداً منهم فلايعوز أن يكون فى العرب مثله فى الفصاحة فليأت بمثل ماأتى به ولن يقدر على ذلك أبداً ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ أى أم أحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع من غير مقدر وخالق ، وقال الطبرى: المراد أم خلقوا من غير شئ حى فهم لايؤمرون ولاينهون كالجمادات، وقيل: المعنى أم خلقوا من غير علة ولالغاية ثواب وعقاب فهم لذلك لايسمعون، و(من) عليه للسببية، وعلى ماتقدم لابتداء الغاية والمعول عليه من الأقوال ماقدمنا، وسيأتى إن شاء الله تعالى زيادة إيضاح له، ويؤيده قوله سبحانه: *(أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ٣٥)* أى الذين خلقوا أنفسهم فلذلك لايعبدون الله عز وجل ولا يلتفتون إلى رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ على القولين لا يظهر حسن المقابلة ، وإرادة خلقوا أنفسهم يشعر به قوله تعالى : *(ام خلقوا السموات والأرض)* إذ لو أريد العموم لعدم ذكر المفعول لم يظهر حسن المقابلة أيضاً، وقال ابن عطية: المراد أهم الذين خلقوا الاشياء فهم لذلك يتكبرون ثم خص من تلك الاشياء السموات والأرض لعظمهما وشرفهما فى المخلوقات وفيه مافيه *(بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦)* أي إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات

والأرض؟ قالوا: الله وهم غير موقنين بما قالوا إذ لو كانوا موقنين لما أعرضوا عن عبادته تعالى فان من عرف خالقه وأيقن به امتثل أمره وانقاد له ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ أى خزائن رزقه تعالى ورحمته حتى يرزقوا النبوة من شاءوا ، ويمسكوها عمن شاءوا ، وقال الرماني: خزائنه تعالى مقدوراته سبحانه ، وقال ابن عطية : المعنى أم عندهم الاستغناء عن الله تعالى فى جميع الامور لان المال والصحة والعزة وغير ذلك من الاشياء من خزائن الله تعالى ، وقال الزهرى : يريد بالخزائن العلم واستحسنه أبو حيان ، وسيأتى إن شاء الله تعالى مايعلم حاله منه ﴿ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ٣٧ ﴾ الارباب الغالبون حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الامور على إرادتهم ومشيئتهم فالمسيطر الغالب ، وفى معناه قول ابن عباس : المسلط القاهر وهو من سيطر على كذا إذا راقبه وأقام عليه وليس مصغراً كما يتوهم ولم يأت على هذه الزنة إلا خمسة ألفاظ أربعة من الصفات، وهى مهيمن. ومسيطر. ومبيقر. ومبيطر ، وواحد من الاسماء ، وهو مجيمر اسم جبل ، وقرأ الاكثر (المصيطرون) بالصاد لمكان حرف الاستعلاء وهو الطاء ، وأشم خلف عن حمزة وخلاد عنه بخلاف الزاى ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ هو مايتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجى به السلامة ثم جعل اسماً لكل مايتوصل به إلى شىء رفيع كالسبب أى أم لهم سلم منصوب إلى السماء ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أى صاعدين فيه على أن الجار والمجرور متعلق بكون خاص محذوف وقع حالا والظرفية على حقيقتها ، وقيل : هو متعلق ـ بيستمعون ـ على تضمينه معنى الصعود .

وقال أبو حيان : أى يستمعون عليه أو منه إذ حروف الجر قد يسد بعضها مسد بعض ومفعول (يستمعون) محذوف أى كلام الله تعالى ، قيل: ولو نزل منزلة اللازم جاز ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ٣٨ ﴾ أى بحجة واضحة تصدق استماعه ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ٣٩ ﴾ تسفيه لهم وتركيك لعقولهم ، وفيه إيذان بأن من هذا رأيه لايكاد يعد من العقلاء فضلا عن الترقى إلى عالم الملكوت وسماع كلام ذى العزة والجبروت والالتفات إلى الخطاب لتشديد الانكار والتوبيخ ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا ﴾ أى على تبليغ الرسالة وهو رجوع إلى خطابه صلى الله تعالى عليه وسلم وإعراض عنهم ﴿ فَهُم ﴾ لأجل ذلك ﴿ مِّن مَّغْرَمٍ ﴾ مصدر ميمى من الغرم والغرامة وهو ـ كما قال الراغب ـ ما ينوب الانسان فى ماله من ضرر لغير جناية منه ، فالكلام بتقدير مضاف أى من التزام مغرم ، وفسره الزمخشرى بالتزام الانسان ماليس عليه فلا حاجة إلى تقدير ـ لكن الذى تقتضيه اللغة هو الأول ـ ﴿ مُّثْقَلُونَ ٤٠ ﴾ أى محملون الثقل فلذلك لايتبعونك ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ ﴾ أى اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ٤١ ﴾ منه ويخبرون به الناس ـ قاله ابن عباس ـ وقال ابن عطية : أم عندهم علم الغيب فهم يثبتون ما يزعمون للناس شرعاً ، وذلك عبادة الاوثان وتسييب السوائب وغير ذلك من سيرهم ، وقال قتادة : (أم عندهم الغيب) فهم يعلمون متى يموت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الذى يتربصون به ، وفسر بعضهم (يكتبون) بيحكمون ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ بك وبشرعك وهو ما كان منهم فى حقه ﷺ بدار الندوة مما هو معلوم من السير ، وهذا من الاخبار بالغيب فان قصة دار الندوة وقعت فى وقت الهجرة وكان نزول السورة قبلها كما تدل عليه الآثار ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ هم المذكورون المريدون كيده عليه الصلاة والسلام،

ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بما فى حيز الصلة من الكفر وتعليل الحكم به ، وجوز أن يراد جميع الكفرة وهم داخلون فيه دخولا أوليا ﴿ هُمُ الْمَكِيدُونَ ٤٢ ﴾ أى الذين يحيق بهم كيدهم ويعود عليهم وباله لامن أرادوا أن يكيدوه وكان وباله فى حق أولئك قتلهم يوم بدر فى السنة الخامسة عشر من النبوة قيل: ولذا وقعت كلمة (أم) مكررة هنا خمس عشرة مرة للاشارة لما ذكر ، ومثله على ماقال الشهاب: لا يستبعد من المعجزات القرآنية وإن كان الانتقال لمثله خفى ومناسبته أخفى ، وجوز أن يكون المعنى هم المغلوبون فى الكيد من كايدته فكدته ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه عز وجل *

﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٤٣ ﴾ أى عن إشراكهم على أن ما مصدرية، أو عن شركة الذى يشركونه على أنها موصولة وقبلها مضاف مقدر والعائد محذوف ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا ﴾ قطعة فهو مفرد وقد قرئ فى جميع القرآن كسفاً وكسفاً جمعا وإفراداً إلا هنا فانه على الافراد وحده ، وتنوينه للتفخيم أى وإن يروا كسفاً عظيما *﴿ مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾* لتعذيبهم *﴿ يَقُولُوا ﴾* من فرط طغيانهم وعنادهم *﴿ سَحَابٌ ﴾* أى هو سحاب *﴿ مَّرْكُومٌ ٤٤ ﴾* متراكم ملقى بعضه على بعض أى هم فى الطغيان بحيث لو أسقطنا عليهم حسبما قالوا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً لقالوا هو سحاب متراكم يمطرنا ولم يصدقوا أنه كسف ساقط لعذابهم *

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ فدعهم غير مكترث بهم وهو على مافى البحر أمر موادعة منسوخ بآية السيف ﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا ﴾ وقرأ أبو حيوة يلقوا مضارع لقى ﴿ يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ٤٥ ﴾ على البناء للمفعول وهى قراءة عاصم وابن عامر وزيد بن على وأهل مكة فى قول شبل بن عباد: من صعقته الصاعقة، أو من أصعقته، وقرأ الجمهور وأهل مكة فى قول إسمعيل: يصعقون بفتح الياء والعين، والسلمى بضم الياء وكسر العين من أصعق رباعيا، والمراد بذلك اليوم يوم بدر ، وقيل: وقت النفخة الأولى فانه يصعق فيه من فى السموات ومن فى الارض، وتعقب بأنه لا يصعق فيه إلا من كان حيا حينئذ وهؤلاء ليسوا كذلك وبأن قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ أى شيئاً من الاغناء بدل من يومهم ، ولا يخفى أن التعرض لبيان عدم نفع كيدهم يستدعى استعمالهم له طمعا بالانتفاع به وليس ذلك إلا مادبروه فى أمره صلى الله تعالى عليه وسلم من الكيد الذى من جملته مناصبتهم يوم بدر ، وأما النفخة الاولى فليست مما يجرى فى مدافعته الكيد والحيل، وأجيب عن الأول بمنع اختصاص الصعق بالحى فالموتى أيضا يصعقون وهم داخلون فى عموم (من) وإن لم يكن صعقهم مثل صعق الاحياء من كل وجه وهو خلاف الظاهر فيحتاج إلى نقل صحيح ، وعن الثانى بأن الكلام على نهج قوله :

* على لاحب لا يهتدى بمناره * فالمعنى يوم لا يكون لهم كيد ولا إغناء وهو كثير فى القرآن وباب من أبواب البلاغة والاحسان، وقيل: هو يوم القيامة ـ وعليه الجمهور ـ وفيه بحث ، وقيل: هو يوم موتهم ، وتعقب بأن فيه مافيه مع أنه تأباه الاضافة المنبئة عن اختصاصه بهم فلا تغفل ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٤٦ ﴾ من جهة الغير فى دفع العذاب عنهم ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى لهم ووضع الموصول موضع الضمير لما ذكر قبل وجوز العموم وهم داخلون دخولا أوليا ﴿ عَذَابًا ﴾ آخر ﴿ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ دون مالاقوه من القتل أى قبله وهو ـ كما قال مجاهد ـ

القحط الذى أصابهم سبع سنين *

وعن ابن عباس هو ماكان عليهم يوم بدر والفتح ، وفسر (دون ذلك) بقبل يوم القيامة بناءاً على كون يومهم الذى فيه يصعقون ذلك ، وعنه أيضاً . وعن البراء بن عازب أنه عذاب القبر وهو مبنى على نحو ذلك التفسير، وذهب اليه بعضهم بناءاً على أن (دون ذلك) بمعنى وراء ذلك كما فى قوله * يريك القذى من دونها وهو دونها * وإذا فسر اليوم بيوم القيامة ونحوه ، و(دون ذلك) بقبله ، وأريد العموم من الموصول فهذا العذاب عذاب القبر ، أو المصائب الدنيوية ، وفى مصحف عبدالله ـ دون ذلك قريباً ـ ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٤٧ ﴾ إن الامر كما ذكر ، وفيه إشارة إلى أن فيهم من يعلم ذلك وإنما يصر على الكفر عناداً ، أو لايعلمون شيئاً *

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ بإمهالهم إلى يومهم الموعود وإبقائك فيما بينهم مع مقاساة الاحزان ومعاناة الهموم ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أى فى حفظنا وحراستنا ، فالعين مجاز عن الحفظ ، ويتجوز بها أيضاً عن الحافظ وهو مجاز مشهور ، وفى الكشاف هو مثل أى بحيث نراك ونكلؤك ، وجمع العين هنا لإضافته إلى ضمير الجمع ووحد فى (طه) لاضافته إلى ضمير الواحد ، ولوح الزمخشرى ـ فى سورة المؤمنين ـ إلى أن فائدة الجمع الدلالة على المبالغة فى الحفظ كأن معه من الله تعالى حفاظاً يكلؤونه بأعينهم ، وقال العلامة الطيبى: إنه أفرد هنالك لافراد الفعل وهو كلاءة موسى عليه السلام ، وههنا لما كان لتصبير الحبيب على المكايد ومشاق التكاليف والطاعات ناسب الجمع لأنها أفعال كثيرة كل منها يحتاج إلى حراسة منه عز وجل انتهى ، ومن نظر بعين بصيرته علم من الآيتين الفرق بين الحبيب والكليم عليهما أفضل الصلاة وأكمل التسليم ، ثم إن الكلام فى نظير هذا على مذهب السلف مشهور ، وقرأ أبو السمال ـ بأعينا ـ بنون مشددة ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أى قل سبحان الله ملتبسا بحمده تعالى على نعمائه الفائتة الحصر ، والمراد سبحه تعالى واحمده ﴿ حِينَ تَقُومُ ٤٨ ﴾ من كل مجلس قاله عطاء . ومجاهد . وابن جبير ، وقد صح من رواية أبى داود . والنسائى . وغيرهما عن أبى برزة الاسلمى « أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقول إذا أراد أن يقوم من المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب اليك فسئل عن ذلك فقال : كفارة لما يكون فى المجلس » والآثار فى ذلك كثيرة ، وقيل : حين تقوم إلى الصلاة ، أخرج أبو عبيد . وابن المنذر عن سعيد بن المسيب قال : « حق على كل مسلم حين يقوم إلى الصلاة أن يقول : سبحان الله وبحمده لأن الله تعالى يقول لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم : (وسبح بحمد ربك حين تقوم) » وأخرج سعيد بن منصور وغيره عن الضحاك أنه قال فى الآية : حين تقوم إلى صلاة تقول هؤلاء الكلمات « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك » وحكاه فى البحر عن ابن عباس؛ وأخرج عنه ابن مردويه أنه قال : « سبح بحمد ربك حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل فى الصلاة » وروى نحوه عن ابن السائب ، وقال زيد أسلم: « حين تقوم من القائلة والتسبيح إذ ذاك هو صلاة الظهر » وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ إفراد لبعض الليل بالتسبيح لما أن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد عن الرياء كما يلوح به تقديمه على الفعل ﴿ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ أى وقت إدبارها من آخر الليل أى غيبتها بضوء الصباح، وقيل: التسبيح من الليل صلاة المغرب والعشاء ، (وإدبار النجوم) ركعتا الفجر ، وعن عمر رضى الله تعالى عنه .

وعلى كرم الله تعالى وجهه . وأبى هريرة . والحسن رضى الله تعالى عنهما التسبيح من الليل النوافل ، و(إدبار النجوم) ركعتا الفجر ، وقرأسالم بن أبى الجعد . والمنهال بن عمرو .ويعقوب ـ أدبار ـ بفتح الهمزة جمع دبر بمعنى عقب أى فى أعقابها إذا غربت ، أوخفيت بشعاع الشمس *

هذا ونظم الآيات من قوله تعالى : (أم يقولون شاعر) إلى قوله سبحانه : (أم لهم إله غير الله) الخ فيه غرابة ولم أر أحداً كشف عن لثامه كصاحب الكشف جزاه الله تعالى خيراً ، ولغاية حسنه ـ وكونه مما لا مزيد عليه ـ أحببت نقله بحذافيره لكن مع اختصار مّا، فأقول: قال : أومأ الزمخشرى إلى وجهين فى ذلك فى قوله تعالى : (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر) : أحدهما أنه حكاية قولهم المضطرب على وجهه، والثانى أنه تدرج منه سبحانه فى حكاية ماقالوه من المنكر إلى ماهو أدخل فيه ، والاول ضعيف فيما نحن فيه لأن ماسيق له الكلام ليس اضطراب أقوالهم فتحكى على ماهى عليه بل تسليته عليه الصلاة والسلام وأنه لا محالة ينتقم له منهم وأن العذاب المكذب به واقع بهم جزاءاً لتكذيبهم بالمنبئ والنبأ والمنبأ به ، فالمتعين هو الثانى ،ووجهه ـ والله تعالى أعلم ـ أن قوله : (فذكر)معناه إذ ثبت كون العذاب واقعاً و كون الفريقين المصدقين والمكذبين مجزيين بأعمالهم ، وإنك على الحق المبين الذى من كذب به استحق الهوان ، ومن صدق استحق الرضوان فدم على التذكير ولا تبال بما تكايد فإنك أنت الغالب حجة وسيفاً فى هذه الدار ، ومنزلة ورفعة فى دار القرار، ومن قوله تعالى :(فما أنت) إلى قوله سبحانه : (هم المكيدون) تفصيل هذا المجمل مع التعريض بفساد مقالاتهم الحمقاء وأنهم بمرأى من الله تعالى ومسمع فلا محالة ينتقم لنبيه عليه الصلاة والسلام منهم، وفيه أن النبى ﷺ من الله تعالى بمكان لا يقادر قدره فهو شد من عضد التسلى، وقوله سبحانه :(فما أنت بنعمة ربك) الخ فيه أن من أنعم عليه بالنبوة يستحيل أن يكون أحد هذين، وبدأ بقولهم المتناقض لينبه أولا على فساد آرائهم ويجعله دستوراً فى إعراضهم عن الحق وإيثار اتباع أهوائهم فما أبعد حال من كان أتقنهم رأيا وأرجحهم عقلا وأبينهم آياً منذ ترعرع الى أن بلغ الأشد عن الجنون والكهانة على أنهما متناقضان لأن الكهان كانوا عندهم من كامليهم وكان قولهم إماماً متبعاً عندهم فأين الكهانة من الجنون ، ثم ترقى مضربا إلى قولهم فيه وحاشاه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه شاعر لأنه أدخل فى الكذب من الكاهن والمجنون وقدماً قيل: أحسن الشعر أ كذبه ليبين حال تلجلجهم واضطرابهم، وقوله تعالى : (قل تربصوا) من باب المجازاة بمثل صنيعهم وفيه تتميم للوعيد ، فهذا باب من إنكارهم هدمه سبحانه أولا تلويحاً بقوله تعالى: (بنعمة ربك) وثانيا تصريحا بقوله جل وعلا . (أم تأمرهم أحلامهم) كأنه قيل دعهم وتلك المقالة وما فيها من الاضطراب ففيها عبرة ، ثم قيل : لا بل ذلك من طغيانهم لأنه أدخل فى الذم من نقصان العقل وأبلغ فى التسلية لأن من طغى على الله عز وجل فقد باء بغضبه، ثم أخذ فى باب أوغل فى الانكار وهو نسبة الافتراء اليه صلى الله تعالى عليه وسلم وذلك لأن الافتراء أبعد شئ من حاله لاشتهاره بالصدق على أن كونه افتراءاً وعجزهم عن الاتيان بأقصر سورة من هذا المفترى متنافيان لدلالته على الصدق على مامر ـ فى الأحقاف ـ ولأن الشاعر لا يتعمد الكذب لذاته ، ثم قد يكون شعره حكما ومواعظ وهو لا ينسب فيه إلى عار ، والتدرج عن الشعر ههنا عكس التدرج اليه فى الأنبياء لأن بناء الكلام ههنا على التدرج فى المناقضة والتوغل فى القدح فيه عليه الصلاة والسلام ونفى رسالته ، وهنالك عن القدح فى بعض من الذكر متجدد النزول فقيل : إن افتراءه لا يبعد ممن هو شاعر ذو افتراءآت كثيرة ، وأين هذا من ذاك ؟ وللتنبيه على التوغل

جيء بصريح حرف الاضراب فى الرد فقيل : (بل لايؤمنون) وعقب بقوله تعالى:(فليأتوا) ثم من لا يؤمن أشد إنكاراً له من الطاغى كما أن المفترى أدخل فى الكذب من الشاعر ، ثم أخذ فى أسلوب أبلغ فى الرد على مقالاتهم الجنون والكهانة لتقاربهما ، ثم الشعر ، ثم الافتراء حيث نزل القائلين منزلة من يدعى أنه خلق من غير شيء أى مقدر وخالق وإلا لأهمهم البحث عن صفاته وأفعاله فلم ينكروا منك ماأنكروا ، ومن حسب أنه مستغن عن الموجد نسب رسوله إلى الجنون والكهانة لا بل كمن يدعى أنه خالق نفسه فلا خالق له ليبحث عن صفاته فهو ينسبه إلى الشعر إذ لايرسل إليه البتة ، والشعر أدخل فى الكذب لا بل كمن يدعى أنه خلق السموات والأرض وما بينهما فهو ينسبه الى الافتراء حيث لم يرسله ، ثم أضرب صريحاً عنه بقوله تعالى : (بل لايوقنون) ومن لاإيقان له بمثل هذا البديهى لا يبعد أن يزنك بما زن ، فكأنه قيل : مقالتهم تلك تؤدى إلى هذه لاأنهم كانوا قائلين بها إظهاراً لتماديهم فى العناد ، ثم بولغ فيه فجيء بما يدل على أن الرسول لا بد أن يكون مفتريا غير صالح للنبوة فى زعمهم ، فالأول لما لم يمنع تعدد الآلهة إنما يدل على افترائه من حيث أن أحد الخالقين لايدعو الآخر إلى عبادته ، والثانى يمنعه بالكلية لأنه إذا كان عندهم جميع خزائن ربه وهم ما أرسلوه لزم أن يكون مفتريا ألبتة ، وأدمج فيه إنكارهم للمعاد ، ونسبتهم إياه صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك أيضا خاصة إلى الافتراء ، والحمل على خزائن القدرة أظهر لأن (أم عندهم الغيب) إشارة إلى خزائن العلم ولما كان المقصود هنالك أمر البعث على ما سيحقق إن شاء الله تعالى كان هذا القول أيضا من القبول بمكان ولا يخفى مافى قوله تعالى : (أم هم المسيطرون) من الترقى ثم لما فرغ من ذلك وبين فساد مابنوا عليه أمر الانكار بدليل العقل قيل : لم يبق إلا المشاهدة والسماع منه تعالى وهو أظهر استحالة فتهكم بهم ، وقيل : (بل لهم سلم يستمعون) وذيل بقوله تعالى : (أم له البنات) إشعاراً بأن من جعل خالقه أدون حالا منه لم يستبعد منه تلك المقالات الخرقاء كأنه سلى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل : ناهيك بتساوى الطعنين فى البطلان وبما يلقون من سوء مغبتهما ، ثم قيل : (أم تسألهم أجراً) أى إن القوم أرباب ألباب وليسوا من تلك الأوصاف فى شيء بل الذى زهدهم فيك أنك تسألهم أجراً مالا ، أو جاها ، أو ذكراً ، وفيه تهكم بهم وذم لهم بالحسد واللؤم وأنهم مع قصور نظرهم عن أمر الميعاد لايبنون الأمر على المتعارف المعتاد إذ لاأحد من أهل الدنيا وذوى الأخطار يحبه الناصح المبرأ ساحته عن لوث الطمع بتلك المقالات على أنه حسد لاموقع له عند ذويه فليسوا فى أن يحصل لهم نعمة النبوة ولاهو ممن يطمع فى نعمهم إحدى الثلاث، ثم قيل : (أم عندهم الغيب) على معنى بل أعندهم اللوح فيعلمون كل ما هو كائن ويكتبون فيه تلك المعلومات وقد علموا أن ما تدعيه من المعاد ليس من الكائن المكتوب، والمقصود من هذا نفى المنبأ به أعنى البعث على وجه يتضمن دفع النبوة أيضا إدماجا عكس الأول ولهذا أخره عن قوله تعالى : (أم لهم سلم) فقد سلف أن مصب الغرض حديث النبأ والمنبأ والمنبأ به فقضى الوطر من الأولين مع الرمز الى الأخير ، ثم أخذ فيه مع الرمز اليهما قضاءاً لحق الاعجاز ، ففى الغيب إشارة إلى الغيب أعنى الساعة أول كل شيء وفيه ترق فى الدفع من وجه أيضا لأن العلم أشمل مورداً من القدرة ولأن الأول إنكار من حيث أنهم لم يرسلوه ، وهذا من تلك الحيثية ، ومن حيث أنهم ماعلموا بإرسال غيره إياه أيضا مع إحاطة علمهم لكنه غير مقصود قصداً أولياً ، ثم ختم الكلام بالإضراب عن الإنكار إلى الاخبار عن حالهم بأنهم يريدون بك كيداً فهم ينصبون لك الحبائل قولا وفعلا

لا يقفون على هذه المقالة وحدها وهم المـكيدون لا أنت قولا وفعلا وحجة وسيفاً ، وحقق ماضمنه من الوعيد بقوله سبحانه : (أم لهم إله غير الله) فينجيهم من كيده وعذابه لا والله سبحان الله عن أن يكون إله غيره، ومنه يظهر أن حمل الذين كفروا على المريدين به كيداً أظهر فى هذا المساق انتهى ، وكأن ما بعد تأكيداً لأمر (١) طغيانهم ومزيد تحقيق للوعيد ومبالغة فى التسلية ، ويعلم مما ذكره - لازالت رحمة الله تعالى عليه متصلة - أن (أم) فى كل ذلك منقطعة وهى مقدرة ببل الاضرابية ، والاضراب ههنا واقع على سبيل الترقى وبالهمزة وهى للإنكار وهو ما اختاره أبو البقاء وكثير من المفسرين ، وحكى الثعلبى عن الخليـل أنها متصلة والمراد بها الاستفهام ، وعليك بما أفاده كلام ذلك الهمام والله تعالى أعلم*

﴿ ومما ذكروه من باب الاشارة فى بعض الآيات ﴾ (والطور) إشارة إلى قالب الانسان (وكتاب مسطور) إشارة إلى سره (فى رق منشور) إشارة إلى قلبه (والبيت المعمور) إشارة إلى روحه (والسقف المرفوع) إشارة إلى صفته (والبحر المسجور) إشارة إلى نفسه المسجورة بنيران الشهوة والغضب والكبر، وقيل : - الطور - إشارة إلى ماطار من الارواح من عالم القدس والملـكوت حتى وقع فى شباك عالم الملك - والـكتاب المسطور فى الرق المنشور - إشارة إلى النقوش الإلهية المدركة بأبصار البصائر القدسية المكتوبة فى صحائف الآفاق (والبيت المعمور) إشارة إلى قلب المؤمن المعمور بالمعرفة والاخلاص (والسقف المرفوع) إشارة إلى العالم العلوى المرفوع عن أرض الطبيعة (والبحر المسجور) إشارة إلى بحر القدرة المملوء من أنواع المقدورات التى لا تتناهى، وقيل : إشارة إلى الفضاء الذى فيه الملائـكة المهيمون ؛ ووصفه - بالمسجور - إما لأنه مملوء منهم ، وإما لأنه سجر بنيران الهيام ولذا لا يعلم أحدهم بسوى الله عز وجل ، وقيل : غير ذلك (فويل يومئذ للمكذبين الذين هم فى خوض يلعبون) أى يخوضون فى غمرات البحر اللجى الدنيوى ويلعبون فيها بزبدها الباطل ومتاعها القليل ويكذبون المستخاصين عن الاكدار المتحلين بالانوار إذ أنذروهم أن المتقين هم أضداد أولئك (فاكهين بما آتاهم ربهم) مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) وهو عذاب الحجاب (كلوا) من ثمرات المعارف المختصة باللطيفة النفسية (واشربوا) من مياه العيون المختصة باللطيفة القلبية (وسبح بحمد ربك حين تقوم) أى مقام العبودية (ومن الليل فسبحه) أى عند نزول السكينة عليك (وإدبار النجوم) أى عند ظهور نور شمس الوجه ، وتسبيحه سبحانه عند ذلك بالاحتراز عن إثبات وجود غير وجوده تعالى الحق فان إثبات ذلك شرك مطلق فى ذلك المقام أعاذنا الله تعالى وإياكم من الشرك بحرمة الحبيب عليه الصلاة والسلام*

---

(١) هكذا الأصل وصوابه «تأكيد لأمر طغيانهم» برفع تأكيد

﴿سورة والنجم﴾

وتسمى أيضا سورة - النجم - بدون واو وهي ﴿مكية﴾ على الاطلاق ، وفي الاتقان استثنى منها (الذين يجتنبون) إلى اتقى ، وقيل : (أفرأيت الذي تولى) الآيات التسع ، ومن الغريب حكاية الطبرسي عن الحسن أنها مدنية . ولا أرى صحة ذلك عنه أصلا ، وآيها اثنتان وستون آية في الكوفي ، وإحدى وستون في غيره ، وهي كما أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أول سورة أعلن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقراءتها فقرأها في الحرم والمشركون يسمعون ، وأخرج البخاري . ومسلم . وأبو داود . والنسائي عنه قال : « أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم) فسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسجد الناس كلهم إلا رجلا رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قتل كافراً » وهو أمية بن خلف ، وفي البحر أنه عليه الصلاة والسلام سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والانس غير أبي لهب فانه رفع حفنة من تراب وقال : يكفي هذا ، فيحتمل أنه وأمية فعلا كذلك ، وهي شديدة المناسبة لما قبلها فان الطور ختمت بقوله تعالى : (إدبار النجوم) وافتتحت هذه بقوله سبحانه : (والنجم) وأيضا في مفتتحها ما يؤكد رد الكفرة فيما نسبوه اليه صلى الله تعالى عليه وسلم من التقول والشعر والكهانة والجنون ، وذكر أبو حيان أن سبب نزولها قول المشركين : إن محمداً عليه الصلاة والسلام يختلق القرآن ، وذكر الجلال السيوطي في وجه مناسبتها أن الطور فيها ذكر ذرية المؤمنين وأنهم تبع لآبائهم وهذه فيها ذكر ذرية اليهود في قوله تعالى : (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الارض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم) الآية فقد أخرج ابن المنذر . وابن أبي حاتم . والطبري . وأبو نعيم في المعرفة . والواحدي عن ثابت بن الحرث الانصاري « قال : كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا هو صديق فبلغ ذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمها إلا أنه شقي أو سعيد فأنزل الله تعالى عند ذلك (وهو أعلم بكم) الآية كلها » وأنه تعالى لما قال هناك في المؤمنين : (ألحقنا بهم ذريتهم) الخ قال سبحانه هنا في الكفار ، أو في الكبار : (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) خلاف ما دخل في المؤمنين الصغار ، ثم قال : وهذا وجه بديع في المناسبة من وادي التضاد ، وفي صحة كون قوله تعالى : (هو أعلم بكم) الآية نزل لما ذكر نظر عندي ، و كون قوله تعالى : (ألحقنا بهم ذريتهم) في الصغار لم يتفق عليه المفسرون كما سمعت غير بعيد ، نعم من تأمل ظهر له وجوه من المناسبات غير ما ذكر فتأمل ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ أقسم سبحانه بجنس النجم المعروف على ما روي عن الحسن ومعمر بن المثنى ، ومنه قوله :

فباتت تعد النجم في مستحيرة سريع بأيدي الآكلين جمودها

ومعنى (هوى) غرب ، وقيل : طلع يقال هوى يهوي كرمى يرمي هويا بالفتح في السقوط والغروب لمشابهته له ؛ وهويا بالضم للعلو والطلوع ، وقيل : الهوي بالفتح للاصعاد والهوي بالضم للانحدار ؛ وقيل : الهوي بالفتح والضم السقوط ويقال أهوى بمعنى هوى ، وفرق بعض اللغويين بينهما بأن هوى إذا انقض لغير صيد ، وأهوى

إذا انقض له ، وقال الحسن . وأبو حمزة الثمالى: أقسم سبحانه بالنجوم إذا انتثرت فى القيامة ، وعن ابن عباس فى رواية أقسم عز وجل بالنجوم إذا انقضت فى إثر الشياطين، وقيل: المراد بالنجم معين فقال مجاهد. وسفيان: هو الثريا فإن النجم صار علما بالغلبة لها ، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : «إذا طلع النجم صباحا ارتفعت العاهة» وقول العرب: ـ طلع النجم عشاءاً فابتغى الراعى كساء ، طلع النجم غدية فابتغى الراعى كسية ـ وفسر هويها بسقوطها مع الفجر، وقيل: هو الشعرى المرادة بقوله تعالى: (وأنه هو رب الشعرى) والكهان يتكلمون على المغيبات عند طلوعها ، وقيل: الزهرة وكانت تعبد ، وقال ابن عباس . ومجاهد . والفراء. ومنذر بن سعيد : (النجم) المقدار النازل من القرآن على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، (وإذا هوى) بمعنى إذا نزل عليه مع ملك الوحى جبريل عليه السلام، وقال جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه : هو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهويه نزوله من السماء ليلة المعراج، وجوز على هذا أن يراد بهويه صعوده وعروجه عليه الصلاة والسلام إلى منقطع الأين ، وقيل: هو الصحابة رضى الله تعالى عنهم، وقيل: العلماء على إرادة الجنس، والمراد بهويهم قيل: عروجهم فى معارج التوفيق إلى حضائر التحقيق ، وقيل : غوصهم فى بحار الافكار لاستخراج درر الأسرار . وأظهر الاقوال القول بأن المراد بالنجم جنس النجم المعروف فان أصله اسم جنس لكل كوكب، وعلى القول بالتعيين فالأظهر القول بأنه الثريا، ووراء هذين القولين القول بأن المراد به المقدار النازل من القرآن، وفى الإقسام بذلك على نزاهته عليه الصلاة والسلام عن شائبة الضلال والغواية من البراعة البديعة وحسن الموقع ما لا غاية وراءه ، أما على الأولين فلأن النجم شأنه أن يهتدى به السارى إلى مسالك الدنيا كأنه قيل : (والنجم) الذى تهتدى به السابلة إلى سواء السبيل ﴿ مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ أى ماعدل عن طريق الحق الذى هو مسلك الآخرة فهو استعارة وتمثيل لكونه عليه الصلاة والسلام على الصواب فى أقواله وأفعاله ﴿ وَمَاغَوَىٰ ٢ ﴾ أى وما اعتقد باطلا قط لان الغى الجهل مع اعتقاد فاسد وهو خلاف الرشد فيكون عطف هذا على (ماضل) من عطف الخاص على العام اعتناءاً بالاعتقاد ، وإشارة إلى أنه المدار ٭

وأما على الثالث فلأنه تنويه بشأن القرآن وتنبيه على مناط اهتدائه عليه الصلاة والسلام ومدار رشاده كأنه قيل : وما أنزل عليك من القرآن الذى هو علم فى الهداية إلى مناهج الدين ومسالك الحق واليقين (ماضل) عنها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم (وماغوى) فهو من باب ٭ وثناياك أنها إغريض ٭ والخطاب لقريش وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان المصاحبة لهم للايذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة وإحاطتهم خبراً ببراءته صلى الله تعالى عليه وسلم مما نفى عنه بالكلية وباتصافه عليه الصلاة والسلام بغاية الهدى والرشاد فان طول صحبتهم له عليه الصلاة والسلام ومشاهدتهم لمحاسن شئونه العظيمة مقتضية لذلك حتما ففى ذلك تأكيد لاقامة الحجة عليهم ، واختلف فى متعلق إذا قال بعضهم : فاوضت جار الله فى قوله تعالى : (والنجم إذا هوى) فقال: العامل فيه ما تعلق به الواو فقلت : كيف يعمل فعل الحال فى المستقبل ؟! وهذا لأن معناه أقسم الآن لا أقسم بعد هذا ، فرجع وقال : العامل فيه مصدر محذوف، والتقدير ـ وهوى النجم اذا هوى ـ فعرضته على بعض المشايخ فلم يستحسن قوله الثانى ، والوجه تعلقه بأقسم وهو قد انسلخ عنه معنى الاستقبال وصار للوقت المجرد ونحوه آتيك إذا احمر البسر أي وقت احمراره ، وقال عبد القاهر : إخبار الله تعالي بالمتوقع يقام مقام الإخبار بالواقع

إذا لاخلاف فيه فيجرى المستقبل مجرى المحقق الماضى ، وقيل : إنه متعلق بعامل هو حال من النجم ، وأورد عليه أن الزمان لايكون خبرا ولا حالا عن جثة كما هنا ، وأن (إذا) للمستقبل فكيف يكون حالا إلا أن تكون حالا مقدرة أو تجرد (إذا) لمطلق الوقت كما يقال بصحية الحالية إذا أفادت معنى معتداً به ، فمجىء الزمان خبراً أو حالا عن جثة ليس ممنوعا على الاطلاق كما ذكره النحاة ، أو النجم لتغيره طلوعا وغروبا أشبه الحدث ، والانصاف أن جعله حالا كتعلقه بمصدر محذوف ليس بالوجه ، وإنما الوجه ، ـ على ما قيل ـ ما سمعت من تعلقه بأقسم منسلخا عنه معنى الاستقبال وهو الذى اختاره فى المغنى ، وتخصيص القسم بوقت الهوى ظاهر على الأخير من الأقوال الثلاثة ، وأما على الأولين فقيل : لان النجم لايهتدى به السارى عند كونه فى وسط السماء ولا يعلم المشرق من المغرب ولا الشمال من الجنوب ، وإنما يهتدى به عند هبوطه ، أو صعوده مع مافيه من كمال المناسبة لما سيحكى من التدلى والدنو ، وقيل: لدلالته على حدوثه الدال على الصانع وعظيم قدرته عز وجل كما قال الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأكمل السلام (لاأحب الآفلين) وسيأتى إن شاء الله تعالى آخر الكتاب تمام الكلام فى تحقيق إعراب مثل هذا التركيب فلاتغفل ﴿ وَمَا يَنطِقُ ﴾ أى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لتقدم ذكره فى قوله سبحانه:(صاحبكم) والنطق مضمن معنى الصدور فلذا عدى بعن فى قوله تعالى : ﴿عَنِ الْهَوَىٰ ٣﴾ وقيل : هى بمعنى الباء وليس بذاك أى مايصدر نطقه فيما آتاكم به من جهته عز وجل كالقرآن ، أومن القرآن عن هوى نفسه ورأيه أصلا فان المراد استمرار النفى كما مر مراراً فى نظائره ﴿إِنْ هُوَ﴾ أى ما الذى ينطق به من ذلك أو القرآن وكل ذلك مفهوم من السياق ﴿إِلَّا وَحْيٌ﴾ من الله عز وجل ﴿يُوحَىٰ ٤﴾ يوحيه سبحانه اليه ، والجملة صفة مؤكدة لوحى رافعة لاحتمال المجاز مفيدة للاستمرار التجددى ، وقيل: ضمير (ينطق) للقرآن فالآية كقوله تعالى : (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) وهو خلاف الظاهر ، وقيل : المراد مايصدر نطقه عليه الصلاة والسلام مطلقاً عن هوى وهو عائد لما ينطق به مطلقا أيضا

واحتج بالآية على هذا التفسير من لم ير الاجتهاد له عليه الصلاة والسلام كأبى على الجبائى. وابنه أبى هاشم ، ووجه الاحتجاج أن الله تعالى أخبر بأن جميع ماينطق به وحى وما كان عن اجتهاد ليس بوحى فليس مما ينطق، وأجيب بأن الله تعالى إذا سوغ له عليه الصلاة والسلام الاجتهاد كان الاجتهاد وما يسند اليه وحياً لانطقاً عن الهوى ، وحاصله منع كبر القياس ، واعترض عليه بأنه يلزم أن تكون الأحكام التى تستنبطها المجتهدون بالقياس وحياً ، وأجيب بأن النبي عليه الصلاة والسلام أوحى اليه أن يجتهد بخلاف غيره من المجتهدين ، وقال القاضى البيضاوى : إنه حينئذ بالوحى لاوحى ، وتعقبه صاحب الكشف بأنه غير قادح لأنه بمنزلة أن يقول الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : متى ما ظننت بكذا فهو حكمى أى كل ما ألقيته فى قلبك فهو مرادى فيكون وحياً حقيقة ، والظاهر أن الآية واردة فى أمر التنزيل بخصوصه وإن كان مثله الأحاديث القدسية والاستدلال بها على أنه عليه الصلاة والسلام غير متعبد بالوحى محوج لارتكاب خلاف الظاهر وتكلف فى دفع نظر البيضاوى عليه الرحمة كما لايخفى على المنصف ، ولايبعد عندى أن يحمل قوله تعالى :(وما ينطق عن الهوى) على العموم فان من يرى الاجتهاد له عليه الصلاة والسلام كالامام أحمد . وأبى يوسف عليهما الرحمة

لايقول بأن ما ينطق به صلى الله تعالى عليه وسلم مما أدى اليه اجتهاده صادر عن هوى النفس وشهوتها حاشا حضرة الرسالة عن ذلك وإنما يقول هو واسطة بين ذلك وبين الوحى ويجعل الضمير فى قوله سبحانه : (إن هو إلا وحى) للقرآن على أن الكلام جواب سؤال مقدر كأنه قيل . إذا كان شأنه عليه الصلاة والسلام أنه ماينطق عن الهوى فما هذا القرآن الذى جاء به وخالف فيه ما عليه قومه واستمال به قلوب كثير من الناس وكثرت فيه الاقاويل ؟ فقيل : ماهو إلا وحى يوحيه الله عز وجل اليه صلى الله تعالى عليه وسلم فتأمل ،وفى الكشف أن فى قوله تعالى : (ماينطق)مضارعاً مع قوله سبحانه :(ماضل)(وماغوى)مايدل على أنه عليه الصلاة والسلام حيث لم يكن له سابقة غواية وضلال منذ تميز وقبل تحنكه واستنبائه لم يكن له نطق عن الهوى كيف وقد تحنك ونبىء، وفيه حثهم على أن يشاهدوا منطقه الحكيم ﴿عَلَّمَهُ﴾ الضمير للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والمفعول الثانى محذوف أى القرآن، أو الوحى ،وجوز أبو حيان كون الضمير للقرآن، وأن المفعول الأول محذوف أى علمه الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿شَدِيدُ الْقُوَى ٥﴾ هو جبريل عليه السلام كما قال ابن عباس. وقتادة . والربيع ، فانه الواسطة فى إبداء الخوارق وناهيك دليلا على شدة قوته أنه قلع قرى قوم لوط من الماء الاسود الذى تحت الثرى وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء ثم قلبها ، وصاح بثمود صيحة فأصبحوا جاثمين وكان هبوطه على الأنبياء عليهم السلام وصعوده فى أسرع من رجعة الطرف ، فهو لعمرى أسرع من حركة ضياء الشمس على ماقرروه فى الحكمة الجديدة ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ذو حصافة واستحكام فى العقل كما قال بعضهم ، فكأن الأول وصف بقوة الفعل ، وهذا وصف بقوة النظر والعقل لكن قيل : إن ذاك بيان لما وضع له اللفظ فان العرب تقول لكل قوى العقل والرأى (ذو مرة) من أمررت الحبل إذا أحكمت فتله. وإلا فوصف الملك بمثله غير ظاهر فهو كناية عن ظهور الآثار البديعة ، وعن سعيد بن المسيب ذو حكمة لأن كلام الحكماء متين، وروى الطستى أن نافع بن الازرق سأل ابن عباس عنه فقال: ذو شدة فى أمر الله عز وجل واستشهد له ، وحكى الطيبى عنه أنه قال: ذو منظر حسن واستصوبه الطبرى، وفى معناه قول مجاهد، ذو خلق حسن: وهو فى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « لاتحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى » بمعنى ذى قوة ،وفى الكشف إن المرة لأنها فى الأصل تدل على المرة بعد المرة تدل على زيادة القوة فلا تغفل ﴿فَاسْتَوَى ٦﴾ أى فاستقام على صورته الحقيقية التى خلقه الله تعالى عليها وذلك عند حراء فى مبادى النبوة وكان له عليه الصلاة والسلام ـ كما فى حديث أخرجه الامام أحمد . وعبد بن حميد . وجماعة عن ابن مسعود ـ ستمائة جناح كل جناح منها يسد الأفق فالاستواء ههنا بمعنى اعتدال الشئ فى ذاته كما قال الراغب ، وهو المراد بالاستقامة لاضد الاعوجاج ، ومنه استوى الثمر إذا نضج ، وفى الكلام على ماقال الخفاجى : طى لأن وصفه عليه السلام بالقوة وبعض صفات البشر يدل على أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رآه فى غير هيئته الحقيقية وهذا تفصيل لجواب سؤال مقدر كأنه قيل : فهل رآه على صورته الحقيقية .فقيل؟ نعم رآه فاستوى الخ، وفى الارشاد أنه عطف على علمه بطريق التفسير فانه إلى قوله تعالى: (ماأوحى) بيان لكيفية التعليم،وتعقب بأن الكيفية غير منحصرة فيما ذكر، ومن هنا قيل : إن الفاء للسببية فان تشكله عليه السلام بشكله يتسبب عن قوته وقدرته على الخوارق أو عاطفة على (علمه) على معنى علمه على غير صورته الاصلية،ثم استوى على صورته الاصلية. وتعقب بأنه لايتم به التئام الكلام ويحسن به النظام ، وقيل:

استوى بمعنى ارتفع والعطف على علم ، والمعنى ارتفع إلى السماء بعد أن علمه وأكثر الآثار تقتضي ماتقدم *
﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ٧ ﴾ أى الجهة العليا من السماء المقابلة للناظر،وأصله الناحية وما ذكره أهل الهيئة معنى اصطلاحى وينقسم عندهم إلى حقيقى وغيره كما فصل فى محله ، وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس أن المراد به هنا مطالع الشمس وفى معناه قول الحسن : هو أفق المشرق،والجملة فى موضع الحال من فاعل استوى،وقال الفراء . والطبرى:إن هو عطف على الضمير المستتر فى استوى وهو عائد إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كما أن ذلك عائد لجبريل عليه السلام،وجوز العكس،والجار متعلق باستوى وفيه العطف على الضمير المرفوع من غير فصل، وهو مذهب الكوفيين مع أن المعنى ليس عليه عند الأكثرين ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ أى ثم قرب جبريل عليه السلام من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ فَتَدَلَّىٰ ٨ ﴾ فتعلق جبريل عليه عليه الصلاة والسلام فى الهواء،ومنه تدلت الثمرة ودلى رجليه من السرير . والدوالى الثمر المعلق كعناقيد العنب وأنشدوا لابى ذؤيب يصف مشتار عسل:

تدلى عليها بين سب وخيطة بجرداء مثل الوكف يكبو غرابها

ومن أسجاع ابنة الخس ـ كن حذراً كالقرلى إن رأى خيراً تدلى،وإن رأى شراً تولى ـ فالمراد بالتدلى دنو خاص فلا قلب ولا تأويل بإرادة الدنو كما فى الايضاح،نعم إن جعل بمعنى التنزل من علو كما يرشد إليه الاشتقاق كان له وجه ﴿ فَكَانَ ﴾ أى جبريل عليه السلام من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ أى من قسى العرب لأن الاطلاق ينصرف إلى متعارفهم،والقاب،وكذا القيب.والقاد.والقيد.والقيس المقدار،وقرأ زيد بن على قاد ، وقرىء قيد وقدر،وقد جاء التقدير بالقوس كالرمح والذراع وغيرهما ، ويقال على ما بين مقبض القوس وسيتها،وهى ماعطف من طرفيها فلكل قوس قابان،وفسر به هنا قيل:وفى الكلام عليه قلب أى فكان قابى قوس،وفى الكشف لك أن تقول قابا قوس وقاب قوسين واحد دون قلب ، وعن مجاهد.والحسن أن قاب القوس ما بين وترها ومقبضها ولا حاجة إلى القلب عليه أيضا فإن هذا على ما قال:الخفاجى إشارة إلى ما كانت العرب فى الجاهلية تفعله إذا تحالفوا فإنهم كانوا يخرجون قوسين ويلصقون إحداهما بالأخرى فيكون القاب ملاصقا للآخر حتى كأنهما ذا قاب واحد ثم ينزعونهما معا ويرمون بهما سهماً واحداً فيكون ذلك إشارة إلى أن رضا أحدهم رضا الآخر وسخطه سخطه لا يمكن خلافه،وعن ابن عباس القوس هنا ذراع يقاس به الأطوال وإليه ذهب أبو رزين،وذكر الثعلبي أنه من لغة الحجاز،وأياً ما كان فالمعنى على حذف مضاف ـ أى فكان ذا قاب قوسين ـ ونحوه قوله :

فادرك إبقاء العرادة ظلعها وقد جعلتنى من (خزيمة أصبعا)

فإنه على معنى ذا مقدار أصبع وهو القرب فكأنه قيل فكان قريبا منه،وجوز أن يكون ضمير كان للمسافة بتأويلها بالبعد ونحوه فلا حاجة الى اعتبار الحذف وليس بذاك ﴿ أَوْ أَدْنَىٰ ٩ ﴾ أى أو أقرب من ذلك،و(أو) للشك من جهة العباد على معنى إذا رآه الرائى يقول:هو قاب قوسين أو أدنى،والمراد إفادة شدة القرب ﴿ فَأَوْحَىٰ ﴾ أى جبريل عليه السلام ﴿ إِلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ أى عبد الله وهو النبي ﷺ ، والاضمار ولم يجر له تعالى ذكر لكونه فى غاية الظهور ومثله كثير فى الكلام ، ومنه (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة)

وقوله سبحانه: (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) ﴿مَا أَوْحَىٰ ١٠﴾ أى الذى أوحاه والضمير المستتر لجبريل عليه السلام أيضا، وإبهام الموحى به للتفخيم فهذا نظير قوله تعالى :(فغشيهم من اليم ماغشيهم) وقال أبو زيد: الضمير المستتر لله عز وجل أى أوحى جبريل إلى عبد الله ماأوحاه الله إلى جبريل، والأول مروى عن الحسن وهو الأحسن، وقيل ضمير (أوحى) الأول والثانى لله تعالى، والمراد بالعبد جبريل عليه السلام وهو كما ترى ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ أى فؤاد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿مَا رَأَىٰ ١١﴾ مارآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام أى ماقال فؤاده صلى الله تعالى عليه وسلم لما رآه ببصره لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذباً لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره فهو من قولهم كذب إذا قال كذبا فما كذب بمعنى ماقال الكذب، وقيل: أى (ما كذب الفؤاد) البصر فيما حكاه له من صورة جبريل عليه السلام وما فى عالم الملكوت تدرك أولا بالقلب ثم تنتقل منه إلى البصر . قرأ أبو رجاء وأبو جعفر . وقتادة. والجحدرى . وخالد بن الياس . وهشام عن ابن عامر (ما كذب) مشدداً أى صدقه ولم يشك أنه جبريل عليه السلام بصورته، وفى الآيات من تحقيق أمر الوحى مافيها ، وفى الكشف أنه لما قال سبحانه : (إن هو إلا وحى) أى من عند الله تعالى (يوحى) ذكر جل وعلا مايصور هذا المعنى ويفصله ليتأكد أنه وحى وأنه ليس من الشعر وحديث الكهان فى شىء فقال تعالى (علم صاحبكم) هذا الوحى من هو على هذه الصفات، وقوله تعالى : (فاستوى) وحديث قيامه بصورته الحقيقية ليؤكد أن ما يأتيه فى صورة دحية هو هو فقد رآه بصورة نفسه وعرفه حق معرفته فلا يشتبه عليه بوجه ، وقوله تعالى : (ثم دنا فتدلى) تتميم لحديث نزوله اليه عليه الصلاة والسلام وإتيانه بالمنزل ، وقوله سبحانه : (فأوحى) أى جبريل ذلك الوحى الذى مر أنه من عند الله تعالى إلى عبد الله وإنما قال سبحانه : - ما أوحى - ولم يأت بالضمير تفخيما لشأن المنزل وأنه شىء يجل عن الوصف فأنى يستجيز أحد من نفسه أن يقول إنه شعر أو حديث كاهن، وإيثار عبده بدل اليه أى إلى صاحبكم لإضافة الاختصاص وإيثار الضمير على الاسم العلم فى هذا المقام لترشيحه وأنه ليس عبداً إلا له عز وجل فلا لبس لشهرته بأنه عبد الله لاغير ، وجاز أن يكون التقدير فأوحى الله تعالى بسببه أى بسبب هذا المعلم إلى عبده ففى الفاء دلالة على هذا المعنى وهذا وجه أيضا سديد ، ثم قال سبحانه : (ما كذب الفؤاد ما رأى) على معنى أنه لما عرفه وحققه لم يكذبه فؤاده بعد ذلك ولو تصور بغير تلك الصورة إنه جبريل ، فهذا نظم سرى مرعى فيه النكت حق الرعاية مطابق للوجود لم يعدل به عن وأجب الوفاق بين البداية والنهاية انتهى *

وهو كلام نفيس يرجح به ماروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها وسيأتى ذلك إن شاء الله عز وجل بماله وعليه

﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢﴾ أى أتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة فتمارونه عطف على محذوف على ماذهب اليه الزمخشرى من المراء وهو المجادلة واشتقاقه من مرى الناقة إذا مسح ظهرها وضرعها ليخرج لبنها وتدر به فشبه به الجدال لأن كلا من المتجادلين يطلب الوقوف على ماعند الآخر ليلزمه الحجة فكأنه يستخرج دره *

وقرأ على كرم الله تعالى وجهه . وعبد الله. وابن عباس. والجحدرى. ويعقوب. وابن سعدان. وحمزة. والكسائى. وخلف (أفتمرونه) بفتح التاء وسكون الميم مضارع مريت أى جحدت يقال: مريته حقه إذا جحدته ، وأنشدوا لذلك قول الشاعر :

لئن هجرت أخا صدق ومكرمة لقد (مريت) أخا ما كان يمريكا

أو مضارع مريته إذا غلبته فى المراء على أنه من باب المغالبة، ويجوز حمل مافى البيت عليه وعدى الفعل بعلى وكان حقه أن يعدى بفى لتضمينه معنى المغالبة فان المجادل والجاحد يقصدان بفعلهما غلبة الخصم، وقرأ عبدالله فيما حكى ابن خالويه. والشعبي فيما ذكر شعبة (أفتمرونه) بضم التاء وسكون الميم مضارع أمريت قال أبو حاتم: وهو غلط، والمراد بما يرى مارآه من صورة جبريل عليه السلام، وعبر بالمضارع استحضاراً للصورة الماضية لما فيها من الغرابة، وفى البحر جئ بصيغة المضارع وإن كانت الرؤية قد مضت إشارة إلى ما يمكن حدوثه بعد، وقيل: المراد (أفتمارونه على مايرى) من الصور التى يظهر بها جبريل عليه السلام بعد مارآه قبل وحققه بحيث لا يشتبه عليه بأى صورة ظهر فالتعبير بالمضارع على ظاهره ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ ﴾ أى رأى النبي جبريل ﷺ فى صورته التى خلقه الله تعالى عليها ﴿ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣ ﴾ أى مرة أخرى من النزول وهى فعلة من النزول أقيمت مقام المرة ونصبت نصبها على الظرفية لأن أصل المرة مصدر مر يمر ولشدة اتصال الفعل بالزمان يعبر به عنه ولم يقل مرة بدلها ليفيد أن الرؤية فى هذه المرة كانت بنزول ودنو كالرؤية فى المرة الاولى الدال عليها مامر، وقال الحوفى. وابن عطية: إن نزلة منصوب على المصدرية للحال المقدرة أى نازلا نزلة، وجوز أبو البقاء كونه منصوبا على المصدرية - لرأى - من معناه أى رؤية أخرى وفيه نظر، والمراد من الجملة القسمية نفى الريبة والشك عن المرة الاخيرة وكانت ليلة الاسراء ﴿ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ هى شجرة نبق عن يمين العرش فى السماء السابعة على المشهور، وفى حديث أخرجه أحمد. ومسلم. والترمذى. وغيرهم فى السماء السادسة نبقها كقلال هجر وأوراقها مثل آذان الفيلة يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لا يقطعها، وأخرج الحاكم وصححه عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنهما مرفوعا «يسير الراكب فى الفنن منها مائة سنة» والاحاديث ظاهرة فى أنها شجرة نبق حقيقة *

والنبات فى الشاهد يكون ترابيا ومائيا وهوائيا، ولا يبعد من الله تعالى أن يخلقه فى أى مكان شاء وقد أخبر سبحانه عن شجرة الزقوم أنها تنبت فى أصل الجحيم، وقيل: إطلاق السدرة عليها مجاز لانها تجتمع عندها الملائكة عليهم السلام كما يجتمع الناس فى ظل السدرة، و(المنتهى) اسم مكان وجوز كونه مصدراً ميمياً، وقيل: لها (سدرة المنتهى) لانها كما أخرج عبد بن حميد. وابن أبى حاتم عن ابن عباس اليها ينتهى علم كل عالم وماوراءها لا يعلمه إلا الله تعالى، أو لانها ينتهى اليها علم الانبياء عليهم السلام ويعزب علمهم عما وراءها . أو لانها تنتهى اليها أعمال الخلائق بأن تعرض على الله تعالى عندها، أو لانها ينتهى اليها ماينزل من فوقها وما يصعد من تحتها . أو لانها تنتهى اليها أرواح الشهداء أو أرواح المؤمنين مطلقا . أو لانتهاء من رفع اليها فى الكرامة، وفى الكشاف كأنها منتهى الجنة وآخرها، وإضافة (سدرة) إلى (المنتهى) من إضافة الشئ لمحله كما فى أشجار البستان، وجوز أن تكون من إضافة المحل إلى الحال كما فى قولك كتاب الفقه، وقيل: يجوز أن يكون المراد بالمنتهى الله عز وجل فالاضافة من إضافة الملك إلى المالك أى (سدرة) الله الذى اليه (المنتهى) كما قال سبحانه: (وأن إلى ربك المنتهى) وعد ذلك من باب الحذف والايصال ولا يخفى أن هذا القول يكاد يكون المنتهى فى البعد ﴿ عِندَهَا ﴾ أى عند السدرة، وجوز أن يكون الضمير للنزلة وهو نازل عن رتبة القبول ﴿ جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ١٥ ﴾ التى يأوى اليها المتقون يوم القيامة كما روى عن الحسن، واستدل به على أن الجنة فى السماء، وقال ابن عباس بخلاف عنه. وقتادة:

هى جنة تأوى اليها أرواح الشهداء وليست بالتى وعد المتقون ، وقيل : هى جنة تأوى اليها الملائكة عليهم السلام والاول أظهر ، والمأوى على مانص عليه الجمهور اسم مكان وإضافة الجنة اليه بيانية ، وقيل : من إضافة الموصوف إلى الصفة كما فى مسجد الجامع ، وتعقب بأن اسم المكان لا يوصف به ، والجملة حالية ، وقيل : الحال هو الظرف ، و(جنة) مرتفع به على الفاعلية ، وقرأ على كرم الله تعالى وجهه . وأبو الدرداء . وأبو هريرة . وابن الزبير . وأنس . وزر . ومحمد بن كعب . وقتادة : (جنه) بهاء الضمير وهو ضمير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجن فعل ماض أى عندها ستره إيواء الله تعالى ، وجميل صنعه به ، أو ستره المأوى بظلاله ودخل فيه على أن (المأوى) مصدر ميمى ، أو اسم مكان ، وجنه بمعنى ستره ، قال أبو البقاء : شاذ والمستعمل أجنه ، ولهذا قالت عائشة رضى الله تعالى عنها . و كذا جمع من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين : من قرأ به فأجنه الله تعالى أى جعله مجنوناً أو أدخله الجن وهو القبر ، وأنت تعلم أنه إذا صح أنه قرأ به الامير كرم الله تعالى وجهه ومن معه من أكابر الصحابة فليس لأحد رده من حيث الشذوذ فى الاستعمال ، وعائشة قد حكى عنها الاجازة أيضاً *

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ متعلق برآه ، وقيل : بما بعد من الجملة المنفية ولا يضر التقدم على (ما) النافية للتوسع فى الظرف والغشيان بمعنى التغطية والستر ، ومنه الغواشى أو بمعنى الاتيان يقال فلان يغشى زيداً كل حين أى يأتيه . والأول هو الأليق بالمقام ، وفى إبهام (مايغشى) من التفخيم مالا يخفى فكأن الغاشى أمر لا يحيط به نطاق البيان ولا تسعه أردان الاذهان ، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها البديعة ، وجوز أن يكون للايذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد ، وورد فى بعض الاخبار تعيين هذا الغاشى ، فعن الحسن غشيها نور رب العزة جل شأنه فاستنارت . ونحوه ماروى عن أبى هريرة يغشاها نور الخلاق سبحانه ، وعن ابن عباس غشيها رب العزة عز وجل وهو من المتشابه ، وقال ابن مسعود . ومجاهد . وابراهيم : يغشاها جراد من ذهب ، وروى عن مجاهد أن ذلك تبدل أغصانها لؤلؤاً وياقوتا وزبرجداً *

وأخرج عبد بن حميد عن سلمة قال : استأذنت الملائكة الرب تبارك وتعالى أن ينظروا إلى النبي ﷺ فأذن لهم فغشيت الملائكة السدرة لينظروا اليه عليه الصلاة والسلام ، وفى حديث « رأيت على كل ورقة من ورقها ملكا قائماً يسبح الله تعالى » وقيل : يغشاها رفرف من طير خضر ، والابهام على هذا كله على نحو ماتقدم *

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ ﴾ أى ما مال بصر رسول الله صلى الله تعالى عليه عما رآه ﴿ وَمَا طَغَى ﴾ وما تجاوزه بل أثبته إثباتا صحيحاً مستيقناً ، وهذا تحقيق للامر ونفى للريب عنه ، أو ماعدل عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها وما جاوزها إلى مالم يؤمر برؤيته *

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ١٨﴾ أى والله لقد رأى الآيات الكبرى من آياته تعالى وعجائبه الملكية والملكوتية ليلة المعراج ، فالكبرى صفة موصوف محذوف مفعول لرأى أقيمت مقامه بعد حذفه وقدر مجموعا ليطابق الواقع ، وجوز أن تكون (الكبرى) صفة المذكور على معنى ، و(لقد رأى) بعضا من الآيات الكبرى ، ورجح الأول بأن المقام يقتضى التعظيم والمبالغة فينبغى أن يصرح بأن المرأى الآيات الكبرى وجوزت الوصفية المذكورة مع كون من مزيدة ، وأنت تعلم أن زيادة من فى الاثبات ليس مجمعا على جوازه ، وجاء فى بعض الأخبار تعيين مارأى عليه الصلاة والسلام ، أخرج البخارى . وابن جرير . وابن المنذر . وجماعة عن ابن مسعود أنه قال فى

الآية رأى رفرفا أخضر من الجنة قد سد الأفق . وعن ابن زيد رأى جبريل عليه السلام فى الصورة التى هو بها،والذى ينبغى أن لايحمل ذلك على الحصر كما لايخفى فقد رأى عليه الصلاة والسلام آيات كبرى ليلة المعراج لاتحصى ولا تكاد تستقصى (هذا وفى الآيات) أقوال غير ما تقدم ، فعن الحسن أن (شديد القوى) هو الله تعالى،وجمع (القوى) للتعظيم ويفسر (ذو مرة) عليه بذى حكمة ونحوه مما يليق أن يكون وصفا له عزوجل،وجعل أبو حيان الضميرين فى قوله تعالى: (فاستوى وهو بالأفق الأعلى) عليه له سبحانه أيضاً.وقال إن ذلك على معنى العظمة والقدرة والسلطان،ولعل الحسن يجعل الضمائر فى قوله سبحانه: (ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أوأدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى) له عز وجل أيضاً،وكذا الضمير المنصوب فى قوله تعالى : (ولقد رآه نزلة أخرى) فقد كان عليه الرحمة يحلف بالله تعالى ، لقد رأى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ربه وفسر دنوه تعالى من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم برفع مكانته ﷺ عنده سبحانه وتدليه جل وعلا بجذبه بشراشره إلى جانب القدس ، ويقال لهذا الجذب : الفناء فى الله تعالى عند المتألهين ، وأريد بنزوله سبحانه نوع من دنوه المعنوى جل شأنه *

ومذهب السلف فى مثل ذلك إرجاع علمه إلى الله تعالى بعد نفى التشبيه ، وجوز أن تكون الضمائر فى (دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) على ماروى عن الحسن للنبى ﷺ ، والمراد ثم دنا النبى عليه الصلاة والسلام من ربه سبحانه فكان منه عز وجل (قاب قوسين أو أدنى) والضمائر فى (فأوحى) الخ لله تعالى ، وقيل : (إلى عبده) ولم يقل اليه للتفخيم ، وأمر المتشابه قد علم، وذهب غير واحد فى قوله تعالى : (علمه شديد القوى) إلى قوله سبحانه: (وهو بالأفق الأعلى) إلى أنه فى أمر الوحى وتلقيه من جبريل عليه السلام على ماسمعت فيما تقدم، وفى قوله تعالى : (ثم دنا فتدلى) الخ إلى أنه فى أمر العروج إلى الجناب الأقدس ودنوه سبحانه منه صلى الله تعالى عليه وسلم ورؤيته عليه السلام إياه جل وعلا فالضمائر فى (دنا،وتدلى) وكان و(أوحى) وكذا الضمير المنصوب فى (رآه) لله عز وجل،ويشهد لهذا ما فى حديث أنس عند البخارى من طريق شريك بن عبدالله «ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى اليه فيما أوحى خمسين صلاة » الحديث ، فأنه ظاهر فيما ذكر *

واستدل بذلك مثبتو الرؤية كحبر الامة ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وغيره،وادعت عائشة رضى الله تعالى عنها خلاف ذلك ،أخرج مسلم عن مسروق قال : « كنت متكئا عند عائشة فقالت: ياأبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله تعالى الفرية قلت ماهن؟ قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية،قال: وكنت متكئا فجلست فقلت : يا أم المؤمنين أنظرينى ولا تعجلينى ألم يقل الله تعالى: (ولقد رآه بالأفق المبين) (ولقد رآه نزلة أخرى)؟ فقالت : أنا أول هذه الامة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقال: لا إنما هو جبريل لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطا من السماء سادا أعظم خلقه مابين السماء إلى الأرض» الحديث ، وفى رواية ابن مردويه من طريق أخرى عن داود بن أبى هند عن الشعبى عن مسروق « فقالت : أنا أول من سأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن هذا فقلت: يارسول الله هل رأيت ربك؟ فقال : إنما رأيت جبريل منهبطا » ولا يخفى أن جواب رسول الله عليه الصلاة والسلام ظاهر فى أن الضمير المنصوب فى (رآه) ليس راجعاً اليه تعالى بل إلى جبريل عليه السلام ، وشاع أنها تنفى أن يكون صلى الله تعالى عليه وسلم رأى ربه سبحانه مطلقاً ، وتستدل لذلك بقوله تعالى : (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) وقوله

سبحانه (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا) وهو ظاهر ماذكره البخارى فى صحيحه فى تفسير هذه السورة ، وقال بعضهم : إنها إنما تنفى رؤية تدل عليها الآية التى نحن فيها وهى التى احتج بها مسروق *

وحاصل ماروى عنها نفى صحة الاحتجاج بالآية المذكورة على رؤيته عليه الصلاة والسلام ربه سبحانه ببيان أن مرجع الضمير فيها إنما هو جبريل عليه السلام على مايدل عليه جواب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إياها، وحمل قوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى جوابها «لا» على أنه نفى للرؤية المخصوصة وهى التى يظن دلالة الآية عليها ويرجع إلى نفى الدلالة ولا يلزم من انتفاء الخاص انتفاء المطلق ، والانصاف أن الاخبار ظاهرة فى أنها تنفى الرؤية مطلقاً ، وتستدل عليه بالآيتين السابقتين ، وقد أجاب عنهما مثبتو الرؤية بما هو مذكور فى محله *

والظاهر أن ابن عباس لم يقل بالرؤية إلا عن سماع ، وقد أخرج عنه أحمد أنه قال: «قال رسول الله ﷺ : رأيت ربى » ذكره الشيخ محمد الصالحى الشامى تلميذ الحافظ السيوطى فى الآيات البينات وصححه ، وجمع بعضهم بين قولى ابن عباس. وعائشة بأن قول عائشة محمول على نفى رؤيته تعالى فى نوره الذى هو نوره المنعوت بأنه لا يقوم له بصر، وقول ابن عباس محمول على ثبوت رؤيته تعالى فى نوره الذى لايذهب بالأبصار بقرينة قوله فى جواب عكرمة عن قوله تعالى : (لاتدركه الأبصار) : ويحك ذاك إذا تجلى بنوره الذى هو نوره ، وبه يظهر الجمع بين حديثى أبى ذر ، أخرج مسلم من طريق يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبى ذر قال : سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ قال : « نورانى أراه » ومن طريق هشام . وهمام كلاهما عن قتادة عن عبد الله قال : قلت لأبى ذر لو رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لسألته فقال : عن أى شئ كنت تسأله ؟ قال : كنت أسأله هل رأيت ربك ؟ فقال أبو ذر : قد سألته فقال : « رأيت نوراً » فيحمل النور فى الحديث الاول على النور القاهر للابصار بجعل التنوين للنوعية أو للتعظيم ، والنور فى الثانى على مالا يقوم له البصر والتنوين للنوعية، وإن صحت رواية الاول كما حكاه أبو عبد الله المازرى بلفظ «نورانى» بفتح الراء وكسر النون وتشديد الياء لم يكن اختلاف بين الحديثين ويكون نورانى بمعنى المنسوب إلى النور على خلاف القياس ويكون المنسوب اليه هو نوره الذى هو نوره ، والمنسوب هو النور المحمول على الحجاب حمل مواطأة فى حديث السبحات فى قوله عليه الصلاة والسلام : « حجابه النور » وهو النور المانع من الإحراق الذى يقوم له البصر *

ثم إن القائلين بالرؤية اختلفوا، فمنهم من قال : إنه عليه الصلاة والسلام رأى ربه سبحانه بعينه ، وروى ذلك ابن مردويه عن ابن عباس ، وهو مروى أيضا عن ابن مسعود . وأبى هريرة . وأحمد بن حنبل ، ومنهم من قال : رآه عز وجل بقلبه ، وروى ذلك عن أبى ذر ، أخرج النسائى عنه أنه قال : « رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه ولم يره ببصره » وكذا روى عن محمد بن كعب القرظى بل أخرج عبد بن حميد . وابن المنذر . وابن أبى حاتم عنه أنه قال : قالوا : يارسول الله رأيت ربك ؟ قال : « رأيته بفؤادى مرتين ولم أره بعينى ثم قرأ ما كذب الفؤاد مارأى » وفى حديث عن ابن عباس يرفعه « فجعل نور بصرى فى فؤادى فنظرت اليه بفؤادى » وكأن التقدير فى الآية على هذا (ما كذب الفؤاد فيما رأى) ، ومنهم من ذهب إلى أن إحدى الرؤيتين كانت بالعين والاخرى بالفؤاد وهى رواية عن ابن عباس ، أخرج الطبرانى . وابن مردويه عنه أنه قال: إن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم رأى ربه عز وجل مرتين مرة ببصره ومرة بفؤاده ، ونقل القاضى عياض عن بعض مشايخه أنه توقف أى

فى الرؤية بالعين ، وقال : إنه ليس عليه دليل واضح قال فى الكشف . لأن الروايات مصرحة بالرؤية أما أنها بالعين فلا ، وعن الامام أحمد أنه كان يقول : إذا سئل عن الرؤية رآه رآه حتى ينقطع نفسه ولا يزيد على ذلك وكأنه لم يثبت عنده ماذكرناه ، واختلف فيما يقتضيه ظاهر النظم الجليل فجزم صاحب الكشف بأنه ماعليه الأكثرون من أن الدنو والتدلى مقسم مابين النبي وجبريل صلاة الله تعالى وسلامه عليهما أى وأن المرئى هو جبريل عليه السلام ، وإذا صح خبر جوابه عليه الصلاة والسلام لعائشة رضى الله تعالى عنها لم يكن لأحد محيص عن القول به ، وقال العلامة الطيبي : الذى يقتضيه النظم إجراء الكلام إلى قوله تعالى : (وهو بالأفق الأعلى) على أمر الوحى وتلقيه من الملك ورفع شبه الخصوم ، ومن قوله سبحانه : (ثم دنا فتدلى) إلى قوله سبحانه : (من آيات ربه الكبرى) على أمر العروج إلى الجناب الأقدس ، ثم قال : ولا يخفى على كل ذى لب إباء مقام (فأوحى) الحمل على أن جبريل أوحى إلى عبد الله (ما أوحى) إذ لا يذوق منه أرباب القلوب إلا معنى المناغاة بين المتسارين وما يضيق عنه بساط الوهم ولا يطيقه نطاق الفهم ، وكلمة (ثم) على هذا للتراخى الرتبي والفرق بين الوحيين أن أحدهما وحى بواسطة وتعليم ، والآخر بغير واسطة بجهة التكريم فيحصل عنه عنده الترقى من مقام (وما منا إلا له مقام معلوم) إلى مخدع (قاب قوسين أو أدنى) وعن جعفر الصادق عليه الرضا أنه قال : لما قرب الحبيب غاية القرب نالته غاية الهيبة فلاطفه الحق سبحانه بغاية اللطف لأنه لا تتحمل غاية الهيبة إلا بغاية اللطف ، وذلك قوله تعالى : (فأوحى إلى عبده ما أوحى) أى كان ما كان وجرى ما جرى قال الحبيب للحبيب مايقول الحبيب لحبيبه وألطف به إلطاف الحبيب بحبيبه وأسر اليه مايسر الحبيب إلى حبيبه فأخفيا ولم يطلعا على سرهما أحداً وإلى نحو هذا يشير ابن الفارض بقوله :

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سر أرق من النسيم إذا سرى

ومعظم الصوفية على هذا فيقولون بدنو الله عز وجل من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ودنوه منه سبحانه على الوجه اللائق وكذا يقولون بالرؤية كذلك ، وقال بعضهم فى قوله تعالى : (مازاغ البصر وماطغى) : مازاغ بصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وما التفت إلى الجنة وزخرفاتها ولا إلى الجحيم وزفراتها بل كان شاخصاً إلى الحق (وماطغى) عن الصراط المستقيم ، وقال أبو حفص السهروردى : مازاغ البصر حيث لم يتخلف عن البصيرة ولم يتقاصر (وماطغى) لم يسبق البصر البصيرة ويتعدى مقامه ، وقال سهل بن عبدالله التسترى : لم يرجع رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى شاهد نفسه وإلى مشاهدتها إنما كان مشاهداً لربه تعالى يشاهد مايظهر عليه من الصفات التى أوجبت الثبوت فى ذلك المحل ، وأرجع بعضهم الضمير فى قوله تعالى : (وهو بالأفق الأعلى) إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو منتهى وصول اللطائف ، وفسر (سدرة المنتهى) بما يكون منتهى سير السالكين اليه ولا يمكن لهم مجاوزته إلا بجذبة من جذبات الحق ، وقالوا فى (قاب قوسين) ماقالوا وأنا أقول برؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم ربه سبحانه وبدنوه منه سبحانه على الوجه اللائق ذهبت فيما اقتضاه ظاهر النظم الجليل إلى ماقاله صاحب الكشف أم ذهبت فيه إلى ماقاله الطيبي فتأمل والله تعالى الموفق ه

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللَّٰتَ وَالْعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ٢٠ ﴾ هى أصنام كانت لهم فاللات كما قال قتادة : لثقيف بالطائف ، وأنشدوا

وفرت ثقيف إلى (لاتها) بمنقلب الخائب الخاسر

وقال أبو عبيدة . وغيره : كان بالكعبة ، وقال ابن زيد : كان بنخلة عند سوق عكاظ يعبده قريش ، ورجح ابن عطية قول قتادة ، وقال أبو حيان : يمكن الجمع بأن يكون المسمى بذلك أصناما فأخبر عن كل صنم بمكانه ، والتاء فيه قيل : أصلية وهى لام الكلمة كالباء فى باب ، وألفه منقلبة فيما يظهر من ياء لان مادة (ل ى ت) موجودة فان وجدت مادة (ل و ت) جاز أن تكون منقلبة من واو ، وقيل : تاء العوض ، والاصل لوية بزنة فعلة من لوى لانهم كانوا يلوون عليه ويعتكفون للعبادة ، أو يلتون عليه أى يطوفون نخفف بحذف الياء وأبدلت واوه ألفاً ، وعوض عن الياء تاء فصارت كتاء أخت وبنت ، ولذا وقف عليها بالتاء ، وقرأ ابن عباس . ومجاهد . ومنصور بن المعتمر . وأبو صالح . وطلحة . وأبو الجوزاء . ويعقوب . وابن كثير فى رواية بتشديد التاء على أنه اسم فاعل من لت يلت إذا عجن قيل : كان رجل يلت السويق للحاج على حجر فلما مات عبدوا ذلك الحجر إجلالا له وسموه بذلك ، وعن مجاهد أنه كان على صخرة فى الطائف يصنع حيسا ويطعم من يمر من الناس فلما مات عبدوه ، وأخرج ابن أبى حاتم . وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يلت السويق على الحجر فلا يشرب منه أحد إلا سمن فعبدوه ، وأخرج الفاكهى عنه أنه لما مات قال لهم عمرو بن لحى : إنه لم يمت ولكنه دخل الصخرة فعبدوها وبنوا عليها بيتاً ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال : كان رجل من ثقيف يلت السويق بالزيت فلما توفى جعلوا قبره وثناً ، وزعم الناس أنه عامر بن الظرب أحد عدوان ، وقيل : غير ذلك (والعزى) لغطفان وهى على المشهور سمرة بنخلة - كما قال قتادة - وأصلها تأنيث الأعز ، وأخرج النسائى . وابن مردويه عن أبى الطفيل قال : « لما فتح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى فأتاها خالد وكانت ثلاث سمرات فقطع السمرات وهدم البيت الذى كان عليها ثم أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره فقال : ارجع فانك لم تصنع شيئاً فرجع خالد فلما أبصرته السدنة مضوا وهم يقولون ياعزى ياعزى فأتاها فاذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها ثم رجع إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره فقال عليه الصلاة والسلام : تلك العزى » وفى رواية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم بعث إليها خالداً فقطعها فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية ويلها واضعة يدها على رأسها فضربها بالسيف حتى قتلها وهو يقول :

ياعز كفرانك لاسبحانك إنى رأيت الله قد أهانك

ورجع فأخبر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام : تلك العزى ولن تعبد أبداً »
وقال ابن زيد : كانت العزى بالطائف ، وقال أبو عبيدة : كانت بالكعبة ، وأيده فى البحر بقول أبى سفيان فى بعض الحروب للمسلمين لنا العزى ولاعزى لكم ، وذكر فيه أنه صنم وجمع بمثل ماتقدم ، (ومناة) قيل : صخرة كانت لهذيل . وخزاعة ، وعن ابن عباس لثقيف ، وعن قتادة للأنصار بقديد ، وقال أبو عبيدة : كانت بالكعبة أيضا ، واستظهر أبو حيان أنها ثلاثتها كانت فيها قال : لأن المخاطب فى قوله تعالى : أفرأيتم قريش ؟ وفيه بحث ، ومناة مقصورة قيل : وزنها فعلة ، وسميت بذلك لان دماء النسائك كانت تمنى عندها أى تراق ، وقرأ ابن كثير على مافى البحر مناءة بالمد والهمز كما فى قوله :

ألا هل أتى تيم بن عبد (مناءة) على النأى فيما بيننا ابن تميم

ووزنها مفعلة فالألف منقلبة عن واو كما فى مقالة ، والهمزة أصل وهى مشتقة من النوء كأنهم كانوا

يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها ، والظاهر أن (الثالثة الأخرى) صفتان لمناة وهما على ماقيل: للتأكيد فان كونها ثالثة وأخرى مغايرة لما تقدمها معلوم غير محتاج للبيان ، وقال بعض الأجلة : (الثالثة) للتأكيد ، و(الاخرى)للذم بأنها متأخرة فى الرتبة وضيعة المقدار ، وتعقبه أبوحيان بأن آخر ومؤنثه أخرى لم يوضعا للذم ولا لمدح وإنما يدلان على معنى غير ، والحق أن ذلك باعتبار المفهوم الاصلى وهى تدل على ذم السابقتين أيضا قال فى الكشف: هى اسم ذم يدل على وضاعة السابقتين بوجه أيضا لان (أخرى) تأنيث آخر تستدعى المشاركة مع السابق فاذا أتى بها لقصد التأخر فى الرتبة عملا بمفهومها الاصلى إذ لا يمكن العمل بالمفهوم العرفى لان السابقتين ليستا ثالثة أيضا استدعت المشاركة قضاءاً لحق التفضيل، وكأنه قيل :(الاخرى) فى التأخر انتهى وهو حسن، وذكر فى نكتة ذم مناة بهذا الذم أن الكفرة كانوا يزعمون أنها أعظم الثلاثة فأكذبهم الله تعالى بذلك *

وقال الامام : (الاخرى) صفة ذم كأنه قال سبحانه: (ومناة الثالثة) الذليلة وذلك لأن اللات كان على صورة آدمى (والعزى) صورة نبات (ومناة) صورة صخرة ، فالآدمى أشرف من النبات، والنبات أشرف من الجماد ـ فالجماد متأخر ـ ومناة جماد فهى فى أخريات المراتب ، وأنت تعلم أنه لا يتأتى على كل الاقوال ، وقيل : (الاخرى) صفة للعزى لأنها ثانية اللات ، والثانية يقال لها (الاخرى) وأخرت لموافقة رءوس الآى، وقال الحسن ابن المفضل :فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير والعزى الأخرى (ومناة الثالثة) ولعمرى إنه ليس بشئ، والكلام خطاب لعبدة هذه المذكورات وقد كانوا مع عبادتهم لها يقولون: إن الملائكة عليهم السلام وتلك المعبودات الباطلة بنات الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فقيل لهم توبيخاً وتبكيتاً: (أفرأيتم) الخ والهمزة للانكار والفاء لتوجيهه إلى ترتيب الرؤية على ماذكر من شئون الله تعالى المنافية لها غاية المنافاة وهى علمية عند كثير، ومفعولها الثانى على مااختاره بعضهم محذوف لدلالة الحال عليه، فالمعنى أعقيب ماسمعتم من آثار كمال عظمة الله عز وجل فى ملكه وملكوته وجلاله وجبروته وإحكام قدرته ونفاذ أمره رأيتم هذه الاصنام مع غاية حقارتها بنات الله سبحانه وتعالى *

وقوله تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ٢١ ﴾ توبيخ مبنى على ذلك التوبيخ ومداره تفضيل جانب أنفسهم على جنابه عز وجل حيث جعلوا له تعالى الاناث واختاروا لأنفسهم الذكور ، ومناط الاول نفس تلك النسبة ، وقيل: المعنى (أرأيتم)هذه الاصنام مع حقارتها وذلتها شركاء لله سبحانه مع ماتقدم من عظمته، وقيل: المعنى أخبرونى عن آلهتكم هل لها شئ من القدرة والعظمة التى وصف بها رب العزة فى الآى السابقة ،وقيل: المعنى أظننتم أن هذه الاصنام التى تعبدونها تنفعكم، وقيل المعنى(أفرأيتم) هذه الاصنام إن عبدتموها لا تنفعكم وإن تركتموها لاتضركم ، ولايخفى أن قوله تعالى: (ألكم) الخ لا يلتئم مع ماقبله على جميع هذه الاقوال التامه على القول السابق ، وقيل : إن قوله سبحانه : (ألكم)الخ فى موضع المفعول الثانى للرؤية وخلوها عن العائد إلى المفعول الاول لما أن الاصل أخبرونى أن اللات والعزى ومناة ألكم الذكر وله هن أى تلك الاصنام فوضع موضعها الانثى لمراعاة الفواصل وتحقيق مناط التوبيخ وهو على تكلفه يقتضى اقتصار التوبيخ على ترجيح جانبهم الحقير الذليل على جناب الله تعالى العزيز الجليل من غير تعرض للتوبيخ على نسبة الولد اليه سبحانه، وفى الكشف وجه النظم الجليل أنه بعد ماصور أمر الوحى تصويراً تاماً وحققه بأن مايستمعه وحى لا شبهة فيه لانه رأى الآتى به وعرفه حق المعرفة قال سبحانه : (أفتمارونه على مايرى) على معنى أتلاحونه بعد هذه البيانات على مايرى من الآيات المحققة لانه على بينة من ربه سبحانه هادياً مهديا ، وأنى يبقى للمراء مجال ـ وقد رآه نزلة أخرى ـ ؟!

•وعرفه حق المعرفة،ثم قيل : (لقد رأى من آيات) الخ تنبيها على أن ماعدّ منها فهو أيضا نفي للضلالة والغواية وتحقيق للدراية والهداية *

وقوله تعالى : (أفرأيتم) عطف على تمارونه وإدخال الهمزة لزيادة الانكار والفاء لأن القول بأمثاله مسبب عن الطبع والعناد وعدم الاصغاء لداعي الحق،والمعنى أبعد هذا البيان تستمرون على ماأنتم عليه من المراء فترون اللات والعزى ومناة أولاداً له تعالى ثم أخسها وسد مسد المفعول الثانى قوله تعالى : (ألكم) الخ زيادة للانكار فعلى هذا ليس (أفرأيتم) فى معنى الاستخبار وجاز أن يكون فى معناه على معنى (أفتمارونه) فأخبرونى هل لكم الذكر وله الانثى ، والقول مقدر أى فقل لهم أخبرونى والمعنى هو كذا تهكما وتنبيها على أنه نتيجة مرائهم وأن من كان هذا معتقده فهو على الضلال الذى لاضلال بعده ولا يبعد عن أمثاله نسبة الهادين المهديين إلى ماهو فيه من النقص انتهى،وماذكره أولا أولى وهو ليس بالبعيد عما ذكرنا ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى القسمة المنفهمة من الجملة الاستفهامية ﴿ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ٢٢ ﴾ أى جائرة حيث جعلتم له سبحانه ماتستنكفون منه وبذلك فسر ضيزى ابن عباس . وقتادة ، وفى معناه قول سفيان منقوصة،وابن زيد مخالفة.ومجاهد.ومقاتل عوجاء.والحسن غير معتدلة،والظاهر أنه صفة،واختلف فى يائه فقيل:منقلبة عن واو،وقيل:أصلية،ووزنه فعلى بضم الفاء كحبلى وأنثى،ثم كسرت لتسلم الياء كما فعل ذلك فى بيض جمع أبيض فان وزنه فعل بضم الفاء كحمر ثم كسرت الفاء لما ذكر ومثله شائع،ولم يجعل وزنه فعلى بالكسر ابتداءاً لما ذهب اليه سيبويه من أن فعلى بالكسر لم يجئ عن العرب فى الصفات وجعله بعضهم كذلك متمسكا بورود ذلك . فقد حكى ثعلب مشية حيكى،ورجل كيصى،وغيره امرأة عزهى وامرأة سعلى،ورد بأنه من النوادر والحمل على الكثير المطرد فى بابه أولى ، وأيضاً يمكن أن يقال فى حيكى و كيصى ماقيل فى ضيزى،ويمنع ورود عزهى وسعلى فان المعروف عزهاة وسعلاة،وجوز أن يكون ضيزى فعلى بالكسر ابتداءاً على أنه مصدر كذكرى ووصف به مبالغة،ومجئ هذا الوصف فى المصادر كما ذكر،والاسماء الجامدة كدفلى وشعرى،والجموع كحجلى كثير، وقرأ ابن كثير ضئزى بالهمز على أنه مصدر وصف به،وجوز أن يكون وصفا وهو مضموم عومل معاملة المعتل لانه يؤول اليه . وقرأ ابن زيد ضيزى بفتح الضاد وبالياء على أنه كدعوى أو كسكرى ، ويقال ضؤزى بالواو والهمز وضم الفاء ؛ وقد حكى الكسائى ضاز يضاز ضأزاً بالهمز وأنشد الاخفش :

فان تنأ عنها تقتنصك وإن تغب فسهمك (مضئوز) وأنفك راغم

والاكثر ضاز بلا همز كما فى قول امرئ القيس :

(ضازت) بنو أسد بحكمهم إذ يجعلون الرأس كالذنب

وأنشده ابن عباس على تفسيره السابق ﴿ إِنْ هِيَ ﴾ الضمير للاصنام أى ما الاصنام باعتبار الالوهية التى تدعونها ﴿ إِلَّا أَسْمَاءٌ ﴾ محضة ليس فيها شىء ما أصلا من معنى الالوهية،وقوله تعالى: ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ صفة للاسماء وضميرها لها لا للاصنام،والمعنى جعلتموها أسماء فان التسمية نسبة بين الاسم والمسمى فاذا قيست إلى الاسم فمعناها جعله اسما للمسمى وإن قيست إلى المسمى فمعناها جعله مسمى للاسم وإنما اختير ههنا

المعنى الاول من غير تعرض للمسمى لتحقيق أن تلك الاصنام التي يسمونها آلهة أسماء مجردة ليس لها مسميات قطعا كما فى قوله سبحانه : (ماتعبدون من دونه إلا أسماء) الآية لا أن هناك مسميات لكنها لا تستحق التسمية ، وقيل: هي للاسماء الثلاثة المذكورة حيث كانوا يطلقونها على تلك الاصنام لاعتقادهم أنها تستحق العكوف على عبادتها والاعزاز والتقرب اليها بالقرابين ، وتعقب بأنه لو سلم دلالة الاسماء المذكورة على ثبوت تلك المعانى الخاصة للاصنام فليس فى سلبها عنها مزيد فائدة بل إنما هى فى سلب الالوهية عنها كما هو زعمهم المشهور فى حق جميع الاصنام على وجه برهانى فان انتفاء الوصف بطريق الاولوية أى ماهى شئ من الاشياء إلا أسماء خالية عن المسميات وضعتموها ﴿ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم ﴾ بمقتضى الاهواء الباطلة ﴿ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ برهان يتعلقون به ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ أى ما يتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بها ﴿ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ إلا توهم أن ماهم عليه حق توهما باطلا ، فالظن هنا مراد به التوهم وشاع استعماله فيه ، ويفهم من كلام الراغب أن التوهم من أفراد الظن ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ﴾ أى والذى تشتهيه أنفسهم الامارة بالسوء على أن (ما) موصولة وعائدها مقدر - وأل - فى الانفس للعهد ، أو عوض عن المضاف اليه ، وجوز كون (ما) مصدرية وكذا جوز كون - أل - للجنس والنفس من حيث هى إنما تهوى غير الأفضل لأنها مجبولة على حب الملاذ وإنما يسوقها إلى حسن العاقبة العقل ، والالتفات فى (يتبعون) إلى الغيبة للايذان بأن تعداد قبائحهم اقتضى الاعراض عنهم، وحكاية جناياتهم لغيرهم، وقرأ ابن عباس . وابن مسعود . وابن وثاب . وطلحة . والاعمش وعيسى بن عمر - تتبعون - بتاء الخطاب ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ حال من ضمير ﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ مقررة لبطلان ماهم عليه من اتباع الظن والهوى ، والمراد بالهدى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أو القرآن العظيم على أنه بمعنى الهادى أو جعله هدى مبالغة أى ما يتبعون إلا ذلك ، والحال لقد جاءهم من ربهم جل شأنه ما ينبغى لهم معه تركه واتباع سبيل الحق *

وحاصله (يتبعون) ذلك فى حال ينافيه ، وجوز أن تكون الجملة معترضة وهى أيضا مؤكدة لبطلان ذلك ﴿ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ٢٤ ﴾ (أم) منقطعة مقدرة - ببل - وهى للانتقال من بيان أن ماهم عليه غير مستند إلا إلى توهمهم وهوى أنفسهم إلى بيان أن ذلك مما لايجدى نفعاً أصلا ؛ والهمزة وهى للانكار والنفى أى بل ليس للانسان كل مايتمناه وتشتهيه نفسه ، ومفاده قيل : رفع الإيجاب الكلى ومرجعه إلى سالبة جزئية ، واليه يشير قول بعضهم : المراد نفى أن يكون للكفرة ماكانوا يطمعون فيه من شفاعة الآلهة والظفر بالحسنى عند الله تعالى يوم القيامة وماكانوا يشتهونه من نزول القرآن على رجل من إحدى القريتين عظيم ونحو ذلك، ويفهم من كلام بعض المحققين أن المراد السلب الكلى، والمعنى لاشىء مما يتمناه الانسان مملوكا له مختصا به يتصرف فيه حسب إرادته ويتضمن ذلك نفى أن يكون للكفرة ماذكر وليس الانسان خاصاً بهم كما قيل، وقوله تعالى:

﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ٢٥ ﴾ تعليل لانتفاء ذلك فان اختصاص ملك أمور الآخرة والاولى جميعاً به تعالى مقتض لانتفاء أن يكون للانسان أمر من الامور بل ماشاء الله تعالى له كان وما لم يشأ لم يكن ، وقدمت الآخرة اهتماما بما هو أهم أطماعهم عندهم من الفوز فيها ، ولذا أردف ذلك بقوله تعالى :

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ وإقناطهم عما طمعوا به من شفاعة الملائكة عليهم السلام موجب لاقناطهم عن شفاعة الاصنام بطريق الاولوية (وكم) خبرية مفيدة للتكثير محلها الرفع على الابتداء، والخبر الجملة المنفية، وجمع الضمير فى شفاعتهم مع إفراد الملك باعتبار المعنى أى وكثير من الملائكة لا تغنى شفاعتهم عند الله تعالى شيئاً من الإغناء فى وقت من الاوقات ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ ﴾ لهم فى الشفاعة *

﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ أن يشفعوا له ﴿ وَيَرْضَىٰٓ ٢٦ ﴾ ويراه سبحانه أهلا للشفاعة من أهل التوحيد والايمان، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم من إذن الله تعالى بمعزل. وعنه بألف ألف منزل، وجوز أن يكون المراد إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء من الملائكة بالشفاعة ويراه عز وجل أهلا لها، وأياً ما كان فالمعنى على أنه إذا كان حال الملائكة فى باب الشفاعة كما ذكر فما ظنهم بحال الاصنام، والكلام قيل من باب:

* على لاحب لايهتدى بمناره * فحاصله لاشفاعة لهم ولا غناء بدون أن يأذن الله سبحانه الخ، وقيل: هو وارد على سبيل الفرض فلا يخالف قوله تعالى: (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه)، وقرأ زيد بن على شفاعته بإفراد الشفاعة والضمير، وابن مقسم شفاعاتهم بجمعهما وهو اختيار صاحب الكامل أبى القاسم الهذلى، وأفردت الشفاعة فى قراءة الجمهور قال أبو حيان: لأنها مصدر ولانهم لو شفع جميعهم لواحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئاً

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ وبما فيها من العقاب على مايتعاطونه من الكفر والمعاصى ﴿ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ المنزهين عن سمات النقصان على الاطلاق ﴿ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ٢٧ ﴾ فانهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عما يقولون، (والملائكة) فى معنى استغراق المفرد فيكون التقدير ليسمون كل واحد من (الملائكة تسمية الانثى) أى يسمونه بنتاً لأنهم إذا قالوا ذلك فقد جعلوا كل واحد منهم بنتاً، فالكلام على وزان كسانا الامير حلة أى كسا كل واحد منا حلة، والإفراد لعدم اللبس، ولذا لم يقل تسمية الإناث فلا حاجة إلى تأويل الانثى بالإناث ولا إلى كون المراد الطائفة الانثى، وما ذكر أولا قيل: مبنى على أن تسمية الانثى فى النظم الجليل ليس نصباً على التشبيه وإلا فلا حاجة اليه أيضا، وفى تعليق التسمية بعدم الايمان بالآخرة إشعار بأنها فى الشناعة والفظاعة واستتباع العقوبة فى الاخرة بحيث لايجترىء عليها إلا من لا يؤمن بها رأساً، وقوله تعالى:

﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ حال من فاعل (يسمون) وضمير به للمذكور من التسمية وبهذا الاعتبار ذكر، أو باعتبار القول أى يسمونهم إناثاً، والحال أنهم لاعلم لهم بما يقولون أصلا، وقرأ أبىّ بها أى بالتسمية، أو بالملائكة ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ أى مايتبعون فى ذلك ﴿ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ أى التوهم الباطل ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ ﴾ أى جنس الظن كما يلوح به الإظهار فى موقع الاضمار، وقيل: الإظهار ليستقل الكلام استقلال المثل *

﴿ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ من الإغناء فان الحق الذى هو عبارة عن حقيقة الشئ وما هو عليه إنما يدرك إدراكا معتداً به إذا كان عن يقين لا عن ظن وتوهم فلا يعتد بالظن فى شأن المعارف الحقيقية أعنى المطالب الاعتقادية التى يلزم فيها الجزم ولو لم يكن عن دليل، وإنما يعتد به فى العمليات وما يؤدى اليها *

وفسر بعضهم الحق بالله عز وجل لقوله سبحانه: (ذلك بأن الله هو الحق)، واستدل بالآية من لم يعتبر

التقليد فى الاعتقاديات ـ وفيه بحث ـ والظاهرية على إبطاله مطلقاً ، وإبطال القياس ورده على أتم وجه فى الاصول ، وما أخرج ابن أبى حاتم عن أيوب قال : قال عمر بن الخطاب : احذروا هذا الرأى على الدين فانما كان الرأى من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مصيباً لأن الله تعالى كان يريه وإنما هو منا تكلف وظن (وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً) هو أحد أدلتهم على إبطال القياس أيضاً ، وقد حكى الآمدى فى الاحكام نحوه عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما فقال : قال ابن عمر : اتهموا الرأى عن الدين فان الرأى منا تكلف وظن (وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً) وأجاب عنه بأن غايته الدلالة على احتمال الخطأ فيه وليس فيه ما يدل على إبطاله ، وأن المراد بقوله : (إن الظن) الخ استعمال الظن فى مواضع اليقين وليس المراد به إبطال الظن بدليل صحة العمل بظواهر الكتاب والسنة ، ويقال نحو هذا فى كلام عمر رضى الله تعالى عنه ، وقد ذكر جملة من الآثار استدل بها المبطل على مازعمه وردها كلها فمن أراد ذلك فليراجعه ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾ أى عنهم ووضع الموصول موضع ضميرهم للتوسل به إلى وصفهم بما فى حيز صلته من الأوصاف القبيحة ، وتعليل الحكم بها أى فأعرض عمن أعرض عن ذكرنا المفيد للعلم الحق وهو القرآن العظيم . المنطوى على بيان الاعتقادات الحقة . المشتمل على علوم الاولين والآخرين . المذكر للآخرة وما فيها من الامور المرغوب فيها والمرهوب عنها ، والمراد بالاعراض عنه ترك الأخذ بما فيه وعدم الاعتناء به ، وقيل : المراد بالذكر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وبالاعراض عنه ترك الأخذ بما جاء به ، وقيل : المراد به الايمان ، وقيل : هو على ظاهره والاعراض عنه كناية عن الغفلة عنه عز وجل ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ٢٩ ﴾ راضياً بها قاصراً نظره عليها جاهداً فيما يصلحها كالنضر بن الحرث . والوليد بن المغيرة ، والمراد من الأمر المذكور النهى عن المبالغة فى الحرص على هداهم كأنه قيل . لا تبالغ فى الحرص على هدى من تولى عن ذكرنا وانهمك فى الدنيا بحيث كانت منتهى همته وقصارى سعيه ، وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى أمر الحياة الدنيا المفهوم من الكلام ولذا ذكر اسم الاشارة ، وقيل : أى ما أداهم إلى ما هم فيه من التولى وقصر الإرادة على الحياة الدنيا ، وقيل : ذلك إشارة إلى الظن الذى يتبعونه ، وقيل : إلى جعلهم الملائكة بنات الله سبحانه وكلا القولين كما ترى ﴿ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ أى منتهى علمهم لا علم لهم فوقه اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها من قصر الإرادة على الحياة الدنيا *

والمراد بالعلم مطلق الادراك المنتظم للظن الفاسد ، وضمير (مبلغهم) ـ لمن ـ وجمع باعتبار معناه كما أن إفراده قبل باعتبار لفظه ، وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ٣٠ ﴾ تعليل للأمر بالاعراض ، وتكرير قوله تعالى : (هو أعلم) لزيادة التقرير والايذان بكمال تباين المعلومين ، والمراد (بمن ضل) من أصر على الضلال ولم يرجع إلى الهدى أصلا ، و (بمن اهتدى) من شأنه الاهتداء فى الجملة ، أى هو جل شأنه المبالغ فى العلم بمن لا يرعوى عن الضلال أبداً ، وبمن يقبل الاهتداء فى الجملة لا غيره سبحانه فلا تتعب نفسك فى دعوتهم ولا تبالغ فى الحرص عليها فانهم من القبيل الأول ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ أى له ذلك على الوجه الأتم أى خلقاً وملكا لا لغيره عز وجل أصلا لا استقلالا ولا اشتراكا ، ويشعر بفعل يتعلق به

قوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ أى خلق مافيهما ليجزى الضالين بعقاب ماعملوا من الضلال الذى عبر عنه بالاساءة بياناً لحاله ؛ أو بمثل ماعملوا ، أو بسبب ماعملوا على أن الباء صلة الجزاء بتقدير مضاف أو للسببية بلا تقدير ﴿ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ أى اهتدوا ﴿ بِٱلْحُسْنَى ﴾ أى بالمثوبة الحسنى التى هى الجنة ، أو بأحسن من أعمالهم أو بسبب الأعمال الحسنى تكميل لماقبل لأنه سبحانه لماأمره عليه الصلاة والسلام بالاعراض نفى توهم أن ذلك لأنهم يتركون سدى ، وفى العدول عن ضمير ربك إلى الاسم الجامع ماينبئ عن زيادة القدرة وأن الكلام مسوق لوعيد المعرضين وأن تسوية هذا الملك العظيم لهذه الحكمة فلا بدّ من ضال ومهتد، ومن أن يلقى كل مايستحقه ، وفيه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يلقى الحسنى جزاءاً لتبليغه وهم يلقون السوأى جزاءاً لتكذيبهم ، وكرر فعل الجزاء لابراز كال الاعتناء به والتنبيه على تباين الجزاءين *

وجوز أن يكون معنى (فأعرض) الخ لا تقابلهم بصنيعهم وكلهم إلى ربك أنه أعلم بك وبهم فيجزى كلا مايستحقه ، ولا يخفى مافى العدول عن الضميرين فى (بمن ضل) (وبمن اهتدى) وجعل قوله تعالى: (ليجزى) على هذا متعلقا بما يدل عليه قوله تعالى: (إن ربك هو أعلم) الخ أى ميز الضال عن المهتدى وحفظ أحوالهم (ليجزى) الخ ، وقوله سبحانه : (ولله ملك السموات) جملة معترضة تؤكد حديث أنهم يجزون البتة ولا يهملون كأنه قيل: هو سبحانه أعلم بهم وهم تحت ملكه وقدرته، وجوز على ذلك المعنى أن يتعلق (ليجزى) بقوله تعالى: (ولله مافى السموات) كما تقدم على تأكيد أمر الوعيد ، أى ـ هو أعلم بهم ـ وإنما سوى هذا الملك للجزاء ، ورجح بعضهم ذلك المعنى بالوجهين المذكورين على مامرّ ، وجوز فى جملة (لله مافى السموات) كونها حالا من فاعل أعلم سواء كان بمعنى عالم أولا ، وفى (ليجزى) تعلقه ـ بضل . واهتدى ـ على أن اللام للعاقبة أى هو تعالى (أعلم بمن ضل) ليؤول أمره إلى أن يجزيه الله تعالى بعمله ، و(بمن اهتدى) ليؤول أمره إلى أن يجزيه بالحسنى، ولا يخفى بعده ، وأبعد منه بمراحل تعلقه بقوله سبحانه : (لا تغنى شفاعتهم) كما ذكره مكى ، وقرأ زيد بن علي ـ لنجزى ـ ونجزى بالنون فيهما ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ ﴾ بدل من الموصول الثانى وصيغة الاستقبال فى صلته للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره . أو بيان . أو نعت . أو منصوب على المدح . أو مرفوع على أنه خبر محذوف ؛ و(الاثم) الفعل المبطئ عن الثواب وهو الذنب . وكبائره مايكبر عقابه ، وقرأ حمزة والكسائى . وخلف ـ كبير الاثم ـ على إرادة الجنس ، أو الشرك ﴿ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ ماعظم قبحه من الكبائر فعطفه على ماتقدم من عطف الخاص على العام ، وقيل: الفواحش والكبائر مترادفان ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ ماصغر من الذنوب وأصله ماقل قدره ، ومنه لمة الشعر لأنها دون الوفرة ، وفسره أبو سعيد الخدرى بالنظرة . والغمزة . والقبلة وهو من باب التمثيل ، وقيل : معناه الدنو من الشئ دون ارتكاب له من ألممت بكذا أى نزلت به وقاربته من غير مواقعة ـ وعليه قول الرمانى ـ هو الهمّ بالذنب وحديث النفس دون أن يواقع، وقول ابن المسيب: ماخطر على القلب ، وعن ابن عباس . وابن زيد هو ماألموا به من الشرك والمعاصى فى الجاهلية قبل الاسلام، والآية نزلت لقول الكفار للمسلمين قد كنتم بالأمس تعملون أعمالنا فهى مثل قوله تعالى: (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف) على مافى البحر، وقيل: هو مطلق الذنب *

وفى رواية عن ابن عباس أنه ما يلم به المرء فى الحين من الذنوب ثم يتوب، والمعظم على تفسيره بالصغائر والاستثناء منقطع، وقيل: إنه لا استثناء فيه أصلا، و(إلا) صفة بمعنى غير إما لجعل المضاف إلى المعرف باللام الجنسية أعنى كبائر الاثم فى حكم النكرة، أو لأن غير و(إلا) التى بمعناها قد يتعرفان بالاضافة كما فى (غير المغضوب) وتعقبه بعضهم بأن شرط جواز وقوع (إلا) صفة كونها تابعة لجمع منكر غير محصور ولم يوجد هنا، ورد بأن هذا ماذهب اليه ابن الحاجب، وسيبويه يرى جواز وقوعها صفة مع جواز الاستثناء فهو لا يشترط ذلك، وتبعه أكثر المتأخرين، نعم كونها هنا صفة خلاف الظاهر ولا داعى إلى ارتكابه، والآية عند الاكثرين دليل على أن المعاصى منها كبائر ومنها صغائر وأنكر جماعة من الأئمة هذا الانقسام وقالوا: سائر المعاصى كبائر، منهم الاستاذ أبو إسحق الاسفراينى، والقاضى أبو بكر الباقلانى، وإمام الحرمين فى الارشاد، وتقى الدين السبكى. وابن القشيرى فى المرشد بل حكاه ابن فورك عن الاشاعرة. واختاره فى تفسيره فقال معاصى الله تعالى كلها عندنا كبائر وإنما يقال لبعضها صغيرة وكبيرة بالاضافة، وحكى الانقسام عند المعتزلة، وقال: إنه ليس بصحيح، وقال القاضى عبد الوهاب: لا يمكن أن يقال فى معصية إنها صغيرة إلا على معنى أنها تصغر باجتناب الكبائر ويوافق ذلك ما رواه الطبرانى عن ابن عباس لكنه منقطع أنه ذكر عنده الكبائر فقال: كل ما نهى الله تعالى عنه فهو كبيرة، وفى رواية كل شئ عصى الله تعالى فيه فهو كبيرة، والجمهور على الانقسام قيل: ولا خلاف فى المعنى، وإنما الخلاف فى التسمية، والاطلاق لاجماع الكل على أن من المعاصى ما يقدح فى العدالة ومنها مالا يقدح فيها وإنما الاولون فروا من التسمية فكرهوا تسمية معصية الله تعالى صغيرة نظراً إلى عظمة الله عز وجل وشدة عقابه سبحانه وإجلالا له جل شأنه عن تسمية معصيته صغيرة لأنها بالنظر إلى باهر عظمته كبيرة أى كبيرة، ولم ينظر الجمهور إلى ذلك لأنه معلوم؛ وقسموها إلى ماذكر لظواهر الآيات والاحاديث ولذلك قال الغزالى: لا يليق إنكار الفرق بين الكبائر والصغائر وقد عرفنا من مدارك الشرع، ثم القائلون بالفرق اختلفوا فى حد الكبيرة فقيل: هى ما لحق صاحبها عليها بخصوصها وعيد شديد بنص كتاب أو سنة وهى عبارة كثير من الفقهاء، وقيل: كل معصية أوجبت الحد ـ وبه قال البغوى. وغيره ـ والأول أوفق لما ذكروه فى تفصيل الكبائر إذ عدوا الغيبة والنميمة والعقوق وغير ذلك منها ولا حد فيه فهو أصح من الثانى وإن قال الرافعى: إنهم إلى ترجيحه أميل، وقد يقال: يرد على الاول أيضا أنهم عدوا من الكبائر مالم يرد فيه بخصوصه وعيد شديد *

وقيل: هى كل مانص الكتاب على تحريمه أو وجب فى جنسه حد وترك فريضة تجب فوراً والكذب فى الشهادة والرواية واليمين، زاد الهروى. وشريح وكل قول خالف الاجماع العام، وقيل: كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة وهو المحكى عن إمام الحرمين، ورجحه جمع لما فيه من حسن الضبط، وتعقب بأنه بظاهره يتناول صغيرة الخسة، والامام ـ كما قال الاذرعى ـ إنما ضبط به ما يبطل العدالة من المعاصى الشاملة لذلك لا الكبيرة فقط، نعم هو أشمل من التعريفين الاولين، وقيل: هى ما أوجب الحد أو توجه اليه الوعيد ذكره الماوردى فى فتاويه، وقيل: كل محرم لعينه منهى عنه لمعنى فى نفسه فان فعله على وجه يجمع وجهين أو وجوها من التحريم كان فاحشة، فالزنا كبيرة وبحليلة الجار فاحشة والصغيرة تعاطى ما تنقص رتبته عن رتبة المنصوص عليه. أو تعاطيه على وجه دون المنصوص عليه فان تعاطاه على وجه يجمع وجهين أو أكثر من التحريم

كان كبيرة. فالقبلة . واللمس . والمفاخذة صغيرة ، ومع حليلة الجار كبيرة كذا نقله ابن الرفعة وغيره عن القاضى حسين عن الحليمى ، وقيل : هى كل فعل نص الكتاب على تحريمه أى بلفظ التحريم وهو أربعة أشياء ، أكل الميتة ، ولحم الخنزير ، ومال اليتيم ، والفرار من الزحف ورد بمنع الحصر ، وقيل : إنها كل ذنب قرن به حد ، أو وعيد . أو لعن بنص كتاب . أو سنة . أو علم أن مفسدته كمفسدة ماقرن به ذلك . أو أكثر . أو أشعر بتهاون مرتكبه فى دينه إشعاراً صغر الكبائر المنصوص عليها بذلك كما لو قتل من يعتقده معصوما فظهر أنه مستحق لدمه أو وطئ امرأة ظانا أنه زان بها فاذا هى زوجته أو أمته ، واليه ذهب شيخ الاسلام البارزى وقال: هو التحقيق ، وقيل : غير ذلك ، واعتمد الواحدى أنها لاحد لها يحصرها فقال: الصحيح أن الكبيرة ليس لها حد يعرفها العباد به وإلا لاقتحم الناس الصغائر واستباحوها ولكن الله تعالى أخفى ذلك عنهم ليجتهدوا فى اجتناب المنهى عنه رجاء أن تجتنب الكبائر ، ونظير ذلك إخفاء الاسم الاعظم . والصلاة الوسطى . وليلة القدر . وساعة الاجابة ، وقال العلامة ابن حجر الهيتمى : كل ماذكر من الحدود إنما قصد به التقريب فقط وإلا فهى ليست بحدود جامعة ، وكيف يمكن ضبط مالا مطمع فى ضبطه ؟ وذهب جمع إلى تعريفها بالعد ، فعن ابن عباس أنها ماذكره الله تعالى فى أول سورة النساء إلى قوله سبحانه : (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه) *

وقيل : هى سبع وروى ذلك عن على كرم الله تعالى وجهه . وعطاء . وعبيد بن عمير ، واستدل له بما فى الصحيحين «اجتنبوا السبع الموبقات . الاشراك بالله تعالى . والسحر . وقتل النفس التى حرم الله تعالى إلا بالحق . وأكل مال اليتيم . وأكل الربا . والتولى يوم الزحف . وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وقيل : خمس عشرة ، وقيل : أربع عشرة ، وقيل : أربع ، وعن ابن مسعود ثلاث ، وفى رواية أخرى عشرة ، وقال شيخ الاسلام العلائى : المنصوص عليه فى الاحاديث أنه كبيرة خمس وعشرون ، وتعقبه ابن حجر بزيادة على ذلك ، وقال أبو طالب المكى : هى سبع عشرة أربع فى القلب . الشرك . والاصرار على المعصية . والقنوط . والأمن من المكر ، وأربع فى اللسان . القذف . وشهادة الزور . والسحر ، وهو كل كلام يغير الانسان أو شيئا من أعضائه . واليمين الغموس وهى التى تبطل بها حقاً أو تثبت بها باطلا ، وثلاث فى البطن . أكل مال اليتيم ظلماً . وأكل الربا . وشرب كل مسكر ، واثنان فى الفرج . الزنا . واللواط ، واثنتان فى اليد القتلة . والسرقة ، وواحدة فى الرجل . الفرار من الزحف ، وواحدة فى جميع الجسد عقوق الوالدين ، وفيه مافيه ، وروى الطبرانى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رجلا قال له : كم الكبائر سبع هى ؟ فقال هى إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار ، وقد ألف فيها غير واحد من العلماء ، وفى كتاب الزواجر تأليف العلامة ابن حجر مافيه كفاية فليراجع ، والله تعالى الموفق وإنا لنستغفره ونتوب اليه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر ، فالجملة تعليل لاستثناء اللمم ، وتنبيه على أن إخراجه عن حكم المؤاخذة ليس لخلوه عن الذنب فى نفسه بل لسعة المغفرة الربانية ، وجوز أن يكون المعنى له سبحانه أن يغفر لمن يشاء من المؤمنين مايشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها ، ولعل تعقيب وعيد المسيئين ووعد المحسنين بذلك حينئذ لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته تعالى ولا يتوهم وجوب العقاب عليه عز وجل ، وزعم بعض جواز كون الموصول مبتدأ وهذه الجملة خبره والرابط محذوف أى (واسع المغفرة) لهم ليس بشئ كما لا يخفى *

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أى بأحوالكم من كل أحد ﴿ إِذْ أَنْشَأَكُمْ ﴾ فى ضمن إنشاء أبيكم آدم عليه السلام *

﴿ مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ إنشاءاً إجمالياً حسبما مر تحقيقه ، وقيل : إنشاؤهم من الارض باعتبار أن المنى الذى يتكونون منه من الاغذية التى منشؤها من الارض ، وأياما كان ـ فا ذا ـ ظرف ـ لأعلم ـ وهو على بابه من التفضيل *

وقال مكى : هو بمعنى عالم إذ تعلق علمه تعالى بأحوالهم فى ذلك الوقت لامشارك له تعالى فيه، وتعقب بأنه قد يتعلق علم من أطلعه الله تعالى من الملائكة عليه، وقيل : (إذ) منصوب بمحذوف ، والتقدير اذكروا (إذ أنشأكم) وهو كما ترى ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ ووقت كونكم أجنة ﴿ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ على أطوار مختلفة مترتبة لايخفى عليه سبحانه حال من أحوالكم وعمل من أعمالكم التى من جملتها اللمم الذى لولا المغفرة الواسعة لأصابكم وباله ،فالجملة استئناف مقرر لما قبلها وذكر (فى بطون أمهاتكم) مع أن الجنين ماكان فى البطن للاشارة إلى الاطوار كما أشرنا اليه ، وقيل : لتأكيد شأن العلم لما أن بطن الام فى غاية الظلمة ، والفاء فى قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ لترتيب النهى عن تزكية النفس على ماسبق من أن عدم المؤاخذة باللمم ليس لعدم كونه من قبيل الذنوب بل لمحض مغفرته تعالى مع علمه سبحانه بصدوره عنكم أى إذا كان الامر كذلك فلا تثنوا على أنفسكم بالطهارة عن المعاصى بالكلية أو بزكاء العمل وزيادة الخير بل اشكروا الله تعالى على فضله ومغفرته جل شأنه ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ المعاصى جميعاً وهو استئناف مقرر للنهى ومشعر بأن فيهم من يتقيها بأسرها كذا فى الارشاد ، وقيل: اتقى الشرك ، وقيل: اتقى شيئاً من المعاصى ، والآية نزلت على ماقيل: فى قوم من المؤمنين كانوا يعملون أعمالا حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا وهذا مذموم منهى عنه إذا كان بطريق الاعجاب ، أو الرياء أما إذا لم يكن كذلك فلا بأس به ولايعد فاعله من المزكين أنفسهم ، ولذا قيل: المسرة بالطاعة طاعة وذكرها شكر ، ولافرق فى التزكية بين أن تكون عبارة وأن تكون إشارة وعد منها التسمية بنحو برة ، أخرج أحمد . ومسلم . وأبو داود . وابن مردويه . وابن سعد عن زينب بنت أبى سلمة أنها سميت برة فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لاتزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم سموها زينب» وكذا غير عليه الصلاة والسلام إلى ذلك اسم برة بنت جحش ، وتغيير مثل ذلك مستحب وكذا مايوقع نفيه بعض الناس فى شىء من الطيرة كبركة ويسار، والنهى عن التسمية به للتنزيه وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم كما روى جابر : «إن عشت إن شاء الله أنهى أمتى أن يسموا نافعا وأفلح وبركة» محمول كما قال النووى على إرادة أنهى نهى تحريم ، والظاهر أن كراهة مايشعر بالتزكية مخصوصة بما إذا كان الاشعار قويا كما إذا كان الاسم قبل النقل ظاهر الدلالة على التزكية مستعملا فيها فلا كراهة فى التسمية بمايشعر بالمدح إذا لم يكن كذلك كسعيد وحسن، وقد كان لعمر رضى الله تعالى عنه ابنة يقال لها : عاصية فسماها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جميلة كذا قيل ، والمقام بعد لايخلو عن بحث فليراجع ، وقيل : معنى ـ لاتزكوا أنفسكم ـ لايزكى بعضكم بعضاً ، والمراد النهى عن تزكية السمعة أو المدح للدنيا ، أو تزكية على سبيل القطع ، وأما التزكية لاثبات الحقوق ونحوه فهى جائزة ، وذهب بعضهم إلى أن الآية نزلت فى اليهود *

أخرج الواحدى . وابن المنذر . وغيرهما عن ثابت بن الحرث الانصارى قال: « كانت اليهود إذا هلك لهم صبى صغير قالوا : هو صديق فبلغ ذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : كذبت يهود مامن نسمة يخلقها الله تعالى فى بطن أمها إلا يعلم سعادتها أو شقاوتها » فأنزل الله سبحانه عند ذلك (هو أعلم بكم) الآية *

﴿ أفرءيت الذى تولى ٣٣ ﴾ أى عن اتباع الحق والثبات عليه ﴿ وأعطى قليلا ﴾ أى شيئاً قليلا ، أو إعطاءاً قليلا ﴿ وأكدى ٣٤ ﴾ أى قطع العطاء من قولهم حفر فأكدى إذا بلغ إلى كديه أى صلابة فى الارض فلم يمكنه الحفر ، قال مجاهد. وابن زيد: نزلت فى الوليد بن المغيرة كان قد سمع قراءة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وجلس اليه ووعظه فقرب من الاسلام وطمع فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم إنه عاتبه رجل من المشركين ، وقال له : أتترك ملة آبائك ؟! ارجع إلى دينك واثبت عليه وأنا أتحمل عنك كل شىء تخافه فى الآخرة لكن على أن تعطينى كذا وكذا من المال فوافقه الوليد على ذلك ورجع عما هم به من الاسلام وضل ضلالا بعيداً ، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح ، وقال الضحاك : هو النضر بن الحرث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حتى ارتد عن دينه وضمن له أن يحمل عنه مأثم رجوعه ، وقال السدى: نزلت فى العاص بن وائل السهمى كان يوافق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى بعض الأمور ، وقال محمد بن كعب : فى أبى جهل قال : والله ما يأمر محمد إلا بمكارم الاخلاق، والاول هو الأشهر الأنسب لما بعده من قوله سبحانه : ﴿ أعنده علم الغيب ﴾ إلى آخره ، وأما ما فى الكشاف من أنها نزلت فى عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه كان يعطى ماله فى الخير فقال له عبدالله بن سعيد بن أبى سرح : يوشك أن لا يبقى لك شىء فقال عثمان: إن لى ذنوباً وخطايا وإنى أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه فقال عبد الله : أعطنى ناقتك برحلها وأنا أحمل عنك ذنوبك كلها فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء فباطل كما قال ابن عطية ولا أصل له ، وعثمان رضى الله تعالى عنه منزه عن مثل ذلك ، و(أفرأيت) هنا على ما فى البحر بمعنى أخبرنى ومفعولها الأول الموصول ، والثانى الجملة الاستفهامية، والفاء فى قوله تعالى: ﴿ فهو يرى ﴾ للتسبب عما قبله أى أعنده علم بالأمور الغيبية فهو بسبب ذلك يعلم أن صاحبه يتحمل عنه يوم القيامة ما يخافه ، وقيل: يرى أن ما سمعه من القرآن باطل، وقال الكلبى: المعنى أأنزل عليه قرآن فرأى أن ما صنعه حق ، وأياً ما كان فيرى من الرؤية القلبية ، وجوز أن تكون من الرؤية البصرية أى فهو يبصر ما خفى عن غيره مما هو غيب ﴿ أم لم ينبأ ﴾ أى بل ألم يخبر ﴿ بما فى صحف موسى ﴾ وهى التوراة ﴿ وإبرهيم ﴾ وبما فى صحف إبراهيم التى نزلت عليه ﴿ الذى وفى ﴾ أى وفر وأتم ما أمر به ، أو بالغ فى الوفاء بما عاهد عليه الله تعالى ، وقال ابن عباس: وفى بسهام الاسلام كلها ولم يوفها أحد غيره وهى ثلاثون سهماً منها عشرة فى براءة (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) الآيات ، وعشرة فى الأحزاب (إن المسلمين والمسلمات) الآيات ، وست فى قد أفلح المؤمنون الآيات التى فى أولها ، وأربع فى سأل سائل (والذين يصدقون بيوم الدين) الآيات، وفى حديث ضعيف عن أبى أمامة يرفعه ، وفّى بأربع ركعات كان يصليهن فى كل يوم ، وفى رواية يصليهن أول النهار *

وأخرج أحمد من حديث معاذ بن أنس مرفوعاً أيضاً «ألا أخبركم لم سمى الله تعالى إبراهيم خليله الذى وفى أنه كان يقول كلما أصبح وأمسى سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الآية» وقال عكرمة: (وفى) بتبليغ هذه العشرة أن لا تزر إلى آخره (وقيل،وقيل:) والاولى العموم وهو مروى عن الحسن قال: ما أمره الله تعالى بشئ إلا وفى به وتخصيصه عليه السلام بهذا الوصف لاحتماله ما لا يحتمله غيره ، وفى قصة الذبح ما فيه كفاية

وخص هذان النبيان عليهما السلام بالذكر قيل: لأنه فيما بين نوح . وإبراهيم كانوا يأخذون الرجل بابنه و بأبيه وعمه وخاله ، والزوج بامرأته ، والعبد بسيده فأول من خالفهم إبراهيم وقرر ذلك موسى ولم يأت قبله مقرر مثله عليه السلام ، و تقديمه لما أن صحفه أشهر عندهم وأكثر . وقرأ أبو أمامة الباهلى . وسعيد بن جبير . وأبو مالك الغفارى . وابن السميقع . وزيد بن على (وفى) بتخفيف الفاء ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أى أنه لا تحمل نفس من شأنها الحمل حمل نفس أخرى على أن (أن) هى المخففة من الثقيلة وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف، والجملة المنفية خبرها ومحل الجملة الجر على أنها بدل مما فى صحف موسى ، او الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف والاستئناف بيانى كأنه قيل: ما فى صحفهما؟ فقيل: هو (أن لا تزر) الخ ، والمعنى أنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ليتخلص الثانى عن عقابه ، ولا يقدح فى ذلك قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » فان ذلك وزر الاضلال الذى هو وزره لا وزر غيره ، وقوله تعالى :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ ﴾ بيان لعدم إثابة الانسان بعمل غيره إثر بيان عدم مؤاخذته بذنب غيره (وأن) كأختها السابقة ، و(ما) مصدرية وجوز كونها موصولة أى ليس له إلا سعيه ، أو إلا الذى سعى به وفعله ، واستشكل بأنه وردت أخبار صحيحة بنفع الصدقة عن الميت ، منها ما أخرجه مسلم . والبخارى . وأبو داود . والنسائى عن عائشة «أن رجلا قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إن أمى افتلتت نفسها وأظنها لو تكلمت تصدقت فهل لها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال: نعم» وكذا بنفع الحج ه

أخرج البخارى . ومسلم . والنسائى عن ابن عباس قال : « أتى رجل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : إن أختى نذرت لأن تحج وأنها ماتت فقال النبى عليه الصلاة والسلام: لو كان عليها دين أكنت قاضيه ؟ قال: نعم قال: فحق الله أحق بالقضاء » وأجيب بأن الغير لما نوى ذلك الفعل له صار بمنزلة الوكيل عنه القائم مقامه شرعا فكأنه بسعيه ، وهذا لا يتأتى إلا بطريق عموم المجاز ، أو الجمع بين الحقيقة والمجاز عند من يجوزه ، وأجيب أيضاً بأن سعى غيره لما لم ينفعه إلا مبنياً على سعى نفسه من الايمان فكأنه سعيه ، ودل على بنائه على ذلك ما أخرجه أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن العاص بن وائل نذر فى الجاهلية أن ينحر مائة بدنة وأن هشاما ابنه نحر حصته خمسين وأن عمراً سأل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك فقال : « أما أبوك فلو كان أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك » وأجيب بهذا عما قيل : إن تضعيف الثواب الوارد فى الآيات ينافى أيضاً القصر على سعيه وحده ، وأنت تعلم ما فى الجواب من النظر ، وقال بعض أجلة المحققين إنه ورد فى الكتاب والسنة ما هو قطعى فى حصول الانتفاع بعمل الغير وهو ينافى ظاهر الآية فتقيد بما لا يهبه العامل، وسأل والى خراسان عبد الله بن طاهر الحسين بن الفضل عن هذه الآية مع قوله تعالى: (والله يضاعف لمن يشاء) فقال : ليس له بالعدل إلا ما سعى وله بالفضل ما شاء الله تعالى فقبل عبد الله رأس الحسين ، وقال عكرمة : كان هذا الحكم فى قوم إبراهيم . وموسى عليهما السلام ، وأما هذه الأمة فللانسان منها سعى غيره يدل عليه حديث سعد بن عبادة « هل لأمى إذا تطوعت عنها ؟ قال صلى الله تعالى عليه وسلم : نعم » وقال الربيع : الانسان هنا الكافر ، وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره ، وعن ابن عباس أن الآية منسوخة بقوله تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم) وقد أخرج عنه ما يشعر به أبو داود

والنحاس كلاهما فى الناسخ ، وابن جرير . وابن المنذر . وابن مردويه ، وتعقب أبو حيان رواية النسخ بأنها لاتصح لأن الآية خبر لم تتضمن تكليفاً ولانسخ فى الاخبار . ومايتوهم جوابا من أنه تعالى أخبر فى شريعة موسى . وإبراهيم عليهما السلام أن لايجعل الثواب لغير العامل ثم جعله لمن بعدهم من أهل شريعتنا مرجعه إلى تقييد الأخبار لا إلى النسخ إذ حقيقته أن يراد المعنى ، ثم من بعد ذلك ترتفع إرادته ، وهذا تخصيص الارادة بالنسبة إلى أهل الشرائع فافهمه ، وقيل : اللام بمعنى على أى ليس على الانسان غير سعيه ، وهو بعيد من ظاهرها ومن سياق الآية أيضافانها وعظ للذى تولى وأعطى قليلا وأكدى، والذى أميل اليه كلام الحسين ، ونحوه كلام ابن عطية قال: والتحرير عندى فى هذه الآية أن ملاك المعنى هو اللام من قوله سبحانه: (للانسان) فاذا حققت الشئ الذى حق الانسان أن يقول فيه لى كذا لم تجده إلا سعيه وما يكون من رحمة بشفاعة ، أو رعاية أب صالح ، أو ابن صالح ، أو تضعيف حسنات، أو نحو ذلك فليس هو للانسان ولا يسعه أن يقول لى كذا وكذا إلا على تجوز ، وإلحاق بما هو حقيقة انتهى *

ويعلم من مجموع ماتقدم أن استدلال المعتزلة بالآية على أن العبد إذا جعل ثواب عمله أى عمل كان لغيره لاينجعل ويلغو جعله غير تام ؛ وكذا استدلال الامام الشافعى بها على أن ثواب القراءة لاتلحق الأموات ـ وهو مذهب الامام مالك ـ بل قال الامام ابن الهمام : إن مالكا والشافعى لايقولان بوصول العبادات البدنية المحضة كالصلاة والتلاوة بل غيرها كالصدقة والحج ، وفى الاذكار للنووى عليه الرحمة المشهور من مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه وجماعة أنها لاتصل ، وذهب أحمد بن حنبل وجماعة من العلماء ومن أصحاب الشافعى إلى أنها تصل ، فالاختيار أن يقول القارئ بعد فراغه اللهم أوصل ثواب ماقرأته إلى فلان ، والظاهر أنه إذا قال ذلك ونحوه كوهبت ثواب ماقرأته لفلان بقلبه كفى ، وعن بعضهم اشتراط نية النيابة أول القراءة وفى القلب منه شئ ، ثم الظاهر أن ذلك إذا لم تكن القراءة بأجرة أما إذا كانت بها كما يفعله أكثر الناس اليوم فانهم يعطون حفظة القرآن أجرة ليقرءوا لموتاهم فيقرءون لتلك الأجرة فلا يصل ثوابها إذ لاثواب لها ليصل لحرمة أخذ الاجرة على قراءة القرآن وإن لم يحرم على تعليمه كما حققه خاتمة الفقهاء المحققين الشيخ محمد الأمين بن عابدين الدمشقى رحمه الله تعالى ، وفى الهداية من كتاب الحج عن الغير إطلاق صحة جعل الانسان عمله لغيره ولو صلاة وصوماً عند أهل السنة والجماعة ، وفيه ماعلمت مامر آنفا *

وقال الخفاجى : هو محتاج إلى التحرير وتحريره أن محل الخلاف العبادة البدنية هل تقبل النيابة فتسقط عمن لزمته بفعل غيره سواء كان باذنه أم لا بعد حياته أم لا فهذا وقع فى الحج كما ورد فى الاحاديث الصحيحة، أما الصوم فلا ، وما ورد فى حديث « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » وكذا غيره من العبادات فقال الطحاوى : إنه كان فى صدر الاسلام ثم نسخ وليس الكلام فى الفدية وإطعام الطعام فانه بدل وكذا إهداء الثواب سواء كان بعينه أو مثله فانه دعاء وقبوله بفضله عز وجل كالصدقة عن الغير فاعرفه انتهى فلا تغفل *

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ٤٠ ﴾ أى يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة فى صحيفته وميزانه من أريته الشئ، وفى البحر يراه حاضرو القيامة ويطلعون عليه تشريفاً للمحسن وتوبيخاً للمسئ ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ﴾ أى يجزى الانسان سعيه ، يقال : جزاه الله عز وجل بعمله وجزاه على عمله وجزاه عمله بحذف الجار وإيصال الفعل ، وقوله تعالى:

﴿ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ٤١ ﴾ مصدرميين للنوع وإذاجاز وصف المجزى به بالأوفى جاز وصف الحدث عن الجزاء لملابسته له ، وجوز كونه مفعولا به بمعنى المجزى به وحينئذ يكون الفعل فى حكم المتعدى إلى ثلاثة مفاعيل . ولابأس لأن الثانى بالحذف والايصال لاالتوسع فيجىء فيه الخلاف ، وبعضهم يجعل الجزاء منصوباً بنزع الخافض، وجوز أن يكون الضمير المنصوب فى (يجزاه) للجزاء لا للسعى ، و (الجزاء الأوفى) عليه عطف بيان، أوبدل كما فى قوله تعالى : (وأسروا النجوى الذين ظلموا) وتعقبه أبو حيان بأن فيه إبدال الظاهر من الضمير وهى مسألة خلافية والصحيح المنع ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ٤٢ ﴾ أى إن انتهاء الخلق ورجوعهم اليه تعالى لاإلى غيره سبحانه استقلالا ولا اشتراكا ، والمراد بذلك رجوعهم اليه سبحانه يوم القيامة حين يحشرون ولهذا قال غير واحد : أى إلى حساب ربك أو إلى ثوابه تعالى من الجنة وعقابه من النار الانتهاء ، وقيل : المعنى أنه عز وجل منتهى الافكار فلاتزال الافكار تسير فى بيداء حقائق الاشياء وماهياتها والاحاطة بما فيها حتى إذا وجهت إلى حرم ذات الله عز وجل وحقائق صفاته سبحانه وقفت وحرنت وانتهى سيرها ، وأيد بما أخرجه البغوى عن أبى بن كعب عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال فى الآية : « لافكرة فى الرب » وأخرجه أبو الشيخ فى العظمة عن سفيان الثورى ، وروى عنه عليه الصلاة والسلام « إذا ذكر الرب فانتهوا » ، وأخرج ابن ماجه عن ابن عباس قال : « مر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على قوم يتفكرون فى الله فقال : تفكروا فى الخلق ولاتفكروا فى الخالق فانكم لن تقدروه » وأخرج أبو الشيخ عن أبى ذر قال : « قال رسول الله ﷺ : تفكروا فى خلق الله ولاتفكروا فى الله فتهلكوا » .

واستدل بذلك من قال باستحالة معرفته عز وجل بالكنه ، والبحث فى ذلك طويل، وأكثر الأدلة النقلية على عدم الوقوع ، وقرأ أبو السمال ، وإن بالكسر هنا وفيما بعد على أن الجمل منقطعة عما قبلها فلا تكون مما فى الصحف ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ٤٣ ﴾ خلق فعلى الضحك والبكاء ، وقال الزمخشرى : خلق قوتى الضحك والبكاء ، وفيه دسيسة اعتزال ، وقال الطيبى : المراد خلق السرور والحزن أو مايسر ويحزن من الاعمال الصالحة والطالحة ، ولذا قرن بقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ٤٤ ﴾ وعليه فهو مجاز ولايخفى أن الحقيقة أيضا تناسب الاماتة والاحياء لاسيما والموت يعقبه البكاء غالبا والاحياء عند الولاد الضحك وما أحسن قوله :

ولدتك أمك ياابن آدم باكياً والناس حولك يضحكون سروراً
فاجهد لنفسك أن تكون إذا بكوا فى يوم موتك ضاحكا مسروراً

وقال مجاهد . والكلبى : (أضحك) أهل الجنة (وأبكى) أهل النار ، وقيل: (أضحك) الأرض بالنبات (وأبكى) السماء بالمطر ، وتقديم الضمير وتكرير الاسناد للحصر أى أنه تعالى فعل ذلك لاغيره سبحانه، وكذا فى أنه (هو أمات وأحيا) فلا يقدر على الإماتة والإحياء غير عز وجل ، والقاتل إنما ينقض البنية الانسانية ويفرق أجزاءها والموت الحاصل بذلك فعل الله تعالى على سبيل العادة فى مثله فلا إشكال فى الحصر ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ٤٥ ﴾ من نوع الانسان وغيره من أنواع الحيوانات ولم يذكر الضمير على طرز ماتقدم لأنه لايتوهم نسبة خلق الزوجين إلى غيره عز وجل ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ٤٦ ﴾ أى تدفق فى الرحم

يقال . أمنى الرجل ومنى بمعنى ، وقال الاخفش : أى تقدر يقال منى لك المانى أى قدر لك المقدر ، ومنه المنا الذى يوزن به فيما قيل ، والمنية وهى الاجل المقدر للحيوان ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ٤٧ ﴾ أى الاحياء بعد الاماتة وفاءاً بوعده جل شأنه، وفى البحر لما كانت هذه النشأة ينكرها الكفار بولغ بقوله تعالى عليه كأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه ، وفى الكشاف قال سبحانه : (عليه) لأنها واجبة فى الحكمة ليجازى على الاحسان والاساءة وفيه مع كونه على طريق الاعتزال نظر ، وقرأ ابن كثير . وأبو عمرو - النشاءة - بالمد وهى أيضاً مصدر نشأه الثلاثى ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ٤٨ ﴾ وأعطى القنية وهو مايبقى ويدوم من الأموال ببقاء نفسه أو أصله كالرياض والحيوان والبناء ، وإفراد ذلك بالذكر مع دخوله فى قوله تعالى : (أغنى) لأن القنية أنفس الأموال وأشرفها ، وفى البحر يقال : قنيت المال أى كسبته ويعدى أيضا بالهمزة والتضعيف فيقال: أقناه الله تعالى مالا وقناه الله تعالى مالا ، وقال الشاعر :

كم من غنى أصاب الدهر ثروته ومن فقير (يقنى) بعد إقلال

أى يقنى المال، وعن ابن عباس (أغنى) مول ، (وأقنى) أرضى . وهو بهذا المعنى مجاز من القنية قال الراغب : وتحقيق ذلك أنه جعل له قنية من الرضا والطاعة وذلك أعظم القنائن ، ولله تعالى در من قال :

هل هى إلا مدة وتنقضى ما يغلب الايام إلا من رضى

وعن ابن زيد . والاخفش (أقنى) أفقر، ووجه بأنهما جعلا الهمزة فيه للسلب والازالة كما فى أشكى، وقيل: إنهما جعلا (أقنى) بمعنى جعل له الرضا والصبر قنية كناية عن ذلك ليظهر فيه الطباق كما فى (أمات وأحيا) (وأضحك) (وأبكى) وفسره بأفقر أيضا الحضرمى إلا أنه كما أخرج عنه ابن جرير . وأبو الشيخ قال (أغنى) نفسه سبحانه و(أفقر) الخلائق اليه عز وجل ، والظاهر على تقدير اعتبار المفعول فى جميع الافعال المتقدمة أن يكون من المحدثات الصالحة لتعلق الفعل ، وعندى أن (أغنى) سبحانه نفسه كأوجد جل شأنه نفسه لايخلو عن سماجة وإيهام محذور ، وإنما لم يذكر مفعول لأن القصد إلى الفعل نفسه ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ٤٩ ﴾ هى (الشعرى) العبور بفتح العين المهملة والباء الموحدة والراء المهملة بعد الواو، وتقال (الشعرى) أيضا على الغميصاء بغين معجمة مضمومة وميم مفتوحة بعدها ياء مثناة تحتية وصاد مهملة ومد ،والأولى فى الجوزاء ،وإنما قيل لها العبور لانها عبرت المجرة فلقيت سهيلا ولأنها تراه إذا طلع كأنها ستعبر وتسمى أيضاً كلب الجبار لانها تتبع الجوزاء المسماة بالجبار كما يتبع الكلب الصائد أو الصيد، والثانية فى ذراع الاسد المبسوطة، وإنما قيل لها الغميصاء لانها بكت من فراق سهيل فغمصت عينها، والغمص ماسال من الرمص وهو وسخ أبيض يجتمع فى الموق، وذلك من زعم العرب أنهما أختا سهيل ، وفى القاموس من أحاديثهم أن الشعرى العبور قطعت المجرة فسميت عبوراً وبكت الاخرى على أثرها حتى غمصت ويقال لها الغموص أيضاً ، وقيل: زعموا أن سهيلا و(الشعرى) كانا زوجين فانحدر سهيل وصار يمانياً فاتبعه الشعرى فعبرت المجرة فسميت العبور وأقامت الغميصاء وسميت بذلك لانها دون الاولى ضياءاً، وكل ذلك من تخيلاتهم الكاذبة التى لاحقيقة لها، والمتبادر عند الاطلاق وعدم الوصف العبور لأنها أكبر جرماً وأكثر ضياءاً وهى التى عبدت من دون الله سبحانه فى الجاهلية .

قال السدي : عبدتها حمير . وخزاعة، وقال غيره: أول من عبدها أبو كبشة رجل من خزاعة ، أو هو سيدهم

واسمه وخز بن غالب وكان المشركون يقولون للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : ابن أبي كبشة شبهوه به لمخالفته قومه فى عبادة الاصنام ، وذكر بعضهم أنه أحد أجداده عليه الصلاة والسلام من قبل أمه وأنهم كانوا يزعمون أن كل صفة فى المرء تسرى اليه من أحد أصوله فيقولون نزع اليه عرق كذا ، وعرق الخال نزاع ، وقيل: هو كنية وهب بن عبد مناف جده صلى الله تعالى عليه وسلم من قبل أمه ، وقولهم له عليه الصلاة والسلام ذلك على ما يقتضيه ظاهر القاموس لانه صلى الله تعالى عليه وسلم فى الشبه الخلقى دون المخالفة ، وقيل : كنية زوج حليمة السعدية مرضعته عليه الصلاة والسلام ، وقيل : كنية عم ولدها ولكونها عبدت من دونه عز وجل خصت بالذكر ليكون ذلك تجهيلا لهم بجعل المربوب ربا ، ولمزيد الاعتناء بذلك جيء بالجملة على مانطق به النظم الجليل *

ومن العرب من كان يعظمها ويعتقد تأثيرها فى العالم ويزعمون أنها تقطع السماء عرضاً وسائر النجوم تقطعها طولا ويتكلمون على المغيبات عند طلوعها ففى قوله تعالى: (وأنه هو رب الشعرى) إشارة إلى نفى تأثيرها *

*(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً ٱلْأُولَىٰ) * أى القدماء لأنهم أولى الأمم هلاكا بعد قوم نوح كما قاله ابن زيد والجمهور ، وقال الطبرى: وصفت بالأولى لأن فى القبائل (عاداً) أخرى وهى قبيلة كانت بمكة مع العماليق وهم بنو لقيم بن هزال، وقال المبرد: عاد الأخرى هى ثمود ، وقيل: الجبارون، وقيل: عاد الاولى ولد عاد بن إرم بن عوف بن سام بن نوح، وعاد الأخرى من ولد عاد الأولى ، وفى الكشاف (الأولى) قوم هود والأخرى إرم، والله تعالى أعلم *

وجوز أن يراد بالأولى المتقدمون الاشراف ؛ وقرأ قوم عاد الولى بحذف الهمزة ونقل ضمها إلى اللام قبلها ، وقرأ نافع . وأبو عمرو ـ عادا لولى ـ بإدغام التنوين فى اللام المنقول اليها حركة الهمزة المحذوفة، وعاب هذه القراءة المازنى . والمبرد ، وقالت العرب: فى الابتداء بعد النقل ـ الحمر ، ولحمر ـ فهذه القراءة جاءت على لحمر فلا عيب فيها ، وأتى قالون بعد ضمة اللام بهمزة ساكنة فى موضع الواو كما فى قوله :

* أحب المؤقدين إلى مؤسى * وكما قرأ بعضهم ـ على سؤقه ـ وفيه شذوذ ، وفى حرف أبىّ عاد غير مصروف للعلمية والتأنيث ومن صرفه فباعتبار الحى، أو عامله معاملة هند لكونه ثلاثياً ساكن الوسط ﴿ وَثَمُودَ ﴾ عطف على (عاداً) ولا يجوز أن يكون مفعولا ـ لأبقى ـ فى قوله تعالى: ﴿ فَمَا أَبْقَىٰ ﴾ لأن ـ ما ـ النافية لها صدر الكلام والفاء على ماقيل: مانعة أيضاً فلا يتقدم معمول مابعدها ، وقيل : هو معمول ـ لأهلك ـ مقدر ولا حاجة اليه ، وقرأ عاصم . وحمزة . ـ ثمود ـ بلا تنوين ويقفان بغير ألف . والباقون بالتنوين ويقفون بالألف ، والظاهر أن متعلق (أبقى) يرجع إلى عاد وثمود معاً أى فما أبقى عليهم ، أى أخذهم بذنوبهم ، وقيل: أى ما أبقى منهم أحداً، والمراد ما أبقى من كفارهم ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ عطف على (عاداً) أيضا ﴿ مِّن قَبْلُ ﴾ أى من قبل إهلاك عاد وثمود، وصرح بالقبلية لأن نوحا عليه السلام آدم الثانى وقومه أول الطاغين والهالكين *﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾* أى من الفريقين حيث كانوا يؤذونه ويضربونه حتى لايكاد يتحرك وكان الرجل منهم يأخذ بيد ابنه يتمشى به إليه يحذره منه ويقول: يابنى إن أبى مشى بى إلى هذا وأنا مثلك يومئذ فإياك أن تصدقه فيموت الكبير على الكفر وينشأ الصغير على وصية أبيه ولم يتأثروا من دعائه وقد دعاهم ألف سنة إلا خمسين عاما، وقيل: ضمير (إنهم) يعود على جميع من تقدم عاد وثمود وقوم نوح أى كانوا أظلم من قريش وأطغى منهم، وفيه من التسلية للنبي عليه الصلاة والسلام

مالا يخفى ، و (هم) يجوز أن يكون تأكيداً للضمير المنصوب ويجوز أن يكون فصلا لأنه واقع بين معرفة وأفعل التفضيل ، وحذف المفضول مع الواقع خبراً لكان لأنه جار مجرى خبر المبتدأ وحذفه فصيح فيه فكذلك فى خبر كان ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ ﴾ هى قرى قوم لوط سميت بذلك لأنها ائتفكت بأهلها أى انقلبت بهم ، ومنه الإفك لأنه قلب الحق ، وجوز أن يراد بالمؤتفكة كل ماانقلبت مساكنه ودثرت أماكنه *

وقرأ الحسن ـ والمؤتفكات ـ جمعاً ﴿ أَهْوَىٰ ﴾ أى أسقطها إلى الارض بعد أن رفعها على جناح جبريل عليه السلام إلى السماء ، وقال المبرد : جعلها تهوى *

والظاهر أن أهوى ناصب للمؤتفكة وأخر العامل لكونه فاصلة، وجوز أن يكون ـ المؤتفكة ـ معطوفا على ماقبله و(أهوى) مع فاعله جملة فى موضع الحال بتقدير قد ، أو بدونه توضح كيفية إهلاكهم *

﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ فيه تهويل للعذاب وتعميم لما أصابهم منه لأن الموصول من صيغ العموم والتضعيف فى غشاها يحتمل أن يكون للتعدية فيكون (ما) مفعولا ثانياً والفاعل ضميره تعالى، ويحتمل أن يكون للتكثير والمبالغة فـ(ما) هى الفاعل ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ تتشكك والتفاعل هنا مجرد عن التعدد فى الفاعل والمفعول للمبالغة فى الفعل ، وقيل : إن فعل التمارى للواحد باعتبار تعدد متعلقه وهو الآلاء المتمارى فيها ، والخطاب قيل : لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أنه من باب الإلهاب والتعريض بالغير ، وقيل :للانسان على الاطلاق وهو أظهر والاستفهام للانكار، والآلاء جمع إلى النعم ، والمراد بها ماعد فى الآيات قبل وسمى الكل بذلك مع أن منه نقما لما فى النقم من العبر والمواعظ للمعتبرين والانتفاع للانبياء والمؤمنين فهى نعم بذلك الاعتبار أيضا ، وقيل : التعبير بالآلاء للتغليب وتعقب بأن المقام غير مناسب له، وقرأ يعقوب . وابن محيصن ـ ربك تمارى ـ بتاء مشددة ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ الإشارة إلى القرآن . وقال أبو مالك : إلى الأخبار عن الامم ، أو الاشارة إلى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم . والنذير يجىء مصدراً ووصفاً ، والنذر جمعه مطلقا وكل من الامرين محتمل هنا ، ووصف (النذر) جمعاً للوصف بالاولى على تأويل الفرقة ، أو الجماعة ،واختير على غيره رعاية للفاصلة ، وأياً ما كان فالمراد (هذا نذير من) جنس (النذر الاولى) *

وفى الكشف أن قوله تعالى : (هذا نذير) الخ فذلكة للكلام إما لما عدد من المشتمل عليه الصحف وإما لجميع الكلام من مفتتح السورة فتدبر ولاتغفل ﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴾ أى قربت الساعة الموصوفة بالقرب فى غير آية من القرآن ، فأل فى (الآزفة) كالعهد لا للجنس، وقيل : (الآزفة) علم بالغلبة للساعة هنا، وقيل : لا بأس بارادة الجنس ووصف القريب بالقرب للمبالغة ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أى غير الله تعالى أو إلا الله عز وجل ﴿ كَاشِفَةٌ ٥٨ ﴾ نفس قادرة على كشفها إذا وقعت لكنه سبحانه لايكشفها ، والمراد بالكشف الازالة ، وقريب من هذا ماروى عن قتادة . وعطاء . والضحاك أى إذا غشيت الخلق أهوالها وشدائدها لم يكشفها ولم يردها عنهم أحد ، أوليس لها الآن نفس كاشفة أى مزيلة للخوف منها فانه باق إلى أن يأتى الله سبحانه بها وهو مراد الزمخشرى بقوله : أوليس لها الآن نفس كاشفة بالتأخير ، وقيل : معناه لو وقعت الآن لم يردها الى وقتها أحد إلا الله تعالى ، فالكشف بمعنى التأخير وهو إزالة مخصوصة ، وقال الطبرى . والزجاج : المعنى

ليس لها من دون الله تعالى نفس كاشفة تكشف وقت وقوعها وتبينه لأنها من أخفى المغيبات ، فالكشف بمعنى التبيين والآية كقوله تعالى: (لا يجليها لوقتها إلا هو) والتاء في (كاشفة) على جميع الاوجه للتأنيث ،وهو لتأنيث الموصوف المحذوف كما سمعت ، وبعضهم يقدر الموصوف حالا ، والاول أولى ؛ وجوز أن تكون للمبالغة مثلها في علامة ، وتعقب بأن المقام يأباه لايهامه ثبوت أصل الكشف لغيره عز وجل وفيه نظر ، وقال الرماني . وجماعة : يحتمل أن يكون (كاشفة) مصدراً كالعافية ، وخائنة الاعين أي ليس لها كشف من دون الله تعالى ﴿ أفمن هذا الحديث ﴾ أي القرآن ﴿ تعجبون ٥٩ ﴾ إنكاراً ﴿ وتضحكون ﴾ استهزاءاً مع كونه أبعد شئ من ذلك ﴿ ولا تبكون ٦٠ ﴾ حزناً على مافرطتم في شأنه وخوفاً من أن يحيق بكم ماحاق بالامم المذكورة ﴿ وأنتم سامدون ٦١ ﴾ أي لاهون كما روى عن ابن عباس جوابا لنافع بن الازرق ، وأنشد عليه قول هزيلة بنت بكر وهي تبكي قوم عاد :

ليت (عاداً) قبلوا الحق ولم يبدوا جحودا
قيل : قم فانظر اليهم ثم دع عنك (السمودا)

وفي رواية أنه رضي الله تعالى عنه سئل عن السمود ، فقال : البرطمة وهي رفع الرأس تكبراً أي وأنتم رافعون رءوسكم تكبراً ، وروى تفسيره بالبرطمة عن مجاهد أيضا ، وقال الراغب : السامد اللاهي الرافع رأسه - من سمد البعير في سيره - إذا رفع رأسه ، وقال أبو عبيدة : السمود الغناء بلغة حمير يقولون : ياجارية اسمدي لنا أي غني لنا ، وروى نحوه عن عكرمة ، وأخرج عبد الرزاق . والبزار . وابن جرير . والبيهقي في سننه . وجماعة عن ابن عباس أنه قال : هو الغناء باليمانية وكانوا إذا سمعوا القرآن غنوا تشاغلا عنه ، وقيل : يفعلون ذلك ليشغلوا الناس عن استماعه ، والجملة الاسمية على جميع ذلك حال من فاعل - لاتبكون - ومضمونها قيد للنفي والانكار متوجه إلى نفي البكاء ووجود السمود ، وقال المبرد : السمود الجمود والخشوع كما في قوله :

رمى الحدثان نسوة آل سعد بمقدار سمدن له (سمودا)
فرد شعورهن السود بيضاً ورد وجوههن البيض سودا

والجملة عليه حال من فاعل - تبكون - أيضا إلا أن مضمونها قيد للمنفي ، والانكار وارد على نفي البكاء والسمود معاً فلا تغفل ، وفي حرف أبي . وعبد الله - تضحكون - بغير واو ، وقرأ الحسن - تعجبون تضحكون - بغير واو وضم التاءين وكسر الجيم والحاء ، واستدل بالآية كما في أحكام القرآن على استحباب البكاء عند سماع القرآن وقراءته ، أخرج البيهقي في شعب الايمان عن أبي هريرة قال : « لما نزلت (أفمن هذا الحديث) الآية بكى أصحاب الصفة حتى جرت دموعهم على خدودهم فلما سمع رسول الله ﷺ حنينهم بكى معهم فبكينا ببكائه فقال عليه الصلاة والسلام : لايلج النار من بكى من خشية الله تعالى ولايدخل الجنة مصر على معصيته ولو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » وأخرج أحمد في الزهد . وابن أبي شيبة . وهناد . وغيرهم عن صالح أبي الخليل قال : لما نزلت هذه الآية (أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون) ماضحك النبي ﷺ بعد ذلك إلا أن يتبسم » ولفظ عبد بن حميد « فما رؤى النبي عليه الصلاة والسلام ضاحكا ولا متبسما حتى ذهب من الدنيا » وفيه سد باب الضحك عند قراءة القرآن ولو لم يكن استهزاءاً والعياذ بالله عز وجل *

﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ٦٢ ﴾ الفاء لترتيب الأمر أو موجبه على ما تقرر من بطلان مقابلة القرآن بالتعجب والضحك وحقية مقابلته بما يليق به ، ويدل على عظم شأنه أى وإذا كان الامر كذلك فاسجدوا لله تعالى الذى أنزله واعبدوه جل جلاله ، وهذه آية سجدة عند أكثر أهل العلم ، وقد سجد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندها.

أخرج الشيخان . وأبو داود . والنسائى . وابن مردويه عن ابن مسعود قال : « أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم) فسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسجد الناس كلهم إلا رجلا » الحديث .

وأخرج ابن مردويه . والبيهقى فى السنن عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما « قال : صلى بنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقرأ النجم فسجد بنا فأطال السجود » وكذا عمر رضى الله تعالى عنه ، أخرج سعيد ابن منصور عن سبرة قال : صلى بنا عمر بن الخطاب الفجر فقرأ فى الركعة الأولى سورة يوسف ، ثم قرأ فى الثانية سورة النجم فسجد ، ثم قام فقرأ إذا زلزلت ثم ركع ، ولا يرى مالك السجود هنا ، واستدل له بما أخرجه أحمد . والشيخان . وأبو داود . والترمذى . والنسائى والطبرانى وغيرهم عن زيد بن ثابت قال : قرأت النجم عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فلم يسجد فيها ، وأجيب بأن الترك إنما ينافى وجوب السجود وليس بمجمع عليه وهو عند القائل به على التراخى فى مثل ذلك على المختار وليس فى الحديث ما يدل على نفيه بالكلية فيحتمل أنه عليه الصلاة والسلام سجد بعد ، وكذا زيد رضى الله تعالى عنه ، نعم التأخير مكروه تنزيهاً ولعله فعل لبيان الجواز ، أو لعذر لم نطلع عليه ، وما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس من قوله : « إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يسجد فى شئ من المفصل منذ تحول إلى المدينة » ناف وضعيف ، وكذا قوله فيما رواه أيضا عنه « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يسجد فى النجم بمكة فلما هاجر إلى المدينة تركها » على أن الترك إنما ينافى كما سمعت الوجوب ، والله تعالى أعلم .

﴿ سورة القمر ﴾

وتسمى أيضا (اقتربت) وعن ابن عباس أنها تدعى فى التوراة المبيضة تبيض وجه صاحبها يوم تسود الوجوه ، أخرجه عنه البيهقى فى شعب الايمان لكن قال : إنه منكر ﴿ وهى مكية ﴾ فى قول الجمهور ، وقيل : مما نزل يوم بدر ، وقال مقاتل : مكية إلا ثلاث آيات (أم يقولون) إلى (وأمر) واقتصر بعضهم على استثناء (سيهزم الجمع) الخ ، ورد بما أخرجه ابن أبى حاتم . والطبرانى فى الاوسط . وابن مردويه عن أبى هريرة قال : أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة قبل يوم بدر (سيهزم الجمع ويولون الدبر) وقال عمر بن الخطاب : قلت : يارسول الله أى جمع يهزم ؟ فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت إلى رسول الله ﷺ فى آثارهم مصلتاً بالسيف وهو يقول : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) فكانت ليوم بدر ، وفى الدر المنثور : أخرج البخارى عن عائشة قالت : « نزل على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة وإنى لجارية ألعب (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) » ويرد به وبما قبله ما حكى عن مقاتل أيضا ، وقيل : (إلا أن المتقين) الآيتين وآيها خمس وخمسون بالاجماع ، ومناسبة أولها لآخر السورة التى قبلها ظاهرة فقد قال سبحانه : (ثم أزفت الآزفة) وهنا (اقتربت الساعة) وقال الجلال السيوطى : لايخفى ما فى توالى هاتين السورتين من حسن التناسق

للتناسب فى التسمية لما بين ـ النجم ، والقمر ـ من الملابسة ، وأيضا إن هذه بعد تلك ـ كالاعراف بعد الانعام، وكالشعراء بعد الفرقان ، وكالصافات بعد يس ـ فى أنها تفصيل لاحوال الامم المشار إلى إهلاكهم فى قوله تعالى: (وأنه أهلك عاداً الاولى وثمود فما أبقى وقوم نوح) إلى قوله سبحانه : (والمؤتفكة أهوى) *

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم اقتربت الساعة ﴾ أى قربت جداً ﴿ وانشق القمر ١ ﴾ انفصل بعضه عن بعض وصار فرقتين وذلك على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل الهجرة بنحو خمس سنين فقد صح من رواية الشيخين . وابن جرير عن أنس أن أهل مكة سألوه عليه الصلاة والسلام أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما ، وخبر أبى نعيم من طريق الضحاك عن ابن عباس ـ أن أحبار اليهود سألوا آية فأراهم الله تعالى القمر قد انشق ـ لا يعوّل عليه ، وفى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود «انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فرقتين فرقة على الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا» ومن حديثه أيضاً «انشق القمر على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام فقالت قريش : هذا سحر ابن أبى كبشة فقال رجل: انتظروا ما يأتيكم به السفار فان محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم فجاء السفار فأخبروهم بذلك» رواه أبو داود . والطيالسى ، وفى رواية البيهقى « فسألوا السفار وقد قدموا من كل وجه فقالوا : رأيناه » فأنزل الله تعالى: (اقتربت الساعة وانشق القمر) *

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس من وجه ضعيف قال: «اجتمع المشركون على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منهم الوليد بن المغيرة . وأبو جهل بن هشام . والعاص بن وائل . والعاص بن هشام . والاسود بن عبد يغوث . والاسود بن المطلب . وربيعة بن الاسود . والنضر بن الحرث فقالوا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : إن كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين نصفاً على أبى قبيس ونصفاً على قينقاع فقال لهم النبى ﷺ : «إن فعلت تؤمنوا؟ قالوا: نعم وكانت ليلة بدر فسأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ربه عز وجل أن يعطيه ماسألوا فأمسى القمر قد مثل نصفاً على أبى قبيس ونصفاً على قينقاع ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينادى يا أبا سلمة بن عبد الاسد . والأرقم بن الأرقم اشهدوا» *

والاحاديث الصحيحة فى الانشقاق كثيرة ، واختلف فى تواتره فقيل : هو غير متواتر ، وفى شرح المواقف الشريفى أنه متواتر وهو الذى اختاره العلامة ابن السبكى قال فى شرحه لمختصر ابن الحاجب : الصحيح عندى أن انشقاق القمر متواتر منصوص عليه فى القرآن مروى فى الصحيحين وغيرهما من طرق شتى بحيث لا يمترى فى تواتره انتهى باختصار ، وقد جاءت أحاديثه فى روايات صحيحة عن جماعة من الصحابة منهم على كرم الله تعالى وجهه . وأنس . وابن مسعود . وابن عباس . وحذيفة . وجبير بن مطعم . وابن عمر . وغيرهم ، نعم إن منهم من لم يحضر ذلك كابن عباس فانه لم يكن مولوداً إذ ذاك وكأنس فانه كان ابن أربع أو خمس بالمدينة ، وهذا لا يطعن فى صحة الخبر كما لا يخفى ، ووقع فى رواية البخارى . وغيره عن ابن مسعود « كنا مع رسول الله صلى تعالى الله عليه وسلم بمنى فانشق القمر » ولا يعارض ماصح عن أنس أن ذلك كان بمكة لأنه لم يصرح بأنه عليه الصلاة والسلام كان ليلتئذ بمكة ، فالمراد أن الانشاق كان والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذ ذاك مقيم بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة ، ووقع فى نظم السيرة للحافظ أبى الفضل العراقى ما هو نص فى وقوع الانشقاق مرتين . وظاهر فى أنه مجمع على وقوعه كذلك حيث قال: وانشق مرتين بالاجماع ، وكأن مستند الاول ما أخرجه

عبد بن حميد. والحاكم وصححه. وابن مردويه . والبيهقى فى الدلائل من طريق مجاهد عن أبى معمر عن ابن مسعود قال: رأيت القمر منشقا شقتين مرتين بمكة قبل مخرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الحديث ، وأما الاجماع فغير مسلم ، وفى المواهب قال الحافظ ابن حجر : أظن أن قوله: بالاجماع يتعلق - بانشق - لا بمرتين فانى لا أعلم من جزم من علماء الحديث بتعدد الانشقاق فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم، ولعل قائل مرتين أراد فرقتين، وهذا الذى لا يتجه غيره جمعاً بين الروايات انتهى، ولا يخفى أن هذا التأويل مع بعده لا يتسنى فى خبر ابن مسعود المذكور آنفا لمكان شقتين وهى بمعنى فرقتين ومرتين معاً ، والذى عندى فى تأويل ذلك أن مرتين فى كلام ابن مسعود قيد للرؤية وتعددها لا يقتضى تعدد الانشقاق بأن يكون رآه منشقا فصرف نظره عنه ثم أعاده فرآه كذلك لم يتغير ففيه إشارة إلى أنها رؤية لاشبهة فيها وقد فعل نحو ذلك الكفرة ، أخرج أبو نعيم من طريق عطاء عن ابن عباس قال : انتهى أهل مكة إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا : هل من آية نعرف بها أنك رسول الله؟ فهبط جبريل عليه السلام فقال : يامحمد قل لاهل مكة أن يجتمعوا هذه الليلة يروا آية فأخبرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمقالة جبريل عليه السلام فخرجوا ليلة أربع عشرة فانشق القمر نصفين نصفاً على الصفا ونصفاً على المروة فنظروا ثم قالوا بأبصارهم فمسحوها ثم أعادوا النظر فنظروا ثم مسحوا أعينهم ثم نظروا فقالوا ماهذا إلا سحر فأنزل الله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) فلو قال أحد هؤلاء رأيت القمر منشقاً ثلاث مرات على معنى تعدد الرؤية صح بلا غبار ولم يقتض تعدد الانشقاق فليخرج كلام ابن مسعود على هذا الطرز ليجمع بين الروايات ، ثم هذا الحديث إن صح كان دليلا لما أشار اليه البوصيرى فى قوله :

شق عن صدره وشق له البد ر ومن شرط كل شرط جزاء

من أن الشق كان ليلة أربع عشرة لأن البدر هو القمر ليلة أربع عشرة ويعلم من ذلك ما فى قول العلامة ابن حجر الهيتمى فى شرحه : ظاهر التعبير بالبدر دون القمر أن الشق كان ليلة أربع عشرة ولم أر له فى ذلك سلفا ، ولعله أراد بالبدر مطلق القمر ، ويؤيد كونه ليلة البدر ما أخرجه الطبرانى ، وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : كسف القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا : سحر القمر فنزلت (اقتربت الساعة) إلى (مستمر) فان الكسوف وإن جاز عادة أن يكون ليلة الثالث عشر وليلة الخامس عشر إلا أن الأغلب كونه ليلة الرابع عشر ولا ضرورة إلى حمل الكسوف فى هذا الخبر على الانشقاق إذ لا مانع كما فى البداية والنهاية أن يكون قد حصل للقمر مع انشقاقه كسوف ، نعم ذكر فيها أن سياق الخبر غريب .

ثم إن القمر بعد انشقاقه لم تفارق قطعتاه السماء بل بقيتا فيها متباعدتين تباعداً ما لحظة ثم اتصلتا ، وما يذكره بعض القصاص من أنه دخل فى جيب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وخرج من كمه فباطل لا أصل له كما حكاه الشيخ بدر الدين الزركشى عن شيخه العماد بن كثير ولعنة الله تعالى على من وضعه . ومافى خبر أبى نعيم - الذى أخرجه من طريق الضحاك عن ابن عباس من أنه انشق فصار قمرين أحدهما على الصفا والآخر على المروة قدر مابين العصر إلى الليل ينظرون اليه ثم غاب - لا يعول عليه ، كيف وقد تضمن ذلك الخبر أن الانشقاق وقع لطلب أحبار اليهود وأن القائل (هذا سحر مستمر) هم ، وهو مخالف لما نطقت به الاخبار الصحيحة الكثيرة كما لا يخفى على المتتبع ، وقد شاع « أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أشار إلى القمر بسبابته الشريفة فانشق » ولم أره فى خبر صحيح والله تعالى أعلم .

وأنكر الفلاسفة أصل الانشقاق بناءاً على زعمهم استحالة الخرق والالتئام على الاجرام العلوية ودليلهم على ذلك أوهن من بيت العنكبوت وقد خرق بأدنى نسمة من نسمات أفكار أهل الحق العلويين خرقا لا يقبل الالتئام كما بين فى موضعه ، وقال بعض الملاحدة : لو وقع لنقل متواتراً واشترك أهل الارض كلهم فى معرفته ولم يختص بها أهل مكة لأنه أمر محسوس مشاهد والناس فيه شركاء والطباع حريصة على رواية الغريب ونقل مالم يعهد ، ولا أغرب من انشقاق هذا الجرم العظيم ولم يعهد أصلا فى الزمن القديم ولو كان له أصل لخلد أيضا فى كتب التسيير والتنجيم ولذكره أهل الارصاد فقد كانت موجودة قبل البعثة بكثير وإطباقهم على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه ووضوح أمره مما لا تجوزه العادة، وايضا لا يعقل سبب لخرق هذا الجرم العظيم وأيضاً خرقه يوجب صوتا هائلا أشد من أصوات الصواعق المهلكة بأضعاف مضاعفة لا يبعد هلاك أكثر أهل الأرض منه ، وأيضاً متى خرق وصار قطعتين ذهبت منه قوة التجاذب كالجبل إذا انشق فيلزم بقاؤه منشقاً ولا أقل من أن يبقى كذلك سنين كثيرة * والجواب عن ذلك أنه وقع فى الليل وزمان الغفلة وكان فى زمان قليل ورؤية القمر فى بلد لا تستلزم رؤيته فى جميع البلاد ضرورة اختلاف المطالع فقد يكون القمر طالعاً على قوم غائباً عن آخرين ومكسوفا عند قوم غير مكسوف عند آخرين والاعتناء بأمر الارصاد لم يكن بمثابته اليوم وغفلة أهلها لحظة غير مستبعد والانشقاق لا تختلف به منازله ولا يتغير به سيره غاية ما فى الباب أن يحدث فى القطعة الشرقية قوة سير لتلحق أختها الغربية، وأى مانع من أن يخلق الله تعالى فيها من السرعة نحو ما خلق الله سبحانه فى ضوء الشمس فقد قال أهل الحكمة الجديدة: إن بين الارض والشمس ثلثمائة ألف فرسخ وأربعون ألف فرسخ وأن ضوءها ليصل إلى الأرض فى مدة ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانية فيقطع الضوء فى كل ثانية سبعين ألف فرسخ ولا يلزم أن يعلم سبب كل حادث بل كثير من الحوادث المتكررة المشاهدة لم يوقف على أسبابها كرؤية الكواكب قريبة مع بعدها المفرط فقد ذكروا أنهم لم يقفوا على سببه ويكفى فى ذلك عدم وقوفهم على سبب الإبصار بالعين على الحقيقة ولو أخبرهم مخبر بفرض إن لم يكن لهم أبصار بخواص البصر مع كونه قطعة شحم صغيرة معروفة أحوالها عند أهل التشريح لأنكروا عليه غاية الانكار وكذبوه غاية التكذيب ونسبوه إلى الجنون *

ومن سلم تأثير النفوس إلى حد أن يصرع الشخص آخر بمجرد النظر إليه وتوجيه نفسه نحوه لم يستبعد أن يكون هناك سبب نحو ذلك ، وقد صح فى إصابة العين أن بعض الاعراب ممن له عين صائبة يفلق سنام الناقة فلقتين ، وربما تصور له من رمل فينظر إليه ويفلقه فينفلق سنامها مع عدم رؤيته لها نفسها وهذا كله من باب المماشاة وإلا فإرادة الله تعالى كافية فى الانشقاق وكذا فى كل المعجزات وخوارق العادات ولو كان لكل حادث سبب لزم التسلسل وقد قامت الادلة على بطلانه ، وكون الخرق يوجب صوتاً هائلا ممنوع فيما نحن فيه ومثله ذهاب التجاذب والاجسام مختلفة من حيث الخواص فلا يلزم اتحاد جرم القمر والارض فيها ويمكن أن يكون إحدى القطعتين كالجبل العظيم بالنسبة إلى الارض إذا ارتفع عنها بقاسر مثلا جذبته إليه إذا لم يخرج عن حد جذبها على ما زعموه ويلتزم فى تلك القطعة عدم الخروج عن حد الجذب على أنا فى غنى عن كل ذلك أيضا بعد إثبات الامكان لقدرته عز وجل وأنه سبحانه فعال لما يريد *

والحاصل أنه ليس عند المنكر سوى الاستبعاد ولا يستطيع أن يأتى بدليل على الاستحالة الذاتية ولو انشق، والاستبعاد فى مثل هذه المقامات قريب من الجنون عند من له عقل سلم ، وروى عن الحسن أنه قال : هذا

الانشقاق بعد النفخة الثانية، والتعبير بالماضى لتحقق الوقوع ، وروى ذلك عن عطاء أيضاً ، ويؤيده ما تقدم الذى عليه الاكثرون قراءة حذيفة وقد انشق القمر فان الجملة عليها حالية فتقتضى المقارنة لاقتراب الساعة ووقوع الانشاق قبل يوم القيامة ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ فانه يقتضى أن الانشقاق آية رأوها وأعرضوا عنها ، وزعم بعضهم أن انشقاق القمر عبارة عن انشقاق الظلمة عند طلوعه وهذا كما يسمى الصبح فلقاً عند انفلاق الظلمة عنه وقد يعبر عن الانفلاق بالانشقاق كما فى قوله النابغة :

فلما أدبروا ولهم دوى دعانا عند (شق) الصبح داعى

وزعم آخر أن معنى انشق القمر وضح الامر وظهر وكلا الزعمين مما لا يعول عليه ولا يلتفت اليه ولا أظن الداعى اليهما عند من يقر بالساعة التى هى أعظم من الانشقاق ويعترف بالعقائد الاسلامية التى وقع عليها الاتفاق سوى عدم ثبوت الاخبار فى وقوع ذلك على عهده عليه الصلاة والسلام عنده ، ومنشأ ذلك القصور التام والتمسك بشبه هى على طرف الثمام ، ومع هذا لا يكفر المنكر بناءاً على عدم الاتفاق على تواتر ذلك وعدم كون الآية نصاً فيه ، والاخراج من الدين أمر عظيم فيحتاط فيه ما لا يحتاط فى غيره والله تعالى الموفق .

والظاهر أن المراد باقتراب الساعة القرب الشديد الزمانى ، وكل آت قريب ، وزمان العالم مديد ، والباقى بالنسبة إلى الماضى شئ يسير ، ومال الامام إلى ان المراد به قربها فى العقول والاذهان ، وحاصله أنها ممكنة إمكانا قريبا لا ينبغى لاحد إنكارها ، واستعمال الاقتراب مع أنه أمر مقطوع به كاستعمال (لعل) فى قوله تعالى : (لعل الساعة تكون قريباً) مع أن الامر معلوم عند الله تعالى وانشقاق القمر آية ظاهرة على هذا القرب ، وعلى الاول قيل : هو آية لاصل الامكان الذى يقتضيه قرب الوقوع ، وقيل : هو آية لقرب الوقوع ومعجزة للنبى ﷺ باعتبار أن الله تعالى مخبر فى كتبه السالفة بأنه إذا قربت الساعة انشق القمر معجزة وكلاهما كما ترى ، واختار بعضهم أنه آية لصدق النبى عليه الصلاة والسلام فى جميع ما يقول ويبلغ ربه سبحانه لانه معجزة له ﷺ ومنه دعوى الرسالة والاخبار باقتراب الساعة وغير ذلك ، و(آية) نكرة فى سياق الشرط فتعم ، فالمعنى (وإن يروا كل آية يعرضوا) عن التأمل فيها ليقفوا على وجه دلالتها وعلو طبقتها ﴿ وَيَقُولُوا سِحْرٌ ﴾ أى هذا أو هو أى ما نراه سحر ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ٢ ﴾ أى مطرد دائم يأتى به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم على مر الزمان وهو ظاهر فى ترادف الآيات وتتابع المعجزات .

وقال أبو العالية . والضحاك : (مستمر) محكم موثق من المرة بالفتح أو الكسر بمعنى القوة وهو فى الأصل مصدر مررت الحبل مرة إذا فتلته فتلا محكما فأريد به مطلق المحكم مجازاً مرسلا ، وقال أنس . ويمان . ومجاهد . والكسائى . والفراء ـ واختاره النحاس ـ مستمر أى مار ذاهب زائل عن قريب عللوا بذلك أنفسهم ومنوها بالأمانى الفارغة كأنهم قالوا : إن حاله عليه الصلاة والسلام وما ظهر من معجزاته سبحانه .

* سحابة صيف عن قريب تقشع * (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) وقيل : (مستمر) مشتد المرارة أى مستبشع عندنا منفور عنه لشدة مرارته يقال : مر الشئ وأمر إذا صار مراً وأمر غيره ومره يكون لازماً ومتعدياً ، وقيل : (مستمر) يشبه بعضه بعضاً أى استمرت أفعاله على هذا الوجه من التخييلات ، وقيل : (مستمر) مار من الأرض إلى السماء أى بلغ من سحره أنه سحر القمر وهذا ليس بشئ ، ولعل الأنسب

بغلوهم فى العناد والمكابرة ماروى عن أنس ومن معه ، وقرئ ـ وأن يروا ـ بالبناء للمفعول من الاراءة ﴿ وَكَذَّبُوا ﴾ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وبما أظهره الله تعالى على يده من الآيات ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ التى زينها الشيطان لهم ، وقيل: (كذبوا) الآية التى هى انشقاق القمر (واتبعوا أهواءهم) وقالوا سحر القمر أو سحرت أعيننا والقمر بحاله ، والعطف على الجزاء السابق وصيغة الماضى للدلالة على التحقق ، وقيل : العطف على (اقتربت) والجملة الشرطية اعتراض لبيان عادتهم إذا شاهدوا الآيات ، وقوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ٣ ﴾ استئناف مسوق للرد على الكفار فى تكذيبهم ببيان أنه لا فائدة لهم فيه ولا يمنع علو شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو لإقناطهم عما علقوا به أمانيهم الفارغة من عدم استقرار أمره عليه الصلاة والسلام حسبما قالوا: (سحر مستمر) ببيان ثبوته ورسوخه أى وكل أمر من الامور منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة ومن جملتها أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فسيصير إلى غاية يتبين عندها حقيته وعلو شأنه ، وللاشارة إلى ظهور هذه الغاية لامره عليه الصلاة والسلام لم يصرح بالمستقر عليه ، وفى الكشاف أى كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقر عليها وأن أمره ﷺ سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق أو باطل وسيظهر له عاقبتهم أو وكل أمر من أمره عليه الصلاة والسلام ، وأمرهم مستقر أى سيثبت ويستقر على حالة نصرة أو خذلان فى الدنيا أو سعادة وشقاوة فى الآخرة ، قال فى الكشف: والكلام على الاول تذييل جار مجرى المثل وعلى الثانى تذييل غير مستقل ، وقرأ شيبة (مستقر) بفتح القاف ورويت عن نافع ، وزعم أبو حاتم أنها لا وجه لها وخرجت على أن مستقراً مصدر بمعنى استقرار ، وحمله على كل أمر بتقدير مضاف أى ذو مستقر ولو لم يقدر وقصد المبالغة صح ، وجوز كونه اسم زمان أو مكان بتقدير مضاف أيضا أى ذو زمان استقرار ، أو ذو موضع استقرار ، وتعقب بأن كون كل أمر لا بد له من زمان أو مكان أمر معلوم لا فائدة فى الاخبار به ، وأجيب بأن فيه إثبات الاستقرار له بطريق الكناية وهى أبلغ من التصريح *

وقرأ زيد بن على (مستقرٍ) بكسر القاف والجر ، وخرج على أنه صفة أمر وأن كل معطوف على الساعة أى اقتربت الساعة ، واقترب كل أمر يستقر ويتبين حاله أى بقربها ، قال فى الكشف : وفيه شمة من التجريد وتهويل عظيم حيث جعل فى اقترابها اقتراب كل أمر يكون له قرار وتبين حال مما له وقع ، وقوله تعالى: (وانشق القمر) على هذا إما على تقدير قد وينصره القراءة بها ، وإما منزل منزلة الإعراض لكونه مؤكداً لقرب الساعة ، وقوله سبحانه : (وإن يروا آية) الخ مستطرد عند ذكر انشقاق القمر *

واعترض ذلك أبو حيان بأنه بعيد لكثرة الفواصل بين المعطوف والمعطوف عليه وجعل الكلام عليه نظير ـ أكلت خبزاً ، وضربت خالداً ، وإن يجئ زيد أكرمه ، ورحل إلى بنى فلان ، ولحماً بعطف لحماً على خبزاً ـ ثم قال بل لا يوجد مثله فى كلام العرب ، وتعقب بأنه ليس بشئ لأنه إذا دل على العطف الدليل لا يعد ذلك مانعاً منه على أن بين الآية والمثال فرقا لا يخفى ، وقال صاحب اللوامح إن (مستقر) خبر كل ، والجر للجوار ، واعترض أبو حيان أيضاً بأنه ليس بجيد لأن الجر على الجوار فى غاية الشذوذ فى مثله إذ لم يعهد فى خبر المبتدأ ، وإنما عهد فى الصفة على اختلاف النحاة فى وجوده ، واستظهر كون كل مبتدأ وخبره مقدر كآت ، أو معمول به ونحوه مما يشعر به الكلام أو مذكور بعد وهو قوله تعالى : (حكمة بالغة) وقد اعترض بينهما بقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ ﴾ فى القرآن ﴿ مِنَ الْأَنْبَاءِ ﴾ أى أخبار القرون الخالية . أو أخبار الآخرة ، والجار والمجرور

فى موضع الحال من مافى قوله عز وجل : ﴿ مَا فيه مُزْدَجَرٌ ﴾ قدم عليه رعاية للفاصلة وتتويقاً اليه و(من) للتبعيض ، أو للتبيين بناءاً على المختار من جواز تقديمه على المبين ، قال الرضى : إنما جاز تقديم (من) المبينة على المبهم فى نحو - عندى من المال مايكفى - لانه فى الاصل صفة لمقدر أى شئ من المال ، والمذكور عطف بيان للمبين المقدر قبلها ليحصل البيان بعد الابهام أى بالله لقد جاءهم كائناً من الانباء مافيه ازدجار لهم ومنع عما هم فيه من القبائح ، أو موضع ازدجار ومنع ، وهى أنباء التعذيب ، أو أنباء الوعيد ، وأصل (مزدجر) مزتجر بالتاء موضع الدال وتاء الافتعال تقلب دالا مع الدال والذال والراء للتناسب ، وقرئ مزجر بقلبها زايا وإدغام الزاى فيها ، وقرأ زيد بن على مزجر اسم فاعل من أزجر أى صار ذازجر كأعشب صار ذاعشب ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ أى واصلة غاية الإحكام لاخلل فيها ، ورفع (حكمة) على أنها بدل كل ، أو اشتمال من (ما) ، وقيل : من (مزدجر) أو خبر مبتدأ محذوف أى هى ، أو هذه على أن الاشارة لما يشعر به الكلام من إرسال الرسل وإيضاح الدليل والانذار لمن مضى ، أو إلى مافى الأنباء ، أو إلى الساعة المقتربة ، والآية الدالة عليها - كما قاله الامام وتقدم آنفا - احتمال كونها خبراً عن كل فى قراءة زيد ، وقرأ اليمانى (حكمة بالغة) بالنصب حالا من (ما) فانها موصولة أو نكرة موصوفة ، ويجوز مجئ الحال منها مع تأخرها أو هو بتقدير أعنى *

﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ٥ ﴾ نفى للاغناء أو استفهام إنكارى والفاء لترتيب عدم الإغناء على مجئ الحكمة البالغة مع كونه مظنة للإغناء وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار ، و(ما) على الوجه الثانى فى محل نصب على أنها مفعول مطلق أى فأى إغناء تغنى النذر ، وجوز أن تكون فى محل رفع على الابتداء ، والجملة بعدها خبر ، والعائد مقدر أى فما تغنيه النذر وهو جمع نذير بمعنى المنذر ، وجوز أن يكون جمع نذير بمعنى الانذار ، وتعقب بأن حق المصدر أن لا يثنى ولا يجمع وأن يكون مصدراً كالانذار ، وتعقب بأنه يأباه تأنيث الفعل المسند اليه وكونه باعتبار أنه بمعنى النذارة لايخفى حاله ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ الفاء للسببية والمسبب التولى أو الامر به والسبب عدم الاغناء أو العلم به ، والمراد بالتولى إما عدم القتال ، فالآية منسوخة ، وإما ترك الجدال للجلاد فهى محكمة ، والظاهر الأول ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ ﴾ ظرف - ليخرجون - أو مفعول به لاذكر مقدراً ، وقيل : لا نتظر ، وجوز أن يكون ظرفا لتغنى ، أو لمستقر ومابينهما اعتراض ، أو ظرفا - ليقول الكافر - أو - لتول - أى تول عن الشفاعة لهم يوم القيامة ، أو هو معمول له بتقدير إلى ، وعليه قول الحسن - فتول عنهم إلى يوم - *

والمراد استمرار التولى والكل كما ترى ، والداعى إسرافيل عليه السلام ، وقيل : جبرائيل عليه السلام ، وقيل : ملك غيرهما موكل بذلك ، وجوز أن يكون الدعاء للاعادة فى ذلك اليوم كالأمر فى (كن فيكون) على القول بأنه تمثيل ، فالداعى حينئذ هو الله عز وجل ، وحذفت الواو من (يدع) لفظاً لالتقاء الساكنين ورسما اتباعا للفظ ، والياء من (الداع) تخفيفاً ، وإجراءاً لال مجرى التنوين لأنها تعاقبه ، والشئ يحمل على ضده كما يحمل على نظيره ﴿ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ أى فظيع تنكره النفوس لعدم العهد بمثله وهو هول القيامة ويكنى بالنكر عن الفظيع لأنه فى الغالب منكر غير معهود ، وجوز أن يكون من الإنكار ضد الإقرار وأيما كان فهو وصف على فعل بضمتين وهو قليل فى الصفات ، ومنه - روضة أنف لم ترع ، ورجل شلل خفيف فى الحاجة سريع حسن الصحبة

طيب النفس ، وسجح لين سهل . وقرأ الحسن . وابن كثير . وشبل (نكر) بإسكان الكاف كما قالوا : شغل وشغل ، وعسر وعسر وهو إسكان تخفيف ، أو السكون هو الاصل والضم للاتباع ، وقرأ مجاهد . وأبو قلابة . والجحدري . وزيد بن علي (نكر) فعلا ماضياً مبنياً للمفعول بمعنى أنكر ﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ ﴾ حال من فاعل ﴿ يَخْرُجُونَ ﴾ أي يخرجون ﴿ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ أي القبور أذلة أبصارهم من شدة الهول أي أذلاء من ذلك ، وقدم الحال لتصرف العامل والاهتمام ، وفيه دليل على بطلان مذهب الجرمي من عدم تجويز تقدم الحال على الفعل وإن كان متصرفا ، ويرده أيضا قولهم : شتى تؤوب الحلبة ، وقوله :

سريعاً يهون الصعب عند أولى النهى إذا برجاء صادق قابلوا البأسا

وجعل حالا من ذلك لقوله تعالى : (يوم يخرجون من الاجداث سراعا) إلى قوله تعالى : (خاشعة أبصارهم) ، وقيل : هو حال من الضمير المفعول المحذوف في (يدع الداع) أي يدعوهم الداع ؛ وتعقب بأنه لا يطابق المنزل وأيضا يصير حالا مقدرة لأن الدعاء ليس حال خشوع البصر وليست في الكثرة كغيرها وكذلك جعله مفعول - يدعو - على معنى يدعو فريقاً خاشعاً أبصارهم أي سيخشع وإن كان هذا أقرب مما قبل ، وقيل : هو حال من الضمير المجرور في قوله تعالى : (فتول عنهم) وفيه ما لا يخفى ، وأبصارهم فاعل خشعاً وطابقه الوصف في الجمع لأنه إذا كسر لم يشبه الفعل لفظاً فتحسن فيه المطابقة وهذا بخلاف ما إذا جمع جمع مذكر سالم فانه لم يتغير زنته وشبهه للفعل فينبغي أن لا يجمع إذا رفع الظاهر المجموع على اللغة الفصيحة دون لغة أكلوني البراغيث ، لكن الجمع حينئذ في الاسم أخف منه في الفعل كما قال الرضي ، ووجهه ظاهر ، وفي التسهيل إذا رفعت الصفة اسما ظاهراً مجموعا فان أمكن تكسيرها - كمررت برجل (قيام) غلمانه - فهو أولى من إفرادها - كمررت برجل (قائم) غلمانه - وهذا قول المبرد ومن تبعه والسماع شاهد له كقوله :

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وقوله : بمطرد لدن صحاح كعوبه وذي رونق عضب يقد القوانسا

وقال الجمهور : الافراد أولى والقياس معهم ، وعليه قوله :

ورجال حسن أوجههم من إياد بن نزار بن معد

وقيل : إن تبع مفرداً فالافراد أولى - كرجل (قائم) غلمانه - وإن تبع جمعاً فالجمع أولى - كرجال قيام غلمانهم - وأما التثنية والجمع السالم فعلى لغة أكلوني البراغيث ؛ وجوز أن يكون في (خشعاً) ضمير مستتر ، و (أبصارهم) بدلا منه ، وقرأ ابن عباس . وابن جبير . ومجاهد . والجحدري . وأبو عمرو . وحمزة . والكسائي - خاشعاً - بالإفراد ، وقرأ أبي . وابن مسعود - خاشعة - وقرئ - خشع - على أنه خبر مقدم ، و (أبصارهم) مبتدأ ، والجملة في موضع الحال ، وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ٧ ﴾ حال أيضا وتشبيههم بالجراد المنتشر في الكثرة والتموج والانتشار في الاقطار ، وجاء تشبيههم بالفراش المبثوث ولهم يوم الخروج سهم من الشبه لكل ، وقيل : يكونون أولا كالفراش حين يموجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون لان الفراش لا جهة لها تقصدها ، ثم كالجراد المنتشر إذا توجهوا إلى المحشر فهما تشبيهان باعتبار وقتين ، وحكى ذلك عن مكي بن أبي طالب *

﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ مسرعين اليه قال أبو عبيدة : وزاد بعضهم مادي أعناقهم ، وآخر مع هز ورهق ومد بصر ،

وقال عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت ، وعن ابن عباس ناظرين اليه لا تقلع أبصارهم عنه وأنشد قول تبع :

تعبدنى نمر بن سعد وقد أرى ونمر بن سعد لى (مطيع ومهطع)

وفى رواية أنه فسره بخاضعين وأنشد البيت ، وقيل : خافضين ما بين أعينهم ، وقال سفيان : شاخصة أبصارهم إلى السماء ، وقيل : أصل الهطع مد العنق ، أو مد البصر ، ثم يكنى به عن الاسراع ، أو عن النظر والتأمل فلا تغفل ، ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ٨ ﴾ صعب شديد لما يشاهدون من مخايل هوله وما يرتقبون من سوء منقلبهم فيه ، وفى إسناد القول المذكور إلى الكفار تلويح بأنه على المؤمنين ليس كذلك ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ شروع فى تعداد بعض ماذكر من الأنباء الموجبة للازدجار ، ونوع تفصيل لها وبيان لعدم تأثرهم بها تقريراً لفحوى قوله تعالى : (فما تغنى النذر) والفعل منزل منزلة اللازم أى فعلت التكذيب قبل تكذيب قومك قوم نوح ، وقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ تفسير لذلك التكذيب المبهم كما فى قوله تعالى : (ونادى نوح ربه فقال) الخ ، وفيه مزيد تحقيق وتقرير للتكذيب ، وجوز أن يكون المعنى كذبوا تكذيباً إثر تكذيب كلما خلا منهم قرن مكذب جاء عقيبه قرن آخر مكذب مثله ، أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا أى لما كانوا مكذبين للرسل جاحدين للنبوة رأساً كذبوا نوحاً لانه من جملة الرسل ، والفاء عليه سببية ، وقيل : معنى كذبت قصدت التكذيب وابتدأته ، ومعنى فكذبوا أتموه وبلغوا نهايته كما قيل فى قوله : « قد جبر الدين الإله فجبر » وفى ذكره عليه السلام بعنوان العبودية مع الاضافة إلى نون العظمة تفخيم له عليه السلام ورفع لمحله وتشنيع لمكذبيه ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ ﴾ أى لم يقتصروا على مجرد التكذيب بل نسبوه إلى الجنون فقالوا هو مجنون ﴿ وَازْدُجِرَ ٩ ﴾ عطف على ـ قالوا ـ وهو إخبار منه عز وجل أى وزجر عن التبليغ بأنواع الأذية والتخويف قاله ابن زيد ، وقرأ (لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين) وقال مجاهد : هو من تمام قولهم أى هو مجنون ، وقد ازدجرته الجن وذهبت بلبه وتخبطته ، والأول أظهر وأبلغ ، وجعل مبنياً للمفعول لغرض الفاصلة ، وطهر الألسنة عن ذكرهم دلالة على أن فعلهم أسوأ من قولهم ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي ﴾ أى بأنى

وقرأ ابن أبى إسحق . وعيسى . والأعمش . وزيد بن على ـ ورويت عن عاصم ـ (إنى) بكسر الهمزة على إضمار القول عند البصريين ، وعلى إجراء الدعاء مجرى القول عند الكوفيين ﴿ مَغْلُوبٌ ﴾ من جهة قومى مالى قدرة على الانتقام منهم ﴿ فَانْتَصِرْ ١٠ ﴾ فانتقم لى منهم ، وقيل : فانتصر لنفسك إذ كذبوا رسولك ، وقيل : المراد ـ بمغلوب ـ غلبتنى نفسى حتى دعوت عليهم بالهلاك وهو خلاف الظاهر وما دعا عليه السلام عليهم إلا بعد اليأس من إيمانهم ، والتأكيد لمزيد الاعتناء بأمر الترحم المقصود من الاخبار

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ١١ ﴾ أى منصب ، وقيل : كثير قال الشاعر :

أعيناى جودا بالدموع (الهوامر) على خير باد من معد وحاضر

والباء للآلة مثلها فى فتحت الباب بالمفتاح ، وجوز أن تكون للملابسة والاول أبلغ ، وفى الكلام استعارة تمثيلية بتشبيه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء وانشق أديم الخضراء . وهو الذى ذهب اليه الجمهور ، وذهب قوم إلى أنه على حقيقته وهو ظاهر كلام ابن عباس

أخرج ابن المنذر . وابن أبى حاتم عنه أنه قال : لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب، وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم فالتقى الما آن ، وفى رواية لم تقلع أربعين يوما ،وعن النقاش أنه أريد بالأبواب المجرة وهى شرج السماء كشرج العيبة ، والمعروف من الارصاد أن المجرة كواكب صغار متقاربة جداً ، والله تعالى أعلم *

ومن العجيب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين فأهلكهم الله تعالى بمطلوبهم، وقرأ ابن عامر . وأبو جعفر . والاعرج . ويعقوب (ففتحنا) بالتشديد لكثرة الابواب ، والظاهر أن جمع القلة هنا للكثرة ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً ﴾ وجعلنا الارض كلها كأنها عيون متفجرة وأصله فجرنا عيون الارض فغير إلى التمييز للمبالغة بجعل الارض كلها متفجرة مع الابهام و التفسير ، فالتمييز محول عن المفعول، وجعله بعضهم محولا عن الفاعل بناءاً على أنه الأكثر، والاصل انفجرت عيون الارض وتحويله كما يكون عن فاعل الفعل المذكور يكون عن فاعل فعل آخر يلاقيه فى الاشتقاق ـ وهذا منه ـ وهو تكلف لاحاجة اليه ، ومنع بعضهم مجىء التمييز من المفعول فأعرب (عيوناً) حالا مقدرة ، وجوز عليه أن يكون مفعولا ثانياً لفجرنا على تضمينه مايتعدى اليه أى صيرنا بالتفجير الارض عيوناً وكان ذلك على مافى بعض الروايات أربعين يوما، وقرأ عبدالله . وأصحابه . وأبو حيوة . والمفضل عن عاصم (فجرنا) بالتخفيف ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ ﴾ أى ماء السماء وماء الارض، والإفراد لتحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة بل بطريق الاختلاط والاتحاد ، وقرأ على كرم الله تعالى وجهه . والحسن . ومحمد بن كعب . والجحدرى ـ الما آن ـ والتثنية لقصد بيان اختلاف النوعين وإلا فالماء شامل لماء السماء وماء الارض ، ونحوه قوله :

لنا (إبلان) فيهما ماعلمتم فعن (أيها) ماشئتم فتنكبوا

وقيل : فيها إشارة إلى أن ماء الارض فار بقوة وارتفع حتى لاقى ماء السماء وفى ذلك مبالغة لا تفهم من الافراد، وقرأ الحسن أيضاً ـ ماوان ـ بقلب الهمزة واواً كقولهم: علباوان كما قال الزمخشرى، ولم يرد أنه نظيره بل أراد كما أن هنالك إبدالا بعلة أنها غير أصلية لانها زائدة للالحاق كذلك ههنا لانها مبدلة والبدل وإن كان من الهاء لكنها أجريت مجرى البدل عن الواو فقيل فى النسبة فيه . ماوى ، وجاء فى جمعه أمواء كما جاء أمواه ، ولا يبعد أن يكون من ثناه بالواو قاسه على النسبة كذا فى الكشف ، وعنه أيضاً المايان بقلب الهمزة ياءاً *

﴿ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أى كائناً على حال قد قدرها الله تعالى فى الازل من غير تفاوت أو على حال قدرت وسويت وهى أن ما نزل على قدر ماخرج *

وقيل : إن ماء الأرض علا سبعة عشر ذراعا ونزل ماء السماء مكملا أربعين ، وقيل : ماء الأرض كان أكثر وله مقدار معين عند الله عز وجل ، أو على أمر قدره الله تعالى و كتبه فى اللوح المحفوظ وهو هلاك قوم نوح بالطوفان . ورجحه أبو حيان بأن كل قصة ذكرت بعد ذكر الله تعالى فيها هلاك المكذبين فيكون هذا كناية عن هلاك هؤلاء . و(على) عليه للتعليل ، ويحتمل تعلقها بالتقى . وفيه ردّ على أهل الأحكام النجومية حيث زعموا أن الطوفان لاجتماع الكواكب السبعة ماعدا الزهرة فى برج مائى، وقرأ أبو حيوة . وابن مقسم (قدر) بتشديد الدال ﴿ وَحَمَلْنَاهُ ﴾ أى نوحا عليه السلام ﴿ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ ﴾ أخشاب عريضة ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ أى مسامير كما قاله الجمهور . وابن عباس فى رواية ابن جرير ، وابن المنذر جمع دسار ككتاب و كتب ، وقيل :

(دسر) كسقف وسقف. وأصل الدسر الدفع الشديد بقهر فسمى به المسمار لأنه يدق فيدفع بشدة . وقيل : حبال من ليف تشد بها السفن . وقال الليث : خيوط تشد بها ألواحها ، وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة . والحسن أنها مقاديم السفينة وصدرها الذى تضرب به الموج وتدفعه . وروى عن ابن عباس نحوه . وأخرج عن مجاهد أنها عوارض السفينة أى الخشبات التى تعرض فى وسطها . وفى رواية عنه هى أضلاع السفينة. وأياً ما كان فقوله تعالى : (ذات ألواح ودسر) من الصفات التى تقوم مقام الموصوفات على سبيل الكناية كقولهم: حى مستوى القامة عريض الاظفار فى الكناية عن الانسان وهو من فصيح الكلام وبديعه . ونظير الآية قول الشاعر :

مفرشى صهوة الحصان ولكن (قميصى) مسرودة من حديد

فانه أراد قميصى درع . وقوله يصف هزال الابل :

تراءى الهافى كل عين مقابل ولو فى (عيون النازيات بأكرع)

فانه أراد فى عيون الجراد لأن النزو بالأكرع يختص بها . وأما كونه على حذف الموصوف لدلالة الصفة عليه على ما فى المفصل وغيره فكلام نحوى ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منا . وكنى به عن الحفظ أى تجرى فى ذلك الماء بحفظنا وكلاءتنا ، وقيل : بأوليائنا يعنى نوحا عليه السلام ومن آمن معه يقال: مات عين من عيون الله تعالى أى ولى من أوليائه سبحانه ، وقيل : بأعين الماء التى فجرناها ، وقيل : بالحفظة من الملائكة عليهم السلام سماهم أعيناً وأضافهم اليه جل شأنه والاول أظهر ، وقرأ زيد بن على . وأبو السمال ـ بأعينا ـ بالادغام *

﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ ﴾ أى فعلنا ذلك جزاءاً لنوح عليه السلام فانه كان نعمة أنعمها الله تعالى على قومه فكفروها وكذا كل نبى نعمة من الله تعالى على أمته ، وجوز أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل إلى الضمير واستتاره فى الفعل بعد انقلابه مرفوعا اى لمن كفر به وهو نوح عليه السلام أيضا أى جحدت نبوته ، فالكفر عليه ضد الايمان ، وعلى الأول كفران النعمة ، وعن ابن عباس . ومجاهد من يراد به الله تعالى كأنه قيل: غضباً وانتصاراً لله عز وجل وهو كما ترى، وقرأ مسلمة بن محارب ـ كفر ـ بإسكان الفاء خفف فعل كما فى قوله:

* لو عصر منه البان والمسك (انعصر) * وقرأ يزيد بن رومان . وقتادة . وعيسى (كفر) مبنياً للفاعل فمن يراد بها قوم نوح عليه السلام لاغير ، وفى هذه القراءة دليل على وقوع الماضى بغير قد خبراً لكان وهو مذهب البصريين وغيرهم يقول لابد من وقوع قد ظاهرة أو مقدرة ، وجوز أن تكون (كان) زائدة كأنه قيل: جزاءاً لمن (كفر) ولم يؤمن ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَا ﴾ أى أبقينا السفينة ﴿ ءَايَةً ﴾ بناءاً على ماروى عن قتادة. والنقاش أنه بقى خشبها على الجودى حتى رآه بعض أوائل هذه الأمة ، أو أبقينا خبرها ، أو أبقينا جنسها وذلك بإبقاء السفن ، أو ـ تركنا ـ بمعنى جعلنا ، وجوز كون الضمير للفعلة وهى إنجاء نوح عليه السلام ومن معه وإغراق الكافرين ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أى معتبر بتلك الآية الحرية بالاعتبار ، وقرأ قتادة على مانقل ابن عطية ـ مذكر ـ بالذال المعجمة على قلب تاء الافتعال ذالا وإدغام الذال فى الذال ، وقال صاحب اللوامح : قرأ قتادة فهل من ـ مذكر ـ بتشديد الكاف من التذكير أى من يذكر نفسه أو غيره بها، وقرئ مذتكر بذال معجمة بعدها تاء الافتعال كما هو الاصل ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ١٥ ﴾ استفهام تعظيم وتعجيب أى كانا على كيفية هائلة

لا يحيط بها الوصف، و ـ النذر ـ مصدر كالانذار، وقيل: جمع نذير بمعنى الانذار، وجعله بعضهم بمعنى المنذر منه، وليس بشئ، وكذا جعله بمعنى المنذر، وكان يحتمل أن تـكون ناقصة فكيف فى موضع الخبر؟ وتامة فكيف فى موضع الحال ؟

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ ﴾ الخ جملة قسمية وردت فى آخر القصص الأربع تقريراً لمضمون ماسبق من قوله تعالى : (ولقد جاءهم) الخ وتنبيها على أن كل قصة منها مستقلة بايجاب الادكار كافية فى الازدجار ، ومع ذلك لم يحصل فيها اعتبار، أى وبالله لقد سهلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم وشحناه بأنواع المواعظ والعبر وصرفنا فيه من الوعيد والوعد ﴿ لِلذِّكْرِ ﴾ أى للتذكر والاتعاظ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ إنـكار ونفى للتعظ على أبلغ وجه وآكده يدل على أنه لا يقدر أحد أن يجيب المستفهم بنعم، وقيل: المعنى سهلنا القرآن للحفظ لما اشتمل عليه من حسن النظم وسلاسة اللفظ وشرف المعانى وصحتها وعروه عن الوحشى ونحوه فله تعلق بالقلوب وحلاوة فى السمع فهل من طالب لحفظه ليعان عليه ؟ ومن هنا قال ابن جبير: لم يستظهر شئ من الكتب الالـٰهية غير القرآن ، وأخرج ابن المنذر . وجماعة عن مجاهد أنه قال: يسرنا القرآن هونا قراءته ﴿

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس لولا أن الله تعالى يسره على لسان الآدميين مااستطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله تعالى ﴿

وأخرج الديلمى عن أنس مرفوعا مثله ﴿ وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين أنه مر برجل يقول سورة خفيفة فقال : لاتقل ذلك ولكن قل سورة يسيرة لأن الله تعالى يقول : (ولقد يسرنا القرآن للذكر) والمعنى الذى ذكر أولا أنسب بالمقام ، ولعل خبر أنس إن صح ليس تفسيراً للآية ، وجوز تفسير (يسرنا) بهيأنا من قولهم : يسر ناقته للسفر إذا رحلها ، ويسر فرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه قال الشاعر :

وقمت إليه باللجام (ميسراً) هنالك يجزينى الذى كنت أصنع

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ شروع فى قصة أخرى ولم تعطف وكذا مابعدها من القصص إشارة إلى أن كل قصة مستقلة فى القصد والاتعاظ ولما لم يكن لقوم نوح اسم علم ذكروا بعنوان الإضافة ولما كان لقوم هود علم وهو (عاد) ذكروا به لأنه أبلغ فى التعريف ، والمراد كذبت عاد هوداً عليه السلام ولم يتعرض لـكيفية تكذيبهم له عليه السلام روما للاختصار ومسارعة إلى بيان مافيه الازدجار من العذاب ، وقوله :

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ١٨ ﴾ لتوجيه قلوب السامعين نحو الإصغاء إلى مايلقى اليهم قبل ذكره لا للتهويله وتعظيمه وتعجيبهم من حاله بعد بيانه كما قبله وما بعده كأنه قيل : (كذبت عاد) فهل سمعتم ، أو فاسمعوا كيف عذابى وإنذارى لهم، وقيل : هو للتهويل أيضا لغرابة ماعذبوا به من الريح وانفراده بهذا النوع من العذاب ، وفيه بحث ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ استئناف لبيان ما أجمل أولا، والصرصر الباردة على ماروى عن ابن عباس . وقتادة . والضحاك ، وقيل : شديدة الصوت وتمام الـكلام قد مر فى (فصلت) ﴿

﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ شؤم عليهم ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ١٩ ﴾ ذلك الشؤم لانهم بعد أن أهلـكوا لم يزالوا معذبين فى البرزخ حتى يدخلوا جهنم يوم القيامة ، والمراد باليوم مطلق الزمان لقوله تعالى : (فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات) ، وقوله سبحانه : (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً) والمشهور أنه يوم الاربعاء

وكان آخر شوّال على معنى أن ابتداء إرسال الريح كان فيه فلا ينافى آيتى (فصلت . والحاقة) *

وجوز كون (مستمر) صفة يوم أى فى يوم استمر عليهم حتى أهلكهم ، أو شمل كبيرهم وصغيرهم حتى لم تبق منهم نسمة على أن الاستمرار بحسب الزمان أو بحسب الاشخاص والافراد لكن على الاول لابد من تجوز بإرادة استمرار نحسه ، أو بجعل اليوم بمعنى مطلق الزمان لأن اليوم الواحد لم يستمر فتدبر، وجوز كون (مستمر) بمعنى محكم وكونه بمعنى شديد المرارة وهو مجاز عن بشاعته وشدة هوله إذ لاطعم له ، وجوز كونه بدلا ، أو عطف بيان وهو كما ترى، وقرأ الحسن (يوم نحس) بتنوين يوم وكسر حاء نحس ، وجعله صفة ليوم فيتعين كون (مستمر) صفة ثانية له ، وأيد بعضهم بالآية ما أخرجه وكيع فى الغرر . وابن مردويه. والخطيب البغدادى عن ابن عباس مرفوعا آخر أربعاء فى الشهر يوم نحس مستمر وأخذ بذلك كثير من الناس فتطيروا منه وتركوا السعى لمصالحهم فيه ويقولون له : أربعاء لاتدور ، وعليه قوله :

لقاؤك للبكر فأل سوء ووجهك أربعاء لاتدور

وذلك مما لا ينبغى ، والحديث المذكور فى سنده مسلمة بن الصلت قال أبو حاتم : متروك ، وجزم ابن الجوزى بوضعه ؛ وقال ابن رجب : حديث لا يصح ورفعه غير متفق عليه فقد رواه الطيورى من طريق آخر موقوفا على ابن عباس ، وقال السخاوى : طرقه كلها واهية، وضعفوا أيضا خبر الطبرانى يوم الاربعاء يوم نحس مستمر ، والآية قد علمت معناها ، وجاء فى الأخبار والآثار مايشعر بمدحه ففى منهاج الحليمى ، وشعب البيهقى أن الدعاء يستجاب يوم الاربعاء بعيد الزوال ، وذكر برهان الاسلام فى تعليم المتعلم عن صاحب الهداية أنه مابدىء شئ يوم الاربعاء إلا وتم وهو يوم خلق الله تعالى فيه النور فلذلك كان جمع من المشايخ يتحرون ابتداء الجلوس للتدريس فيه ، واستحب بعضهم غرس الاشجار فيه لخبر ابن حبان . والديلمى عن جابر مرفوعا « من غرس الاشجار يوم الاربعاء وقال : سبحان الباعث الوارث أتته أكلها » نعم جاءت أخبار وآثار تشعر بخلاف ذلك ، ففى الفردوس عن عائشة مرفوعا « لولا أن تكره أمتى لأمرتها أن لا يسافروا يوم الاربعاء ، وأحب الايام إلى الشخوص فيها يوم الخميس » وهو غير معلوم الصحة عندى *

وأخرج أبو يعلى عن ابن عباس . وابن عدى . وتمام فى فوائده عن أبى سعيد مرفوعا يوم السبت يوم مكر وخديعة . ويوم الاحد يوم غرس وبناء . ويوم الاثنين يوم سفر وطلب رزق . ويوم الثلاثاء يوم حديد وبأس . ويوم الاربعاء لا أخذ ولا عطاء . ويوم الخميس يوم طلب الحوائج والدخول على السلطان . والجمعة يوم خطبة ونكاح ، وتعقبه السخاوى بأن سنده ضعيف ، وروى ابن ماجه عن ابن عمر مرفوعا ، وخرجه الحاكم من طريقين آخرين « لايبدو جذام ولا برص إلا يوم الاربعاء » وفى بعض الآثار النهى عن قص الاظفار يوم الاربعاء وأنه يورث البرص ، وكره بعضهم عيادة المرضى فيه ، وعليه قيل :

لم يؤت فى الأربعا مريض إلا دفناه فى الخميس

وحكى عن بعضهم أنه قال لاخيه : أخرج معى فى حاجة فقال : هو الاربعاء قال : فيه ولد يونس قال : لاجرم قد بانت له بركته فى اتساع موضعه وحسن كسوته حتى خلصه الله تعالى قال : وفيه ولد يوسف عليه السلام قال : فما أحسن ما فعل أخوته حتى طال حبسه وغربته قال : وفيه نصر المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الأحزاب قال : أجل لكن ـ بعد أن زاغت الابصار ، وبلغت القلوب الحناجر ـ ونقل المناوى عن البحر أن

أخباره عليه الصلاة والسلام عن نحوسة آخر أربعاء فى الشهر من باب التطير ضرورة أنه ليس من الدين بل فعل الجاهلية ولا مبنى على قول المنجمين أنه يوم عطارد وهو نحس مع النحوس سعد مع السعود فانه قول باطل، ويجوز أن يكون من باب التخويف والتحذير أى احذروا ذلك اليوم لما نزل فيه من العذاب وكان فيه من الهلاك وجددوا فيه لله تعالى توبة خوفاً أن يلحقكم فيه بؤس كما وقع لمن قبلهم ، وهذا كما قال حين أتى الحجر : لاتدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين إلى غير ذلك ، وحكى أيضا عن بعضهم أنه قال : التطير مكروه كراهية شرعية إلا أن الشرع أباح لمن أصابه فى آخر أربعاء شئ فى مصالحه أن يدع التصرف فيه لاعلى جهة التطير واعتقاد أنه يضر أو ينفع بغير إذن الله تعالى بل على جهة اعتقاد إباحة الامساك فيه لما كرهته النفس لااقتفاءاً للتطير ولكن إثباتا للرخصة فى التوقى فيه لمن يشاء مع وجوب اعتقاد أن شيئاً لايضر شيئاً ، ونقل عن الحليمى أنه قال : علمنا ببيان الشريعة أن من الأيام نحساً ، ويقابل النحس السعد وإذا ثبت الاول ثبت الثانى أيضاً ، فالايام منها نحس ومنها سعد كالأشخاص منهم شقى ومنهم سعيد ، لكن زعم أن الأيام والكواكب تنحس أو تسعد باختيارها أوقاتاً وأشخاصا باطل ، والقول - إن الكواكب قد تكون أسبابا للحسن والقبيح والخير والشر والكل فعل الله تعالى وحده - مما لا بأس به . ثم قال المناوى : والحاصل أن توقى الاربعاء على جهة الطيرة وظن اعتقاد المنجمين حرام شديد التحريم إذ الأيام كلها لله تعالى لاتنفع ولاتضر بذاتها وبدون ذلك لاضير ولا محذور فيه ؛ ومن تطير حاقت به نحوسته ، ومن أيقن بأنه لايضر ولاينفع إلا الله عز وجل لم يؤثر فيه شئ من ذلك كما قيل :

تعلم أنه لاطير إلا على (متطير) وهو الثبور

انتهى ، وأقول كل الايام سواء ولا اختصاص لذلك بيوم الأربعاء ومامن ساعة من الساعات إلا وهى سعد على شخص نحس على آخر باعتبار مايحدث الله تعالى فيها من الملائم والمنافر والخير والشر ، فكل يوم من الأيام يتصف بالامرين لاختلاف الاعتبار وإن استنحس يوم الأربعاء لوقوع حادث فيه فليستنحس كل يوم فما أولج الليل فى النهار والنهار فى الليل إلا لايلاد الحوادث ، وقد قيل :

ألا إنما الايام أبناء واحد وهذى الليالى كلها أخوات

وقد حكى أنه صبح ثمود العذاب يوم الاحد ، وورد فى الأثر ولا أظنه يصح- نعوذ بالله تعالى من يوم الأحد فان له حداً أحد من السيف - ولو صح فلعله فى أحد مخصوص علم بالوحى مايحدث فيه ، وزعم بعضهم - أن من المجرب الذى لم يخط قط أنه متى كان اليوم الرابع عشر من الشهر القمرى الأحد وفعل فيه شئ لم يتم - غير مسلم ، وورد فى الفردوس من حديث ابن مسعود - خلق الله تعالى الامراض يوم الثلاثاء ، وفيه أنزل إبليس إلى الارض ، وفيه خلق جهنم ، وفيه سلط الله تعالى ملك الموت على أرواح بنى آدم . وفيه قتل قابيل هابيل، وفيه توفى موسى وهرون عليهم السلام ، وفيه ابتلى أيوب - الحديث ، وهو إن صح لايدل على نحوسته غايته انه وقع فيه ماوقع وقد وقع فيه غير ذلك مما هو خير ، ففى رواية مسلم - خلق المنفق أى مايقوم به المعاش يوم الثلاثاء - وإذا تتبعت التواريخ وقفت على حوادث عظيمة فى سائر الايام ، ويكفى فى هذا الباب أن حادثة عاد استوعبت أيام الأسبوع فقد قال سبحانه : (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً) فان كانت النحوسة لذلك فقل لى أى يوم من الاسبوع خلا منها ؟ ! ومثل أمر النحوسة فيما أرى أمر تخصيص كل يوم بعمل كما

يزعمه كثير من الناس ، ويذكرون فى ذلك أبياتا نسبها الحافظ الدمياطى لعلى كرم الله تعالى وجهه وهى

فنعم اليوم (يوم السبت) حقا ... لصيد إن أردت بلا امتراء
وفى (الاحد) البناء لان فيه ... تبدى الله فى خلق السماء
وفى (الاثنين) إن سافرت فيه ... سترجع بالنجاح وبالثراء
ومن يرد الحجامة (فالثلاثا) ... ففى ساعاته هرق الدماء
وإن شرب امرؤ يوماً دواءاً ... فنعم اليوم يوم (الاربعاء)
وفى (يوم الخميس) قضاء حاج ... فان الله يأذن بالقضاء
وفى (الجمعات) تزويج وعرس ... ولذات الرجال مع النساء
وهذا العلم لايدريه إلا ... نبي أو وصى الانبياء

ولا أظنها تصح ، وقصارى ماأقول. ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لادخل فى ذلك لوقت ولا لغيره، نعم لبعض الاوقات شرف لا ينكر كيوم الجمعة وشهر رمضان وغير ذلك ، ولبعضها عكس ذلك كالأوقات التى تكره فيها الصلاة لكن هذا أمر ومحل النزاع أمر فاحفظ ذاك ، والله تعالى يتولى هداك ، وقوله تعالى :

﴿ تَنزِعُ النَّاسَ ﴾ يجوز أن يكون صفة للريح وأن يكون حالا منها لأنها وصفت فقربت من المعرفة ، وجوز أن يكون مستأنفاً، وجئ -بالناس- دون ضمير عاد قيل: ليشمل ذكورهم وإناثهم - والنزع - القلع، روى أنهم دخلوا الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فقلعتهم الريح وصرعتهم موتى *

﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ ٢٠ ﴾ أى منقلع عن مغارسه ساقط على الارض ، وقيل: شبهوا بأعجاز النخل وهى أصولها بلا فروع لأن الريح كانت تقلع رءوسهم فتبقى أجساداً وجثثاً بلا رءوس ، ويزيد هذا التشبيه حسناً أنهم كانوا ذوى جثث عظام طوال ، والنخل اسم جنس يذكر نظراً للفظ كما هنا ويؤنث نظراً للمعنى كما فى قوله تعالى: (أعجاز نخل خاوية) واعتبار كل فى كل من الموضعين للفاصلة، والجملة التشبيهية حال من الناس وهى حال مقدرة ، وقال الطبرى: فى الكلام حذف والتقدير فتركتهم كأنهم الخ ، فالكاف على مافى البحر فى موضع نصب بالمحذوف وليس بذاك ، وقرأ أبو نهيك أعجز على وزن أفعل نحو ضبع وأضبع ، وقوله تعالى :

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ٢١ ﴾ تهويل لهما وتعجيب من أمرهما بعد بيانهما فليس فيه شائبة تكرار مع ماتقدم، وقيل : إن الأول لماحاق بهم فى الدنيا والثانى لمايحيق بهم فى الآخرة، و(كان) للمشاكلة، أو للدلالة على تحققه على عادته سبحانه فى إخباره ، وتعقب بأنه يأباه ترتيب الثانى على العذاب الدنيوى *

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ٢٢ ﴾ الكلام فيه كالذى مر ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ٢٣ ﴾ بالرسل عليهم الصلاة والسلام فان تكذيب أحدهم وهو صالح عليه السلام هنا تكذيب للكل لاتفاقهم على أصول الشرائع ، وجوز أن يكون مصدراً ، أو جمعاً له وأن يكون جمع نذير بمعنى المنذر منه فلا تغفل *

﴿ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا ﴾ أى كائناً من جنسنا على أن الجار والمجرور فى موضع الصفة -لبشراً- وانتصابه بفعل يفسره -نتبع- بعد أى أنتبع بشراً ﴿ وَٰحِدًا ﴾ أى منفرداً لا تبع له ، أو واحداً من آحادهم لا من أشرافهم كما يفهم من التنكير

الدال على عدم التعيين وهو صفة أخرى لبشر وتأخيره مع إفراده عن الصفة الأولى مع كونها شبه الجملة للتنبيه على أن كلا من الجنسية والوحدة مما يمنع الاتباع ولو قدم عليها لفات هذا التنبيه ، وقرأ أبو السمال فيما ذكر الهذلى فى كتابه الكامل. وأبو عمرو الدانى -أبشر منا واحد- برفعهما على أن -بشر- مبتدأ ، ومابعد صفته ، وقوله تعالى : ﴿ نَّتَّبِعُهُ ﴾ خبره . ونقل ابن خالويه . وصاحب اللوامح. وابن عطية عن أبى السمال رفع -بشر- ونصب (واحداً) وخرج ذلك ابن عطية على أن رفع -بشر- إما على إضمار فعل مبنى للمفعول والتقدير أينبأ بشر ، وإما على الابتداء والخبر جملة (نتبعه)، ونصب (واحداً) على الحال إما من ضمير النصب فى (نتبعه). وإما من الضمير المستقر فى (منا) وخرج صاحب اللوامح نصب (واحداً) على هذا أيضاً ، وأما رفع بشر فخرجه على الابتداء وإضمار الخبر أى أبشر منا يبعث إلينا أو يرسل أو نحوهما، وتقدم الاستفهام يرجح تقدير فعل يرفع به ﴿ إِنَّآ إِذاً ﴾ أى إذا اتبعنا بشراً منا واحداً ﴿ لَّفِى ضَلَـٰلٍ ﴾ عظيم عن الحق ﴿ وَسُعُرٍ ٢٤ ﴾ أى نيران جمع سعير *

وروى أن صالحا عليه السلام كان يقول لهم : إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق وسعر فعكسوا عليه لغاية عتوهم فقالوا : إن اتبعناك كنا إذاً كما تقول ، فالكلام من باب التعكيس والقول بالموجب ، وجمع السعير باعتبار الدركات ، أو للمبالغة ، وروى عن ابن عباس مايحتمل ماقلنا فانه قال : أى لفى بعد عن الحق وعذاب، وفى رواية أخرى عنه تفسير السعر بالجنون على أنه اسم مفرد بمعنى ذلك يقال ناقة مسعورة إذا كانت تفرط فى سيرها كأنها مجنونة قال الشاعر :

كأن بها (سعراً) إذا العيس هزها ذميل وإرخاء من السير متعب

والأول أوجه وأفصح ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ أى أأنزل عليه الوحى من بيننا وفينا من هو أحق منه بذلك ، والتعبير بألقى دون أنزل قيل : لأنه يتضمن العجلة فى الفعل ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ٢٥ ﴾ أى شديد البطر وهو على ماقال الراغب: دهش يعترى من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها ووضعها إلى غير وجهها، ويقاربه الطرب وهو خفة أكثر ماتعترى من الفرح. ومرادهم ليس الامر كذلك بل هو كذا وكذا حمله شدة بطره وطلبه التعظيم علينا على ادعاء ذلك ، وقرأ قتادة . وأبو قلابة - بل هو الكذب الأشر - بلام التعريف فيهما وبفتح الشين وشد الراء ، وسيأتى إن شاء الله تعالى قريباً مافى ذلك ، وقوله تعالى :

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ٢٦ ﴾ حكاية لماقاله سبحانه وتعالى لصالح عليه السلام وعداً له ووعيداً لقومه ، والسين لتقريب مضمون الجملة وتأكيده ، والمراد بالغد وقت نزول العذاب الدنيوى بهم ، وقيل : يوم القيامة فهو لمطلق الزمان المستقبل وعبر به لتقريبه ، وعليه قول الطرماح :

ألا عللانى قبل نوح النوائح وقبل اضطراب النفس بين الجوانح

وقبل (غد) يالهف نفسى على غد إذا راح أصحابى ولست برائح

أى (سيعلمون) البتة عن قريب (من الكذاب الأشر) الذى حمله أشره وبطره على ماحمله أصالح أم من كذبه ، والمراد سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون لكن أورد ذلك مورد الابهام إيماءاً إلى أنه مما لايكاد يخفى ، ونحوه قول الشاعر :

فلئن لقيتك خاليين لتعلمن (أبي وأيك) فارس الاحزاب

وقرأ ابن عامر . وحمزة . وطلحة . وابن وثاب . والأعمش - ستعلمون - بتاء الخطاب على حكاية ماقال لهم صالح مجيبا لهم،وفى الكشاف أو هو كلام على سبيل الالتفات،قال صاحب الكشف : أى هو كلام الله تعالى لقوم ثمود على سبيل الالتفات اليهم إما فى خطابه تعالى لرسولنا صلى الله تعالى عليه وسلم وهو نظير ماحكاه سبحانه عن شعيب (فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم) بعد مااستؤصلوا هلا كا وهو من بليغ الكلام فيه دلالة على أنهم أحقاء بهذا الوعيد وكأنهم حضور فى المجلس حول اليهم الوجه لينعى عليهم جناياتهم . وإما فى خطابه عزوجل لصالح عليه السلام والمنزل حكاية ذلك الكلام المشتمل على الالتفات . وعلى التقديرين لا إشكال فيه كما توهم.ولفظ الزمخشرى على الأول أدل وهو أبلغ انتهى،ومن التفت إلى ما قاله الجمهور فى الالتفات لا أظنه تسكن نفسه بما ذكر فتأمل ، وقرأ مجاهد فيما ذكره صاحب اللوامح . وأبو قيس الاودى (الأشر) بثلاث ضمات وتخفيف الراء . ويقال : أشر وأشر كحذر وحذر فضمة الشين لغة وضم الهمزة تبع لها ۞

وحكى الكسائى عن مجاهد ضم الشين دون الهمزة فهو كندس . وقرأ أبو حيوة (الأشر) أفعل تفضيل أى الأبلغ فى الشرارة وكذا قرأ قتادة . وأبو قلابة أيضا وهو قليل الاستعمال وإن كان على الأصل كالأخير فى قول رؤبة:

۞ بلال خير الناس وابن الاخير ۞ وقال أبو حاتم: لا تكاد العرب تتكلم بالأخير - و(الأشر) إلا فى ضرورة الشعر وأنشد البيت ، وقال الجوهرى : لا يقال (الأشر) إلا فى لغة رديئة ، وقوله تعالى :

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ ﴾ الخ استئناف مسوق لبيان مبادى الموعود على ما هو الظاهر، وبه يتعين كون المراد بالغد وقت نزول العذاب الدنيوى بهم دون يوم القيامة، والارسال حقيقة فى البعث وقد جعل هنا كناية عن الإخراج ، وأريد المعنى الحقيقى معه كما أومأ اليه بعض الأجلة أى إنا مخرجوا الناقة التى سألوها من الهضبة وباعثوها ﴿ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ امتحاناً ، وجوز إبقاؤها على معناها المعروف ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ ﴾ فانتظرهم وتبصر ماهم فاعلون ﴿ وَاصْطَبِرْ ٢٧ ﴾ على أذاهم ولا تعجل حتى يأتى أمر الله تعالى ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ ﴾ وأخبرهم بأن ماء البئر التى لهم ﴿ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ مقسوم لها يوم ولهم يوم، و(بينهم) لتغليب العقلاء، وقرأ معاذ عن أبى عمرو (قسمة) بفتح القاف ﴿ كُلُّ شِرْبٍ ﴾ نصيب وحصة منه ﴿ مُّحْتَضَرٌ ٢٨ ﴾ يحضره صاحبه فى نوبته فتحضر الناقة تارة ويحضرونه أخرى، وقيل: يتحول عنه غير صاحبه من حضر عن كذا تحول عنه وقيل: يمنع عنه غير صاحبه مجاز عن الحظر بالظاء بمعنى المنع بعلاقة السببية فانه مسبب عن حضور صاحبه فى نوبته وهو كما ترى ، وقيل : يحضرون الماء فى نوبتهم واللبن فى نوبتها، والمعنى كل شرب من الماء واللبن تحضرونه أنتم ﴿ فَنَادَوْا ﴾ أى فأرسلنا الناقة وكانوا على هذه الوتيرة من القسمة فملوا ذلك وعزموا على عقر الناقة (فنادوا) لعقرها ﴿ صَاحِبَهُمْ ﴾ وهو قدار بن سالف أحيمر ثمود وكان أجرأهم ﴿ فَتَعَاطَى ﴾ العقر أى فاجترأ على تعاطيه مع عظمه غير مكترث به ۞

﴿ فَعَقَرَ ٢٩ ﴾ فأحدث العقر بالناقة ، وجوز أن يكون المراد فتعاطى الناقة فعقرها ، أو فتعاطى السيف فقتلها ، وعلى كل فمفعول تعاطى محذوف والتفريع لا غبار عليه ، وقيل: تعاطى منزل منزلة اللازم على أن معناه أحدث

ماهية التعاطى،وقوله تعالى:(فعقر) تفسير له لامتفرع عليه ولايخفى ركاكته ،والتعاطى التناول مطلقاً على مايفهم من كلام غير واحد،وزادبعضهم قيد بتكلف ونسبة العقر اليهم فى قوله تعالى: (فعقروا الناقة) لأنهم كانوا راضين به ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ٣٠ ﴾ الكلام فيه كالذى تقدم ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ هى صيحة جبريل عليه السلام صاح صباح يوم الاحد كما حكى المناوى عن الزمخشرى فى طرف منازلهم ﴿ فَكَانُوا ﴾ أى فصاروا ﴿ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ٣١ ﴾ أى كالشجر اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لما شيته فى الشتاء *

وفى البحر الهشيم ماتفتت وتهشم من الشجر ، و(المحتظر) الذى يعمل الحظيرة فانه يتفتت منه حالة العمل ويتساقط أجزاء مما يعمل به ، أويكون الهشيم مايبس من الحظيرة بطول الزمان تطؤه البهائم فيتهشم،وتعقب هذا بأن الاظهر عليه كهشيم الحظيرة ، والحظيرة الزريبة التى تصنعها العرب.وأهل البوادى للمواشى والسكنى من الأغصان والشجر المورق والقصب من الحظر وهو المنع *

وقرأ الحسن.وأبو حيوة . وأبو السمال.وأبو رجاء . وعمرو بن عبيد (المحتظر) بفتح الظاء على أنه اسم مكان. والمراد به الحظيرة نفسها أو هو اسم مفعول قيل: ويقدر له موصوف أى (كهشيم) الحائط (المحتظر) أو لايقدر على أن (المحتظر) الزريبة نفسها كما سمعت.وجوز أن يكون مصدراً أى كهشيم الاحتظار أى ماتفتت حالة الاحتظار ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ٣٢ ﴾ كامر ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ٣٣ ﴾ على قياس النظير السابق ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ ملكا على ماقيل - يحصبهم أى يرميهم بالحصباء والحجارة أو هو اسم للريح التى تحصب ولم يرد بها الحدوث كما فى ناقة ضامر وهو وجه التذكير ، وقال ابن عباس : هو ماحصبوا به من السماء من الحجارة فى الريح ، وعليه قول الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام تضربنا (بحاصب) كنديف القطن منثور

﴿ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ ﴾ خاصته المؤمنين به ، وقيل : آله ابنتاه ﴿ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ٣٤ ﴾ أى فى سحر وهو آخر الليل ، وقيل : السدس الأخير منه ، وقال الراغب : السحر والسحرة اختلاط ظلام آخر الليل بصفاء النهار وجعل اسما لذلك الوقت، ويجوز كون الباء للملابسة والجار والمجرور فى موضع الحال أى ملتبسين (بسحر) داخلين فيه ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أى إنعاماً منا وهو علة لنجينا ، ويجوز نصبه بفعل مقدر من لفظه ،أو بنجينا لأن التنجية إنعام فهو كقعدت جلوساً ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿ نَجْزِى مَن شَكَرَ ٣٥ ﴾ نعمتنا بالايمان والطاعة ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم ﴾ لوط عليه السلام ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ أخذتنا الشديدة بالعذاب *

وجوز أن يراد بها نفس العذاب ﴿ فَتَمَارَوْا ﴾ فكذبوا ﴿ بِالنُّذُرِ ٣٦ ﴾ متشاكين ، فالفعل مضمن معنى التكذيب ولولاه تعدى بفى ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ﴾ صرفوه عن رأيه فيهم وطلبوا الفجور بهم وهذا من إسناد ماللبعض للجميع لرضاهم به ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ أى أزلنا أثرها وذلك بمسحها وتسويتها كسائر الوجه ، وهو كما قال أبو عبيدة ، وروى أن جبريل عليه السلام استأذن ربه سبحانه فى عقوبتهم ليلة جاءوا وعالجوا الباب ليدخلوا عليهم فصفقهم بجناحه فتركهم عمياناً يترددون لايهتدون إلى طريق خروجهم حتى أخرجهم لوط عليه السلام

وقال ابن عباس. والضحاك : إنما حجب إدراكهم فدخلوا المنزل ولم يروا شيئاً فجعل ذلك كالطمس فعبر به عنه *

وقرأ ابن مقسم (فطمسنا) بتشديد الميم للتكثير فى المفعول ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُر ٣٧ ﴾ أى فقلنا لهم ذلك على ألسنة الملائكة عليهم السلام ، فالقول فى الحقيقة لهم وأسند إليه تعالى مجازاً لأنه سبحانه الآمر أو القائل ظاهر الحال فلا قول وإنما هو تمثيل ، والمراد بالعذاب الطمس وهو من جملة ماأنذروه *

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً ﴾ أول النهار وهى أخص من الصباح فليس فى ذكرها بعده زيادة وكان ذلك أول شروق الشمس ، وقرأ زيد بن على (بكرة) غير مصروفة للعلمية والتأنيث على أن المراد بها أول نهار مخصوص *

(عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ٣٨) يستقر بهم ويدوم حتى يسلمهم إلى النار، أو لايدفع عنهم، أو يبلغ غايته *

(فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُر ٣٩) حكاية لما قيل لهم بعد التصحيح من جهته تعالى تشديداً للعذاب ، أو هو تمثيل *

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ٤٠) تقدم مافيه من الكلام *(وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ٤١)* صدرت قصتهم بالتوكيد القسمى لابراز كمال الاعتناء بشأنها لغاية عظم مافيها من الآيات وكثرتها وهول مالاقوه من العذاب وقوة إيجابها للاتعاظ والاكتفاء بذكر آل فرعون للعلم بأن نفسه أولى بذلك فانه رأس الطغيان ومدعى الألوهية ، والقول بأنه إشارة إلى إسلامه ممالايلتفت إليه ، و(النذر) إن كان جمع نذير بمعنى الانذار فالأمر ظاهر وكذا إن كان مصدراً ، وأما إن كان جمع نذير بمعنى المنذر فالمراد به موسى. وهرون. وغيرهما لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون أى وبالله تعالى لقد جاءهم المنذرون، أو الانذرات، أو الانذار، وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية مجىء النذر كأنه قيل: فماذا فعل آل فرعون حينئذ ؟ فقيل : كذبوا بجميع آياتنا وهى آيات الأنبياء كلهم عليهم السلام فان تكذيب البعض تكذيب للكل ، أو هى الآيات التسع، وجوز الواحدى أن يراد بالنذر نفس الآيات فقوله سبحانه: (بآياتنا) من إقامة الظاهر مقام الضمير والأصل كذبوا بها ، وزعم بعض غلاة الشيعة وهم المسلمون بالكشفية فى زماننا أن المراد بالآيات كلها ـ على كرم الله تعالى وجهه فإنه الإمام المبين المذكور فى قوله تعالى: (وكل شئ أحصيناه فى إمام مبين) وأنه كرم الله تعالى وجهه ظهر مع موسى عليه السلام لفرعون وقومه فلم يؤمنوا ـ وهذا من الهذيان بمكان ـ نسأل الله تعالى العفو والعافية ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ أى آل فرعون ، وزعم بعض أن ضمير (كذبوا) وضمير أخذناهم عائدان على جميع من تقدم ذكره من الأمم وتم الكلام عند قوله تعالى: (النذر) وليس بشئ ، والفاء للتفريع أى (فأخذناهم) وقهرناهم لأجل تكذيبهم *(أَخْذَ عَزِيزٍ)* لايغالب ﴿ مُّقْتَدِرٍ ٤٢ ﴾* لايعجزه شىء ، ونصب أخذ على المصدرية لاعلى قصد التشبيه *(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ)* أى الكفار المعدودين قوم نوح . وهود . وصالح . ولوط . وآل فرعون ، والمراد الخيرية باعتبار الدنيا وزينتها ككثرة القوة والشدة ووفور العدد والعدة ، أو باعتبار لين الشكيمة فى الكفر بأن يكون الكفار المحدث عنهم بالخيرية أقل عناداً وأقرب طاعة وانقياداً، وظاهر كلام كثير أن الخطاب هنا عام للمسلمين وغيرهم حيث قالوا: (أكفاركم) يامعشر العرب (خير) الخ والاستفهام إنكارى فى معنى النفى فكأنه قيل: ما كفاركم خير من أولئكم الكفار المعدودين بأن يكونوا أكثر منهم قوة وشدة وأوفر عدداً وعدة، أو بأن يكونوا ألين شكيمة فى الكفر والعصيان

والضلال والطغيان بل هم دونهم فى القوة وماأشبها من زينة الدنيا أو أسوأ حالا منهم فى الكفر ، وقد أصاب من هو خير ماأصاب فكيف يطمعون هم فى أن لايصيبهم نحو ذلك ، وكذا قيل : فى الخطاب فى قوله تعالى:

﴿أم لكم براءة فى الزبر﴾ وجعل بتقدير أم لكفاركم وهو إضراب وانتقال إلى تنكيت آخر فكأنه قيل: بل ألكفاركم براءة وأمن من تبعات مايعملون من الكفر والمعاصى وغوائلها فى الكتب السماوية فلذلك يصرون على ماهم عليه ولايخافون، واختار بعضهم فى هذا أنه خاص بالكفار ، وقالوا فى قوله تعالى :

﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ٤٣ ﴾ إنه إضراب من التبكيت المذكور إلى تبكيت آخر بطريق الالتفات للايذان بإفضاء حالهم إلى الاعراض عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية قبائحهم لغيرهم، أى بل أيقولون واثقين بشوكتهم نحن جماعة أمرنا مجتمع لايرام ولايضام، أو (منتصر) من الأعداء لايغلب، أو متناصر ينصر بعضنا بعضاً *

والذى يترجح فى نظر الفقير أن الخطاب فى الموضعين خاص على مايقتضيه السياق بكفار أهل مكة أو العرب وهو ظاهر فى الموضع الثانى لايحتاج إلى شئ ، وأما فى الموضع الاول فوجهه أن تكون الاضافة مثلها فى الدراهم كلها كذا ، وطورسيناء ، ويوم الأحد ولم يقل أأنتم للتنصيص على كفرهم المقتضى لهلاكهم ، ويجوز أن يعتبر فى (أكفاركم)ضرب من التجريد الذى ذكروه فى نحو (لهم فيها دار الخلد) فكأنه جرد منهم كفار وأضيفوا اليهم ، وفى ذلك من المبالغة مافيه ، ويجوز أن يكون هذا وجهاً للعدول عن أأنتم ، وربما يترجح به كون الخيرية المنفية باعتبار لين الشكيمة فى الكفر وكأنه لما خوف سبحانه الكفار الذين كذبوا الآيات وأعرضوا عنها ، وقالوا هى سحر مستمر بذكر ماحل بالامم السالفة مما تبرق وترعد منه أسارير الوعيد قال عز وجل لهم :لم لاتخافون أن يحل بكم مثل ماحل بهم أأنتم أقل كفراً وعناداً منهم ليكون ذلك سببا للأمن من حلول نحو عذابهم بكم أم أعطاكم الله عز وجل براءة من عذابه أم أنتم أعز منهم منتصرون على جنود الله تعالى وعدل سبحانه عن أم أنتم جميع منتصر إلى مافى النظم الجليل للاشارة إلى أن ذلك مما لاتحقق له أصلا إلا باللفظ ومحض الدعوى التى لايوافق عليها فتأمل ، فأسرار كلام الله تعالى لاتتناهى ، ثم لاتعجل بالاعتراض على ماقلناه وإن لم يكن لنا سلف فيه حسبما تتبعنا، ثم إن (جميع) على ماأشير اليه بمعنى الجماعة التى أمرها مجتمع وليس من التأكيد فى شئ بل هو خبر (نحن) ، وجوز أن يكون بمعنى مجتمع خبر مبتدأ محذوف وهو (أمرنا) والجملة خبر (نحن) وأن يكون هو الخبر والاسناد مجازى، و(منتصر) على ماسمعت إما بمعنى ممتنع يقال: نصره فانتصر إذا منعه فامتنع *

والمراد بالامتناع عدم المغلوبية أو هو بمعنى منتقم من الاعداء أو هو من النصر بمعنى العون، والافتعال بمعنى التفاعل كالاختصام والتخاصم وكان الظاهر منتصرون إلا أنه أفرد باعتبار لفظ الجميع فانه مفرد لفظاً جمع معنى ورجح هنا جانب اللفظ عكس بل أنتم قوم تجهلون لخفة الإفراد مع رعاية الفاصلة وليس فى الآية رعاية جانب المعنى أولا ، ثم رعاية جانب اللفظ ثانيا على عكس المشهور ، وإن كان ذلك جائزاً على الصحيح كما لايخفى على الخبير ، وقرأ أبو حيوة . وموسى الأسوارى . وأبو البرهسم ـ أم تقولون ـ بتاء الخطاب ، وقوله تعالى :

﴿ سيهزم الجمع ﴾ رد لقولهم ذلك والسين للتأكيد أى يهزم جمعهم البتة ﴿ ويولون الدبر ٤٥ ﴾ أى الادبار، وقد قرئ كذلك ، والإفراد لإرادة الجنس الصادق على الكثير مع رعاية الفواصل ومشاكلة القرائن ، أو لأنه فى تأويل يولى كل واحد منهم دبره على حد كسانا الأمير حلة مع الرعاية المذكورة أيضا وقد كان هذا يوم بدر وهو من دلائل النبوة لأن الآية مكية ، وقد نزلت حيث لم يفرض جهاد ولا كان قتال ولذا قال عمر

رضى الله تعالى عنه : يوم نزلت أى جمع يهزم أى من جموع الكفار ؟ ولم يتعرض لقتال أحد منهم، وقد تقدم الخبر»

ومما أشرنا اليه يعلم أن قول الطيبى فى هذه الرواية نظر لأن همزة الإنكار فى (أم يقولون) الخ دلت على أن المنهزمين من هم ناشئ عن الغفلة عن مراد عمر رضى الله تعالى عنه ، وقرأ أبو حيوة . وموسى الاسوارى . وأبو البرهسم ـ ستهزم الجمع ـ بفتح التاء وكسر الزاى خطاباً لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونصب الجمع على المفعولية ، وقرأ أبو حيوة أيضا . ويعقوب ـ سنهزم ـ بالنون مفتوحة وكسر الزاى على إسناد الفعل إلى ضمير العظمة ، وعن أبى حيوة . وابن أبى عبلة (سيهزم) الجمع بفتح الياء مبنياً للفاعل ونصب الجمع أى سيهزم الله تعالى الجمع، وقرأ أبو حيوة. وداود بن أبى سالم عن أبى عمرو ـ وتولون ـ بتاء الخطاب ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ أى ليس هذا تمام عقوبتهم بل الساعة موعد عذابهم وهذا من طلائعه ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ ﴾ أى أعظم داهية وهى الامر المنكر الفظيع الذى لا يهتدى إلى الخلاص عنه ﴿ وَأَمَرُّ ٤٦ ﴾ وأشد مرارة فى الذوق وهو استعارة لصعوبتها على النفس ، وقيل : أقوى وليس بذاك وإظهار الساعة فى موضع إضمارها التربية تهويلها ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ ﴾ من الأولين والآخرين ﴿ فِى ضَلَٰلٍ ﴾ فى هلاك ﴿ وَسُعُرٍ ٤٧ ﴾ ونيران مسعرة أو فى ضلال عن الحق ونيران فى الآخرة ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : فى خسران وجنون ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ ﴾ أى يجرون ﴿ فِى النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ متعلق بقول مقدر بعده أى يوم يسحبون يقال لهم ﴿ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ٤٨ ﴾ وجوز أن يكون متعلقاً بمقدر يفهم مما قبل أى يعذبون ، أو يهانون ، أو نحوه ، وجملة القول عليه حال من ضمير (يسحبون) وجوز كونه متعلقاً ـ بذوقوا ـ على أن الخطاب للمكذبين المخاطبين فى قوله تعالى : (أكفاركم) الخ أى ذوقوا أيها المكذبون محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم يوم يسحب المجرمون المتقدمون ، والمراد حشرهم معهم والتسوية بينهم فى الآخرة كما ساووهم فى الدنيا وهو كما ترى ، والمراد ـ بمس سقر ـ ألمها على أنه مجاز مرسل عنه بعلاقة السببية فان مسها سبب للتألم بها وتعلق الذوق بمثل ذلك شائع فى الاستعمال ، وفى الكشاف (مس سقر) كقولك وجد مس الحمى وذاق طعم الضرب لان النار إذا أصابتهم بحرها ولحقتهم بايلامها فكأنها تمسهم مساً بذلك كما يمس الحيوان ويباشر بما يؤذى ويؤلم وهو مشعر بأن فى الكلام استعارة مكنية نحو (ينقضون عهد الله) ويحتمل غير ذلك ، (وسقر) علم لجهنم ـ أعاذنا الله تعالى منها ببركة كلامه العظيم وحرمة حبيبه عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم ـ من سقرته النار وصقرته بابدال السين صاداً لاجل القاف إذا لوحته وغيرت لونه قال ذو الرمة يصف ثور الوحش :

إذا ذابت الشمس اتقى صقراتها   بأفنان مربوع الصريمة معبل

وعدم الصرف للعلمية والتأنيث، وقرأ عبد الله إلى النار ، وقرأ محبوب عن أبى عمرو (مس سّقر) بادغام السين فى السين، وتعقب ذلك ابن مجاهد بأن إدغامه خطأ لأنه مشدد، والظن بأبى عمرو أنه لم يدغم حتى حذف إحدى السينين لاجتماع الأمثال ثم أدغم ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ ﴾ من الأشياء ﴿ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ أى مقدراً مكتوبا فى اللوح قبل وقوعه ، فالقدر بالمعنى المشهور الذى يقابل القضاء ، وحمل الآية على ذلك هو المأثور عن كثير من السلف، وروى الامام أحمد . ومسلم . والترمذى . وابن ماجه عن أبى هريرة قال : « جاء مشركو قريش يخاصمون

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى القدر فنزلت (يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شئ خلقناه بقدر)» وأخرج البخارى فى تاريخه. والترمذى وحسنه. وابن ماجه. وابن عدى. وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «صنفان من أمتى ليس لهما فى الاسلام نصيب المرجئة والقدرية» أنزلت فيهم آية فى كتاب الله (إن المجرمين فى ضلال وسعر) إلى آخر الآيات، وكان ابن عباس يكره القدرية جداً، أخرج عبد بن حميد عن أبى يحيى الأعرج قال سمعت ابن عباس -وقد ذكر القدرية- يقول: لو أدركت بعضهم لفعلت به كذا وكذا ثم قال: الزنا بقدر. والسرقة بقدر. وشرب الخمر بقدر *

وأخرج عن مجاهد أنه قال: قلت لابن عباس: ماتقول فيمن يكذب بالقدر؟ قال: اجمع بينى وبينه قلت: ماتصنع به؟ قال: أخنقه حتى أقتله، وقد جاء ذمهم فى أحاديث كثيرة، منها ماأخرجه أحمد. وأبو داود. والطبرانى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «لكل أمة مجوس ومجوس أمتى الذين يقولون لاقدر إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم». وجوز كون المعنى إنا كل شئ خلقناه مقدراً محكما مستوفى فيه مقتضى الحكمة التى يدور عليها أمر التكوين، فالآية من باب (وخلق كل شئ فقدره تقديراً) ونصب (كل) بفعل يفسره مابعده أى إنا خلقنا كل شئ خلقناه، وقرأ أبو السمال قال: ابن عطية. وقوم من أهل السنة برفع كل وهو على الابتداء، وجملة (خلقناه) هو الخبر، و(بقدر) متعلق به كما فى القراءة المتواترة، فتدل الآية أيضاً على أن كل شئ مخلوق بقدر ولا ينبغى أن تجعل جملة خلقناه صفة، ويجعل الخبر (بقدر) لاختلاف القراءتين معنى حينئذ، والاصل توافق القراآت، وقال الرضى: لا يتفاوت المعنى لان مراده تعالى بكل شئ كل مخلوق سواء نصبت (كل) أو رفعته وسواء جعلت (خلقناه) صفة مع الرفع، أو خبراً عنه، وذلك إن خلقنا كل شئ بقدر لايريد سبحانه به خلقنا كل ما يقع عليه اسم شئ لانه تعالى لم يخلق جميع الممكنات غير المتناهية واسم الشئ يقع على كل منها، وحينئذ نقول: إن معنى (كل شئ خلقناه بقدر) على أن خلقناه هو الخبر (كل) مخلوق مخلوق (بقدر) وعلى أن (خلقناه) صفة (كل شئ) مخلوق كائن (بقدر) والمعنيان واحد إذ لفظ (كل) فى الآية مختص بالمخلوقات سواء كان (خلقناه) صفة له أو خبراً، وتعقبه السيد السند قدس سره بأنه لقائل أن يقول: إذا جعلنا (خلقناه) صفة كان المعنى (كل) مخلوق متصف بأنه مخلوقنا كائن بقدر، وعلى هذا لايمتنع نظراً إلى هذا المعنى أن يكون هناك مخلوقات غير متصفة بتلك الصفة فلا تندرج تحت الحكم، وأما إذا جعلناه خبراً أو نصبنا (كل شئ) فلامجال لهذا الاحتمال نظراً إلى نفس المعنى المفهوم من الكلام فقد اختلف المعنيان قطعا ولا يجديه نفعا أن كل مخلوق متصف بتلك الصفة فى الواقع لأنه إنما يفهم من خارج الكلام ولاشك أن المقصود ذلك المعنى الذى لااحتمال فيه، وذكر نحوه الشهاب الخفاجى ولكون النصب نصا فى المقصود اتفقت القرآت المتواترة عليه مع احتياجه إلى التقدير وبذلك يترجح على الرفع الموهم لخلافه وإن لم يحتج اليه *

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ أى ماشأننا إلا فعلة واحدة على نهج لايختلف ووتيرة لا تتعدد وهى الإيجاد بلامعالجة ومشقة، أوماأمرنا إلا كلمة واحدة، وهى قوله تعالى: (كن) فالامر مقابل النهى وواحد الأمور، فاذا أراد عز وجل شيئا قال له: (كن فيكون) ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ٥٠﴾ أى فى السير والسرعة، وقيل: هذا فى قيام الساعة فهو كقوله تعالى: (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أى أشباهكم فى الكفر

من الامم السالفة ، وأصله جمع شيعة وهم من يتقوى بهم المرء من الأتباع ولما كانوا فى الغالب من جنس واحد أريد به ماذكر إما باستعماله فى لازمه ، أو بطريق الاستعارة ، والحال قرينة على ذلك ، وقيل : هو باق على حقيقته أى أتباعكم ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ متعظ بذلك ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ ﴾ من الكفر والمعاصى ، والضمير المرفوع للأشياع كما روى عن ابن عباس. والضحاك .وقتادة . وابن زيد ، وجملة (فعلوه) صفة (شئ) والرابط ضمير النصب ، وقوله تعالى: ﴿ فِي الزُّبُرِ ﴾ متعلق بكون خاص خبر المبتدأ أى كل شئ فعلوه فى الدنيا مكتوب فى كتب الحفظة غير مغفول عنه ، وتفسير (الزبر) باللوح المحفوظ كما حكاه الطبرسى ليس بشيء ، ولم يختلف القراء فى رفع (كل) وليست الآية من باب الاشتغال فلايجوز النصب لعدم بقاء المعنى الحاصل بالرفع لو عمل المشتغل بالضمير فى الاسم السابق كما هو اللازم فى ذلك الباب إذ يصير المعنى ههنا حينئذ فعلوا (فى الزبر) كل شيء إن علقنا الجار بفعلوا وهم لم يفعلوا شيئاً من أفعالهم فى الكتب بل فعلوها فى أماكنهم والملائكة عليهم السلام كتبوها عليهم فى الكتب ، أو فعلوا كل شيء مكتوب (فى الزبر) إن جعلنا الجار نعتاً لكل شيء ، وهذا وإن كان معنى مستقيما إلا أنه خلاف المعنى المقصود حالة الرفع وهو ماتقدم آنفا ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ من الاعمال كما روى عن ابن عباس . ومجاهد وغيرهما ، وقيل :منها ومن كل ماهو كائن إلى يوم القيامة ﴿ مُّسْتَطَرٌ ﴾ مسطور مكتتب فى اللوح بتفاصيله وهو من السطر بمعنى الكتب ، ويقال: سطرت واستطرت بمعنى ، وقرأ الأعمش .وعمران . وعصمة عن أبى بكر عن عاصم (مستطر) بتشديد الراء ، قال صاحب اللوامع : يجوز أن يكون من - طر - النبات والشارب إذا ظهر ، والمعنى كل (صغير وكبير) ظاهر فى اللوح مثبت فيه ويجوز أن يكون من الاستطار لكن شدد الراء للوقف على لغة من يقول - جعفرّ ويفعلّ - بالتشديد وقفاً أى ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ووزنه على التوجيه الأول مستفعل وعلى الثانى مفتعل ، ولما كان بيان حال سوء الكفرة بقوله تعالى : (إن المجرمين) الخ مما يستدعى بيان حسن حال المؤمنين ليتكافأ الترهيب والترغيب بين سبحانه مالهم من حسن الحال بطريق الاجمال فقال عز قائلا: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى من الكفر والمعاصى ، وقيل :من الكفر ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ عظيمة الشأن ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ أى أنهار كذلك ، والافراد للاكتفاء باسم الجنس مراعاة للفواصل ، وعن ابن عباس تفسيره بالسعة ، وأنشد عليه قول لبيد بن ربيعة - كما فى الدر المنثور - أو قيس بن الخطيب - كما فى البحر - يصف طعنة :

ملكت بها كفى (فأنهرت) فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها

أى أوسعت فتقها ، والمراد بالسعة سعة المنازل على ماهو الظاهر ، وقيل: سعة الرزق والمعيشة ، وقيل: مايعمهما

وأخرج الحكيم والترمذى فى نوادر الأصول عن محمد بن كعب قال : (ونهر) أى فى نور وضياء وهو على الاستعارة بتشبيه الضياء المنتشر بالماء المتدفق من منبعه ، وجوز أن يكون بمعنى النهار على الحقيقة ، والمراد أنهم لاظلمة ولا ليل عندهم فى الجنات ، وقرأ الأعرج. ومجاهد. وحميد. وأبو السمال . والفياض بن غزوان (ونهر) بسكون الهاء ، وهو بمعنى (نهر) مفتوحها ، وقرأ الأعمش. وأبو نهيك. وأبو مجلز. واليمانى (ونهر) بضم النون والهاء، وهو جمع نهر المفتوح أو الساكن - كأسد وأسد، ورهن ورهن - وقيل: جمع نهار، والمراد أنهم لاظلمة ولاليل

عندهم كما حكى فيامر ، وقيل: قرئ بضم النون وسكون الهاء ﴿ فى مَقْعَدصِدْق ﴾ فى مكان مرضى على أن الصدق مجاز مرسل فى لازمه أو استعارة، وقيل: المراد صدق المبشر به وهو الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، أو المراد أنه ناله من ناله بصدقه وتصديقه للرسل عليهم السلام ، فالاضافة لأدنى ملابسة، وقال جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه: مدح المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق ، وهو المقعد الذى يصدق الله تعالى فيه مواعيد أوليائه بأنه يبيح عز وجل لهم النظر إلى وجهه الكريم ، وإفراد المقعد على إرادة الجنس *

وقرأ عثمان البتى - فى مقاعد - على الجمع وهى توضح أن المراد بالمقعد المقاعد ﴿ عندَ مَليك ﴾ أى ملك عظيم الملك، وهو صيغة مبالغة وليست الياء من الاشباع ﴿ مُقْتَدر ٥٥ ﴾ قادر عظيم القدرة، والظرف فى موضع الحال من الضمير المستقر فى الجار والمجرور ، أو خبر بعد خبر ، أو صفة لمقعد صدق، أو بدل منه، والعندية للقرب الرتبى، وذكر بعضهم أنه سبحانه أبهم العندية والقرب ونكر - مليكا ، ومقتدراً - للإشارة إلى أن ملكه تعالى وقدرته عز وجل لا تدرى الافهام كنههما وأن قربهم منه سبحانه بمنزلة من السعادة والكرامة بحيث لا عين رأت ولا أذن سمعت مما يجل عن البيان وتكل دونه الأذهان *

وأخرج الحكيم الترمذى عن بريدة - عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى قوله تعالى: (إن المتقين) الخ قال: إن أهل الجنة يدخلون على الجبار كل يوم مرتين فيقرأ عليهم القرآن وقد جلس كل امرئ منهم مجلسه الذى هو مجلسه على منابر الدر والياقوت والزمرد والذهب والفضة بالأعمال فلا تقر أعينهم قط كما تقر بذلك ولم يسمعوا شيئاً أعظم منه ولا أحسن منه ثم ينصرفون إلى رحالهم قريرة أعينهم ناعمين إلى مثلها من الغد - وإذا صح هذا فهو من المتشابه كالآية فلا تغفل ، ولهذين الاسمين الجليلين شأن فى استجابة الدعاء على ما فى بعض الآثار *

أخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن المسيب قال: دخلت المسجد وأنا أرى أنى أصبحت فاذا على ليل طويل وليس فيه أحد غيرى فنمت فسمعت حركة خلفى ففزعت فقال: أيها الممتلئ قلبه فرقا لا تفرق أو لا تفزع وقل اللهم إنك مليك مقتدر ما تشاء من أمر يكون ثم سل مابدالك قال: فماسألت الله تعالى شيئاً إلا استجاب لى وأنا أقول : اللهم إنك مليك مقتدر ماتشاء من أمر يكون فأسعدنى فى الدارين وكن لى ولا تكن على وانصرنى على من بغى على وأعذنى من هم الدين وقهر الرجال وشماتة الأعداء ، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، والحمد لله رب العالمين *

﴿ سورة الرحمن عز وجل ﴾

وسميت فى حديث أخرجه البيهقى عن على كرم الله تعالى وجهه مرفوعا « عروس القرآن » ورواه موسى ابن جعفر رضى الله تعالى عنهما عن آبائه الأطهار كذلك (وهى مكية) فى قول الجمهور ، وأخرج ذلك ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير . وعائشة رضى الله تعالى عنهم . وابن النحاس عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، وأخرج ابن الضريس . وابن مردويه . والبيهقى فى الدلائل عنه أنها نزلت بالمدينة ،وحكى ذلك عن مقاتل، وحكاه فى البحر عن ابن مسعود أيضا ، وحكى أيضا قولا آخر عن ابن عباس وهو أنها مدنية سوى قوله تعالى:

(يسأله من فى السموات والارض) الآية ، وحكى الاستثناء المذكور فى جمال القراء عن بعضهم ولم يعينه ، وعدد آياتها ثمان وسبعون آية فى الكوفى والشامى ، وسبع وسبعون فى الحجازى ، وست وسبعون فى البصرى *

ووجه مناسبتها لما قبلها على ماقال الجلال السيوطى : أنه لما قال سبحانه فى آخر ماقبل (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) ثم وصف عز وجل حال المجرمين (فى سقر) ؛ وحال المتقين (فى جنات ونهر) فصل هذا الاجمال فى هذه السورة أتم تفصيل على الترتيب الوارد فى الاجمال فبدأ بوصف مرارة الساعة ، والاشارة إلى شدتها ، ثم وصف النار وأهلها ، ولذا قال سبحانه : (يعرف المجرمون بسيماهم) ولم يقل الكافرون ، أونحوه لاتصاله معنى بقوله تعالى هناك : (إن المجرمين) ، ثم وصف الجنة وأهلها ، ولذا قال تعالى فيهم : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وذلك هو عين التقوى ولم يقل ولمن آمن ، أو أطاع ، أونحوه لتتوافق الألفاظ فى التفصيل والمفصل ؛ ويعرف بما ذكر أن هذه السورة كالشرح لآخر السورة قبلها ، وقال أبو حيان فى ذلك : أنه تعالى لما ذكر هناك مقر المجرمين فى سعر ، ومقر المتقين (فى جنات ونهر عند مليك مقتدر) ذكر سبحانه هنا شيئا من آيات الملك وآثار القدرة ، ثم ذكر جل وعلا مقر الفريقين على جهة الإسهاب إذ كان ذكره هناك على جهة الاختصار ، ولما أبرز قوله سبحانه : (عند مليك مقتدر) بصورة التنكير فكأن سائلا يسأل ويقول من المتصف بهاتين الصفتين الجليلتين ؟ فقيل : (الرحمن) الخ ، والأولى عندى أن يعتبر فى وجه المناسبة أيضا مافى الإرشاد وهو أنه تعالى لما عدد فى السورة السابقة مانزل بالامم السالفة من ضروب نقم الله عز وجل ، وبين عقيب كل ضرب منها أن القرآن قد يسر لتذكر الناس واتعاظهم ونعى عليهم إعراضهم عن ذلك عدد فى هذه السورة الكريمة ما أفاض على كافة الانام من فنون نعمه الدينية والدنيوية والأنفسية والآفاقية وأنكر عليهم إثر كل فن منها إخلالهم بمواجب شكرها ، وهذا التكرار أحلى من السكر إذا تكرر ، وفى الدرر والغرر لعلم الهدى السيد المرتضى التكرار فى سورة (الرحمن) إنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المعددة ، فكلما ذكر سبحانه نعمة أنعم بها وبخ على التكذيب بها كما يقول الرجل لغيره ألم أحسن اليك بأن خولتك فى الاموال ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا ؟ فيحسن فيه التكرير لاختلاف مايقرر به وهو كثير فى كلام العرب وأشعارهم كقول مهلهل يرثى كليبا :

على أن ليس عدلا من كليب ... إذا ماضيم جيران المجير
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا رجف العضاه من الدبور
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا خرجت مخبأة الخدور
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا ما أعلنت نجوى الأمور
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا خيف المخوف من الثغور
على أن ليس عدلا من كليب ... غداة تأثل الأمر الكبير
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا ماخار جاش المستجير

ثم أنشد قصائد أخرى على هذا النمط ولولا خوف الملل لأوردتها ، ولايرد على ماذكره أن هذه الآية قد ذكرت بعد ماليس نعمة لما ستعلمه إن شاء الله تعالى فى محله ، وقسم فى الاتقان التكرار إلى أقسام ، وذكر أن منه ما هو لتعدد المتعلق بأن يكون المكرر ثانيا متعلقا بغير ما تعلق به الاول ؛ ثم قال : وهذا القسم يسمى بالترديد وجعل منه قوله تعالى : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فانها وإن تكررت إحدى وثلاثين مرة فكل واحدة

تتعلق بما قبلها ولذلك زادت على ثلاثة ولو كان الجميع عائداً على شئ واحد لما زاد على ثلاثة لان التأكيد لا يزيد عليها كما قال ابن عبد السلام . وغيره ، وهو حسن إلا أنه نظر فى إطلاق قوله : إن التأكيد الخ بأن ذلك فى التأكيد الذى تابع أما ذكر الشئ فى مقامات متعددة أكثر من ثلاثة فلا يمتنع وإن لزم منه التأكيد فافهم ، وبدأ سبحانه من النعم بتعليم القرآن فقال عز قائلا :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَٰنُ ١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢ ﴾ لانه أعظم النعم شأنا وأرفعها مكانا كيف لا وهو مدار للسعادة الدينية والدنيوية وعيار على الكتب السماوية مامن مرصد ترنو اليه أحداق الامم إلا وهو منشؤه ومناطه ، ولا مقصد تمتد نحوه أعناق الهمم إلا وهو منهجه وصراطه، ونصبه على أنه مفعول ثان -لعلم- ومفعوله الأول محذوف لدلالة المعنى عليه-أى علم الانسان القرآن-وهذا المفعول هو الذى كان فاعلا قبل نقل فعل الثلاثى إلى فعل المضعف ، وسها الامام فحسب أن المحذوف المفعول الثانى حيث قال : علم لابد له من مفعول ثان وترك للاشارة إلى أن النعمة فى التعليم لافى تعليم شخص دون شخص ، ويمكن أن يقال : أراد أنه لابد له من مفعول آخر مع هذا المفعول فلا جزم بسهوه، وقيل: المقدر جبريل عليه السلام أو الملائكة المقربين عليهم السلام ، وقيل: محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى القولين يتضمن ذلك الاشارة إلى أن القرآن كلام الله عز وجل ، والقول الأول أظهر وأنسب بالمقام ، ولى فى تعليم غير جبريل عليه السلام من الملائكة الكرام تردد مّا بناءاً على ما فى الاتقان نقلا عن ابن الصلاح من أن قراءة القرآن كرامة أكرم الله تعالى بها البشر فقد ورد أن الملائكة لم يعطوا ذلك وأنهم حريصون لذلك على استماعه من الإنس ، وإنما لم أعتبر عمومه للنصوص الدالة على أن جبريل عليه السلام كان يقرأ القرآن وكأنى بك لاتسلم صحة ماذكر وإن استثنى منه جبريل عليه السلام ، وقيل: (علم) من العلامة ولا تقدير أى جعل القرآن علامة وآية لمن اعتبر ، أو علامة للنبوة ومعجزة ، وهذا على ماقيل: يناسب ماذكر فى مفتتح السورة السابقة من قوله تعالى : (وانشق القمر) وتتناسب السورتان فى المفتتح حيث افتتحت الاولى بمعجزة من باب الهيبة وهذه بمعجزة من باب الرحمة •

وقد أبعد القائل ولو أبدى ألف مناسبة ، فالذى ينبغى أن يعلم أنه من التعليم ، والمراد بتعليم القرآن قيل: إفادة العلم به لا بمعنى إفادة العلم بألفاظه فقط بل بمعنى إفادة ذلك والعلم بمعانيه على وجه يعتد به وهو متفاوت وقد يصل إلى العلم بالحوادث الكونية من إشاراته ورموزه إلى غير ذلك فان الله تعالى لم يغفل شيئاً فيه •

أخرج أبو الشيخ فى كتاب العظمة عن أبى هريرة مرفوعا «إن الله لو أغفل شيئا لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة »

وأخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم عن ابن مسعود أنزل فى هذا القرآن علم كل شىء وبين لنا فيه كل شيء ولكن علمنا يقصر عما بين لنا فى القرآن ، وقال ابن عباس : لو ضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله تعالى؛ وقال المرسى : جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم به ، ثم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خلا ما استأثر به سبحانه ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم كالخلفاء الأربعة ، ثم ورث عنهم التابعون لهم باحسان ، ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه ، وفسر بعضهم التعليم بتنبيه النفس لتصور المعانى ، وجوز الامام أن يراد به هنا جعل الشخص بحيث يعلم القرآن فالآية كقوله تعالى : (ولقد يسرنا القرآن للذكر) وهو بهذا المعنى مجاز كما لايخفى، و﴿ الرحمن ﴾ مبتدأ . والجملة بعده خبره كما هو الظاهر ، وإسناد

تعليمه إلى اسم (الرحمن) للايذان بأنه من آثار الرحمة الواسعة وأحكامها، وتقديم المسند اليه إما للتأكيد أو للحصر، وفيه من تعظيم شأن القرآن مافيه، وقيل: (الرحمن) خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف أى الله الرحمن، أو الرحمن ربنا ومابعد مستأنف لتعديد نعمه عز وجل وهو خلاف الظاهر، ثم أتبع سبحانه نعمة تعليم القرآن بخلق الانسان فقال تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنسَـٰنَ ٣ ﴾ لأن أصل النعم عليه، وإنما قدم ماقدم منها لأنه أعظمها، وقيل: لأنه مشير إلى الغاية من خلق الانسان وهو كماله فى قوة العلم والغاية متقدمة على ذى الغاية ذهناً وإن كان الأمر بالعكس خارجا، والمراد بالانسان الجنس وبخلقه إنشاؤه على ماهو عليه من القوى الظاهرة والباطنة، ثم أتبع عز وجل ذلك بنعمة تعليم (البيان) فقال سبحانه: ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٤ ﴾ لأن البيان هو الذى به يتمكن عادة من تعلم القرآن وتعليمه، والمراد به المنطق الفصيح المعرب عما فى الضمير *

والمراد بتعليمه نحو مامر، وفى الإرشاد أن قوله تعالى: (خلق الانسان) تعيين للمتعلم، وقوله سبحانه: (علمه البيان) تبيين لكيفية التعليم، والمراد بتعليم البيان تمكين الانسان من بيان نفسه، ومن فهم بيان غيره إذ هو الذى يدور عليه تعليم القرآن. وقيل: بناءاً على تقدير المفعول المحذوف الملائكة المقربين إن تقديم تعليم القرآن لتقدمه وقوعا فهم قد علموه قبل خلق الانسان وربما يرمز اليه قوله تعالى: (انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون) وفى النظم الجليل عليه حسن زائد حيث أنه تعالى ذكر أموراً علوية وأموراً سفلية وكل علوى قابله بسفلى ويأتى هذا على تقدير المفعول جبريل عليه السلام أيضاً، وقال الضحاك: (البيان) الخير والشر، وقال ابن جريج: سبيل الهدى وسبيل الضلالة، وقال يمان: الكتابة والكل كما ترى، وجوز أن يراد به القرآن وقد سماه الله تعالى بياناً فى قوله سبحانه: (هذا بيان) وأعيد ليكون الكلام تفصيلا لإجمال علم القرآن وهذا فى غاية البعد. وقال قتادة: (الانسان) آدم. و(البيان) علم الدنيا والآخرة، وقيل: (البيان) أسماء الاشياء كلها. وقيل: التكلم بلغات كثيرة، وقيل: الاسم الاعظم الذى علم به كل شىء، ونسب هذا إلى جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه *

وقال ابن كيسان: (الانسان) محمد صلى الله تعالى عليه وسلم. وعليه قيل: المراد بالبيان بيان المنزل. والكشف عن المراد به كما قال تعالى: (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم) أو الكلام الذى يشرح به المجمل والمبهم فى القرآن أو القرآن نفسه على ماسمعت آنفا، أو نحو ذلك مما يناسبه عليه الصلاة والسلام ويليق به من المعانى السابقة، ولعل ابن كيسان يقدر مفعول علم الانسان مراداً به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أيضا، وهذه أقوال بين يديك، والمتبادر من الآيات الكريمة لايخفى عليك ولا أظنك فى مرية من تبادر ماذكرناه فيها أولا. ثم إن كلا من الجملتين الاخيرتين خبر عن المبتدأ كجملة (علم القرآن) وكذا قوله تعالى:

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥ ﴾ والجار والمجرور فيه خبر بتقدير مضاف أى جرى (الشمس والقمر) كائن أو مستقر (بحسبان) أو الخبر محذوف والجار متعلق به أى يجريان بحسبان وهو مصدر كالغفران بمعنى الحساب كما قال قتادة وغيره أى هما يجريان (بحسبان) مقدر فى بروجهما ومنازلهما بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السفلية وتختلف الفصول والاوقات ويعلم السنون والحساب، وقال الضحاك. وأبو عبيدة: هو جمع حساب كشهاب وشهبان أى هما يجريان بحسابات شتى فى بروجهما ومنازلهما، وقال مجاهد: الحسبان الفلك المستدير من حسبان الرحا وهو ماأحاط بها من أطرافها المستديرة، وعليه فالباء للظرفية، والجار والمجرور فى موضع

الخبر من غير احتياج إلى ماتقدم ، والمراد كل من (الشمس والقمر) فى فلك ، والجمهور على الأول وجريان الشمس والقمر مما لاينبغى أن يشك فيه *

وفلاسفة العصر كانوا يزعمون أن الشمس لاتجرى أصلا ، وأن القمر يجرى على الأرض، والارض تجرى على الشمس ، وقد سمعنا أنهم عدلوا منذ أعوام عن ذلك ، فزعموا أن للشمس حركة على كوكب آخر وهذا يدل على أنهم لم يكن عندهم برهان على دعواهم الاولى كما كان يقوله من كان ينتصر لهم ، والظاهر أن حالهم اليوم بل وغداً مثل حالهم بالامس ، ونحن مع الظواهر حتى يقوم الدليل القطعى على خلافها وحينئذ نميل إلى التأويل وبابه واسع ، ومثل هذه الجملة قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ فان المعطوف على الخبر خبر ، والمراد ـ بالنجم ـ النبات الذى ينجم أى يظهر ويطلع من الارض ولاساق له ، وبالشجر النبات الذى له ساق، وهو المروى عن ابن عباس. وابن جبير . وأبى رزين ، والمراد بسجودهما انقيادهما له تعالى فيما يريد بهما طبعاً، شبه جريهما على مقتضى طبيعتيهما بانقياد الساجد لخالقه وتعظيمه له . ثم استعمل اسم المشبه به فى المشبه فهناك استعارة مصرحة تبعية ، وقال مجاهد . وقتادة . والحسن ـ النجم ـ نجم السماء وسجوده بالغروب ونحوه ، وسجود الشجر بالظل واستدارته عند مجاهد . والحسن ، وفى رواية أخرى عن مجاهد أن سجودهما عبارة عن انقيادهما لما يريد سبحانه بهما طبعاً ، والجمهور على تفسير النجم بما سمعت أولا قيل لأن اقترانه بالشجر يدل عليه ، وإن كان تقدم (الشمس والقمر) يتوهم منه أنه بمعناه المعروف ففيه تورية ظاهرة ، وإخلاء الجمل الثانية . والثالثة . والرابعة عن العاطف لورودها على نهج التعديد مع الاشارة إلى أن كلا مما تضمنته نعمة مستقلة تقتضى الشكر ، وقد قصروا فى أدائه ولو عطفت مع شدة اتصالها وتناسبها ربما توهم أن الكل نعمة واحدة *

وتوسيط العاطف بين الرابعة والخامسة رعاية لتناسبهما من حيث التقابل لما أن (الشمس والقمر) علويان (والنجم والشجر) سفليان ، ومن حيث أن كلا من حال العلويين وحال السفليين من باب الانقياد لأمر الله عز وجل وخلوهما عن الرابط اللفظى مع كونهما خبرين للتعويل على كمال قوة الارتباط المعنوى إذ لا يتوهم ذهاب الوهم إلى كون حال (الشمس والقمر) بتسخير غيره تعالى ، ولا إلى كون سجود النجم والشجر لسواه سبحانه فكأنه قيل : الشمس والقمر بحسبانه (والنجم والشجر يسجدان) له كذا قالوه ، وفى الكشف : تبيينا لما ذكره صاحب الكشاف فى هذا المقام أخلى الجمل أى التى قبل الشمس والقمر بحسبان عن العاطف لأن الغرض تعديد النعم وتبكيت المنكر كما يقال : زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك مالم يفعل أحد بأحد فما تنكر من إحسانه كأنه لما عد نعمة حرك منه حتى يتأمل هل شكرها حق شكرها أم لا ، ثم يأخذ فى أخرى ولوجئ بالعاطف صارت كواحدة ولم يكن من التحريك فى شئ ، ولما قضى الوطر من التعديد المحرك والتبكيت بذكر ماهو أصل النعم على نمط رد الكلام على منهاجه الاصلى من تعداد النعم واحدة بعد أخرى على التناسب والتقارب بحرف النسق، وفيه تنبيه على أن النعم لاتحصى فليكتف بتعديد أجلها رتبة للغرض المذكور *

وجملة (الشمس والقمر بحسبان) ليست من أخبار المبتدا ، والزمخشرى إنما سأل عن وجه الربط ، وأجاب بأن الربط حاصل بالوصل المعنوى كأنه بعد مابكت ونبه أخذ يعد عليه أصول النعم ليثبت على ماطلب منه من الشكر ، وهذا كما تقول فى المثال السابق بعد قولك : فعل بك مالم يفعل أحد بأحد دانت له أقرانك وأطاعته إخوانك وبسط نواله فيمن تحت ملكته ولم يخرج أحد من حياطة عدله ونصفته ، فلا يشك ذوأرب أنها جمل

منقطعة عن الأولى إعرابا متصلة بها اتصالا معنوياً أورثها قطعها لأنها سيقت لغرض وهذه لآخر ، وقريب من هذا الاتصال اتصال قوله تعالى : (إن الذين كفروا سواء عليهم) الآية بقوله تعالى : (الذين يؤمنون بالغيب) الآية انتهى *

وقد أبعد المغزى فيما أرى إلا أن ظاهر كلام الكشاف يقتضى كون قوله تعالى :(الشمس والقمر بحسبان) من الأخبار فتأمل. ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا ﴾ أى خلقها مرفوعة ابتداءً لا أنها كانت مخفوضة ورفعها ، والظاهر أن المراد برفعها الرفع الصورى الحسى، ويجوز أن يكون المراد به مايشمل الصورى والمعنوى بطريق عموم المجاز أو الجمع بين الحقيقة والمجاز عند من يرى جوازه .ورفعها المعنوى الرتبى لأنها منشأ أحكامه تعالى وقضاياه ومنزل أوامره سبحانه ومحل ملائكته عز وجل،وقرأ أبو السمال (والسماء) بالرفع على الابتداء ، ولا إشكال فيه لأن الجملة عليه اسمية معطوفة على مثلها ،وإنما الاشكال فى النصب لأنه بفعل مضمر على شريطة التفسير أى ورفع السماء فتكون الجملة فعلية فان عطفت على جملة ـ النجم والشجر يسجدان ـ الكبرى لزم تخالف الجملتين المعطوفة والمعطوف عليها بالاسمية والفعلية وهو خلاف الاولى ، وإن عطفت على جملة (يسجدان)الصغرى لزم أن تكون خبراً ـ للنجم والشجر ـ مثلها ، وذلك لا يصح إذ لا عائد فيها اليهما ، وكذا يقال فى العطف على كبرى وصغرى (الشمس والقمر بحسبان)وأجاب أبو على باختيار الثانى ، وقال : لا يلزم فى المعطوف على الشئ ان يعتبر فيه حال ذلك الشئ ، وتلا باب قولهم متقلداً سيفاً ورمحاً،وبعضهم باختيار الأول ويحسن التخالف إذا تضمن نكتة،قال الطيبى: الظاهر أن يعطف على جملة(الشمس والقمر بحسبان) ليؤذن بأن الاصل أجرى الشمس والقمر، وأسجد النجم والشجر ،فعدل إلى معنى دوام التسخير والانقياد فى الجملتين الأوليين، ومعنى التوكيد فى الأخيرة والكلام فيما يتعلق بالرفع والنصب فيما إذا ولى العاطف جملة ذات وجهين مفصل فى كتب النحو ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ٧ ﴾أى شرع العدل وأمر به بأن وفر على كل مستعد مستحقه ، ووفى كل ذى حق حقه حتى انتظم أمر العالم واستقام كما قال عليه الصلاة والسلام : « بالعدل قامت السموات والأرض» أى بقيتا على أبلغ نظام وأتقن إحكام،وقال بعضهم: المراد بقاء من فيهما من الثقلين إذ لولا العدل أهلك أهل الأرض بعضهم بعضاً،وأما الملأ الأعلى فلا يقع بينهم مايحتاج للحكم والعدل ، فذكرهم للمبالغة،والذى أختاره أن المراد بالسموات والأرض العالم جميعه ولا شك أنه لولا العدل لم يكن العالم منتظما.ومنشأ ماذكره القائل ظن أن المراد بالعدل فى الحديث العدل فى الحكم لفصل الخصومات ونحوه وليس كما ظن بل المراد به عدل الله عزوجل وإعطاؤه سبحانه كل شئ خلقه . وتفسير الميزان بما ذكر هو المروى عن مجاهد . والطبرى . والاكثرين ، وهو مستعار للعدل استعارة تصريحية؛ وعن ابن عباس . والحسن. وقتادة . والضحاك أن المراد به مايعرف به مقادير الاشياء من الآلة المعروفة والمكيال المعروف ونحوهما ، فالمعنى خلقه موضوعا مخفوضاً على الارض حيث علق به أحكام عباده وقضاياهم المنزلة من السماء وماتعبدهم به من التسوية والتعديل فى أخذهم وإعطائهم ، والمشهور أنه بهذا المعنى مجاز أيضا من استعمال المقيد فى المطلق ، وقيل : هو حقيقة ، فالواضع لم يضعه إلا لما يعرف به المقادير على أى هيئة ومن أى جنس كان ، والناس لما ألفوا المعروف لا يكاد يتبادر إلى أذهانهم من لفظ (الميزان) سواه ، وقيل : المراد به المعروف واللفظ فيه حقيقة ولا يسلم الوضع للعام *

ورجح القولان الأخيران بأن مابعد أشد ملاءمة لهما وبين الوضع والرفع عليهما تقابل، وقد قرأ عبد الله ـ وخفض الميزان ـ والأول بأنه أتم فائدة فزن ذلك بميزان ذهنك ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ أى لئلا تطغوا فيه أى حقه وشأنه بأن تعتدوا وتتجاوزوا ماينبغى فيه على أن (أن) ناصبة و(لا) نافية ولام العلة مقدرة متعلقة بقوله تعالى: (وضع الميزان) وجوز ابن عطية . والزمخشرى كون (أن) تفسيرية ، و(لا) ناهية *

واعترضه أبو حيان بأنه لم يتقدم جملة فيها معنى القول وهو شرط فى صحة جعل (أن) مفسرة ، وأجيب بأن وضع الميزان فيه ذلك لأنه بالوحى وإعلام الرسل عليهم السلام، وزعم بعضهم أن التفسير متعين لأنه لا معنى لوضع الميزان لئلا تطغوا فى الميزان إذ المناسب الموزون ونحوه ، وفيه مالا يخفى، وفى البحر قرأ إبراهيم (ووضع الميزان) بإسكان الضاد ، وخفض الميزان على أن (وضع) مصدر مضاف إلى مابعده ولم يبين هل (وضع) مرفوع أو منصوب ، فان كان مرفوعاً فالظاهر أنه مبتدأ (وأن لا تطغوا) بتقدير الجار فى موضع الخبر. وإن كان منصوبا فالظاهر أن عامله مقدر أى وفعل (وضع الميزان) أو ووضع وضع الميزان (أن لا تطغوا) الخ ، وقرأ عبد الله ـ لا تطغوا ـ بغير (أن) على إرادة القول أى قائلا ، أو نحوه لا قل ـ كما قيل ـ و(لا) ناهية بدليل الجزم *

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ قوموا وزنكم بالعدل ، وقال الراغب: هذا إشارة إلى مراعاة المعدلة فى جميع ما يتحراه الانسان من الأفعال والاقوال، وعن مجاهد أن المعنى أقيموا لسان الميزان بالعدل إذا أردتم الاخذ والإعطاء ، وقال سفيان بن عيينة: الاقامة باليد ، والقسط بالقلب، والظاهر أن الجملة عطف على الجملة المنفية قبلها ولا يضر فى ذلك كونها إنشائية ، وتلك خبرية لأنها لتأويلها بالمفرد تجردت عن معنى الطلب ، وجعل بعضهم (لا) فى الاولى مطلقاً ناهية حرصاً على التوافق ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ٩ ﴾ أى لا تنقصوه فان من حقه أن يسوى لانه المقصود من وضعه وكرر لفظ (الميزان) بدون إضماره كما هو مقتضى الظاهر تشديداً للتوصية وتأكيداً للامر باستعماله والحث عليه، بل فى الجمل الثلاث تكرار ما معنى لذلك، وقرئ (ولا تخسروا) بفتح التاء وضم السين، وقرأ زيد بن على . وبلال بن أبى بردة بفتح التاء وكسر السين *

وحكى ابن جنى . وصاحب اللوامح عن بلال أنه قرأ بفتحهما ، وخرج ذلك الزمخشرى على أن الاصل ـ ولا تخسروا فى الميزان ـ فحذف الجار ، وأوصل الفعل بناءاً على أنه لم يجئ إلا لازماً ، وتعقبه أبو حيان بأن خسر قد جاء متعديا كقوله تعالى :(خسروا أنفسهم) (وخسر الدنيا والآخرة) فلا حاجة إلى دعوى الحذف والإيصال، وأجيب بأنه على تقدير أن يكون متعدياً هنا لابد من القول بالحذف والايصال لان المعنى على حذف المفعول به أى لا تخسروا أنفسكم فى الميزان أى لا تكونوا خاسريها يوم القيامة بسبب الميزان بأن لا تراعوا ماينبغى فيه ، والراغب جوز حمل الآية على القراءة المشهورة على نحو هذا فقال : إن قوله تعالى :(وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) يجوز أن يكون إشارة إلى تحرى العدالة فى الوزن وترك الحيف فيما يعاطاه فيه ، ويجوز أن يكون إشارة إلى تعاطى مالا يكون به فى القيامة خاسراً فيكون ممن قال سبحانه فيه : (من خفت موازينه) وكلا المعنيين متلازمان ، وقيل: المعنى على التعدى بتقدير مضاف أى موزون الميزان، أو جعل الميزان مجازاً عن الموزون فيه فتأمل ولا تغفل ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا ﴾ خلقها موضوعة مخفوضة عن السماء حسبما يشاهد ، وقال الراغب :الوضع هنا الايجاد والخلق وكأن مراده ماذكر ، وقيل: أى خفضها مدحوة على الماء ،

والظاهر على تقدير اعتبار الدحو أنه لا حاجة إلى اعتبار أنه سبحانه خلقها كذلك بل لا يصح لانها لم تخلق مدحوة وإنما دحيت بعد على ماروى عن ابن عباس ، ثم إن كونها على الماء مبنى على مااشتهر أنه عز وجل خلق الماء قبلها وخلقها سبحانه من زبده ﴿ لِلْأَنَامِ ١٠ ﴾ قال ابن عباس . وقتادة . وابن زيد . والشعبي . ومجاهد على مافى مجمع البحرين : الحيوان كله ، وقال الحسن : الانس والجن ٭

وفى رواية أخرى عن ابن عباس هم بنو آدم فقط ولم أر هذا التخصيص لغيره رضى الله تعالى عنه ، فى القاموس الانام الخلق أو الجن والانس ، أو جميع ماعلى وجه الارض ، ويحتمل أنه أراد أن المراد به هنا ذلك بناءاً على أن اللام للانتفاع وأنه محمول على الانتفاع التام وهو للانس أتم منه لغيرهم ، والاولى عندى ماحكى عنه أولا ، وقرأ أبو السمال (والارض) بالرفع ، وقوله تعالى : ﴿ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ ﴾ الخ استئناف مسوق لتقرير ماأفادته الجملة السابقة من كون الارض موضوعة لنفع الانام ، وقيل : حال مقدرة من الارض ، أو من ضميرها ، فالأحسن حينئذ أن يكون الحال هو الجار والمجرور ، و (فاكهة) رفع على الفاعلية والتنوين بمعونة المقام للتكثير أى فيها ضروب كثيرة مما يتفكه به ﴿ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ١١ ﴾ هى أوعية التمر أعنى الطلع على ماروى عن ابن عباس جمع ـ كم ـ بكسر الكاف وقد تضم ، وهذا فى ـ كم ـ التمر ، وأما ـ كم ـ القميص فهو بالضم لاغير ، أو كل مايكم ويغطى من ليف وسعف وطلع فانه مما ينتفع به كالمكموم من الثمر والجمار مثلا ، واختاره من اختاره ، وبما ذكر يعلم فائدة التوصيف ﴿ وَٱلْحَبُّ ﴾ هو مايتغذى به كالحنطة والشعير ﴿ ذُو ٱلْعَصْفِ ﴾ قيل : هو ورق الزرع ، وقيده بعضهم باليابس ، وأخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه التبن ، وأخرج ابن جرير . وابن المنذر عن الضحاك أنه القشر الذى يكون على الحب ، وعن السدى . والفراء أنه بقل الزرع وهو أول ماينبت ، وأخرجه غير واحد عن الحبر أيضاً ، واختار جمع ماروى عنه أولا ، وفى توصيف الحب بما ذكر تنبيه على أنه سبحانه كما أنعم عليهم بما يقوتهم من الحب أنعم عليهم بما يقوت بهائمهم من العصف ﴿ وَٱلرَّيْحَانُ ١٢ ﴾ هو كل مشموم طيبُ الريح من النبات على ماأخرجه ابن جرير عن ابن زيد ، وأخرج عن الحسن أنه قال : هو ريحانكم هذا أى الريحان المعروف ؛ وأخرج عن مجاهد أنه الرزق بل قال ابن عباس : كما أخرج هو أيضا عنه كل ريحان فى القرآن فهو رزق ، وزعم الطبرسى أنه قول الأكثر ، وعليه قول بعض الاعراب ، وقد قيل له : إلى أين أطلب من ريحان الله فانه أراد من رزقه عز وجل ، ووجه إطلاقه عليه أنه يرتاح له ، وظاهر كلام الكشاف أنه أطلق وأريد منه اللب ليطابق العصف ويوافق المراد منه فى قراءة حمزة . والكسائى . والاصمعى عن أبى عمرو (والريحان) بالجر عطفاً على (العصف) إذ يبعد عليها حمله على المشموم والقريب حمله على اللب فكأنه قيل : والحب ذو العصف الذى هو رزق دوابكم ، وذو اللب الذى هو رزق لكم ، وجوز أن يكون الريحان فى هذه القراءة عطفاً على فاكهة كما فى قراءة الرفع ، والجر للمجاورة وهو كما ترى ، والزمخشرى بعد أن فسر (الأكمام) بما ذكرناه ثانيا فيها (والريحان) باللب قال : أراد سبحانه فيها مايتلذذ به من الفواكه ، والجامع بين التغذى والتلذذ ـ وهو ثمر النخل ـ ومايتغذى به ـ وهو الحب ـ وهو على مافى الكشف بيان لاظهار وجه الامتنان وأنه مستوعب لأقسام مايتناول فى حال الرفاهية لأنه إما للتلذذ الخالص وهو الفاكهة أوله وللتغذى أيضاً

وهو ثمر النخل ، أو للتغذى وحده وهو الحب ، ولما كان الأخيران أدخل فى الامتنان شفع كلا بعلاوة فيها منة أيضاً ، وأنت تعلم أنه إذا كان المقصود من النخل ثمره المعروف فالعطف على أسلوب ملائكته وجبريل كما قيل به فى قوله تعالى : (فيها فاكهة ونخل ورمان) وإذا كان ما يعمه وسائر ما ينتفع به منه كالجمار والكفرى، فالعطف ليس على ذلك ، وجعل صاحب الكشف قول الزمخشرى بعد تفسير (الأكمام) بالمعنى الأعم وكله منتفع به كالمكموم إشارة إلى هذا ، ثم قال : ولا ينافى جعله منه فى قوله تعالى : (فيها فاكهة) الخ نظراً إلى أن الجنة دار تخلص للتلذذ فالنظر هنالك إلى المقصود وهو الثمر فقط فتأمل *

وقرأ ابن عامر . وأبو حيوة . وابن أبى عبلة ـ والحب ذا العصف والريحان ـ بنصب الجميع ، وخرج على أنه بتقدير وخلق الحب الخ ، وقيل : يجوز تقدير أخص . وفيه دغدغة ، وجوزوا أن يكون الريحان بمعنى اللب حالة الرفع وحالة النصب على حذف مضاف . والأصل وذو أو وذا الريحان فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه و (الريحان) فيعلان من الروح . فأصله ريوحان قلبت الواو ياء لاجتماعهما مع ياء ساكنة قبلها وأدغمت فى الياء فصار ريحان بالتشديد ثم حذفت الياء الثانية التى هى عين الكلمة فقيل : ريحان كما قيل : ميت وهين بسكون الياء *

وعن أبى على الفارسى أنه فعلان وأصله روحان بفتح الراء وسكون الواو قلبت واوه ياءاً للتخفيف وللفرق بينه وبين الروحان بمعنى ماله روح ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣ ﴾ الخطاب للثقلين لانهما داخلان فى الأنام على ما اخترناه ، أو لأن الانام عبارة عنهما على ماروى عن الحسن ، وسينطق بهما فى قوله تعالى: (سنفرغ لكم أيه الثقلان) وفى الاخبار كما ستعلمه إن شاء الله تعالى قريبا ما يؤيده ، وقد أبعد من ذهب إلى أنه خطاب للذكر والانثى من بنى آدم ، وأبعد أكثر منه من قال : إنه خطاب على حد (ألقيا فى جهنم) وياشرطى أضربا عنقه ، يعنى أنه خطاب للواحد بصورة الاثنين والفاء لترتيب الإنكار ، والتوبيخ على ما فصل من فنون النعماء وصنوف الآلاء الموجبة للايمان والشكر حتما ، والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية الكلية والتربية مع الاضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ ومعنى تكذيبهم بشىء من آلائه تعالى كفرهم به إما بانكار كونه منه عز وجل مع عدم الاعتراف بكونه نعمة فى نفسه كتعليم القرآن وما يستند اليه من النعم الدينية ، وإما بانكار كونه منه تعالى مع الاعتراف بكونه نعمة فى نفسه كالنعم الدنيوية الواصلة اليهم باسناده إلى غيره سبحانه استقلالا ، أو اشتراكا صريحا ، أو دلالة فان إشراكهم لآلهتهم به تعالى فى العبادة من دواعى إشراكهم لها به تعالى فيما يوجبها ، والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر شهادة منها بذلك فكفرهم بها تكذيب لامحالة أى فاذا كان الأمر كما فصل (فبأى) فرد من أفراد نعم مالككما ومربيكما بتلك النعم (تكذبان) مع أن كلا منها ناطق بالحق شاهد بالصدق ويندب أن يقول سامع هذه الآية : لا بشئ من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد ، فقد أخرج البزار . وابن جرير . وابن المنذر . والدارقطنى فى الافراد . وابن مردويه . والخطيب فى تاريخه بسند صحيح عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما « أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قرأ سورة (الرحمن) على أصحابه فسكتوا فقال : مالى أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم ما أتيت على قول الله تعالى : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) إلا قالوا : لا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » *

وأخرج الترمذى وجماعة وصححه الحاكم عن جابر بن عبد الله نحوه ، وقرئ (فبأى) بالتنوين فى جميع السورة

كأنه حذف منه المضاف إليه وأبدل منه (آلاء ربكما) بدل معرفة من نكرة *

﴿ خَلَقَ الْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَالْفَخَّارِ ١٤ ﴾ تمهيد للتوبيخ على إخلالهم بمواجب شكر النعمة المتعلقة بذاتى كل واحد من الثقلين ، والمراد بالانسان آدم عند الجمهور . وقيل: الجنس وساغ ذلك لأن أباهم مخلوق مما ذكر، والصلصال الطين اليابس الذى له صلصلة ، وأصله - كما قال الراغب - تردد الصوت من الشئ اليابس. ومنه قيل: صل المسمار ، وقيل: هو المنتن من الطين من قولهم: صل اللحم، وكأن أصله صلال فقلبت إحدى اللامين صاداً ويبعد ذلك قوله سبحانه: (كالفخار) وهو الخزف أعنى ما أحرق من الطين حتى تحجر وسمى بذلك لصوته إذا نقر كأنه تصور بصورة من يكثر التفاخر ، وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصالا فلا تنافى بين الآية الناطقة بأحدها وبين ما نطق بأحد الآخرين ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ ﴾ هو أبو الجن وهو إبليس قاله الحسن ، وقال مجاهد : هو أبو الجن وليس بإبليس ، وقيل: هو اسم جنس شامل للجن كلهم ﴿ مِن مَّارِجٍ ﴾ من لهب خالص لا دخان فيه - كما هو رواية عن ابن عباس - وقيل : هو اللهب المختلط بسواد النار، أو بخضرة وصفرة وحمرة - كما روى عن مجاهد - من مرج الشئ إذا اضطرب واختلط ، و(من) لابتداء الغاية، وقوله تعالى: ﴿ مِّن نَّارٍ ١٥ ﴾ بيان لمارج والتنكير للمطابقة ولان التعريف لكنه عليه فكأنه قيل: خلق من نار خالصة ، أو مختلطة على التفسيرين، وجوز جعل (من) فيه ابتدائية فالتنكير لانه أريد نار مخصوصة متميزة من بين النيران لا هذه المعروفة ، وأياً ما كان فالمارج بالنسبة إلى الجان كالتراب بالنسبة إلى الانسان، وفى الآية رد على من يزعم أن الجن نفوس مجردة * (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦) مما أفاض عليكما فى تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم * (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ١٧) * خبر مبتدأ محذوف أى هو رب الخ، أو الذى فعل ما ذكر من الافاعيل البديعة - رب مشرقى الشمس صيفاً وشتاءاً ومغربيها - كذلك على ما أخرجه جماعة عن ابن عباس، وروى عن مجاهد . وقتادة . وعكرمة أن (المشرقين) مشرقا الشتاء ومشرق الصيف، و(المغربين) مغرب الشتاء ومغرب الصيف بدون ذكر الشمس ، وقيل: المشرقان مشرقا الشمس والقمر ، والمغربان مغرباهما *

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن (المشرقين) مشرق الفجر ومشرق الشفق ، و(المغربين) مغرب الشمس ومغرب الشفق ، وحكى أبو حيان فى المغربين نحو هذا، وفى المشرقين أنهما مطلع الفجر ومطلع الشمس والمعول ما عليه الأكثرون من مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما ، ومن قضية ذلك أن يكون سبحانه رب ما بينهما من الموجودات ، وقيل : (رب) مبتدأ والخبر قوله تعالى : (مرج) الخ ، وليس بذاك *

وقرأ أبو حيوة . وابن أبى عبلة (رب) بالجر على أنه بدل من ربكما ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨ ﴾ مما فى ذلك من فوائد لا تحصى كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل فى وقته *

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ أى أرسلهما وأجراهما من - مرجت - الدابة - فى المرعى - أرسلتها فيه ، والمعنى أرسل البحر الملح والبحر العذب ﴿ يَلْتَقِيَانِ ١٩ ﴾ أى يتجاوران وتتماس سطوحهما لا فصل بينهما فى مرأى العين، وقيل : أرسل بحرى فارس والروم يلتقيان فى المحيط لانهما خليجان ينشعبان منه، وروى هذا عن قتادة لكنه

أورد عليه أنه لايوافق قوله تعالى: (مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج) والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، وعليه قيل : جملة (يلتقيان) حال مقدرة إن كان المراد ـ إرسالها إلى المحيط، أو المعنى اتحادأصليهما إن كان المراد إرسالها اليه ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ أى حاجز من قدرة الله تعالى،أو من أجرام الارض كما قال قتادة ﴿ لَّا يَبْغِيَانِ ٢٠ ﴾ أى لا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصية بالكلية بناءاً على الوجه الأول فيما سبق ، أولا يتجاوزان حديهما بإغراق ما بينهما بناءاً على الوجه الثانى ، وروى هذا عن قتادة أيضاً، وفى معناه ماأخرجه عبد الرزاق . وابن المنذر عن الحسن (لا يبغيان) عليكم فيغرقانكم،وقيل:المعنى لا يطلبان حالا غير الحال التى خلقا عليها وسخرا لها ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١ ﴾ مما لكما فى ذلك من المنافع ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ ﴾ صغار الدر﴿ وَٱلْمَرْجَانُ ٢٢ ﴾ كباره كما أخرج ذلك عبدبن حميد . وابن جرير عن على كرم الله تعالى وجهه .ومجاهد ، وأخرجه عبد عن الربيع.وجماعة منهم المذكوران.وابن المنذر . وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس ، وأخرج ابن جرير عنه أنه قال: (اللؤلؤ)ماعظم منه (والمرجان)اللؤلؤ الصغار،

وأخرج هو . وعبد الرزاق . وعبد بن حميد عن قتادة نحوه ، وكذا أخرج ابن الانبارى فى الوقف والابتداء عن مجاهد ، وأظن أنه إن اعتبر فى اللؤلؤ معنى التلألؤ واللمعان وفى المرجان معنى المرج والاختلاط فالأوفق لذلك ما قيل : ثانياً فيهما ، وأخرج عبد الرزاق . والفريابى . وعبد بن حميد . وابن جرير . وابن المنذر . والطبرى عن ابن مسعود أنه قال : ـ المرجان ـ الخرز الأحمر أعنى البسذ وهو المشهور المتعارف ، و (اللؤلؤ) عليه شامل للكبار والصغار، ثم إن اللؤلؤ بناء غريب قيل : لايحفظ منه فى كلام العرب أكثر من خمسة هو ، والجؤجؤ الصدر وقرية بالبحرين ، والدؤدؤ آخر الشهر أو ليلة خمس وست وسبع وعشرين . أو ثمان وتسع وعشرين . أو ثلاث ليال من آخره،والبؤبؤ بالباء الموحدة الاصل . والسيد الظريف . ورأس المكحلة . وإنسان العين . ووسط الشئ،واليؤيؤ بالياء آخر الحروف طائر كالباشق ، ورأيت فى كتب اللغة على هذا البناء غيرها وهو الضؤضؤ الأصل للطائر . والنؤنؤ بالنون المكثر تقليب الحدقة . والعاجز الجبان،ومن ذلك شؤشؤ دعاء الحمار إلى الماء وزجر الغنم والحمار للمضى . أو هو دعاء للغنم لتأكل ، أو تشرب . وأما المرجان فقد ذكره صاحب القاموس فى مادة ـ مرج ـ ولم يذكر ما يفهم منه أنه معرب ، وقال أبو حيان فى البحر : هو اسم أعجمى معرب . وقال ابن دريد : لم أسمع فيه بفعل متصرف،

وقرأ طلحة ـ اللؤلئ ـ بكسر اللام الأخيرة . وقرئ اللؤلى بقلب الهمزة المتطرفة ياءاً ساكنة بعد كسر ماقبلها وكل من ذلك لغة . وقرأ نافع . وأبو عمرو (يخرج) مبنياً للمفعول من الاخراج، وقرئ (يخرج) مبنياً للفاعل منه ونصب (اللؤلؤ والمرجان) أى يخرج الله تعالى.واستشكلت الآية على تفسير البحرين بالعذب والملح دون بحرى فارس والروم بأن المشاهد خروج (اللؤلؤ والمرجان) من أحدهما وهو الملح . فكيف قال سبحانه : (منهما)؟وأجيب بأنهما لما التقيا وصارا كالشىء الواحد جاز أن يقال:يخرجان منهما كما يقال يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميعه ولكن من بعضه ، وكما تقول خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محاله بل من دار واحدة من دوره ، وقد ينسب إلى الاثنين ماهو لاحدهما كما يسند إلى الجماعة ماصدر من واحد منهم . ومثله على مافى الانتصاف (على رجل من القريتين عظيم) وعلى مانقل عن الزجاج

(سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نوراً) ، وقيل: إنهما لايخرجان إلا من ملتقى العذب والملح ويرده المشاهدة وكأن من ذكره مع ماتقدم لم يذكره لكونه قولا آخر بل ذكره لتقوية الاتحاد فحينئذ تكون علاقة التجوز أقوى *

وقال أبو على الفارسى : هذا من باب حذف المضاف والتقدير يخرج من أحدهما وجعل (من القريتين) من ذلك . وهو عندى تقدير معنى لا تقدير إعراب . وقال الرمانى: العذب منهما كاللقاح للملح فهو كما يقال الولد يخرج من الذكر والانثى أى بواسطتهما ، وقال ابن عباس، وعكرمة : تكون هذه الأشياء فى البحر بنزول المطر لأن الأصداف فى شهر نيسان تتلقى ماء المطر بأفواهها فتتكون منه ، ولذا تقل فى الجدب ، وجعل عليه ضمير (منهما) للبحرين باعتبار الجنس ولايحتاج إليه بناءاً على ماأخرجه ابن جرير عنه أن المراد بالبحرين بحر السماء وبحر الأرض *

وأخرج هو. وابن المنذر عن ابن جبير نحوه إلا أن فى تكون المرجان بناءاً على تفسيره بالبسذ من ماء المطر كاللؤلؤ ترددا وإن قالوا : إنه يتكون فى نيسان ، وقال بعض الأئمة :ظاهر كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من كلام الناس، ومن علم أن اللؤلؤ لايخرج من الماء العذب وهب أن الغواصين ماأخرجوه إلا من الملح ، ولكن لم قلتم أن الصدف لايخرج بأمر الله تعالى من الماء العذب إلى الماء الملح فان خروجه محتمل تلذذاً بالملوحة كما تلتذ المتوحمة بها فى أوائل حملها حتى إذا خرج لم يمكنه العود ، وكيف يمكن الجزم بما قلتم وكثير من الأمور الأرضية الظاهرة خفيت عن التجار الذين قطعوا المفاوز وداروا البلاد فكيف لايخفى أمر مافى قعر البحر عليهم، والله تعالى أعلم ﴿ ومن غريب التفسير ﴾ ماأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال :(مرج البحرين يلتقيان) على . وفاطمة رضى الله تعالى عنهما (بينهما برزخ لا يبغيان) النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما *

وأخرج عن إياس بن مالك (١) نحوه لكن لم يذكر فيه البرزخ ، وذكر الطبرسى من الامامية فى تفسيره مجمع البيان الأول بعينه عن سلمان الفارسى . وسعيد بن جبير . وسفيان الثورى ، والذى أراه أن هذا إن صح ليس من التفسير فى شىء بل هو تأويل كتأويل المتصوفة لكثير من الآيات ، وكل من علىّ . وفاطمة رضى الله تعالى عنهما عندى أعظم من البحر المحيط علماً وفضلا ، وكذا كل من الحسنين رضى الله تعالى عنهما أبهى وأبهج من اللؤلؤ والمرجان بمراتب جاوزت حدّ الحسبان ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٣ ﴾ بما فى ذلك من الزينة والمنافع الجليلة فقد ذكر الاطباء أن (اللؤلؤ) يمنع الخفقان . والبحر . وضعف الكبد . والكلى . والحصى . وحرقة البول . والسدد . والبرقان . وأمراض القلب . والسموم . والوسواس . والجنون . والتوحش . والربو شرباً . والجذام . والبرص . والبهق . والآثار مطلقاً بالطلى إلى غير ذلك ، وأن المرجان أعنى البسذ يفرح ويزيل فساد الشهوة ولو تعليقاً . ونفث الدم . والطحال شرباً . والدمعة . والبياض . والسلاق . والجرب كحلا إلى غير ذلك مما هو مذكور فى كتبهم ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ﴾ السفن جمع جارية وخصها سبحانه بأنها له وهو تعالى له ملك السموات والارض ومافيهن للاشارة إلى أن كونهم هم منشئيها لايخرجها من ملكه عز وجل حيث كان تمام منفعتها إنما هو منه عز وجل ، وقرأ عبد الله . والحسن . وعبد الوارث عن أبى عمرو - الجوار -

---

(١) هكذا بالاصل ولعله انس بن مالك فدخله التصحيف *

بإظهار الرفع على الراء لان المحذوف لما تناسوه أعطوا ماقبل الآخر حكمه كما فى قوله :

لها ثنايا أربع حسان وأربع فكلها (ثمان)

﴿ الْمُنْشَـَٔاتُ ﴾ أى المرفوعات الشرع - كما قال مجاهد - من أنشأه بمعنى رفعه ، وقيل: المرفوعات على الماء وليس بذاك ، وكذا ماقيل المصنوعات ، وقرأ الاعمش . وحمزة . وزيد بن على . وطلحة . وأبو بكر بخلاف عنه (المنشآت) بكسر الشين أى الرافعات الشرع ، أو اللاتى ينشئن الامواج بجريهن ، أو اللاتى ينشئن السير إقبالا وإدبارا ، وفى الكل مجاز ، وشدد الشين ابن أبى عبلة ، وقرأ الحسن (المنشات) وحد الصفة ودل على الجمع الموصوف كقوله تعالى : (أزواج مطهرة) وقلب الهمزة ألفا على حد قوله ☆ إن السباع (لتهدا) فى مرابضها ☆ يريد لتهدأ والتاء لتأنيث الصفة كتبت تاءاً على لفظها فى الاصل ﴿ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَـٰمِ ٢٤ ﴾ كالجبال الشاهقة جمع علم وهو الجبل الطويل ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٥ ﴾ من خلق مواد السفن والارشاد إلى أخذها وكيفية تركيبها وإجرائها فى البحر بأسباب لايقدر على خلقها وجمعها وترتيبها غيره سبحانه وتعالى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا ﴾ أى على الارض التى وضعت للانام من الحيوانات والمركبات و(مَن) للتغليب؛ أو للثقلين ﴿ فَانٍ ٢٦ ﴾ هالك ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ أى ذاته عز وجل ، والمراد هو سبحانه وتعالى ، فالاضافة بيانية وحقيقة الوجه فى الشاهد الجارحة واستعماله فى الذات مجاز مرسل كاستعمال الأيدى فى الانفس ، وهو مجاز شائع ، وقيل : أصله الجهة واستعماله فى الذات من باب الكناية وتفسيره بالذات هنا مبنى على مذهب الخلف القائلين بالتأويل ، وتعيين المراد فى مثل ذلك دون مذهب السلف ، وقد قررناه لك غير مرة فتذكره وعض عليه بالنواجذ ☆

والظاهر أن الخطاب فى - ربك - للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وفيه تشريف عظيم له عليه الصلاة والسلام ، وقيل : هو للصالح له لعظم الأمر وفخامته ، وفى الآية عند المؤولين كلام كثير منه ماسمعت ، ومنه ماقيل: الوجه بمعنى القصد ويراد به المقصود ، أى ويبقى مايقصد به ربك عز وجل من الأعمال ، وحمل كلام من فسره بالعمل الصالح على ذلك وفيه مافيه ، وأقرب منه ماقيل : وجهه تعالى الجهة التى أمرنا عز وجل بالتوجه إليها والتقرب بها اليه سبحانه ، ومرجع ذلك العمل الصالح أيضاً والله جل شأنه يبقيه للعبد إلى أن يجازيه عليه ولذا وصف بالبقاء ؛ أو لأنه بالقبول صار غير قابل للفناء لما أن الجزاء عليه قام مقامه وهو باق ، ولا يخفى أن كلا القولين غير مناسب للتعليم فى (كل من عليها) وقيل: وجهه سبحانه الجهة التى يليها الحق أى يتولاها بفضله ويفيضها على الشئ من عنده أى إن ذلك باق دون الشئ فى حد ذاته فانه فان فى كل وقت، وقيل: المراد بوجهه سبحانه وجهه الممكن وهى جهة حيثية ارتباطه وانتسابه إليه تعالى ، والاضافة لأدنى ملابسة فالممكن فى حد ذاته أى اذا [illegible] مستقلا غير مرتبط بعلته أعنى الوجود الحق كان معدوماً لان ظهوره إنما نشأ من العلة ولولاها لم يك شيئاً مذكوراً ، وقول العلامة البيضاوى: لو استقريت جهات الموجودات وتفحصت وجوهها وجدتها بأسرها فانية فى حد ذاتها إلا وجه الله تعالى أى الوجه الذى يلى جهته سبحانه محمول على ذلك عند بعض المحققين وإن كان قد فسر الوجه قبل بالذات ، وللعلماء فى تقرير كلامه اختلاف ، فمنهم من يجعل قوله: لو استقريت الخ تتمة لتفسيره الأول،

ومنهم من يجعله وجها آخر ، وهو على الأول أخذ بالحاصل ، وعلى الثاني قيل : يحتمل التطبيق على كل من مذاهب فى الممكنات الموجودة ، وذلك أنها إما موجودة حقيقة بمعنى أنها متصفة بالوجود اتصافاً حقيقياً بأن يكون الوجود زائداً عليها قائما بها ، وهو مذهب جمهور الحكماء والمتكلمين، وإما موجودة مجازاً وليس لها اتصاف حقيقي بالوجود بأن يكون الوجود قائما بها بل إطلاق الموجود عليها كإطلاق الشمس على الماء ، وإليه ذهب المتألهون من الحكماء . والمحققون من الصوفية إلا أن ذوق المتألهين أن علاقة المجاز أن لها نسبة مخصوصة إلى حضرة الوجود الواجبي على وجوه مختلفة وأنحاء شتى، والطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق، فالوجود عندهم جزئي حقيقي قائم بذاته لا يتصور عروضه لشيء ولا قيامه به ومعنى كون الممكن موجوداً أنه مظهر له ومجلى ينجلى فيه نوره -فالله نور السموات والأرض- والممكنات بمنزلة المرايا المختلفة التي تنعكس اليها أشعة الشمس وينصبغ كل منها بصبغ يناسبه، ومذاق المحققين من الصوفية أن علاقة المجاز أنها بمنزلة صفات قائمة بذات الواجب سبحانه إذ ليس فى الوجود على مذاقهم ذوات متعددة بعضها واجب وبعضها ممكن بل ذات واحدة لها صفات متكثرة وشئونات متعددة وتجليات متجددة (قل الله ثم ذرهم) والمشهور أنه لا فرق بين المذاقين *

ووجه التطبيق على الأول أن يقال : المراد من الوجه الذي يلى جهته تعالى هو الوجوب بالغير إذ الممكن -وإن كان موجوداً حقيقة عند الجمهور- لكن وجوده مستفاد من الواجب بالذات ، وجهة الاستفادة ليست هي الذات ولا شيئاً آخر من الجهات والوجوه كالامكان . والمعلولية . والجوهرية . والعرضية . والبساطة . والتركيب وسائر الأمور العامة لان كلا منها جهته الخسة، ومقتضى الفطرة الإمكانية البعيدة بمراحل عن الوجوب الذاتي المنافية له ، وإنما جهة الشرف القريبة المناسبة للوجوب الذاتي جهة الوجوب بالغير فهو وجه يلى جهة الواجب ويناسبه فى كونه وجوباً وإن كان بالغير ، ولذا يعقبه فيضان الوجود ، ولذا تسمعهم يقولون : الممكن مالم يجب لم يوجد *

ووجه التطبيق على الثاني أن يقال: الوجه الذي يلى جهته تعالى هو تلك النسبة المخصوصة المصححة لإطلاق لفظ الموجود عليها ولو مجازاً. فالمعنى (كل من عليها فان) معدوم لا يصح أن يطلق لفظ الموجود عليه ولو مجازاً إلا باعتبار الوجه الذي يلى جهته تعالى أي النسبة المخصوصة إلى حضرته تعالى وهي كونه مظهراً له سبحانه ، ووجه التطبيق على الثالث أن يقال: المراد بالوجه الذي يلى جهته تعالى كونها شئونات واعتبارات له تعالى. فالمعنى (كل من عليها) معدوم من جميع الوجوه والاعتبارات إلا من الوجه الذي يلى جهته سبحانه والاعتبار الذي يحصل مقيساً إليه عز وجل، وهو كونه شأناً من شئونه واعتباراً من اعتباراته جل شأنه فتأمل مستعيناً بالله عز وجل *

﴿ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ٢٧ ﴾ أي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه ويثبتون له ما يليق بشأنه تعالى شأنه فهذا راجع إلى ماله سبحانه من التعظيم فى قلوب من عرفه عز وجل أو الذي يقال فى شأنه : ما أجلك وما أكرمك أي هو سبحانه من يستحق أن يقال فى شأنه ذلك قيل أو لم يقل فهو راجع إلى ماله تعالى من الكمال فى نفسه باعتبار قصور الإدراك عن شأوه ، أو من عنده الجلال والإكرام للموحدين فهو راجع إلى الفعل أي يجل الموحدين ويكرمهم ، وفسر بعض المحققين (الجلال) بالاستغناء المطلق (والإكرام) بالفضل التام وهذا ظاهر ، ووجه الأول بأن الجلال العظمة وهي تقتضى ترفعه تعالى عن الموجودات ويستلزم أنه سبحانه غنى عنها ، ثم ألحق بالحقيقة ، ولذا قال الجوهري : عظمة الشيء الاستغناء عن غيره وكل محتاج حقير ، وقال الكرماني:

إنه تعالى له صفات عدمية مثل (لاشريك له) وتسمى صفات الجلال لما أنها تؤدى بجَلّ عن كذا جل عن كذا وصفات وجودية - كالحياة . والعلم - وتسمى صفات الإكرام ، وفيه تأمل *

والظاهر أن (ذو) صفة للوجه ، ويتضمن الوصف بما ذكر على ماذكره البعض الإشارة إلى أن فناء (من عليها) لايخل بشأنه عز وجل لأنه الغنى المطلق ، والاشارة إلى أنه تعالى بعد فنائهم يفيض على الثقلين من آثار كرمه مايفيض وذلك يوم القيامة ، ووصف الوجه بما وصف يبعد كونه عبارة عن العمل الصالح أو الجهة على ما سمعت آنفاً وكأن من يقول بذلك يقول :(ذو) خبر مبتدا محذوف هوضمير راجع إلى الرب وهو فى الأصل صفة له ، ثم قطعت عن التبعية ، ويؤيده قراءة أبىّ . وعبد الله - ذى الجلال - بالياء على أنه صفة تابعة للرب ، وذكر الراغب أن هذا الوصف قد خص به عز وجل ولم يستعمل فى غيره ، فهو من أجلّ أوصافه سبحانه ، ويشهد له مارواه الترمذى عن أنس . والامام أحمد عن ربيعة بن عامر مرفوعاً « ألظوا بياذا الجلال والاكرام » أى الزموه واثبتوا عليه وأكثروا من قوله والتلفظ به فى دعائكم ، وروى الترمذى . وأبو داود . والنسائى عن أنس « أنه كان مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ورجل يصلى ثم دعا فقال: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والارض ذو الجلال والاكرام ياحى ياقيوم ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : لأصحابه أتدرون بما دعا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : والذى نفسى بيده لقد دعا الله باسمه الاعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى » *

﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٨ ﴾ مما يتضمنه ماذكر فان الفناء باب للبقاء ، والحياة الأبدية ، والإثابة بالنعمة السرمدية ، وقال الطيبى : المراد من الآية السابقة ملزوم معناها لأنها كناية عن مجئ وقت الجزاء وهو من أجلّ النعم ، ولذلك خص (الجلال والاكرام) بالذكر لأنهما يدلان على الإثابة والعقاب المراد منها تخويف العباد وتحذيرهم من ارتكاب ما يترتب عليه العقاب ، والتحذير من مثل ذلك نعمة ، فلذا رتب عليها بالفاء قوله تعالى: (فبأى آلاء)الخ ، وليس بذاك ﴿ يَسْـَٔلُهُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قاطبة مايحتاجون اليه فى ذواتهم حدوثاً وبقاءاً وفى سائر أحوالهم سؤالا مستمراً بلسان المقال أو بلسان الحال فانهم كافة من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل من استحقاق الوجود وما يتفرع عليه من الكمالات بالمرة بحيث لو انقطع مابينهم وبين العناية الالهية من العلاقة لم يشموا رائحة الوجود أصلا فهم فى كل آن سائلون *

وأخرج عبد بن حميد . وابن المنذر عن أبى صالح (يسأله من فى السموات) الرحمة ، ومن فى - الأرض - المغفرة والرزق ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج (يسأله) الملائكة عليهم السلام الرزق لأهل الارض والمغفرة . وأهل الأرض يسألونهما جميعاً وماتقدم أولى . ولا دليل على التخصيص *

والظاهر أن الجملة استئناف . وقيل : هى حال من - الوجه - والعامل فيها (يبقى) أى هو سبحانه دائم فى هذه الحال ، ولايخفى حاله على ذى تمييز ﴿ كُلَّ يَوْمٍ ﴾ كل وقت من الاوقات ولحظة من اللحظات *

﴿ هُوَ فِى شَأْنٍ ٢٩ ﴾ من الشئون التى من جملتها إعطاء ماسألوا فانه تعالى لايزال ينشئ أشخاصاً ، ويفنى آخرين ويأتى بأحوال ويذهب بأحوال حسبما تقتضيه مشيئته عز وجل المبنية على الحكم البالغة ، وأخرج البخارى فى تاريخه . وابن ماجه . وابن حبان . وجماعة عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ أنه قال فى هذه الآية : « من شأنه

أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين » زاد البزار « ويجيب داعياً » ، وقيل : إن الله تعالى فى كل يوم ثلاث عساكر . عسكر من الاصلاب إلى الارحام . وعسكر من الارحام إلى الدنيا . وعسكر من الدنيا إلى القبور ، والظاهر أن المراد بيان كثرة شئونه تعالى فى الدنيا فكل يوم على معنى كل وقت من أوقات الدنيا *

وقال ابن عيينة : الدهر عند الله تعالى يومان، أحدهما اليوم الذى هو مدة الدنيا فشأنه فيه الأمر والنهى والإماتة والاحياء . وثانيهما اليوم الذى هو يوم القيامة فشأنه سبحانه فيه الجزاء والحساب ، وعن مقاتل إن الآية نزلت فى اليهود قالوا : إن الله تعالى لا يقضى يوم السبت شيئاً فرد عز وجل عليهم بذلك ، وسأل عبد الله بن طاهر الحسين بن الفضل عن الجمع بين هذه الآية وما صح من أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة فقال : شئون يبديها لا شئون يبتديها ، وانتصب (كل يوم) على الظرف ، والعامل فيه هو العامل فى قوله تعالى: (فى شأن)، و(هو) ثابت المحذوف: فكأنه قيل هو ثابت فى شأن كل يوم ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٠ ﴾ مما يسعف به سؤالكما وما يخرج لكما بيديه من مكمن العدم حيناً فحيناً ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ الفراغ فى اللغة يقتضى سابقة شغل والفراغ للشئ يقتضى لاحقيته أيضاً ، والله سبحانه لا يشغله شأن عن شأن فجعل انتهاء الشئون المشار اليها بقوله تعالى :(كل يوم هو فى شأن) يوم القيامة إلى واحد هو جزاء المكلفين فراغاً لهم على سبيل التمثيل لأن من ترك أشغاله إلى شغل واحد يقال : فرغ له واليه فشبه حال هؤلاء - وأخذه تعالى فى جزائهم فحسب - بحال من فرغ له ، وجازت الاستعارة التصريحية التبعية فى (سنفرغ) بأن يكون المراد سنأخذ فى جزائكم فقط الاشتراك الاخذ فى الجزاء فقط ، والفراغ عن جميع المهام إلى واحد فى أن المعنى به ذلك الواحد ، وقيل :المراد التوفر فى الانتقام والنكاية ، وذلك أن الفراغ للشئ يستعمل فى التهديد كثيراً كأنه فرغ عن كل شئ لأجله فلم يبق له شغل غيره فيدل على التوفر المذكور ، وهو كناية فيمن يصح عليه ، ومجاز فى غيره كالذى نحن فيه ، ولعل مراد ابن عباس . والضحاك بقولهما - كما أخرج ابن جرير عنهما - هذا وعيد من الله تعالى لعباده ماذكر ، والخطاب عليه قيل : للمجرمين ، وتعقب بأن النداء الآتى يأباه ، نعم المقصود بالتهديد هم ، وقيل : لامانع من تهديد الجميع ، ثم إن هذا التهديد إنما هو بما يكون يوم القيامة ، وقول ابن عطية : يحتمل أن يكون ذلك توعداً بعذاب الدنيا مما لا يكاد يلتفت اليه ، وقيل : إن فرغ يكون بمعنى قصد ، واستدل عليه بما أنشده ابن الانبارى لجرير :

ألان وقد (فرغت) إلى نمير فهذا حين كنت لهم عذاباً

أى قصدت ، وأنشد النحاس ، فرغت إلى العبد المقيد فى الحجل * وفى الحديث « لأتفرغن لك ياخبيث » قاله صلى الله تعالى عليه وسلم مخاطباً به أزب العقبة يوم بيعتها أى لأقصدن إبطال أمرك ، ونقل هذا عن الخليل . والكسائى . والفراء ، والظاهر أنهم حملوا مافى الآية على ذلك ، فالمراد حينئذ تعلق الارادة تعلقاً تنجيزيا بجزائهم ، وقرأ حمزة . والكسائى . وأبو حيوة . وزيد بن على - سيفرغ - بياء الغيبة ، وقرأ قتادة . والاعرج (سنفرغ) بنون العظمة . وفتح الراء مضارع فرغ بكسرها - وهو لغة تميم - كما أن (سنفرغ) فى قراءة الجمهور مضارع فرغ بفتحها لغة الحجاز ، وقرأ أبو السمال . وعيسى (سنفرغ) بكسر النون وفتح الراء وهى - على ماقال أبو حاتم - لغة سفلى مضر ، وقرأ الأعمش . وأبو حيوة بخلاف عنهما . وابن أبى عبلة . والزعفرانى

- سيفرغ - بضم الياء وفتح الراء مبنياً للمفعول ؛ وقرأ عيسى أيضاً (سنفرغ) بفتح النون وكسر الراء ، والاعرج أيضاً - سيفرغ - بفتح الياء والراء وهى لغة ، وقرئ سأفرغ بهمزة المتكلم وحده، وقرأ أبى (سنفرغ) إليكم عداه بإلى فقيل: للحمل على القصد، أو لتضمينه معناه أى (سنفرغ) قاصدين إليكم ﴿ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ٣١ ﴾ هما الانس والجن من ثقل الدابة وهو مايحمل عليها جعلت الارض كالحمولة والانس والجن ثقلاها، وماسواهما على هذا كالعلاوة، وقال غير واحد: سميا بذلك لثقلهما على الارض ، أو لرزانة رأيهما وقدرهما وعظم شأنهما . ويقال لكل عظيم القدر مما يتنافس فيه : ثقل ، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى» وقيل: سميا بذلك لأنهما مثقلان بالتكليف ، وعن الحسن لثقلهما بالذنوب ﴿ فَبِأَىِّ ءالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٢ ﴾ التى من جملتها التنبيه على ماستلقونه يوم القيامة للتحذير عما يؤدى إلى سوء الحساب ﴿ يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ هما الثقلان خوطبا باسم جنسهما لزيادة التقرير ولأن الجن مشهورون بالقدرة على الأفاعيل الشاقة فخوطبوا بما ينبيء عن ذلك لبيان أن قدرتهم لاتفى بما كلفوه وكأنه لما ذكر سبحانه أنه مجاز للعباد لامحالة عقب عز وجل ذلك ببيان أنهم لايقدرون على الخلاص من جزائه وعقابه إذا أراده فقال سبحانه : (يامعشر الجن والانس) ﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ ﴾ إن قدرتم ، وأصل الاستطاعة طلب طواعية الفعل وتأتيه *

﴿ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أن تخرجوا من جوانب السموات والارض هاربين من الله تعالى فارين من قضائه سبحانه ﴿ فَانفُذُوا ﴾ فاخرجوا منها وخلصوا أنفسكم من عقابه عز وجل، والأمر للتعجيز ﴿ لَا تَنفُذُونَ ﴾ لاتقدرون على النفوذ ﴿ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ٣٣ ﴾ أى بقوة وقهر وأنتم عن ذلك بمعزل وألف ألف منزل، روى أن الملائكة عليهم السلام ينزلون يوم القيامة فيحيطون بجميع الخلائق فاذا رآهم الجن والانس هربوا فلا يأتون وجهاً إلا وجدوا الملائكة أحاطت به، وقيل: هذا أمر يكون فى الدنيا ، قال الضحاك : بينما الناس فى أسواقهم انفتحت السماء ونزلت الملائكة فتهرب الجن والانس فتحدق بهم الملائكة وذلك قبيل قيام الساعة، وقيل: المراد إن استطعتم الفرار من الموت ففروا، وقيل: المعنى إن قدرتم أن تنفذوا لتعلموا بما فى السموات والارض فانفذوا لتعلموا لكن (لاتنفذون) ولا تعلمون إلا ببينة وحجة نصبها الله تعالى فتعرجون عليها بأفكاركم ، وروى مايقاربه عن ابن عباس والأنسب بالمقام لايخفى *

وقرأ زيد بن على إن استطعتما رعاية للنوعين وإن كان تحت كل أفراد كثيرة والجمع لرعاية تلك الكثرة وقد جاء كل فى الفصيح نحو قوله تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما)

﴿ فَبِأَىِّ ءالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٤ ﴾ أى من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة على العقوبة، وقيل : على الوجه الأخير فيما تقدم أى مما نصب سبحانه من المصاعد العقلية والمعارج النقلية فتنفذون بها إلى مافوق السموات العلا * ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ استئناف فى جواب سؤال مقدر عن الداعى للفرار أو عما يصيبهم أى يصب عليكما ﴿ شُوَاظٌ ﴾ هو اللهب الخالص كما روى عن ابن عباس ، وأنشد عليه أبو حيان قول حسان:

هجوتك فاختضعت لنا بذل بقافية تأجج (كالشواظ)

وقيل: اللهب المختلط بالدخان، وقال مجاهد: اللهب الأحمر المنقطع، وقيل: اللهب الاخضر، وقال الضحاك: الدخان الذى يخرج من اللهب، وقيل: هو النار والدخان جميعاً، وقرأ عيسى. وابن كثير. وشبل (شواظ) بكسر الشين ﴿ مِّن نَّارٍ ﴾ متعلق - بيرسل - أو بمضمر هو صفة - لشواظ - و(من) ابتدائية أى كائن من نار والتنوين للتفخيم ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ هو الدخان الذى لا لهب فيه كما قاله ابن عباس لنافع بن الازرق وأنشده له قول الأعشى، أو النابغة الجعدى:

تضئ كضوء السراج السليـ ط لم يجعل الله فيه (نحاسا)

وروى عنه أيضا، وعن مجاهد أنه الصفر المعروف أى يصب على رءوسكما صفر مذاب، والراغب فسره باللهب بلا دخان ثم قال: وذلك لشبهه فى اللون بالنحاس، وقرأ ابن أبى إسحق. والنخعى. وابن كثير. وأبو عمرو (ونحاس) بالجر على أنه عطف على نار، وقيل: على (شواظ) وجر للجوار فلا تغفل *

وقرأ الكلبى. وطلحة. ومجاهد بالجر أيضاً لكنهم كسروا النون وهو لغة فيه، وقرأ ابن جبير - ونحس - كما تقول يوم نحس، وقرأ عبد الرحمن بن أبى بكرة. وابن أبى إسحق أيضا - ونحس - مضارعا، وماضيه حسه أى قتله أى ونقتل بالعذاب، وعن ابن أبى إسحق أيضا - ونحس - بالحركات الثلاث فى الحاء على التخيير. وحنظلة ابن عثمان - ونحس - بفتح النون وكسر السين، والحسن. وإسمعيل - ونحس - بضمتين والكسر، وهو جمع - نحاس - كلحاف ولحف، وقرأ زيد بن على - نرسل - بالنون - شواظا - بالنصب - ونحاسا - كذلك عطفاً على شواظا ﴿ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥ ﴾ فلا تمتنعان وهذا عند الضحاك فى الدنيا أيضاً *

أخرج ابن أبى شيبة عنه أنه قال فى الآية: تخرج نار من قبل المغرب تحشر الناس حتى إنها لتحشر القردة والخنازير تبيت معهم حيث باتوا وتقيل حيث قالوا، وقال فى البحر: المراد تعجيز الجن والانس أى أنتما بحال من يرسل عليه هذا فلا يقدر على الامتناع مما يرسل عليه ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٦ ﴾ فان التهديد لطف والتميز بين المطيع والعاصى بالجزاء والانتقام من الكفار من عداد الآلاء ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ أى انصدعت يوم القيامة، وحديث امتناع الخرق حديث خرافة، ومثله ما يقوله أهل الهيئة اليوم فى السماء على أن الانشقاق فيها على زعمهم أيضا متصور ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ أى كالوردة فى الحمرة، والمراد بها النور المعروف قاله الزجاج. وقتادة، وقال ابن عباس. وأبو صالح: كانت مثل لون الفرس الورد، والظاهر أن مرادهما كانت حمراء *

وقال الفراء: أريد لون الفرس الورد يكون فى الربيع إلى الصفرة، وفى الشتاء إلى الحمرة، وفى اشتداد البرد إلى الغبرة فشبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل، وروى هذا عن الكلبى أيضا، وقال أبو الجوزاء: (وردة) صفراء والمعول عليه إرادة الحمرة، ونصب (وردة) على أنه خبر - كان -، وفى الكلام تشبيه بليغ، وقرأ عبيد بن عمير (وردة) بالرفع على أن - كان - تامة أى فحصلت سماء وردة فيكون من باب التجريد لانه بمعنى كانت منها، أو فيها سماء وردة مع أن المقصود أنها نفسها كذلك فهو كقول قتادة بن مسلمة:

فلئن بقيت لأرحلن بغزوة نحو المغانم أو يموت كريم

حيث عنى بالكريم نفسه، وقوله تعالى: ﴿ كَٱلدِّهَانِ ٣٧ ﴾ خبر ثان لكانت - أو نعت - لوردة - أو حال

من اسم - كانت - على رأى من أجازه أى كدهن الزيت كما قال تعالى : (كالمهل) وهو دردى الزيت ، وهو إما جمع دهن كقرط وقراط ، أواسم لما يدهن به كالحزام والادام ، وعليه قوله فى وصف عينين كثيرتى التذارف:

كأنهما مزادتا متعجل فريان لما تدهنا (بدهان)

وهو الدهن أيضا إلا أنه أخص لأنه الدهن باعتبار إشرابه الشئ، ووجه الشبه الذوبان وهو فى السماء على ما قيل من حرارة جهنم وكذا الحمرة ، وقيل : اللمعان ، وقال الحسن: أى كالدهان المختلفة لانها تتلون ألوانا ، وقال ابن عباس: الدهان الأديم الاحمر ، ومنه قول الاعشى :

وأجرد من كرام الخيل طرف كأن على شواكله (دهانا)

وهو مفرد ، أو جمع ، واستدل للثانى بقوله :

تبعن (الدهان) الحمر كل عشية بموسم بدر أو بسوق عكاظ

وإذا شرطية جوابها مقدر أى كان ماكان مما لاتطيقه قوة البيان، أووجدت أمراً هائلا، أورأيت مايذهل الناظرين وهو الناصب لإذا ، ولهذا كان مفرعاً ومسبباً عما قبله لأن فى إرسال الشواظ ماهو سبب لحدوث أمر هائل ، أورؤيته فى ذلك الوقت ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٨ ﴾ فان الاخبار بنحو ماذكر مما يزجر عن الشر فهو لطف أىّ لطف ونعمة أىّ نعمة ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم إذ تنشق السماء حسبما ذكر ﴿ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ٣٩ ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم وهذا فى موقف ، وما دل على السؤال من نحو قوله تعالى : (فوربك لنسألنهم أجمعين) فى موقف آخر قاله عكرمة. وقتادة، وموقف السؤال على ماقيل : عند الحساب ، وترك السؤال عند الخروج من القبور ، وقال ابن عباس: حيث ذكر السؤال فهو سؤال توبيخ وتقرير ، وحيث نفى فهو استخبار محض عن الذنب ، وقيل: المنفى هو السؤال عن الذنب نفسه والمثبت هو السؤال عن الباعث عليه ، وأنت تعلم أن فى الآيات مايدل على السؤال عن نفس الذنب *

وحكى الطبرسى عن الرضا رضى الله تعالى عنه أن من اعتقد الحق ثم أذنب ولم يتب عذب فى البرزخ ويخرج يوم القيامة وليس له ذنب يسأل عنه ، ولعمرى إن الرضا لم يقل ذلك ، وحمل الآية عليه مما لا يلتفت إليه بعين الرضا كما لا يخفى ، وضمير ذنبه للانس وهو متقدم رتبة لأنه نائب عن الفاعل ، وإفراده باعتبار اللفظ، وقيل: لما أن المراد فرد من الانس كأنه قيل: لا يسأل عن ذنبه إنسى ولا جنى، وقرأ الحسن. وعمرو بن عبيد - ولا جأن - بالهمز فراراً من التقاء الساكنين وإن كان على حده ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٠ ﴾ يقال فيه نحو ماسمعت فى سابقه ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ ﴾ استئناف يجرى مجرى التعليل لانتفاء السؤال، و(المجرمون) قيل: من وضع الظاهر موضع الضمير للاشارة إلى أن المراد بعض من الانس وبعض من الجن وهم المجرمون فيكون ذلك كقوله تعالى : (لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) ، و - سيماهم - على ماروى عن الحسن سواد الوجوه وزرقة العيون، وقيل : مايعلوهم من الكآبة والحزن ، وجوز أن تكون أموراً أخر - كالعمى . والبكم . والصمم - *

وقرأ حماد بن سليمان بسيمائهم ﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى ﴾ جمع ناصية وهى مقدم الرأس ﴿ وَٱلْأَقْدَامِ ٤١ ﴾ جمع قدم وهى قدم الرجل المعروفة والباء للآلة مثلها فى أخذت بخطام الدابة ، والجار والمجرور نائب الفاعل،

وقال أبوحيان: إن الباء للتعدية والفعل مضمن معنى مايعدى بها أى فيسحب بالنواصى الخ، وفيه بحث. وظاهر كلام غير واحد أن ـ أل ـ عوض عن المضاف إليه الضمير أى بنواصيهم وأقدامهم، ونص عليه أبو حيان فقال: ـ أل ـ فيهما عوض عن الضمير على مذهب الكوفيين، والضمير محذوف على مذهب البصريين أى بالنواصى والاقدام منهم، وأنت تعلم أن الخلاف بين أهل البلدين فيما إذا احتيج إلى الضمير الربط ولا احتياج إليه هنا ، نعم المعنى على الضمير وكيفية هذا الأخذ على ماروى عن الضحاك أن يجمع الملك بين ناصية أحدهم وقدميه فى سلسلة من وراء ظهره ثم يكسر ظهره ويلقيه فى النار، وقيل: تأخذ الملائكة عليهم السلام بعضهم سحباً بالناصية وبعضهم سحباً بالقدم ، وقيل: تسحبهم الملائكة عليهم السلام تارة بأخذ النواصى وتارة بأخذ الأقدام، فالواو بمعنى أو التى للتقسيم وهو خلاف الظاهر ، وإبهام الفاعل لانه كالمتعين ، وقيل: للرمز إلى عظمته فقد أخرج ابن مردويه والضياء المقدسى فى صفة النار عن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : «والذى نفسى بيده لقد خلقت ملائكة جهنم قبل أن تخلق جهنم بألف عام فهم كل يوم يزدادون قوة إلى قوتهم حتى يقبضوا على من قبضوا بالنواصى والاقدام» ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يقال فيه نحو ما تقدم ، وقوله تعالى :

﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ مقول قول مقدر معطوف على قوله تعالى : (يؤخذ) الخ أى ويقال هذه الخ . أو مستأنف فى جواب ماذا يقال لهم لأنه مظنة للتوبيخ والتقريع ، أوحال من أصحاب النواصى بناءاً على أن التقدير نواصيهم أو النواصى منهم ، ومافى البين اعتراض على الأول والاخير وكان أصل (التى يكذب بها المجرمون) التى كذبتم بها فعدل عنه لماذكر للدلالة على استمرار ذلك وبيان لوجه توبيخهم وعلته *

﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا ﴾ أى يترددون بين نارها ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ ﴾ ماء حار ﴿ ءَانٍ ٤٤ ﴾ متناه إناه وطبخه بالغ فى الحرارة أقصاها ، قال قتادة : الحميم يغلى منذ خلق الله تعالى جهنم والمجرم ويعاقب بين تصلية النار وشرب الحميم، وقيل: يحرقون فى النار ويصب على رءوسهم الحميم، وقيل: إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم، وقيل: يغمسون فى واد فى جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فتنخلع أوصالهم ثم يخرجون منه وقد أحدث الله تعالى لهم خلقا جديداً ، وعن الحسن أنه قال: (حميم آن) النحاس انتهى حره ، وقيل: (آن) حاضر *

وقرأ السلمى يطافون ، والاعمش . وطلحة . وابن مقسم (يطوفون) بضم الياء وفتح الطاء وكسر الواو مشددة ، وقرئ (يطوفون) أى يتطوفون ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٥ ﴾ هو أيضا كما تقدم

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ الخ شروع فى تعديد الآلاء التى تفاض فى الآخرة ، و (مقام) مصدر ميمى بمعنى القيام مضاف إلى الفاعل أى (ولمن خاف) قيام ربه وكونه مهيمنا عليه مراقباً له حافظاً لأحواله ، فالقيام هنا مثله فى قوله تعالى : (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) وهذا مروى عن مجاهد . وقتادة ، أو هو اسم مكان ، والمراد به مكان وقوف الخلق فى يوم القيامة للحساب ، والاضافة اليه تعالى لامية اختصاصية لان الملك له عز وجل وحده فيه بحسب نفس الامر ، والظاهر والخلق قائمون له كما قال سبحانه: (يقوم الناس لرب العالمين) منتظرون مايحل عليهم من قبله جل شأنه ، وزعم بعضهم أن الاضافة على هذا الوجه لادنى ملابسة وليس بشىء ، وقيل: المعنى (ولمن خاف) مقامه عند ربه على أن المقام مصدر أو اسم مكان وهو للخائف نفسه، وإضافته

للرب لانه عنده تعالى فهى مثلها فى قولهم :شاة رقود الحلب ، وهى بمعنى - عند - عند الكوفيين أى رقود عند الحلب، وبمعنى اللام عند الجمهور كما صرح به شراح التسهيل وليست لأدنى ملابسة كما زعم أيضا ، ثم إن المراد بالعندية هنا مما لايخفى ، وجوز أن يكون مقحما على سبيل الكناية ، فالمراد ولمن خاف ربه لكن بطريق برهانى بليغ، ومثله قول الشماخ :

ذعرت به القطا ونفيت عنه (مقام الذئب) كالرجل اللعين(١)

وهو الاظهر على ماذكره صاحب الكشف ، والظاهر أن المراد ولكل فرد فرد من الخائفين:

﴿ جَنَّتَانِ ٤٦ ﴾ فقيل :إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه له ، والأخرى منزل أزواجه وخدمه ، واليه ذهب الجبائى ، وقيل : بستانان بستان داخل قصره وبستان خارجه ، وقيل : منزلان ينتقل من أحدهما إلى الآخر لتتوفر دواعى لذته وتظهر ثمار كرامته ، وأين هذا ممن يطوف بين النار ، وبين حميم آن ؟ ؟ *

وجوز أن يقال : جنة لعقيدته وجنة لعمله ،أوجنة لفعل الطاعات وجنة لترك المعاصى ، أو جنة يثاب بها وأخرى يتفضل بها عليه، أو إحداهما روحانية والاخرى جسمانية، ولايخفى أن الصفات الآتية ظاهرة فى الجسمانية *

وقال مقاتل : جنة عدن وجنة نعيم ، وقيل : المراد لكل خائفين منكما جنتان جنة للخائف الإنسى وجنة للخائف الجنى، فان الخطاب للفريقين، وهذا عندى خلاف الظاهر، وفى الآثار ما يبعده، فقد أخرج البيهقى فى شعب الايمان عن الحسن أنه كان شاب على عهد رضى الله تعالى عنه ملازم للسجد والعبادة فعشقته جارية فأتته فى خلوة فكلمته فحدثته نفسه بذلك فشهق شهقة فغشى عليه فجاء عم له فحمله إلى بيته فلما أفاق قال : ياعم انطلق إلى عمر فاقرئه منى السلام وقل له ماجزاء من خاف مقام ربه؟ فانطلق فأخبر عمر وقد شهق الفتى شهقة أخرى فمات فوقف عليه عمر رضى الله تعالى عنه فقال : لك جنتان لك جنتان *

والخوف فى الاصل توقع مكروه عند أمارة مظنونة أو معلومة ويضاده الأمن قال الراغب : والخوف من الله تعالى لايراد به مايخطر بالبال من الرعب كاستشعار الخوف من الأسد بل إنما يراد به الكف عن المعاصى وتحرى الطاعات ، ولذلك قيل : لايعد خائفاً من لم يكن للذنوب تاركا ، ويؤيد هذا تفسير ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الخائف هنا كما أخرج ابن جرير عنه بمن ركب طاعة الله تعالى وترك معصيته *

وقول مجاهد : هو الرجل يريد الذنب فيذكر الله تعالى فيدع الذنب، والذى يظهر أن ذلك تفسير باللازم ، وقد يقال : إن ارتكاب الذنب قد يجامع الخوف من الله تعالى وذلك كما إذا غلبته نفسه ففعله خائفاً من عقابه تعالى عليه ، وأيد ذلك بما أخرجه أحمد . والنسائى. والطبرانى . والحكيم الترمذى فى نوادر الاصول .وابن أبى شيبة . وجماعة عن أبى الدرداء « أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قرأ هذه الآية (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فقلت : وإن زنى وإن سرق يارسول الله ؟ فقال النبى عليه الصلاة والسلام : الثانية (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ فقال الثالثة : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فقلت : وإن زنى وإن سرق؟ قال : نعم وَإنّ رغم أنف أبى الدرداء » وأخرج الطبرانى. وابن مردويه من طريق الجريرى عن أخيه قال : سمعت محمد بن سعد يقرأ - ولمن خاف مقام ربه جنتان وإن زنى وإن سرق - فقلت : ليس فيه وإن زنى وإن سرق

---

(١) ضمير (به) و(عنه) راجع الى الماء فى البيت قبله * وماء قد وردت لوصل أروى * عليه الطير كالورق اللجين * وهو من قصيدة للشماخ مدح بها عرابة بن أوس الخزرجى . والشاهد فى قوله: (مقام الذئب) *

فقال : سمعت أبا الدرداء رضى الله تعالى عنه يقرؤها كذلك فأنا أقرؤها كذلك حتى أموت، وصرح بعضهم أن المراد بالخوف فى الآية أشده فتأمل . وجاء فى شأن هاتين الجنتين من حديث عياض بن غنم مرفوعاً « إن عرض كل واحدة منهما مسيرة مائة عام » والآية على ماروى عن ابن الزبير . وابن شوذب نزلت فى أبى بكر *

وأخرج ابن أبى حاتم . وأبو الشيخ فى العظمة عن عطاء أن أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ذكر ذات يوم وفكر فى القيامة . والموازين . والجنة . والنار . وصفوف الملائكة . وطى السموات . ونسف الجبال وتكوير الشمس. وانتثار الكواكب فقال: وددت أنى كنت خضراً من هذه الخضر تأتى على بهيمة فتأكلنى وأنى لم أخلق فنزلت (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٧ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ٤٨ ﴾ صفة لجنتان وما بينهما اعتراض وسط بينهما تنبيها على أن تكذيب كل من الموصوف والصفة موجب للانكار والتوبيخ ، وجوز أن يكون خبر مبتدأ مقدر أى هما ذواتا ، وأياً ما كان فهو تثنية - ذات - بمعنى صاحبة فانه إذا ثنى فيه لغتان ذاتا على لفظه وهو الأقيس كما يثنى مذكره ذوا ، والاخرى (ذواتا) برده إلى أصله فان التثنية ترد الأشياء إلى أصولها ، وقد قالوا: أصل ذات ذوات لكن حذفت الواو تخفيفاً ، وفرقا بين الواحد والجمع ودلت التثنية ورجوع الواو فيها على أصل الواحد وليس هو تثنية الجمع كما يتوهم وتفصيله فى باب التثنية من شرح التسهيل، والأفنان إما جمع فن بمعنى النوع ولذا استعمل فى العرف بمعنى العلم أى ذواتا أنواع من الاشجار والثمار ، وروى ذلك عن ابن عباس . وابن جبير . والضحاك ، وعليه قول الشاعر :

ومن كل (أفنان) اللذاذة والصبا لهوت به والعيش أخضر ناضر

وإما جمع فنن وهو مادق ولان من الأغصان كما قال ابن الجوزى ، وقد يفسر بالغصن ، وحمل على التسامح وتخصيصها بالذكر مع أنها ذوات اقصب وأوراق وثمار أيضا لانها هى التى تورق وتثمر . فمنها تمتد الظلال . ومنها تجنى الثمار ففى الوصف تذكير لهما فكأنه قيل : (ذواتا) ثمار وظلال لكن على سبيل الكناية وهى أخصر وأبلغ ، وتفسيره بالأغصان على أنه جمع فنن مروى عن ابن عباس أيضا ، وأخرجه ابن جرير عن مجاهد قال أبو حيان : وهو أولى لأن أفعالا فى فعل أكثر منه فى فعل بسكون العين كفن ، ويجمع هو على فنون *

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٩ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ٥٠ ﴾ صفة أخرى لجنتان أو خبر ثان للمبتدا المقدر أى فى كل منهما عين تجرى بالماء الزلال تسمى إحدى العينين بالتسنيم ، والأخرى بالسلسبيل ، وروى هذا عن الحسن ، وقال عطية العوفى : (عينان) إحداهما من ماء غير آسن ، والاخرى من خمر لذة للشاربين ، وقيل : (عينان) من الماء (تجريان) حيث شاء صاحبهما من الاعالى والاسافل من جبل من مسك ، وعن ابن عباس (عينان) مثل الدنيا أضعافا مضاعفة (تجريان) بالزيادة والكرامة على أهل الجنة *

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥١ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ٥٢ ﴾ صنفان معروف وغريب لم يعرفوه فى الدنيا ، أو رطب ويابس ولا يقصر يابسه عن رطبه فى الفضل والطيب ، وأخرج عبد بن حميد . وابن المنذر . وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : قال ابن عباس فى هذه الآية : مافى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة حتى الحنظل ، ونقل هذا فى البحر عن ابن عباس أيضاً بزيادة إلا أنه حلو ، والجملة كالجملة التى قبلها *

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٣ مُتَّكِـِٔينَ ﴾ حال من قوله تعالى : - ولمن خاف - وجمع رعاية للمعنى بعد الافراد

رعاية للفظ ، وقيل : العامل محذوف أى يتنعمون متكئين ، وقيل : مفعول به بتقدير أعنى ، والاتكاء من صفات المتنعم الدالة على صحة الجسم وفراغ القلب ، والمعنى متكئين فى منازلهم ﴿ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ من ديباج ثخين قال ابن مسعود - كما رواه عنه جمع . وصححه الحاكم - أخبرتم بالبطائن فكيف بالظهائر ، وقيل : ظهائرها من سندس ، وعن ابن جبير من نور جامد ، وفى حديث من نور يتلألأ وهو إن صح وقف عنده *

وأخرج ابن جرير . وغيره عن ابن عباس أنه قيل له : (بطائنها من إستبرق) فماذا الظواهر ؟ قال : ذلك مما قال الله تعالى : (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين) وقال الحسن : البطائن هى الظهائر وروى عن قتادة ، وقال الفراء : قد تكون البطانة الظهارة والظهارة البطانة لان كلامنهما يكون وجهاً والعرب تقول : هذا ظهر السماء وهذا بطن السماء ، والحق أن البطائن هنا مقابل الظهائر على الوجه المعروف ، وقرأ أبو حيوة (فرش) بسكون الراء ، وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال : قرأ عبد الله على (سرر . وفرش بطائنها من إستبرق) ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ ﴾ أى مايجنى ويؤخذ من أشجارهما من الثمار ، فجنى اسم أو صفة مشبهة بمعنى المجنى ﴿ دَانٍ ٥٤ ﴾ قريب يناله القائم . والقاعد . والمضطجع، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولى الله تعالى إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً وإن شاء مضطجعاً ، وعن مجاهد ثمار الجنتين دانية إلى أفواه أربابها فيتناولونها متكئين فاذا اضطجعوا نزلت بإزاء أفواههم فيتناولونها مضطجعين لايرد أيديهم عنها بعد ولا شوك ، وقرأ عيسى (وجنى) بفتح الجيم وكسر النون كأنه أمال النون وإن كانت الألف قد حذفت فى اللفظ كما أمال أبو عمرو (حتى نرى الله جهرة) وقرئ (وجنى) بكسر الجيم وهو لغة فيه *

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٥ فِيهِنَّ ﴾ أى الجنان المدلول عليها بقوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فانه يلزم من أنه لكل خائف جنتان تعدد الجنان ، وكذا على تقدير أن يكون المراد لكل خائفين من الثقلين جنتان لاسيما وقد تقدم اعتبار الجمعية فى قوله تعالى : (متكئين) وقال الفراء : الضمير لجنتان ، والعرب توقع ضمير الجمع على المثنى ولا حاجة اليه بعد ماسمعت ، وقيل : الضمير للبيوت والقصور المفهومة من الجنتين أو للجنتين باعتبار مافيهما مما ذكر ، وقيل : يعود على الفرش ، قال أبو حيان : وهذا قول حسن قريب المأخذ ، وتعقب بأن المناسب للفرش - على - ، وأجيب بأنه شبه تمكنهن على الفرش بتمكن المظروف فى الظرف وإيثاره للاشعار بأن أكثر حالهن الاستقرار عليها ، ويجوز أن يقال : الظرفية للاشارة إلى أن الفرش إذا جلس عليها ينزل مكان الجالس منها ويرتفع ماأحاط به حتى يكاد يغيب فيها كما يشاهد فى فرش الملوك المترفهين التى حشوها ريش النعام ونحوه ، وقيل : الضمير للآلاء المعدودة من - الجنتين . والعينين . والفاكهة والفرش . والجنى والمراد معهن ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أى نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن لاينظرن إلى غيرهم ، أو يقصرن طرف الناظر اليهن عن التجاوز إلى غيرهن ، قال ابن رشيق فى قول امرىء القيس :

من (القاصرات الطرف) لو (دب محول من الذر فوق الانف منها لأثرا)

أراد بالقاصرات الطرف أنها منكسرة الجفن خافضة النظر غير متطلعة لما بعد ولا ناظرة لغير زوجها ، ويجوز أن يكون معناه أن طرف الناظر لايتجاوزها كقول المتنبي :

وخصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقاً

انتهى فلا تغفل، والأكثرون على أول المعنيين اللذين ذكرناهما بل فى بعض الأخبار ما يدل على أنه تفسير نبوى * أخرج ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال فى ذلك « لا ينظرن إلا إلى أزواجهن » ومتى صح هذا ينبغى قصر الطرف عليه ، وفى بعض الآثار تقول الواحدة منهن لزوجها : وعزة ربى ما أرى فى الجنة أحسن منك فالحمد لله الذى جعلنى زوجك وجعلك زوجى، و(الطرف) فى الأصل مصدر فلذلك وحد ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ٥٦ ﴾ قال ابن عباس: لم يفتضهن قبل أزواجهن إنس ولا جان ، وفيه إشارة إلى أن ضمير قبلهن للازواج ، ويدل عليه (قاصرات الطرف) وفى البحر هو عائد على من عاد عليه الضمير فى (متكئين) ، وأصل الطمث خروج الدم ولذلك يقال للحيض طمث ، ثم أطلق على جماع الابكار لما فيه من خروج الدم ، وقيل : ثم عمم لكل جماع ، وهو المروى هنا عن عكرمة ، وإلى الأول ذهب الكثير ، وقيل : إن التعبير به للاشارة إلى أنهن يوجدن أبكاراً كلما جومعن ، ونفى طمثهن عن الانس ظاهر ، وأما عن الجن فقال مجاهد . والحسن: قد تجامع الجن نساء البشر مع أزواجهن إذا لم يذكر الزوج اسم الله تعالى فنفى هنا جميع المجامعين وقيل: لا حاجة إلى ذلك إذ يكفى فى نفى الطمث عن الجن إمكانه منهم ، ولا شك فى إمكان جماع الجنى إنسية بدون أن يكون مع زوجها الغير الذاكر اسم الله تعالى ، ويدل على ذلك ما رواه أبو عثمان سعيد بن داود الزبيدى قال: كتب قوم من أهل اليمن إلى مالك يسألونه عن نكاح الجن وقالوا : إن ههنا رجلا من الجن يزعم أنه يريد الحلال فقال ما أرى بذلك بأساً فى الدين ولكن أكره إذا وجدت امرأة حامل قيل: من زوجك ؟ قالت: من الجن فيكثر الفساد فى الاسلام، ثم إن دعوى أن الجن تجامع نساء البشر جماعاً حقيقياً مع أزواجهن إذا لم يذكروا اسم الله تعالى غير مسلمة عند جميع العلماء ، وقوله تعالى: (وشاركهم فى الأموال والأولاد) غير نص فى المراد كما لا يخفى ، وقال ضمرة بن حبيب: الجن فى الجنة لهم قاصرات الطرف من الجن نوعهم ، فالمعنى لم يطمث الانسيات أحد من الانس ، ولا الجنيات أحد من الجن قبل أزواجهن ، وقد أخرج نحو هذا عنه ابن أبى حاتم ، وظاهره أن ما للجن لسن من الحور *

ونقل الطبرسى عنه أنهن من الحور وكذا الانسيات ، ولا مانع من أن يخلق الله تعالى فى الجنة حوراً للانس يشا كلنهم يقال لهن لذلك إنسيات، وحوراً للجن يشا كلنهم يقال لهن لذلك جنيات، ويجوز أن تكون الحور كلهن نوعاً واحداً ويعطى الجنى منهن لكنه فى تلك النشأة غيره فى هذه النشأة، ويقال: ما يعطاه الانسى منهن لم يطمثها إنسى قبله، وما يعطاه الجنى لم يطمثها جنى قبله وبهذا فسر البلخى الآية ، وقال الشعبى . والكلبى: تلك القاصرات الطرف من نساء الدنيا لم يمسسهن منذ أنشئن النشأة الآخرة خلق قبل ، والذى يعطاه الإنسى زوجته المؤمنة التى كانت له فى الدنيا ويعطى غيرها من نسائها المؤمنات أيضاً. وكذا الجنى يعطى زوجته المؤمنة التى كانت له فى الدنيا من الجن ويعطى غيرها من نساء الجن المؤمنات أيضاً ، ويبعد أن يعطى الجنى من نساء الدنيا الإنسانيات فى الآخرة *

والذى يغلب على الظن أن الانسى يعطى من الانسيات والحور والجنى يعطى من الجنيات والحور ولا يعطى إنسى جنية ، ولا جنى إنسية وما يعطاه المؤمن إنسياً كان أو جنياً من الحور شئ يليق به وتشتهيه نفسه، وحقيقة تلك النشأة وراء ما يخطر بالبال، واستدل بالآية على أن الجن يدخلون الجن ويجامعون فيها كالانس فهم باقون فيها منعمين كبقاء المعذبين منهم فى النار ، وهو مقتضى ظاهر ما ذهب اليه أبو يوسف . ومحمد . وابن أبى ليلى .

والاوزاعي . وعليه الأكثر ـ كما ذكره العيني في شرح البخاري ـ من أنهم يثابون على الطاعة ويعاقبون على المعصية، ويدخلون الجنة فان ظاهره أنهم كالانس يوم القيامة، وعن الامام أبي حنيفة ثلاث روايات الاولى أنهم لا ثواب لهم إلا النجاة من النار ثم يقال لهم كونوا ترابا كسائر الحيوانات ، الثانية أنهم من أهل الجنة ولا ثواب لهم أي زائد على دخولها، الثالثة التوقف قال الكردري: وهو في أكثر الروايات، وفي فتاوى أبي إسحق بن الصفار أن الامام يقول: لا يكونون في الجنة ولا في النار ولكن في معلوم الله تعالى *

ونقل عن مالك وطائفة أنهم يكونون في ربض الجنة ، وقيل : هم أصحاب الاعراف ، وعن الضحاك أنهم يلهمون التسبيح والذكر فيصيبون من لذته ما يصيبه بنو آدم من نعيم الجنة وعلى القول بدخولهم الجنة قيل: نراهم ولا يرونا عكس ما كانوا عليه في الدنيا ، واليه ذهب الحرث المحاسبي، وفي اليواقيت الخواص منهم يرونا كما أن الخواص منا يرونهم في الدنيا ،وعلى القول بأنهم يتنعمون في الجنة قيل :إن تنعمهم بغير رؤيته عز وجل فانهم لا يرونه ، وكذا الملائكة عليهم السلام ما عدا جبريل عليه السلام فانه يراه سبحانه مرة ولا يرى بعدها على ماحكاه أبو إسحق إبراهيم بن الصفار في فتاويه عن أبيه ،والاصح ما عليه الاكثر مما قدمناه وأنهم لا فرق بينهم وبين البشر في الرؤية وتمامه في محله ، وقرأ طلحة . وعيسى. وأصحاب عبد الله (يطمثهن) بضم الميم هنا وفيما بعد ، وقرأ أناس بضمه في الاول وكسره في الثاني . وناس بالعكس . وناس بالتخيير، والجحدري بفتح الميم فيهما ، والجملة صفة ـ لقاصرات الطرف ـ لأن إضافتها لفظية أو حال منها لتخصيصها بالإضافة

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٧ ﴾ وقوله تعالى :﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ٥٨ ﴾ إما صفة لقاصرات الطرف،أو حال منها كالتي قبل أي مشبهات بالياقوت والمرجان ، وقول النحاس:إن الكاف في موضع رفع على الابتداء ليس بشئ كما لا يخفى ، أخرج عبد الرزاق . وعبد بن حميد . وابن جرير عن قتادة أنه قال في الآية في صفاء الياقوت وبياض اللؤلؤ ، وعن الحسن نحوه ، وفي البحر عن قتادة في صفاء الياقوت . وحمرة المرجان لحمل المرجان على ما هو المعروف ، وقيل : مشبهات بالياقوت في حمرة الوجه وبالمرجان أي صغار الدر في بياض البشرة وصفائها وتخصيص الصغار على ما في الكشاف لأنه أنصع بياضاً من الكبار ، وقيل : يحسن هنا إرادة الكبار كما قيل في معناه لانه أوفق بقوله تعالى : (كأنهن بيض مكنون) فلا تغفل *

وأخرج أحمد . وابن حبان . والحاكم وصححه . والبيهقي في البعث والنشور عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله تعالى : (كأنهن) الخ قال: ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها تضئ ما بين المشرق والمغرب وأنه يكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يوضح سوقها من وراء ذلك *

وأخرج عبد بن حميد . والطبراني. والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال :إن المرأة من الحور العين يرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم من تحت سبعين حلة كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء *

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٩ ﴾ وقوله تعالى :﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ٦٠ ﴾ استئناف مقرر لمضمون ماقبله أي ما جزاء الاحسان في العمل إلا الاحسان في الثواب ، وقيل:المراد ما جزاء التوحيد إلا الجنة وأيد بظواهر كثير من الآثار ، أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول . والبغوي في تفسيره . والديلمي في مسند الفردوس . وابن النجار في تاريخه عن أنس قال : «قرأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

(هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) فقال: وهل تدرون ماقال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة» وأخرج ابن النجار فى تاريخه عن على كرم الله تعالى وجهه مرفوعا بلفظ «قال الله عز وجل هل جزاء من أنعمت عليه» الخ ووراء ذلك أقوال تقرب من مائة قول، واختير العموم ويدخل التوحيد دخولاً أولياً، والصوفية أوردوا الآية فى باب الاحسان وفسروه بما فى الحديث «أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك» قالوا: فهو اسم يجمع أبواب الحقائق، وقرأ ابن أبى إسحق إلا الحسان يعنى بالحسان قاصرات الطرف اللاتى تقدم ذكرهن ﴿ فَبِأَيِّ ءالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦١ ﴾ وقوله تعالى:

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ٦٢ ﴾ مبتدأ وخبر أى ومن دون تينك الجنتين فى المنزلة والقدر جنتان أخريان، قال ابن زيد والاكثرون الأوليان للسابقين وهاتان لاصحاب اليمين، وقد أخرج ابن جرير. وابن أبى حاتم. وابن مردويه عن أبى موسى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى قوله تعالى: (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقوله سبحانه: (ومن دونهما جنتان) قال: جنتان من ذهب للمقربين وجنتان من ورق لأصحاب اليمين» وقال الحسن: الأوليان للسابقين والاخريان للتابعين، وروى موقوفا وصححه الحاكم عن أبى موسى، وزعم بعضهم أن الاولين للخائفين والاخريين لذرياتهم الذين ألحقوا بهم ولم أجد له مستنداً من الآثار، وحكى فى البحر عن ابن عباس أنه قال: (ومن دونهما) فى القرب للنعمين والمؤخرتا الذكر أفضل من الأوليين، وادعى أن الصفات الآتية أمدح من الصفات السابقة ووافقه من وافقه، وسيأتى تمام الكلام فى ذلك إن شاء الله تعالى *

﴿ فَبِأَيِّ ءالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٣ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ٦٤ ﴾ صفة لجنتان وسط بينها الاعتراض لما تقدم من التنبيه على أن تكذيب كل من الموصوف والصفة حقيق بالانكار والتوبيخ أو خبر مبتدا محذوف أى هما مدهامتان من الدهمة وهى فى الاصل على ماقال الراغب سواد الليل ويعبر بها عن سواد الفرس وقد يعبر بها عن الخضرة الكاملة اللون كما يعبر عنها بالخضرة إذا لم تكن كاملة وذلك لتقاربهما فى اللون، ويقال: ادهام ادهياما فهو مدهام على وزن مفعال إذا اسود أو اشتدت خضرته، وفسرها هنا ابن عباس. ومجاهد. وابن جبير. وعكرمة. وعطاء بن أبى رباح. وجماعة بخضراوان، بل أخرج الطبرانى. وابن مردويه عن أبى أيوب رضى الله تعالى عنه قال: «سألت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن قوله تعالى: (مدهامتان) فقال عليه الصلاة والسلام: خضراوان» والمراد أنهما شديدتا الخضرة والخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد وذلك من الرى من الماء كما روى عن ابن عباس. وابن الزبير. وأبى صالح قيل: إن فى وصف هاتين الجنتين بما ذكر إشعاراً بأن الغالب عليهما النبات والرياحين المنبسطة على وجه الارض كما أن فى وصف السابقتين بذواتا أفنان إشعاراً بأن الغالب عليهما الاشجار فان الاشجار توصف بأنها ذوات أفنان والنبات يوصف بالخضرة الشديدة فالاقتصار فى كل منهما على أحد الأمرين مشعر بما ذكر وبنى على هذا كون هاتين الجنتين دون الاوليين فى المنزلة والقدر كيف لا والجنة الكثيرة الظلال والثمار أعلى وأغلى من الجنة القليلة الظلال والثمار، ومن ذهب إلى تفضيل هاتين الجنتين مع اختصاص الوصف بالخضرة بالنبات وكذا كونه أغلب من وصف الأشجار به فكثيراً ماتسمع الناس يقولون إذا مدحوا بستاناً أشجاره خضر يانعة وهو أظهر فى مدحه بأنه ذو ثمار من ذى أفنان، وهو يشعر أيضا بكثرة مائه والاعتناء بشأنه وبعده عن التصوح والهلاك *

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٥ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ٦٦ ﴾ فوارتان بالماء على ماهو الظاهر ، وفى البحر النضخ فوران الماء ، وفى الكشاف . وغيره النضخ أكثر من النضح بالحاء المهملة لانه مثل الرش وهو عندمن فضل الجنتين الأولبين دون الجرى ، فالمدح به دون المدح به ، وعليه قول البراء بن عازب فيما أخرج ابن المنذر . وابن أبى حاتم العينان اللتان تجريان خير من النضاختين ، ومن ذهب إلى تفضيل هاتين يقول فى الفوران جرى مع زيادة حسن فان الماء إذا فار وارتفع وقع متناثر القطرات كحبات اللؤلؤ المتناثرة كما يشاهد فى الفوارات المعروفة ، أو يقول بما أخرجه ابن أبى شيبة . وابن أبى حاتم عن أنس (نضاختان) بالمسك والعنبر تنضخان على دور الجنة كما ينضخ المطر على دور أهل الدنيا ، أو بما أخرجه ابن أبى شيبة . وعبد بن حميد عن مجاهد (نضاختان) بالخير ، ولفظ ابن أبى شيبة بكل خير *

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٧ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ٦٨ ﴾ عطف الأخيرين على الفاكهة عطف جبريل وميكال عليهما السلام على الملائكة بياناً لفضلهما ، وقيل : إنهما فى الدنيا لما لم يخلصا للتفكه فان النخل ثمره فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء عدا جنساً آخر فعطفا على الفاكهة وإن كان كل مافى الجنة للتفكه لأنه تلذذ خالص ، ومنه قال الامام أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه : إذا حلف لا يأكل فاكهة فأكل رمانا أو رطبا لم يحنث ، وخالفه صاحباه ثم إن نخل الجنة ورمانها وراء مانعرفه *

أخرج ابن المبارك . وابن أبى شيبة . وهناد . وابن أبى الدنيا . وابن المنذر . والحاكم وصححه . وآخرون عن ابن عباس نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر وكرانيفها ذهب أحمر وسعفها كسوة أهل الجنة منها مقطعاتهم وحللهم وثمرها أمثال القلال أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد وليس له عجم وحكمه حكم المرفوع . وفى حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعاً أصوله فضة وجذوعه فضة وسعفه حلل وحمله الرطب الخ *

وأخرج ابن أبى حاتم . وابن عساكر عن أبى سعيد مرفوعاً قال عليه الصلاة والسلام : « نظرت إلى الجنة فاذا الرمانة من رمانها كمثل البعير المقتب » وهذا المدح بحسب الظاهر دون المدح فى قوله تعالى فى الجنتين السابقتين : (فيهما من كل فاكهة زوجان) ومن ذهب إلى تفضيلهما يقول إن التنوين فى فاكهة للتعميم بقرينة المقام نظير ما قيل فى قوله تعالى : (علمت نفس ما أحضرت) فيكون فى قوة فيها كل (فاكهة) ويزيد ما فى النظم الجليل على ماذكر بتضمنه الاشارة إلى مدح بعض أنواعها ، وقال الامام الرازى : إن (ما) هنا كقوله تعالى : (فيهما من كل فاكهة زوجان) وذلك لأن الفاكهة أنواع أرضية وشجرية كالبطيخ وغيره من الارضيات المزروعات والنخل وغيرها من الشجريات فقال تعالى : (مدهامتان) لأنواع الخضر التى فيها الفواكه الارضية ، وفيها أيضاً الفواكه الشجرية وذكر سبحانه منها نوعين الرطب والرمان لانهما متقابلان لأن أحدهما حلو والآخر فيه حامض ، وأحدهما حار والآخر بارد ، وأحدهما فاكهة وغذاء والآخر فاكهة ، وأحدهما من فواكه البلاد الحارة والآخر من فواكه البلاد الباردة ، وأحدهما أشجاره تكون فى غاية الطول والآخر ليس كذلك ، وأحدهما ما يؤكل منه بارز ومالا يؤكل كامن والآخر بالعكس فهما كالضدين ، والاشارة إلى الطرفين تتناول الاشارة إلى مابينهما كما فى قوله تعالى : (رب المشرقين ورب المغربين) انتهى ، ولعل الأول أولى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٩ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ ﴾ صفة أخرى لجنتان ، أو خبر بعد خبر للمبتدأ المحذوف كالجملة التى قبلها ،

ويجوز أن تكون مستأنفة والكلام فى ضمير الجمع هنا كالكلام فيه فى قوله تعالى: (فيهن قاصرات الطرف) و(خيرات) قال أبو حيان: جمع خيرة وصف بنى على فعلة من الخير كما بنوا من الشر فقالوا شرة، وقال الزمخشرى: أصله (خيرات) بالتشديد فخفف كقوله عليه الصلاة والسلام: «هينون لينون» وليس جمع خير بمعنى أخير فانه لا يقال فيه خيرون ولا أخيرات، ولعله لأن أصل اسم التفضيل أن لا يجمع خصوصاً إذا نكر، وقرأ بكر بن حبيب. وأبو عثمان النهدى. وابن مقسم (خيرات) بتشديد الياء وهو يؤيد أن أصله كذلك، وروى عن أبى عمرو (خيرات) بفتح الياء كأنه جمع خائرة جمع على فعلة ﴿حِسَانٌ ٧٠﴾ قيل: أى حسان الخلق والخلق *

وأخرج عبد الرزاق. وعبد بن حميد. وابن جرير عن قتادة أنه قال فى الآية: (خيرات) الأخلاق (حسان) الوجوه، وأخرج ذلك ابن جرير. والطبرانى. وابن مردويه عن أم سلمة مرفوعا *

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧١﴾ وقوله تعالى: ﴿حُورٌ﴾ بدل من (خيرات) وهو جمع حوراء وكذا جمع أحور، والمراد بيض لما أخرجه ابن المنذر. وغيره عن ابن عباس وروته أم سلمة أيضاً عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال ابن الأثير: الحوراء هى الشديدة بياض العين الشديدة سوادها، وفى القاموس الحور بالتحريك أن يشتد بياض بياض العين وسواد سوادها وتستدير حدقتها وترق جفونها ويبيض ما حواليها أو شدة بياضها وسوادها فى بياض الجسد، أو اسوداد العين كلها مثل الظباء ولا يكون فى بنى آدم بل يستعار لها، وإذا صح حديث أم سلمة لم يعدل فى القرآن عن تفسير رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم *

﴿مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ٧٢﴾ أى مخدرات يقال: امرأة قصيرة ومقصورة أى مخدرة ملازمة لبيتها لا تطوف فى الطرق، قال كثير عزة:

وأنت التى حببت كل قصيرة ... إلىّ ولم تشعر بذاك القصائر

عنيت (قصيرات الحجال) ولم أرد ... قصار الخطا شر النساء البحاتر

والنساء يمدحن بملازمتهن البيوت لدلالتها على صيانتهن كما قال قيس بن الاسلت:

وتكسل عن جاراتها فيزرنها ... وتغفل عن أبياتهن (فتعذر)

وهذا التفسير مأثور عن ابن عباس. والحسن. والضحاك وهو رواية عن مجاهد، وأخرج ابن أبى شيبة. وهناد بن السرى. وابن جرير عنه أنه قال: (مقصورات) قلوبهن وأبصارهن ونفوسهن على أزواجهن، والأول أظهر، و(فى الخيام) عليه متعلق بمقصورات، وعلى الثانى يحتمل ذلك، ويحتمل كونه صفة ثانية لحور فلا تغفل، والخيام جمع خيمة ـ وهى على ما فى البحر ـ بيت من خشب وثمام وسائر الحشيش، وإذا كان من شعر فهو بيت ولا يقال له خيمة. وقال غير واحد: هى كل بيت مستدير أو ثلاثة أعواد أو أربعة يلقى عليها الثمام ويستظل بها فى الحر أو كل بيت يبنى من عيدان الشجر وتجمع أيضاً على خيمات وخيم بفتح فسكون وخيم بالفتح وكعنب ـ والخيام هنا بيوت من لؤلؤ ـ أخرج ابن أبى شيبة وجماعة عن ابن عباس أنه قال: الخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة أربعة فراسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب، وأخرج جماعة عن أبى الدرداء أنه قال: الخيمة لؤلؤة واحدة لها سبعون بابا من در، وأخرج البخارى. ومسلم. والترمذى. وغيرهم عن أبى موسى الاشعرى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: الخيمة درة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا فى كل زاوية منها للمؤمن

أهل لايراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن، إلى ذلك من الاخبار ، وقوله سبحانه : (فيهن) الخ دون ماتقدم فى الجنتين السابقتين أعنى قوله عز وجل : (فيهن قاصرات الطرف) إلى قوله تعالى : (كأنهن الياقوت والمرجان) فى المدح عند من فضلهما على الأخيرتين قيل لما فى (مقصورات) على التفسير الثانى من الإشعار بالقسر فى القصر ، وأما على تفسيره الاول فكونه دونه ظاهر وإن لم يلاحظ كونها مخدرة فيما تقدم ، أو يجعل قوله تعالى : (كأنهن الياقوت والمرجان) كناية عنه لانهما مما يصان كما قيل * جوهرة أحقاقها الخدور *

ومن ذهب إلى تفضيل الأخيرتين يقول : هذا أمدح لعموم (خيرات حسان) الصفات الحسنة خَلقاً وخُلُقاً ويدخل فى ذلك قصر الطرف وغيره مما يدل عليه التشبيه بالياقوت والمرجان ، والمراد بالقاصر على التفسير الثانى لمقصورات القاصر الطبيعى بقرينة المقام فيكون فيه إشارة إلى تعذر ترك القصر منهن ، و (قاصرات الطرف) ربما يوهم أن القصر باختيارهن فمتى شئن قصرن ومتى لم يشأن لم يقصرن *

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٣ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ٧٤ ﴾ الكلام فيه كالكلام فى نظيره ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٥ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ ﴾ قيل : بتقدير يتنعمون متكئين أو أعنى متكئين ، والضمير لاهل الجنتين المدلول عليهم بذكرهما ﴿ عَلَىٰ رَفْرَفٍ ﴾ اسم جنس أو اسم جمع واحده رفرفة ، وعلى الوجهين يصح وصفه بقوله تعالى : ﴿ خُضْرٍ ﴾ وجعله بعضهم جمعاً لهذا الوصف ولا يخفى أن أمر الوصفية لايتوقف على ذلك الجعل ، وفسره فى الآية علىّ كرم الله تعالى وجهه . وابن عباس . والضحاك بفضول المحابس وهى مايطرح على ظهر الفراش للنوم عليه ، وقال الجوهرى : الرفرف ثياب خضر تتخذ منها المحابس واشتقاقه من رف إذا ارتفع ، وقال الحسن ـ فيما أخرجه ابن المنذر وغيره عنه ـ هى البسط *

وأخرج عن عاصم الجحدرى أنها الوسائد ، وروى ذلك عن الحسن أيضا . وابن كيسان . وقال الجبائى : الفرش المرتفعة ، وقيل : ماتدلى من الأسرة من غالى الثياب ، وقال الراغب : ضرب من الثياب مشبهة بالرياض ، وأخرج ابن جرير . وجماعة عن سعيد بن جبير أنه قال : الرفرف رياض الجنة ، وأخرج عبد بن حميد نحوه عن ابن عباس وهو عليه ـ كما فى البحر ـ من رف النبت نعم وحسن ، ويقال الرفرف لكل ثوب عريض وللرقيق من ثياب الديباج ولاطراف الفسطاط والخباء الواقعة على الارض دون الاطناب والاوتاد ، وظاهر كلام بعضهم أنه قيل بهذا المعنى هنا وفيه شئ ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ ﴾ هو منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه اسم بلد الجن فينسبون اليه كل عجيب غريب من الفرش وغيرها فمعناه الشئ العجيب النادر ، ومنه ماجاء فى عمر الفاروق رضى الله تعالى عنه فلم أرى عبقرياً يفرى فريه ، ولتناسى تلك النسبة قيل : إنه ليس بمنسوب بل هو مثل كرسى وبختى كما نقل عن قطرب ، والمراد الجنس ولذلك وصف بالجمع وهو قوله تعالى : ﴿ حِسَانٍ ٧٦ ﴾ حملا على المعنى ، وقيل : هو اسم جمع أو جمع واحده عبقرية ، وفسره الأكثرون بعتاق الزرابى ، وعن أبى عبيدة هو ما كله وشى من البسط *

وروى غير واحد عن مجاهد أنه الديباج الغليظ ، وعن الحسن أنها بسط فيها صور وقد سمعت مانقل عنه فى الرفرف فلا تغفل عما يقتضيه العطف *

وقرأ عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه . ونصر بن عاصم الجحدرى . ومالك بن دينار . وابن محيصن .

وزهير الفرقبي ·وغيرهم رفارف جمع لاينصرف (حضر)بسكون الضاد ، وعباقرى بكسر القاف وفتح الياء مشددة ، وعنهم أيضا ضم الضاد ، وعنهم أيضا فتح القاف قاله صاحب اللوامح ،ثم قال أما منع الصرف من عباقرى. فلمجاورته لرفارف يعني للمشاكلة وإلا فلا وجه لمنع الصرف مع ياءى النسب إلا فى ضرورة الشعر انتهى *

وقال ابن خالويه. قرأ ـ على رفارف خضر وعباقرى ـ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، والجحدرى. وابن محيصن، وقد روى عمن ذكرنا ـ على رفارف خضر وعباقرى ـ بالصرف، وكذلك روى عن مالك بن دينار ، وقرأ أبو محمد. المروزى وكان نحويا ـ على رفارف خضار ـ بوزن فعال ، وقال صاحب الكامل :قرأ رفارف بالجمع ابن مصرف . وابن مقسم . وابن محيصن ، واختاره شبل . وأبو حيوة . والجحدرى. والزعفرانى وهو الاختيار لقوله تعالى: (خضر) ، وعباقرى بالجمع وبكسر القاف من غير تنوين ابن مقسم· وابن محيصن ، وروى عنهما التنوين *

وقال ابن عطية: قرأ زهير القرقبي(١) رفارف بالجمع وترك الصرف، وأبو طعمة المدنى. وعاصم فيما روى عنه رفارف بالصرف . وعثمان رضى الله تعالى عنه كذلك ، وعباقرى بالجمع والصرف ، وعنه وعباقرى بفتح القاف والياء على أن اسم الموضع عباقر بفتح القاف ، والصحيح فيه عبقر ، وقال الزمخشرى : قرىء عباقرى كمداينى *

وروى أبو حاتم عباقرى بفتح القاف ومنع الصرف وهذا لاوجه لصحته، وقال الزجاج: هذه القراءة لامخرج لها لان ماجاوز الثلاثة لايجمع بياء النسب فلو جمعت عبقرى قلت : عباقرة نحو مهلبي ومهالبة ولا تقول مهالبي *

وقال ابن جنى: أما ترك صرف عباقرى فشاذ فى القياس ولا يستنكر شذوذه مع استعماله، وقال ابن هشام: كونه من النسبة إلى الجمع كمداينى باطل فان من قرأ بذلك قرأ رفارف خضر بقصد المجانسة ولو كان كما ذكر كان مفرداً ولا يصح منع صرفه كمداينى وقد صحت الرواية بمنعه الصرف عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فهو من باب كرسى وكراسى وهو من صيغة منتهى الجموع لكنها خالفت القياس فى زيادة مابعد الألف على المعروف كما ذكره السهيلى، وقال صاحب الكشف :فتح القاف لاوجه له بوجه والمذكور فى المنتقى عن النبي ﷺ الكسر *

وأما منع الصرف فليس بمتعين ليرد بل وجهه أنه نصب على محل رفرف على حد يذهبن فى نجد وغوراً. وإضافته إلى (حسان) مثل إضافة حور إلى عين فى قراءة عكرمة كأنه قيل: عباقرى مفارش ، أو نمارق حسان فهو من باب أخلاق ثياب لان أحد الوصفين قائم مقام الموصوف ، ولعل عبقر وعباقر مثل عرفة وعرفات انتهى، فأحط بجوانب الكلام ولا تغفل ، وقرأ ابن هرمز (خضر) بضم الضاد وهى لغة قليلة ومن ذلك قول طرفة:

أيها القينات فى مجلسنا   جردوا منها وراداً (وشقر)

وقول الآخر: وما انتميت إلى خود ولا (كشف)   ولا لئام غداة الروع أو زاع

فشقر جمع أشقر، وكشف جمع أكشف وهو من ينهزم فى الحرب، هذا والوصف بقوله تعالى· (متكئين على رفرف) الخ دون الوصف بقوله سبحانه:(متكئين على فرش بطائنها من استبرق) عند القائل بتفضيل الجنتين السابقتين لما فى هذا الوصف من الاشارة إلى أن الظهائر مما يعجز عنها الوصف * ومن ذهب إلى تفضيل الأخيرتين يقول : الرفرف مايطرح على ظهر الفراش وليست الفرش التى يطرح عليها الرفرف مذكورة فيجوز أن يكون ترك ذكرها للاشارة إلى عدم إحاطة الوصف بها ظهارة وبطانة وهو أبلغ من الأول، ولا يسلم أن تلك الفرش هى العبقرى ، أو يقول الرفرف الفرش المرتفعة وترك التعرض لسوى لونها وهو الخضرة التى ميل الطباع

(١) هكذا بقافين وقد مر بالفا بعد الراء قاف، وفى البحر العرقبي بالعين المهملة تدبر

اليها أشدوهى جامعة لأصول الألوان الثلاثة على ما بينه الإمام يشير إلى أنهما لاتكاد تحيط بحقيقتها العبارات،
وقد يقال غير ذلك فتأمل، وينبغى على القول بتفضيل الأخيرتين وكونهما لطائفة غير الطائفة المشار اليهم بمن
خاف أن لا يفسر من خاف بمن له شدة الخوف بحيث يختص بأفضل المؤمنين وأجلهم، أو يقال إنهما مع الأولين
لمن خاف مقام ربه ويكون المعنى (ولمن خاف مقام ربه) أيضا (جنتان) صفتهما كيت وكيت من دون تينك الجنتين،
وعليه قيل: (جنتان) عطف على (جنتان) قبله و(ومن دونهما) فى موضع الحال، وذهب بعضهم إلى أن
هاتين الجنتين سواء كانتا أفضل من الاولين أم لا لمن خاف مقام ربه عز وجل فله يوم القيامة أربع جنان.

قال الطبرسى: والاخيرتان دون الأولين أى أقرب إلى قصره ومجالسه ليتضاعف له السرور بالتنقل من جنة إلى
جنة على ماهو معروف من طبع البشر من شهوة مثل ذلك وهو أبعد عن الملل الذى طبع عليه البشر، وأنت
تعلم أن الآية تحتمل ذلك احتمالا ظاهراً لكن ماتقدم من حديث أبى موسى رضى الله تعالى عنه يأباه فاذاصح
ولو موقوفا - إذ حكم مثله حكم المرفوع - لم يكن لنا العدول عما يقتضيه، وقد روى عنه أيضاً حديث مرفوع
ذكره الجلال السيوطى فى الدر المنثور يشعر بأن الجنان الاربع هى جنان الفردوس.

وأخرج عنه أحمد. والبخارى. ومسلم. والترمذى. والنسائى. وابن ماجه. وغيرهم أنه قال: إن رسول الله
صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «جنان الفردوس أربع. جنتان من ذهب حليتهما وآنيتهما وما فيهما. وجنتان
من فضة حليتهما وآنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن»
والظاهر على هذا أنه يشترك الألوف فى الجنة الواحدة من هذه الجنان، ومعنى قوله تعالى: (ولمن خاف) الخ
عليه مما لا يخفى، ثم إن قاصرات الطرف إن كنّ من الانس فهن أجل قدراً وأحسن منظراً من الحور المقصورات
فى الخيام بناءاً على أنهن النساء المخلوقات فى الجنة.

فقد جاء من حديث أم سلمة «قلت يارسول الله: أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: نساء الدنيا
أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة، قلت: يارسول الله وبم ذاك؟ قال: بصلاتهن وصيامهن
وعبادتهن ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير بيض الوجوه خضر الثياب صفر الحلى مجامرهن
الدر وأمشاطهن الذهب يقلن ألا نحن الخالدات فلا نموت أبداً ألا ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً طوبى لمن
كنا له وكان لنا» إلى غيره من الأخبار ويكون هذا مؤيداً للقول بتفضيل الجنتين الاولين على الاخيرتين
ولعله إنما قدم سبحانه ذكر الاتكاء أولا على ذكر النساء لأنه عز وجل ذكر فى صدر الآية الخوف حيث قال
سبحانه: (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فناسب التعجيل بذكر مايشعر بزواله إشعاراً ظاهراً وهو الاتكاء
فانه من شأن الآمنين، وأخر سبحانه ذكره ثانياً عن ذكرهن لعدم مايستدعى التقديم وكونه مما يكون للرجل
عادة بعد فراغ ذهنه عما يحتاجه المنزل من طعام وشراب وقينة تكون فيه، وإذا قلنا: إن الحور كالجوارى فى
المنزل كان أمر التقديم والتأخير أوقع، وقال الامام فى ذلك: إن أهل الجنة ليس عليهم تعب وحركة فهم متنعمون
دائما لكن الناس فى الدنيا على أقسام منهم من يجتمع مع أهله اجتماع مستوفز وعند قضاء وطره يغتسل
وينتشر فى الارض للكسب، ومنهم من يكون متردداً فى طلب الكسب وعند تحصيله يرجع إلى أهله ويستريح
عما لحقه من تعب قبل قضاء الوطر أو بعده فالله عز وجل قال فى أهل الجنة: (متكئون) قبل اجتماعهم بأهاليهم
متكئون بعد الاجتماع ليعلم أنهم دائمون على السكون، ولا يخفى أن هذا على مافيه لايحسم السؤال إذ لقائل

أن يقول لم لم يعكس أمر التقديم والتأخير فى الموضعين مع أنه يتضمن الإشارة إلى ذلك أيضاً ، ثم ذكر فى ذلك وجهاً ثانياً وهو على ما فيه مبنى على ما لا مستند له فيه من الآثار فتدبر ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٧ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾ تنزيه وتقديس له تعالى فيه تقرير لما ذكر فى هذه السورة الكريمة من آلائه جل شأنه الفائضة على الانام ، - فتبارك - بمعنى تعالى لأنه يكون بمعناه وهو أنسب بالوصف الآتى، وقد ورد فى الاحاديث « تعالى اسمه » أى تعالى اسمه الجليل الذى من جملته ما صدرت به السورة من اسم (الرحمن) المنبئ عن إفاضة الآلاء المفصلة ، وارتفع عما لا يليق بشأنه من الامور التى من جملتها جحود نعمائه وتكذيبها ، وإذا كان حال اسمه تعالى بملابسة دلالته عليه سبحانه كذلك فما ظنك بذاته الاقدس الاعلى ؟ ؟ *

وقيل : الاسم بمعنى الصفة لأنها علامة على موصوفها ، وقيل : هو مقحم كما فى قول من قال : ثم اسم السلام عليكما ، وقيل : هو بمعنى المسمى ، وزعم بعضهم إن الأنسب بما قصد من هذه السورة الكريمة وهو تعدد الآلاء والنعم تفسير (تبارك) بكثرت خيراته ثم إنه لا بعد فى إسناده بهذا المعنى لاسمه تعالى إذ به يستمطر فيغاث ويستنصر فيعان ، وقوله سبحانه : ﴿ ذى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ٧٨ ﴾ صفة للرب ووصف جل وعلا بذلك تكميلا لما ذكر من التنزيه والتقرير ، وقرأ ابن عامر . وأهل الشام - ذو - بالرفع على أنه وصف للاسم ووصفه بالجلال والاكرام بمعنى التكريم واضح *

هذا ﴿ ومن باب الاشارة ﴾ فى بعض الآيات (الرحمن علم القرآن) إشارة إلى ما أودعه سبحانه فى الأرواح الطيبة القدسية من العلوم الحقانية الاجمالية عند استوائه عز وجل على عرش الرحمانية (خلق الانسان) الكامل الجامع (علمه البيان) وهو تفصيل تلك العلوم الاجمالية (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) (الشمس والقمر بحسبان) يشير إلى شمس النبوة وقمر الولاية الدائرتين فى فلك وجود الانسان بحساب التجليات ومراتب الاستعدادات، و(النجم) القوى السفلية (والشجر) الاستعدادات العلوية (يسجدان) يتذللان بين يديه تعالى عند الرجوع إليه سبحانه (والسماء) سماء القوى الالهية القدسية (رفعها) فوق أرض البشرية (ووضع الميزان) القوة المميزة (أن لا تطغوا فى الميزان) لا تتجاوزوا عند أخذ الحظوظ السفلية وإعطاء الحقوق العلوية *

وجوز أن يكون (الميزان) الشريعة المطهرة فانها ميزان يعرف به الكامل من الناقص (والأرض) أرض البشرية (وضعها) بسطها وفرشها (للأنام) للقوى الانسانية (فيها فاكهة) من فواكه معرفة الصفات الفعلية (والنخل ذات الأكمام) وهى الشجرة الانسانية التى هى المظهر الأعظم وذات أطوار كل طور مستور بطور آخر (والحب) هو حب الحب المبذور فى مزارع القلوب السليمة من الدغل (ذو العصف) أوراق المكاشفات (والريحان) ريحان المشاهدة (رب المشرقين ورب المغربين) رب مشرق شمس النبوة ومشرق قمر الولاية فى العالم الجسمانى ورب مغربهما فى العالم الروحانى (مرج البحرين) بحر سماء القوى العلوية وبحر أرض القوى السفلية (يلتقيان بينهما برزخ) حاجز القلب (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) أنواع أنوار الأسرار ونيران الأشواق (وله الجوار المنشآت) سفن الخواطر المسخرة فى بحر الانسان (كل من عليها فان) ما شم رائحة الوجود (ويبقى وجه ربك) الجهة التى تليه سبحانه وهى شئوناته عز وجل (ذو الجلال) أى الاستغناء التام عن جميع المظاهر (والاكرام) الفيض العام يفيض على القوابل حسبما استعدت له وسألته بلسان حالها، وإليه الاشارة بقوله تعالى: (يسأله من فى السموات

والارض) الخ ، واستدل الشيخ الاكبر محي الدين قدس سره بقوله سبحانه:(كل يوم هو فى شأن) على شرف التلون ، وكذا استدل به على عدم بقاء الجوهر آنين ، وعلى هذا الطرز ماقيل فى الآيات بعد . وذكر بعض أهل العلم أن قوله تعالى: (فبأى ءالاء ربكما تكذبان) قد ذكر إحدى وثلاثين مرة، ثمانية منها عقيب تعداد عجائب خلقه تعالى . وذكر المبدأ والمعاد ، وسبعة عقيب ذكر مايشعر بالنار وأهوالها على عدد أبواب جهنم ، وثمانية فى وصف الجنتين الاولين ومثلها فى وصف الجنتين اللتين دونهما على عدد أبواب الجنة فكأنه أشير بذلك إلى أن من اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق كلتا الجنتين من الله تعالى ووقاه جهنم ذات الأبواب السبعة ، والله تعالى أعلم بإشارات كتابه وحقائق خطابه ودقائق كلامه التى لاتحيط بها الافهام وتبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام *

﴿ سورة الواقعة ﴾

﴿مكية﴾ كما أخرجه البيهقى فى الدلائل وغيره عن ابن عباس . وابن مردويه عن ابن الزبير ، واستثنى بعضهم قوله تعالى:(ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) كما حكاه فى الاتقان وكذا استثنى قوله سبحانه .(فلا أقسم بمواقع النجوم) إلى (تكذبون) لما أخرجه مسلم فى سبب نزوله وسيأتى إن شا الله تعالى ، وفى مجمع البيان حكاية استثناء قوله تعالى:(وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) عن ابن عباس . وقتادة وعدد آيها تسع وتسعون فى الحجازى والشامى ، وسبع وتسعون فى البصرى، وست وتسعون فى الكوفى، وتفصيل ذلك فيما أعد لمثله، وهى وسورة الرحمن متواخية فى أن فى كل منهما وصف القيامة والجنة والنار، وقال فى البحر : مناسبتها لما قبلها أنه تضمن العذاب للمجرمين والنعيم للمؤمنين ، وفاضل سبحانه بين جنتى بعض المؤمنين وجنتى بعض آخر منهم فانقسم المكلفون بذلك إلى كافر ومؤمن فاضل ومؤمن مفضول ، وعلى هذا جاء ابتداء هذه السورة من كونهم أصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة وسابقين ، وقال بعض الأجلة انظر إلى اتصال قوله تعالى : (إذا وقعت الواقعة) بقوله سبحانه :(فاذا انشقت السماء) وأنه اقتصر فى الرحمن على ذكر انشقاق السماء،وفى الواقعة على ذكر رج الارض فكأن السورتين لتلازمهما واتحادهما سورة واحدة فذكر فى كل شيء ، وقد عكس الترتيب فذكر فى أول هذه مافى آخر تلك وفى آخر هذه مافى أول تلك فافتتح فى سورة الرحمن بذكر القرآن ،ثم ذكر الشمس والقمر،ثم ذكر النبات ،ثم خلق الانسان والجان ، ثم صفة يوم القيامة، ثم صفة النار ، ثم صفة الجنة ، وهذه ابتداؤها بذكر القيامة ، ثم صفة الجنة ، ثم صفة النار ؛ ثم خلق الانسان ،ثم النبات ،ثم الماء،ثم النار ، ثم ذكرت النجوم ولم تذكر فى الرحمن كما لم يذكر هنا الشمس والقمر ، ثم ذكر الميزان فكانت هذه كالمقابلة لتلك وكالمتضمنة لرد العجز على الصدر ،وجاء فى فضلها آثار*

أخرج أبو عبيد فى فضائله .وابن الضريس . والحرث بن أبى أسامة .وأبو يعلى .وابن مردويه .والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال : « سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول :من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً» . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس نحوه مرفوعا ، وأخرج ابن مردويه عن أنس عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « سورة الواقعة سورة الغنى فاقرءوها وعلموها أولادكم » ه

وأخرج الديلمى عنه مرفوعا « علموا نساءكم سورة الواقعة فانها سورة الغنى » *

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم إذا وقعت الواقعة ١ ﴾ أى إذا حدثت القيامة على أن (وقعت) بمعنى حدثت و (الواقعة) علم بالغلبة أو منقول للقيامة ، وصرح ابن عباس بأنها من أسمائها وسميت بذلك للايذان بتحقق وقوعها لامحالة كأنها واقعة فى نفسها مع قطع النظر عن الوقوع الواقع فى حيز الشرط فليس الاسناد كما فى ـ جاءنى جاء ـ فانه لغو لدلالة كل فعل على فاعل له غير معين ، وقال الضحاك : (الواقعة) الصيحة وهى النفخة فى الصور ، وقيل : (الواقعة) صخرة بيت المقدس تقع يوم القيامة وليس بشىء ، و (إذا) ظرف متضمن معنى الشرط على ما هو الظاهر ، والعامل فيها عند أبى حيان الفعل بعدها فهى عنده فى موضع نصب ـ بوقعت ـ كسائر أسماء الشرط وليست مضافة إلى الجملة ، والجمهور على إضافتها فقيل : هى هنا قد سلبت الظرفية ووقعت مفعولا به لاذكر محذوفا ، وقيل : لم تسلب ذلك وهى منصوبة بليس ، وصنيع الزمخشرى يشعر باختياره *

وقيل : بمحذوف وهو الجواب أى (إذا وقعت الواقعة) كان كيت وكيت ، قال فى الكشف : هذا الوجه العربى الجزل فالنصب باضمار اذكر إنما كثر فى إذ ، وبليس إنما يصح إذا جعلت لمجرد الظرفية وإلا لوجب الفاء فى ليس ، وأبو حيان تعقب النصب بليس بأنه لايذهب اليه نحوى لأن ليس فى النفى كـ (ما) وهى لاتعمل ، فكذا ليس فانها مسلوبة الدلالة على الحدث والزمان ، والقول : بأنها فعل على سبيل المجاز . والعامل فى الظرف إنما هو مايقع فيه من الحدث فحيث لاحدث فيها لاعمل لها فيه ، ثم ذكر نحو ماذكر صاحب الكشف من وجوب الفاء فى ليس إذا لم تجرد عن الشرطية ؛ واعترض دعواه أن (ما) لاتعمل بأنهم صرحوا بجواز تعلق الظرف بها لتأويلها بانتفى وأنه يكفى له رائحة الفعل ، ويقاس عليها فى ذلك ليس ، وكذا دعوى وجوب الفاء فى ليس إذا لم تجرد (إذا) عن الشرطية بأن لزوم الفاء مع الافعال الجامدة إنما هو فى جواب إن الشرطية لعملها كما صرحوا به . وأما (إذا) فدخول الفاء فى جوابها على خلاف الأصل . وسيأتى إن شاء الله تعالى فيها قولان آخران ، وبعد القيل والقال الأولى كون العامل محذوفا وهو الجواب كما سمعت ، وفى إبهامه تهويل وتفخيم لأمر الواقعة *

وقوله تعالى : ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ٢ ﴾ إما اعتراض يؤكد تحقيق الوقوع . أو حال من الواقعة كما قال ابن عطية ، و (كاذبة) اسم فاعل وقع صفة لموصوف محذوف أى نفس ، وقيل : مقالة والأول أولى لأن وصف الشخص بالكذب أكثر من وصف الخبر به . و (الواقعة) السقطة القوية وشاعت فى وقوع الأمر العظيم وقد تخص بالحرب ولذا عبر بها هنا واللام للتوقيت مثلها فى قولك : كتبته لخمس خلون أى لايكون حين وقوعها نفس كاذبة على معنى تكذب على الله تعالى وتكذب فى تكذيبه سبحانه وتعالى فى خبره بها ، وإيضاحه أن منكر الساعة الآن مكذب له تعالى فى أنها تقع وهو كاذب فى تكذيبه سبحانه لانه خبر على خلاف الواقع وحين تقع لايبقى كاذبا مكذبا ، بل صادقا مصدقا ، وقيل : على معنى ليس فى وقت وقوعها نفس كاذبة فى شىء من الأشياء ، ولايخفى أن صحته مبنية على القول بأنه لايصدر من أحد كذب يوم القيامة ؛ وأن قولهم : (والله ربنا ما كنا مشركين) مجاب عنه بما هو مذكور فى محله أو اللام على حقيقتها ، و (كاذبة) صفة لذلك المحذوف أيضا أى (ليس لوقعتها) نفس كاذبة بمعنى لاينكر وقوعها أحد ولا يقول للساعة لم تكونى لان الكون قد تحقق كذا يقول لها فى الدنيا بلسان القول أو الفعل لان من اغتر بزخارف الدنيا فقد كذب الساعة فى وقعتها

بلسان الحال لن تكونى ، وهذا كما تقول لمخاطبك ليس لنا ملك ولمعروفك كاذب أى لا يكذبك أحد فيقول . إنه غير واقع ، وفيه استعارة تمثيلية لان الساعة لاتصلح مخاطباً إلا على ذلك إما على سبيل التخييل من باب لو قيل: للشحم أين تذهب ، وهو الاظهر وإما على التحقيق ، وجوز كون (كاذبة) من قولهم كذبت نفسه وكذبته إذا منته الأمانى وقربت له الامور البعيدة وشجعته على مباشرة الخطب العظيم ، واللام قيل : على حقيقتها أيضا أى ليس لها إذا وقعت نفس تحدث صاحبها باطاقة شدتها واحتمالها وتغريه عليها *

وفى الكشف إن اللام على هذا الوجه للتوقيت كما على الوجه الاول ، وجوز أيضا كون (كاذبة) مصدراً بمعنى التكذيب وهو التثبيط وأمر اللام ظاهر أى ليس لوقعتها ارتداد ورجعة كالحملة الصادقة من ذى سطوة قاهرة ، وروى نحوه عن الحسن . وقتادة ، وذكر أن حقيقة التكذيب بهذا المعنى راجعة إلى تكذيب النفس كذبها وإغرائها وتشجيعها وأنشد على ذلك لزهير :

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا ما الليث (كذب عن أقرانه) صدقا

ويجوز جعل الكاذبة بمعنى الكذب على معنى ليس للوقعة كذب بل هى وقعة صادقة لا تطاق على نحو حملة صادقة ، وحملة لها صادق . أو على معنى ليس هى فى وقت وقوعها كذب لانه حق لاشبهة فيه ، ولعل ماذكر أظهر مما تقدم وإن روى نحوه عمن سمعت ، نعم قيل : عليهما إن مجىء المصدر على زنة الفاعل نادر ، وقوله عز وجل :

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ٣ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هى خافضة لأقوام رافعة لآخرين كما قال ابن عباس ، وأخرجه عنه جماعة ، والجملة تقرير لعظمتها وتهويل لامرها فان الوقائع العظام شأنها الخفض والرفع كما يشاهد فى تبدل الدول وظهور الفتن من ذل الأعزة وعز الأذلة ، وتقديم الخفض على الرفع لتشديد التهويل ، أو بيان لما يكون يومئذ من حط الاشقياء إلى الدركات ورفع السعداء إلى درجات الجنات ، وعلى هذا قول عمر رضى الله تعالى عنه : خفضت أعداء الله تعالى إلى النار ورفعت أولياءه إلى الجنة ، أو بيان لما يكون من ذلك ومن إزالة الأجرام عن مقارها ونثر الكواكب وتسيير الجبال فى الجو كالسحاب ، والضحاك بعد أن فسر الواقعة بالصيحة قال : خافضة تخفض قوتها لتسمع الأدنى (رافعة) ترفعها لتسمع الأقصى ، وروى ذلك أيضاً عن ابن عباس . وعكرمة ، وقدر أبو على المبتدأ مقروناً بالفاء أى فهى (خافضة) وجعل الجملة جواب إذا فكأنه قيل : (إذا وقعت الواقعة) خفضت قوماً ورفعت آخرين ، وقرأ زيد بن على . والحسن . وعيسى . وأبو حيوة . وابن أبى عبلة . وابن مقسم . والزعفرانى . واليزيدى فى اختياره (خافضة رافعة) بنصبهما ، ووجهه أن يجعلا حالين عن الواقعة على أن (ليس لوقعتها كاذبة) اعتراض أو حالين عن وقعتها ، وقوله سبحانه : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ٤ ﴾ أى زلزلت وحركت تحريكا شديداً بحيث ينهدم مافوقها من بناء وجبل متعلق بخافضة أو برافعة . على أنه من باب الأعمال ، أو بدل من (إذا وقعت) كما قال به غير واحد ، وقال ابن جنى . وأبو الفضل الرازى . (إذا رجت) فى موضع رفع على أنه خبر للمبتدا الذى هو (إذا وقعت) وليست واحدة منهما شرطية بل هى بمعنى وقت أى وقت وقوعها وقت رج الأرض ، وادعى ابن مالك أن (إذا) تكون مبتدأ ، واستدل بهذه الآية ، وقال أبو حيان : هو بدل من (إذا وقعت) وجواب الشرط عندى ملفوظ به وهو قوله تعالى : (فأصحاب الميمنة) والمعنى إذا كان كذا وكذا ، فأصحاب الميمنة ماأسعدهم وماأعظم مايجازون به أى إن سعادتهم وعظم رتبهم

عند الله عز وجل تظهر فى ذلك الوقت الشديد الصعب على العالم، وقيه بعد ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ٥ ﴾ أى فتت كما قال ابن عباس . ومجاهد حتى صارت كالسويق الملتوت من بس السويق إذا لتّه ، وقيل: سيقت وسيرت من أماكنها من بس الغنم إذا ساقها فهو كقوله تعالى: (وسيرت الجبال) *

وقرأ زيد بن على (رجت، وبست) بالبناء للفاعل أى ارتجت وتفتتت ، وفى كلام هند بنت الخس تصف ناقة بما يستدل به على حملها - عينها هاج وصلاها راج ، وهى تمشى وتفاج - ﴿ فَكَانَتْ ﴾ فصارت بسبب ذلك ﴿ هَبَاءً ﴾ غباراً ﴿ مُنبَثًّا ٦ ﴾ متفرقا ، والمراد مطلق الغبار عند الاكثرين ، وقال ابن عباس: هو ما يثور مع شعاع الشمس إذا دخلت من كوة ، وفى رواية أخرى عنه أنه الذى يطير من النار إذا اضطرمت *

وقرأ النخعى - منبتاً - بالتاء المنطوقة بنقطتين من فوق من البت بمعنى القطع ، والمراد به ما ذكر من البث بالمثلثة ﴿ وَكُنتُمْ ﴾ خطاب للامة الحاضرة والامم السالفة تغليباً كما ذهب اليه الكثير ، وقال بعضهم :خطاب للامة الحاضرة فقط، والظاهر إن - كان - أيضاً بمعنى صار أى وصرتم ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ أى أصنافا ﴿ ثَلَاثَةً ٧ ﴾ وكل صنف يكون مع صنف آخر فى الوجود أو فى الذكر فهو زوج ، قال الراغب : الزوج يكون لكل واحد من القرينين من الذكر والانثى فى الحيوانات المتزاوجة ولكل قرينين فيها، وفى غيرها كالخف والنعل، ولكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضاداً ، وقوله تعالى :

﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ٩ ﴾ تفصيل للازواج الثلاثة مع الاشارة الاجمالية إلى أحوالهم قبل تفصيلها ، والدائر على ألسنتهم أن أصحاب الميمنة مبتدأ ، وقوله تعالى : (ما أصحاب الميمنة) (ما) فيه استفهامية مبتدأ ثان. و(أصحاب) خبره ، والجملة خبر المبتدا الاول والرابط الظاهر القائم مقام الضمير ، وكذا يقال فى قوله تعالى:(وأصحاب المشأمة) الخ ، والأصل فى الموضعين ماهم ؟ أى أى شئ هم فى حالهم وصفتهم فان (ما) وإن شاعت فى طلب مفهوم الاسم والحقيقة لكنها قد تطلب بها الصفة والحال كما تقول ما زيد ؟ فيقال : عالم ، أو طبيب فوضع الظاهر موضع الضمير لكونه أدخل فى المقصود وهو التفخيم فى الأول والتفظيع فى الثانى ، والمراد تعجيب السامع من شأن الفريقين فى الفخامة والفظاعة كأنه قيل : (فأصحاب الميمنة) فى غاية حسن الحال (وأصحاب المشأمة) فى نهاية سوء الحال، وقيل: جملة (ما أصحاب) خبر بتقدير القول على ما عرف فى الجملة الانشائية إذا وقعت خبراً أى مقول فى حقهم (ما اصحاب) الخ فلا حاجة إلى جعله من إقامة الظاهر مقام الضمير وفيه نظر ، و(الميمنة) ناحية اليمين ، أو اليمن والبركة ، (والمشأمة) ناحية الشمال من اليد الشؤمى وهى الشمال ، أو هى من الشؤم مقابل اليمن ، ورجح إرادة الناحية فيهما بأنها أوفق بما يأتى فى التفصيل ، واختلفوا فى الفريقين فقيل : أصحاب الميمنة أصحاب المنزلة السنية ، وأصحاب المشأمة أصحاب المنزلة الدنية أخذاً من تيمنهم بالميامن وتشؤمهم بالشمائل كما تسمع فى السانح والبارح ، وهو مجاز شائع ، وجوز أن يكون كناية ، وقيل: الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم والذين يؤتونها بشمائلهم ، وقيل : الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة والذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، وقيل: أصحاب اليمن وأصحاب الشؤم، فان السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم والاشقياء مشائيم على أنفسهم

بمعاصيهم ، وروى هذا عن الحسن . والربيع ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ ﴾ هو الصنف الثالث من الازواج الثلاثة ،ولعل تأخير ذكرهم مع كونهم أسبق الأصناف وأقدمهم فى الفضل ليردف ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم على أن إيرادهم بعنوان السبق مطلقاً معرض عن إحرازهم قصب السبق من جميع الوجوه ،

واختلف فى تعيينهم فقيل : هم الذين سبقوا إلى الايمان والطاعة عند ظهور الحق من غير تلعثم وتوان ، وروى هذا عن عكرمة . ومقاتل ، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت فى حزقيل مؤمن آل فرعون . وحبيب النجار الذى ذكر فى يس . وعليّ بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه وكل رجل منهم سابق أمته وعليّ أفضلهم ، وقيل : هم الذين سبقوا فى حيازة الكمالات من العلوم اليقينية ومراتب التقوى الواقعة بعد الايمان ، وقيل . هم الانبياء عليهم السلام لأنهم مقدمو أهل الأديان ، وقال ابن سيرين : هم الذين صلوا إلى القبلتين كما قال تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) وعن ابن عباس هم السابقون إلى الهجرة ، وعن عليّ كرم الله تعالى وجهه هم السابقون إلى الصلوات الخمس ، وأخرج أبو نعيم . والديلمى عن ابن عباس مرفوعا أول من يهجر إلى المسجد وآخر من يخرج منه ،

وأخرج عبد بن حميد . وابن المنذر عن عبادة بن أبى سودة مولى عبادة بن الصامت قال : بلغنا أنهم السابقون إلى المساجد والخروج فى سبيل الله عز وجل ،وعن الضحاك هم السابقون إلى الجهاد ،وعن ابن جبير هم السابقون إلى التوبة وأعمال البر ، وقال كعب : هم أهل القرآن ،وفى البحر فى الحديث « سئل عن السابقين فقال : هم الذين إذا أعطوا الحق قبلوه وإذا سئلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لانفسهم » ، وقيل : الناس ثلاثة فرجل ابتكر الخير فى حداثة سنه ثم دام عليه حتى خرج من الدنيا فهذا هو السابق ، ورجل ابتكر عمره بالذنب وطول الغفلة ثم تراجع بتوبته فهذا صاحب اليمين ، ورجل ابتكر الشر فى حداثة سنه ثم لم يزل عليه حتى خرج من الدنيا فهذا صاحب الشمال ، وعن ابن كيسان أنهم المسارعون إلى كل ما دعا الله تعالى اليه ورجحه بعضهم بالعموم ، وجعل ما ذكر فى أكثر الاقوال من باب التمثيل ، وأياً ما كان فالشائع أن الجملة مبتدأ وخبر والمعنى (والسابقون) هم الذين اشتهرت أحوالهم وعرفت فخامتهم كقوله :

* أنا أبو النجم وشعرى شعرى * وفيه من تفخيم شأنهم والايذان بشيوع فضلهم ما لا يخفى ، وقيل متعلق السبق مخالف لمتعلق السبق الثانى أى السابقون إلى طاعة الله تعالى (السابقون) إلى رحمته سبحانه ، أو (السابقون) إلى الخير (السابقون) إلى الجنة ، والتقدير الأول محكى عن صاحب المرشد *

وأنت تعلم أن الحمل مفيد بدون ذلك كما سمعت بل هو أبلغ وأنسب بالمقام وأياً ما كان فقوله تعالى :

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ١١ ﴾ مبتدأ وخبر والجملة استئناف بيانى ، وقيل : (السابقون) السابق مبتدأ (والسابقون) اللاحق تأكيد له وما بعد خبر وليس بذاك أيضا لفوات مقابلة ما ذكر لقوله تعالى : (فأصحاب) الخ ولان القسمة لا تكون مستوفاة حينئذ ، ولفوات المبالغة المفهومة من نحو هذا التركيب على ما سمعت مع أنهم أعنى السابقين أحق بالمدح والتعجيب من حالهم من السابقين ولفوات ما فى الاستئناف بأولئك المقربون من الفخامة وإنما لم يقل ـ السابقون ما السابقون ـ على منوال الاولين لأنه جعل أمراً مفروغا مسلما مستقلا فى المدح والتعجيب ، والاشارة بأولئك إلى السابقين وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل ،

و(المقربون) من القربة بمعنى الحظوة أى أولئك الموصوفون بذلك النعت الجليل الذين أنيلوا حظوة ومكانة عند الله تعالى، وقال غير واحد: المراد الذين قربت إلى العرش العظيم درجاتهم.

هذا وفى الارشاد الذى تقتضيه جزالة التنزيل أن قوله تعالى: (فأصحاب الميمنة) خبر مبتدإ محذوف وكذا قوله سبحانه: (وأصحاب المشأمة) وقوله جل شأنه: (والسابقون) فان المترقب عند بيان انقسام الناس إلى الاقسام الثلاثة بيان أنفس الاقسام.

وأما أوصافها وأحوالها فحقها أن تبين بعد ذلك بإسنادها اليها، والتقدير فأحدها أصحاب الميمنة والآخر أصحاب المشأمة، والثالث السابقون خلا أنه لما أخر بيان أحوال القسمين الأولين عقب كلا منهما بجملة معترضة بين القسمين منبئة عن ترامى أحوالهما فى الخير والشر إنباءاً إجمالياً مشعراً بأن لأحوال كل منهما تفصيلا مترقباً لكن لا على أن (ما) الاستفهامية مبتدأ وما بعدها خبر على ما رآه سيبويه فى أمثاله بل على أنها خبر لما بعدها فان مناط الافادة بيان أن أصحاب الميمنة أمر بديع كما يفيده كون (ما) خبراً لا بيان أن أمراً بديعاً أصحاب الميمنة كما يفيده كونها مبتدأ وكذا الحال فى (ما أصحاب المشأمة)، وأما القسم الأخير فحيث قرن به بيان محاسن أحواله لم يحتج فيه إلى تقديم الأنموذج فقوله تعالى: (السابقون) مبتدأ والإظهار فى مقام الاضمار للتفخيم و(أولئك) مبتدأ ثان، أو بدل من الاول وما بعده خبر له، أو للثانى، والجملة خبر للاول انتهى، وقيل عليه: إنه ليس فى جعل جملتى الاستفهام وقوله سبحانه: (السابقون) إخباراً لما قبلها بيان لأوصاف الأقسام وأحوالها تفصيلا حتى يقال: حقها أن تبين بعد أنفس الاقسام بل فيه بيان الاقسام مع إشارة إلى ترامى أحوالها فى الخير والشر والتعجيب من ذلك.

وأيضاً مقتضى ما ذكره أن لا يذكر (ما أصحاب اليمين) و(ما أصحاب الشمال) فى التفصيل، وتعقب هذا بأن الذكر محتاج إلى بيان نكتة على الوجه الدائر على ألسنتهم كاحتياجه اليه على هذا الوجه، ولعلها عليه أنه لما عقب الأولين بما يشعر بأن لأحوال كل تفاصيل مترقبة أعيد ذلك للاعلام بأن الاحوال العجيبة هى هذه فلتسمع، والذى يتبادر للنظر الجليل ما فى الارشاد من كون أصحاب الميمنة وكذا كل من الأخيرين خبر مبتدإ محذوف كما سمعت لأن المتبادر بعد بيان الانقسام ذكر نفس الاقسام على أن تكون هى المقصودة أولا وبالذات دون الحكم عليها وبيان أحوالها مطلقاً وإن تضمن ذلك ذكرها لكن ما ذكروه أبعد مغزى ومع هذا لا يتعين على ما ذكر كون تينك الجملتين الاستفهاميتين معترضتين بل يجوز أن يكون كل منهما صفة لما قبلها بتقدير القول كأنه قيل: فأحدها أصحاب الميمنة المقول فيهم (ما أصحاب الميمنة) وكذا يقال فى (وأصحاب المشأمة) الخ، ويجعل أيضاً (السابقون) صفة - للسابقون - قبله، والتأويل فى الوصفية كالتأويل فى الخبرية ويكون الوصف بذلك قائماً مقام تينك الجملتين فى المدح، والجملة بعد مستأنفة استئنافاً بيانياً كما فى الوجه الشائع، وما يقال: إن فى هذا الوجه حذف الموصول مع بعض أجزاء الصلة يجاب عنه بمنع كون - أل - فى الوصف حيث لم يرد منه الحدوث موصولة فتأمل ولا تغفل، وقوله تعالى: ﴿ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢ ﴾ متعلق بالمقربون، أو بمضمر هو حال من ضميره أى كائنين فى جنات النعيم، وعلى الوجهين فيه إشارة إلى أن قربهم محض لذة وراحة لا كقرب خواص الملك القائمين بأشغاله عنده بل كقرب جلسائه وندمائه الذين لا شغل لهم ولا يرد عليهم أمر، أو نهى ولذا قيل: (فى جنات النعيم) دون جنات الخلود ونحوه، وقيل: خبر ثان لاسم الاشارة وتعقب بأن الاخبار

بكونهم فيها بعد الاخبار بكونهم مقربين ليس فيه مزيد مزية ، وأجيب بأن الإخبار الأول للاشارة إلى اللذة الروحانية والإخبار الثانى للاشارة إلى اللذة الجسمانية *

وقرأ طلحة فى جنة النعيم بالافراد ، وقوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ١٣ ﴾ خبر مبتدا مقدر أى هم ثلة الخ ، وجوز كونه مبتدأ خبره محذوف أى منهم ، أوخبراً أولا أوثانيا - لأولئك - وجوز أبو البقاء كونه مبتدأ والخبر (على سرر) ، والثلة فى المشهور الجماعة كثرت أوقلت ، وقال الزمخشرى : الأمة من الناس الكثيرة وأنشد قوله :

وجاءت اليهم (ثلة) خندفية (بجيش كتيار من السيل مزبد)

وقوله تعالى بعد : (وقليل) الخ كفى به دليلا على الكثرة انتهى ، والظاهر أنه أنشد البيت شاهداً لمعنى الكثرة فى الثلة فان كانت الباء تجريدية وهو الظاهر فنص وإلا فالاستدلال عليها من أن المقام مقام مبالغة ومدح، وأما استدلاله بما بعد فذلك لان التقابل مطلوب لان الثلة لم توضع للقليل بالاجماع حتى يحمل مابعد على التفنن بل هى إما للكثرة والاشتقاق عليها أدل لان الثل بمعنى الصب وبمعنى الهدم بالكلية، والثلة بالكسر الضأن الكثيرة وإما لمطلق الجماعة كالفرقة والقطعة من الثل بمعنى الكسر كأنها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم إلا أن الاستعمال غلب على الكثير فيها فالمعنى جماعة كثيرة من الاولين وهم الناس المتقدمون من لدن آدم إلى نبينا عليهما الصلاة والسلام وعلى من بينهما من الانبياء العظام ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ١٤ ﴾ وهم الناس من لدن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم إلى قيام الساعة ولا يخالفه قوله عليه الصلاة والسلام : «إن أمتى يكثرون سائر الأمم» أى يغلبونهم فى الكثرة لان أكثرية سابقى المتقدمين من سابقى هذه الامة لاتمنع أكثرية تابعى هؤلاء من تابعى أولئك *

وحاصل ذلك غلبة مجموع هذه الامة كثرة على من سواها كقرية فيها عشرة من العلماء ومائة من العوام وأخرى فيها خمسة من العلماء وألف من العوام فخواص الاولى أكثر من خواص الثانية وعوام الثانية ومجموع أهلها أضعاف أولئك ، لايقال يأبى أكثرية تابعى هؤلاء قوله تعالى : (ثلة من الاولين وثلة من الآخرين) فانه فى حق أصحاب اليمين وهم التابعون ، وقد عبر فى كل بالثلة أى الجماعة الكثيرة لأنا نقول لادلالة فى الآية على أكثر من وصف كل من الفريقين بالكثرة وذلك لاينافى أكثرية أحدهما فتحصل أن سابقى الامم السوالف أكثر من سابقى أمتنا وتابعى أمتنا أكثر من تابعى الامم ، والمراد بالامم مايدخل فيه الانبياء وحينئذ لايبعد أن يقال: إن كثرة سابقى الاولين ليس إلا بأنبيائهم فما على سابقى هذه الامة بأس إذ اكثرهم سابقو الامم بضم الانبياء عليهم السلام ، وأخرج الامام أحمد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة قال: « لما نزلت (ثلة من الاولين وقليل من الآخرين) شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فنزلت (ثلة من الاولين وثلة من الآخرين) فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: إنى لارجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة بل أنتم نصف أهل الجنة - أو شطر أهل الجنة - وتقاسمونهم النصف الثانى» وظاهره أنه شق عليهم قلة من وصف بها وأن الآية الثانية أزالت ذلك ورفعته وأبدلته بالكثرة ، ويدل على ذلك ماأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : لما نزلت (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) حزن أصحاب رسول الله ﷺ

وقالوا إذاً لا يكون من أمة محمد ﷺ إلا قليل فنزلت نصف النهار (ثلة من الاولين وثلة من الآخرين) فنسخت (وقليل من الآخرين) وأبى ذلك الزمخشرى فقال: إن الرواية غير صحيحة لامرين: أحدهما أن الآية الاولى واردة فى السابقين، والثانية فى أصحاب اليمين، والثانى أن النسخ فى الأخبار غير جائز فاذا أخبر تعالى عنهم بالقلة لم يجز أن يخبر عنهم بالكثرة من ذلك الوجه وماذكر من عدم جواز النسخ فى الأخبار أى فى مدلولها مطلقا هو المختار *

وقيل: يجوز النسخ فى المتغير إن كان عن مستقبل لجواز المحو لله تعالى فيما يقدره والاخبار يتبعه، وعلى هذا البيضاوى، وقيل: يجوز عن الماضى أيضاً وعليه الامام الرازى. والآمدى، وأما نسخ مدلول الخبر إذا كان مما لا يتغير كوجود الصانع وحدوث العالم فلا يجوز اتفاقاً فان كان ما نحن فيه مما يتغير فنسخه جائز عند البيضاوى ويوافقه ظاهر خبر أبى هريرة الثانى، ولا يجوز على المختار الذى عليه الشافعى وغيره فقول صاحب الكشف: لاخلاف فى عدم جواز النسخ فى مثل ماذكر من الخبر إذ لا يتضمن حكما شرعياً لايخلو عن شئ *

وأقول: قد يتعقب ماذكره الزمخشرى بأن الحديث قد صح وورود الآية الأولى فى السابقين والثانية فى أصحاب اليمين لا يرد مقتضاه فانه يجوز أن يقال: إن الصحابة رضى الله تعالى عنهم لما سمعوا الآية الاولى حسبوا أن الامر فى هذه الأمة يذهب على هذا النهج فيكون أصحاب اليمين ثلة من الاولين وقليلا منهم فيكثرهم الفائزون بالجنة من الامم السوالف فحزنوا لذلك فنزل قوله تعالى فى أصحاب اليمين: (ثلة من الاولين وثلة من الآخرين) وقال لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما قال مما أذهب به حزنهم وليس فى هذا نسخ للخبر كما لا يخفى *

وقول أبى هريرة فنسخت (وقليل من الآخرين) إن صح عنه ينبغى تأويله بأن يقال أراد به فأزالت حسبان أن يذكر نحوه فى الفائزين بالجنة من هذه الامة غير السابقين فتدبر، وعن عائشة رضى الله تعالى عنها: الفرقتان أى فى قوله تعالى: (ثلة من الاولين وقليل من الآخرين) فى أمة كل نبى فى صدرها ثلة وفى آخرها قليل، وقيل: هما من الأنبياء عليهم السلام كانوا فى صدر الدنيا كثيرين وفى آخرها قليلين *

وقال أبو حيان: جاء فى الحديث. الفرقتان فى أمتى فسابق أول الامة ثلة وسابق سائرها إلى يوم القيامة قليل - انتهى، وجاء فى فرقتى أصحاب اليمين نحو ذلك، أخرج مسدد فى مسنده. وابن المنذر. والطبرانى. وابن مردويه بسند حسن عن أبى بكرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى قوله سبحانه: (ثلة من الاولين وثلة من الآخرين) قال: هما جميعا من هذه الامة، وأخرج جماعة بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعا مالفظه هما جميعاً من أمتى؛ وعلى هذا يكون الخطاب فى قوله عز وجل: (وكنتم أزواجا ثلاثة) لهذه الأمة فقط ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ حال من المقربين أو من ضميرهم فى قوله تعالى: (فى جنات النعيم) بناءاً على أنه فى موضع الحال كما تقدم، وقيل: هو خبر آخر للضمير المحذوف المخبر عنه أولا - بثلة - وفيه وجه آخر أشرنا اليه فيما مر، (وموضونة) من الوضن وهو نسج الدرع قال الاعشى:

ومن (نسج داود) موضونة تسير مع الحى عيراً فعيرا

واستعير لمطلق النسج أو لنسج محكم مخصوص، ومن ذلك وضين الناقة وهو حزامها لأنه موضون أى مفتول؛ والمراد هنا على ما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس مرمولة أى منسوجة بالذهب، وفى رواية عنه بقضبان الفضة، وقال عكرمة: مشبكة بالدر والياقوت، وقيل: (موضونة) متصل بعضها ببعض كحلق الدرع، والمراد متقاربة، وقرأ زيد بن على. وأبو السمال (سرر) بفتح الراء وهى لغة لبعض تميم، وكلب يفتحون

عين فعل جمع فعيل المضعف نحو سرير ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا ﴾ حال من الضمير المستقر فى الجار والمجرور أعنى على سرر ، وقوله تعالى : ﴿ مُتَقَابِلِينَ ١٦ ﴾ حال منه أيضاً ولك أن تعتبر الحالين متداخلين ﴿

والمراد كما قال مجاهد : لا ينظر أحدهم فى قفا صاحبه وهو وصف لهم بحسن العشرة وتهذيب الاخلاق ورعاية الآداب وصفاء البواطن ، وقوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ حال أخرى أو استئناف أى يدور حولهم للخدمة ﴿ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ١٧ ﴾ أى مبقون أبداً على شكل الولدان وحد الوصافة لا يتحولون عن ذلك ، وإلا فكل أهل الجنة مخلد لا يموت ، وقال الفراء .وابن جبير : مقرطون بخلدة وهى ضرب من الاقراط قيل: هم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيآت فيعاقبوا عليها ، وروى هذا أمير المؤمنين على كرم الله تعالى وجهه ، وعن الحسن البصرى - واشتهر أنه عليه الصلاة والسلام - قال :أولاد الكفار خدم أهل الجنة - وذكر الطيبى أنه لم يصح بل صح مايدفعه ؛أخرج البخارى .وأبو داود.والنسائى عن عائشة قالت: توفى صبى فقلت :طوبى له عصفور من عصافير الجنة فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : أو لا تدرين أن الله تعالى خلق الجنة وخلق النار فخلق لهذه أهلا ولهذه أهلا ، وفى رواية خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم ﴿

وأخرج أبو داود عنها أنها قالت : قلت : يارسول الله ذرارى المؤمنين فقال من آبائهم فقلت: يارسول الله بلا عمل قال :الله أعلم بما كانوا عاملين قلت : يارسول الله فذرارى المشركين قال : من آبائهم فقلت : بلا عمل قال : الله أعلم بما كانوا عاملين ، وقيل: إنهم يمتحنون يوم القيامة فتخرج لهم نار ويؤمرون بالدخول فيها فمن دخلها وجدها برداً وسلاماً وأدخل الجنة ، ومن أبى أدخل النار مع سائر الكفار ويروون فى ذلك أثراً ﴿

ومن الغريب ماقيل: إنهم بعد الاعادة يكونون تراباً كالبهائم،وفى الكشف الاحاديث متعارضة فى المسألة و كذلك المذاهب ، والمسألة ظنية والعلم عند الله تعالى وهو عز وجل أعلم انتهى ؛ والاكثر على دخولهم الجنة بفضل الله تعالى ومزيد رحمته تبارك وتعالى،وسيأتى إن شاء الله تعالى تمام الكلام فى ذلك ﴿ بِأَكْوَابٍ ﴾ بآنية لاعرا لها ولا خراطيم ، والظاهر أنها الاقداح وبذلك فسرها عكرمة وهى جمع كوب ﴿ وَأَبَارِيقَ ﴾ جمع إبريق وهو إناء له خرطوم قيل: وعروة،وفى البحر أنه من أوانى الخمر ، وأنشد قول عدى بن زيد :

ودعوا بالصبوح يوما فجاءت ﴿ قينة يمينها إبريق ﴾

وفيه أيضا أنه إفعيل من البريق ، وذكر غير واحد أنه معرب - آب ريزاى - صاب الماء وهو أنسب بما فى بعض نسخ القاموس أنه معرب - آب رى - بلا زاى ، وأياًما كان فهو ليس مأخوذاً من البريق،نعم الإبريق بمعنى المرأة الحسنة البراقة والسيف البراق والقوس فيها تلاميع مأخوذ من ذلك ، ولعله يقول بأنه عربى لا معرب، وأن البريق بما فيه من الخمر والشعراء يصفونها بذلك كقوله :

(مشعشعة) كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا

أو لانه غالباً يتخذ مما له نوع برق كالبلور والفضة ﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ١٨ ﴾ أى خمر جارية من العيون كما قال ابن عباس . وقتادة أى لم يعصر كخمر الدنيا ، وقيل : خمر ظاهرة للعيون مرئية بها لأنها كذلك أهنأ ، وأفرد الكأس على ماقيل لأنها لا تسمى كأسا إلا إذا كانت مملوءة ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ أى بسببها وحقيقته

لا يصدر صداعهم عنها ، والمراد أنهم لا يلحق رءوسهم صداع لأجل خمار يحصل منها كما فى خمور الدنيا ، وقيل: لا يفرقون عنها بمعنى لا تقطع عنهم لذتهم بسبب من الأسباب كما تفرق أهل خمر الدنيا بأنواع من التفريق *

وقرأ مجاهد (لا يصدعون) بفتح الياء وشد الصاد على أن أصله يتصدعون فأدغم التاء فى الصاد أى لا يتفرقون كقوله تعالى: (يومئذ يصدعون) ، وقرىء (لا يصدعون) بفتح الياء والتخفيف أى لا يصدع بعضهم بعضاً ولا يفرقونهم أى لا يجلس داخل منهم بين اثنين فيفرق بين المتقاربين فانه سوء الأدب وليس من حسن العشرة ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ ١٩ ﴾ قال مجاهد. وقتادة . والضحاك : لا تذهب عقولهم بسكرها من نزف الشارب كعنى إذا ذهب عقله ، ويقال للسكران نزيف ومنزوف ، قيل : وهو من نزف الماء نزحه من البئر شيئاً فشيئاً فكان الكلام على تقدير مضاف *

وقرأ ابن أبى إسحق . وعبد الله . والسلمى . والجحدرى . والاعمش وطلحة . وعيسى . وعاصم كما أخرج عنه عبد بن حميد (ولا ينزفون) بضم الياء وكسر الزاى من أنزف الشارب إذا ذهب عقله أو شرابه ، ومعناه صار ذا نزف ؛ ونظيره أقشع السراب وقشعته الريح وحقيقته دخل فى القشع ، وقرأ ابن أبى إسحاق أيضا (ولا ينزفون) بفتح الياء وكسر الزاى قال : فى المجمع وهو محمول على أنه لا يفنى خمرهم ، والتناسب بين الجملتين على ما سمعت فيهما أولا على قراءة الجمهور أن الاولى لبيان نفى الضرر عن الاجسام ، والثانية لبيان نفى الضرر عن العقول وتأمل لتعرفه إن شاء الله تعالى على ماعدا ذلك ﴿ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ ﴾ أى يأخذون خيره وأفضله والمراد مما يرضونه ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ٢١ ﴾ مما تميل نفوسهم اليه وترغب فيه ، والظاهر أن فاكهة ولحم معطوفان على أكواب فتفيد الآية أن الولدان يطوفون بهما عليهم ، واستشكل بأنه قد جاء فى الآثار أن فاكهة الجنة وثمارها ينالها القائم والقاعد والنائم ، وعن مجاهد أنها دانية من أربابها فيتناولونها متكئين فاذا اضطجعوا نزلت بإزاء أفواههم فيتناولونها مضطجعين، وأن الرجل من أهل الجنة يشتهى الطير من طيور الجنة فيقع فى يده مقلياً نضجاً ، وقد أخرج هذا ابن أبى الدنيا عن أبى أمامة *

وأخرج عن ميمونة مرفوعا أن الرجل ليشتهى الطير فى الجنة فيجىء مثل البختى حتى يقع على خوانه لم يصبه دخان ولم تمسه نار فيأكل منه حتى يشبع ثم يطير إلى غير ذلك، وإذا كان الأمر كما ذكر استغنى عن طوافهم بالفاكهة واللحم ، وأجيب بأن ذلك ـ والله تعالى أعلم ـ حالة الاجتماع والشرب ، ويفعلون ذلك للاكرام ومزيد المحبة والتعظيم والاحترام ، وهذا كما يناول أحد الجلساء على خوان الآخر بعض ما عليه من الفواكه ونحوها وإن كان ذلك قريباً منه اعتناءاً بشأنه وإظهاراً لمحبته والاحتفال به ، وجوز أن يكون العطف على جنات النعيم وهو من باب ـ متقلداً سيفاً ورمحاً ـ أو من بابه المعروف ، وتقديم الفاكهة على اللحم للاشارة إلى أنهم ليسوا بحالة تقتضى تقديم اللحم كما فى الجائع فان حاجته إلى اللحم أشد من حاجته إلى الفاكهة بل هم بحالة تقتضى تقديم الفاكهة واختيارها كما فى الشبعان فانه إلى الفاكهة أميل منه إلى اللحم ، وجوز أن يكون ذلك لأن عادة أهل الدنيا لاسيما أهل الشرب منهم تقديم الفاكهة فى الأكل وهو طباً مستحسن لأنها ألطف وأسرع انحداراً وأقل احتياجاً إلى المكث فى المعدة للهضم ، وقد ذكروا أن أحد أسباب الهيضة إدخال اللطيف من الطعام على الكثيف منه ولأن الفاكهة تحرك الشهوة للاكل واللحم يدفعها غالبا *

ويعلم من الوجه الاول وجه تخصيص التخير بالفاكهة والاشتهاء باللحم ، وفيه إشارة إلى أن الفاكهة

لم تزل حاضرة عندهم وبمرأى منهم دون اللحم ووجه ذلك أنها مما تلذه الاعين دونه ، وقيل : وجه التخصيص كثرة أنواع الفاكهه واختلاف طعومها وألوانها وأشكالها وعدم كون اللحم كذلك ، وفي التعبير بيتخيرون دون يختارون وإن تقاربا معنى إشارة لمكان صيغة التفعل إلى أنهم يأخذون ما يكون منها في نهاية الكمال وأنهم في غاية الغنى عنها، والله تعالى أعلم بأسرار كلامه ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ٢٢ ﴾ عطف على (ولدان) أو على الضمير المستكن في (متكئين) أو على مبتدا حذف هو وخبره أي لهم هذا كل (وحور) أو مبتدأ حذف خبره أي لهم ، أو فيها حور ، وتعقب الوجه الأول بأن الطواف لا يناسب حالهن، وأجيب بأنه لا يبعد أن يكون من الحور ما ليس بمقصورات في الخيام ولا مخدرات هن كالخدم لهن لا يبالى بطوافهن ولا ينكر ذلك عليهن ، وأن الطواف في الخيام أنفسها وهو لا ينافي كونهن مقصورات فيها ، أو أن العطف على معنى لهم (ولدان، وحور) والثاني بأنه خلاف الظاهر جداً ، والثالث بكثرة الحذف ، و(عين) جمع عيناء وأصله عين على فعل كما تقول حمراء وحمر فكسرت العين لئلا تنقلب الياء واواً ، وليس في كلام العرب ياءاً ساكنة قبلها ضمة كما أنه ليس فيه واو ساكنة قبلها كسرة.

وقرأ السلمي . والحسن. وعمرو بن عبيد . وأبو جعفر . وشيبة. والاعمش. وطلحة والمفضل. وأبان. وعصمة عن عاصم . وحمزة . والكسائي (وحور عين) بالجر ، وقرأ النخعي كذلك إلا أنه قلب الواو ياءاً والضمة قبلها كسرة في (حور) فقال : وحير على الاتباع ـ لعين ـ وخرج على العطف على (جنات النعيم) وفيه مضاف محذوف كأنه قيل : هم في جنات وفاكهة ولحم ومصاحبة حور على تشبيه مصاحبة الحور بالظرف على نهج الاستعارة المكنية ، وقرينتها التخييلية إثبات معنى الظرفية بكلمة (في) فهي باقية على معناها الحقيقي ولا جمع بين الحقيقة والمجاز ، وذهب إلى العطف المذكور الزمخشري ، وتعقبه أبو حيان فقال : فيه بعد وتفكيك كلام مرتبط بعضه ببعض، وهو فهم أعجمي ـ وليس كما قال كما لا يخفى ـ أو على (أكواب) ويجعل من باب ـ متقلداً سيفاً ورمحاً ـ كما سمعت آنفاً كأنه قيل : ينعمون بأكواب وبحور، وجوز أن يبقى على ظاهره المعروف، وأن الولدان يطوفون عليهم بالحور أيضاً لعرض أنواع اللذات عليهم من المأكول والمشروب والمنكوح كما تأتى الخدام بالسرارى للملوك ويعرضوهن عليهم ، وإلى هذا ذهب أبو عمر . وقطرب، وأبى ذلك صاحب الكشف فقال: أما العطف على الولدان على الظاهر فلا لان الولدان لا يطوفون بهن طوافهم بالاكواب، والقلب إلى هذا أميل إلا أن يكون هناك أثر يدل على خلافه ، وكون الجر للجوار يأباه الفصل أو يضعفه . وقرأ أبي . وعبد الله ـ وحوراً عيناً ـ بالنصب، وخرج على العطف على محل (بأكواب) لان المعنى يعطون أكواباً وحوراً على أنه مفعول به لمحذوف أي ويعطون حوراً أو على العطف على محذوف وقع مفعولا به لمحذوف أيضاً أي يعطون هذا كله وحوراً، وقرأ قتادة (وحور) بالرفع مضافا إلى (عين) ، وابن مقسم (وحور) بالنصب مضافا ، وعكرمة ـ وحوراء عيناء ـ على التوحيد اسم جنس وبفتح الهمزة فيهما فاحتمل الجر والنصب ﴿ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ٢٣ ﴾ أي في الصفاء ، وقيد بالمكنون أي المستور بما يحفظه لانه أصفى وأبعد من التغير ، وفي الحديث صفاؤهن كصفاء الدر الذي لا تمسه الأيدي ، ووصف الحسنات بذلك شائع في العرب ، ومنه قوله :

قامت تراءى بين سجفي كلة ... كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

أودرة صـــدفية غواصها بهج متى يرها يهل ويسجد

والجار والمجرور فى موضع الصفة لحور ، أوالحال، والاتيان بالكاف للمبالغة فى التشبيه ، ولعل الأمر عليه نحو زيد قمر ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٢٤﴾ مفعول له لفعل محذوف أى يفعل بهم ذلك كله جزاءاً بأعمالهم أو بالذى استمروا على عمله أوهو مصدر مؤكد أى يجزون جزاء ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً﴾ مالا يعتد به من الكلام وهو الذى يورد لاعن روية وفكر فيجرى مجرى اللغا - وهو صوت العصافير ونحوها من الطير - وقد يسمى كل كلام قبيح لغواً ﴿وَلَا تَأْثِيماً ٢٥﴾ أى ولا نسبة إلى الاثم أى لا يقال لهم أثمتم ، وعن ابن عباس كما أخرج ابن المنذر . وابن أبى حاتم تفسيره بالكذب ، وأخرجه هناد عن الضحاك - وهو من المجاز كما لايخفى - والكلام من باب *

* ولاترى الضب بها ينجحر * ﴿إِلَّا قِيلاً﴾ أى قولا فهو مصدر مثله ﴿سَلَٰماً سَلَٰماً ٢٦﴾ بدل من (قيلا) كقوله تعالى :(لايسمعون فيها لغواً إلا سلاماً) وقال الزجاج : هو صفة له بتأويله بالمشتق أى سالماً من هذه العيوب أو مفعوله ، والمراد لفظه فلذا جاز وقوعه مفعولا للقول مع إفراده ، والمعنى إلا أن يقول بعضهم لبعض (سلاماً)، وقيل: هو مصدر لفعل مقدر من لفظه وهو مقول القول ومفعوله حينئذ أى نسلم سلاما ، والتكرير للدلالة على فشو السلام وكثرته فيما بينهم لان المراد سلاما بعد سلام، والاستثناء منقطع وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم محتمل لأن يكون من الضرب الأول منه، وهو أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشئ صفة مدح له بتقدير دخولها فيها بأن يقدر السلام هنا داخلا فيما قبل فيفيد التأكيد من وجهين، وأن يكون من الضرب الثانى منه وهو أن يثبت لشئ صفة مدح ويعقب بأداة استثناء يليها صفة مدح أخرى بأن لا يقدر ذلك، ويجعل الاستثناء من أصله منقطعا فيفيد التأكيد من وجه، ولولا ذكر التأثيم -على ماقاله السعد- جاز جعل الاستثناء متصلا حقيقة لان معنى السلام الدعاء بالسلامة وأهل الجنة أغنياء عن ذلك فكان ظاهره من قبيل اللغو وفضول الكلام لولا مافيه من فائدة الاكرام ، وإنما منع التأثيم الذى هو النسبة إلى الاثم لأنه لايمكن جعل السلام من قبيله وليس لك فى الكلام أن تذكر متعددين ثم تأتى بالاستثناء المتصل من الاول مثل أن تقول : ماجاء من رجل ولا امرأة إلا زيداً ولو قصدت ذلك كان الواجب أن تؤخر ذكر الرجل ، وقرىء - سلام سلام - بالرفع على الحكاية، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ الخ شروع فى بيان تفاصيل شئونهم بعد بيان تفاصيل شئون السابقين (وأصحاب) مبتدأ وقوله: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ٢٧﴾ جملة استفهامية مشعرة بتفخيمهم والتعجيب من حالهم وهى على ماقالوا : إما خبر للمبتدا ، وقوله سبحانه : ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ خبر ثان له ، أو خبر لمبتدا محذوف أى هم فى سدر ، والجملة استئناف لبيان ماأبهم فى قوله عز وجل: (ماأصحاب اليمين) من علو الشأن ، وإما معترضة والخبر هو قوله تعالى شأنه : (فى سدر) وجوز أن تكون تلك الجملة فى موضع الصفة والخبر هو هذا الجار والمجرور ، والجملة عطف على قوله تبارك وتعالى فى شرح أحوال السابقين :(أولئك المقربون فى جنات النعيم) أى (وأصحاب اليمين) المقول فيهم (ماأصحاب اليمين) كائنون (فى سدر) الخ ، والظاهر أن التعبير بالميمنة فيما مر، وباليمين هنا للتفنن وكذا يقال فى المشأمة والشمال فيما بعد ، وقال الامام : الحكمة فى ذلك أن فى الميمنة وكذا المشأمة

دلالة على الموضع والمكان والازواج الثلاثة فى أول الامر يتميز بعضهم عن بعض ويتفرقون بالمكان فلذا جيء أولا بلفظ يدل على المكان وفيما بعد يكون التميز والتفرق بأمر فيهم فلذا لم يؤت بذلك اللفظ ثانياً، والسدر شجر النبق، والمخضود الذى خضد أى قطع شوكه، أخرج الحاكم وصححه. والبيهقى عن أبى أمامة قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون إن الله تعالى ينفعنا بالأعراب ومسائلهم أقبل أعرابى يوماً فقال: يارسول الله لقد ذكر الله تعالى فى القرآن شجرة مؤذية وماكنت أرى أن فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها قال: وماهى؟ قال: السدر فان له شوكا فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أليس الله يقول: (فى سدر مخضود) خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة وأن الثمرة من ثمره تفتق عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام مافيها لون يشبه الآخر» *

وأخرج عبد بن حميد عن بن عباس. وقتادة. وعكرمة. والضحاك أنه الموقر حملا على أنه من خضد الغصن إذا ثناه وهو رطب فمخضود مثنى الاغصان كنى به عن كثير الحمل *

وقد أخرج ابن المنذر عن يزيد الرقاشى أن النبقة أعظم من القلال والظرفية مجازية للمبالغة فى تمكنهم من التنعم والانتفاع بماذكر ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ قد نضد حمله من أسفله إلى أعلاه ليست له ساق بارزة وهو شجر الموز كما أخرج ذلك عبد الرزاق. وهناد. وعبد بن حميد. وابن جرير. وابن مردويه عن على كرم الله تعالى وجهه، وأخرجه جماعة من طرق عن ابن عباس ورواه ابن المنذر عن أبى هريرة، وأبى سعيد الخدرى. وعبد بن حميد عن الحسن، ومجاهد. وقتادة، وعن الحسن أنه قال: ليس بالموز ولكنه شجر ظله بارد رطب، وقال السدى: شجر يشبه طلح الدنيا ولكن له ثمر أحلى من العسل، وقيل: هو شجر من عظام العضاه، وقيل: شجر أم غيلان وله نوار كثير طيب الرائحة ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ ممتد منبسط لا يتقاص ولا يتفاوت كظل مابين طلوع الفجر وطلوع الشمس، وظاهر الآثار يقتضى أنه ظل الاشجار *

أخرج أحمد. والبخارى. ومسلم. والترمذى. وابن ماجه. وغيرهم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها اقرءوا إن شئتم (وظل ممدود)» *

وأخرج أحمد. والبخارى. ومسلم. والترمذى. وابن مردويه. عن أبى سعيد قال: «قال رسول الله ﷺ: فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها وذلك الظل الممدود» *

وأخرج ابن أبى حاتم. وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: الظل الممدود شجرة فى الجنة على ساق ظلها قدر مايسير الراكب فى كل نواحيها مائة عام يخرج اليها أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون فى ظلها فيشتهى بعضهم ويذكر لهو الدنيا فيرسل الله تعالى ريحا من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو فى الدنيا، وعن مجاهد أنه قال: هذا الظل من سدرها وطلحها، وأخرج عبد بن حميد. وابن جرير. وابن المنذر عن عمرو بن ميمون أنه قال: الظل الممدود مسيرة سبعين ألف سنة ﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ قال [illegible] وغيره: جار من غير أخاديد، وقيل: منساب حيث شاءوا لا يحتاجون فيه إلى سانية ولا رشاء وذكر هذه الاشياء لما أن كثيراً من المؤمنين لبداوتهم تمنوها، أخرج عبد بن حميد. وابن جرير. والبيهقى عن [illegible] قال: كانوا يعجبون بوج وظلاله من طلحه وسدره فأنزل الله تعالى: (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر مخضود) الخ، وفى رواية عن الضحاك «نظر المسلمون إلى وج فأعجبهم سدره وقالوا: ياليت لنا مثل هذا فنزلت هذه الآية» *

وقيل: كأنه لما شبه حال السابقين بأقصى مايتصور لأهل المدن من كونهم على سرر تطوف عليهم خدامهم بأنواع الملاذ شبه حال أصحاب اليمين بأكمل مايتصور لأهل البوادى من نزولهم فى أماكن مخصبة فيها مياه وأشجار وظلال إيذاناً بأن التفاوت بين الفريقين كالتفاوت بين أهل المدن والبوادى، وذكر الامام مدعياً أنه مماوفقله أن قوله تعالى: (فى سدر مخضود وطلح منضود) من باب قوله سبحانه: (رب المشرق والمغرب) لأن السدر أوراقه فى غاية الصغر والطلح يعنى الموز أوراقه فى غاية الكبر فوقعت الاشارة إلى الطرفين فيراد جميع الأشجار لأنها نظراً إلى أوراقها محصورة بينهما وهو مما لابأس به، وقرأ على كرم الله تعالى وجهه، وجعفر بن محمد. وعبد الله رضى الله تعالى عنهم ـ وطلع ـ بالعين بدل (وطلح) بالحاء، وأخرج ابن الانبارى فى المصاحف. وابن جرير عن قيس بن عباد قال: قرأت على على كرم الله تعالى وجهه (وطلح منضود) فقال: مابال الطلح؟ أما تقرأ وطلع، ثم قرأ قوله تعالى: (لها طلع نضيد) فقيل له: ياأمير المؤمنين انحكها من المصحف؟ فقال: لا يهاج القرآن اليوم وهى رواية غير صحيحة كما نبه على ذلك الطيبى، وكيف يقر أمير المؤمنين كرم الله تعالى وجهه تحريفاً فى كتاب الله تعالى المتداول بين الناس، أو كيف يظن بأن نقلة القرآن ورواته وكتابه من قبل تعمدوا ذلك أو غفلوا عنه؟ هذا والله تعالى قد تكفل بحفظه سبحانك هذا بهتان عظيم ٭

ثم إن الذى يقتضيه النظم الجليل كما قال الطيبى: حمل (فى سدر مخضود) الخ على معنى التظليل، وتكاثف الأشجار على سبيل الترقى لأن الفواكه مستغنى عنها بما بعد وليقابل قوله تعالى: (وأصحاب الشمال ماأصحاب الشمال فى سموم وحميم وظل من يحموم) قوله سبحانه: (وأصحاب اليمين) الخ فاذن لامدخل لحديث الطلع فى معنى الظل ومايتصل به لكن قال صاحب الكشف: إن وصف الطلح بكونه منضوداً لايظهر له كثير ملاءمة لكون المقصود منفعة التظليل وينبغى أن يحمل الطلح على أنه من عظام العضاه على ماذكره فى الصحاح فشجر أم غيلان والموز لاظل لها يعتد به، ثم قال: ولو حمل الطلح على المشموم لكان وجهاً انتهى، وقد قدمنا لك خبر سبب النزول فلا تغفل ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أى بحسب الأنواع والاجناس على مايقتضيه المقام ٭

﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ فى وقت من الاوقات كفواكه الدنيا ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ عمن يريد تناولها بوجه من الوجوه ولا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا، وقرىء (وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولاممنوعة) بالرفع فى الجميع على تقدير وهناك (فاكهة) الخ ﴿وَفُرُشٍ﴾ جمع فراش كسراج وسرج، وقرأ أبو حيوة بسكون الراء ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ منضدة مرتفعة أو مرفوعة على الاسرة فالرفع حسى كما هو الظاهر، وقد أخرج أحمد. والترمذى وحسنه. والنسائى. وجماعة عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام ولا تستبعد ذلك من حيث العروج والنزول ونحوهما فالعالم عالم آخر وراء طور عقلك ٭

وأخرج هناد عن الحسن أن ارتفاعها مسيرة ثمانين سنة وليس بمثابة الخبر السابق، وقال بعضهم: أى رفيعة القدر على أن رفعها معنوى بمعنى شرفها وأياً ما كان فالمراد بالفرش مايفرش للجلوس عليه. وقال أبو عبيدة: المراد بها النساء لأن المرأة يكنى عنها بالفراش كما يكنى عنها باللباس ورفعهن فى الاقدار والمنازل ٭

وقيل: على الأرائك وأيد إرادة النساء بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ٣٥﴾ لأن الضمير فى الأغلب

يعود على مذكور متقدم وليس إلا الفرش ولا يناسب العود اليه إلا بهذا المعنى والاستخدام بعيد هنا، وعلى القول فى الفرش الضمير للنساء وإن لم يجر لها ذكر لتقدم مايدل عليها فهو تتميم بياناً لمقدر يدل عليه السياق كأنه قيل وفرش مرفوعة ونساء أو وحور عين، ثم استؤنف وصفهن بقوله سبحانه : (إنا أنشأناهن) تتميما للبيان زيادة للترغيب لا لتعليل الرفع ، وقيل : إن المرجع مضمر وتقدير المنزل وفرش مرفوعة لأزواجهم أو لنسائهم فإنا الخ استئناف علة للرفع أى وفرش مرفوعة لأزواجهم لأنا أنشأناهن ، والأول أوفق لبلاغة القرآن العظيم ، والمراد بأنشأناهن أعدنا إنشاءهن من غير ولادة لأن المخبر عنهن بذلك نساء كن فى الدنيا *

فقد أخرج ابن جرير . وعبد بن حميد . والترمذى . وآخرون عن أنس قال : « قال رسول الله ﷺ : فى الآية إن المنشآت اللاتى كن فى الدنيا عجائز عمشاً رمصاً » وأخرج الطبرانى . وابن أبى حاتم . وجماعة عن سلمة بن مرثد الجعفى قال : « سمعت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول فى قوله تعالى : (إنا أنشأناهن إنشاءاً) الثيب والابكار اللاتى كن فى الدنيا » وأخرج الترمذى فى الشمائل . وابن المنذر . وغيرهما عن الحسن قال : « أتت عجوز فقالت : يارسول الله ادع الله أن يدخلنى الجنة فقال : يا أم فلان إن الجنة لاتدخلها عجوز فولت تبكى قال: أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز إن الله تعالى يقول : (إنا أنشأناهن إنشاءاً) الخ ، وقال أبو حيان: الظاهر أن الإنشاء هو الاختراع الذى لم يسبق بخلق ويكون ذلك مخصوصاً بالحور العين فالمعنى إنا ابتدأناهن ابتداءاً جديداً من غير ولادة ولا خلق أول ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا ٣٦ ﴾ تفسير لما تقدم ، والجعل إما بمعنى التصيير ، و(أبكاراً) مفعول ثان ، أو بمعنى الخلق و(أبكاراً) حال أو مفعول ثان ، والكلام من قبيل ضيق فم الركية ، وفى الحديث «إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً» أخرجه الطبرانى فى الصغير . والبزار عن أبى سعيد مرفوعا ﴿ عُرُبًا ﴾ متحببات إلى أزواجهن جمع عروب كصبور وصبر ، وروى هذا عن جماعة من السلف وفسرها جماعة أخرى بغنجات ، ولا يخفى أن الغنج ألطف أسباب التحبب ، وعن زيد بن أسلم العروب الحسنة الكلام ، وفى رواية عن ابن عباس . والحسن . وابن جبير . ومجاهد هن العواشق لازواجهن ، ومنه على ما قيل قول لبيد :

وفى الخدور (عروب غير فاحشة) ريا الروادف يعشى دونها البصر

وفى رواية أخرى عن مجاهد أنهن الغلمات اللاتى يشتهين أزواجهن ، وأخرج ابن عدى بسند ضعيف عن أنس مرفوعا ـ خير نسائكم العفيفة الغلمة ـ وقال اسحق بن عبد الله بن الحرث النوفلى : العروب الخفرة المتبذلة لزوجها ، وأنشد :

(يعرين عند بعولهن) إذا خلوا وإذا (هم خرجوا فهن خفار)

ويرجع هذا إلى التحبب ، وأخرج ابن أبى حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه قال . قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى : (عرباً) كلامهن عربى ، ولا أظن لهذا صحة ، والتفسير بالمتحببات هو الذى عليه الاكثر *

وقرأ حمزة . وجماعة ـ منهم عباس . والاصمعى ـ عن أبى عمرو ، وأخرى ـ منها خارجة . وكردم ـ عن نافع ، وأخرى منها حماد . وأبو بكر . وأبان ـ عن عاصم (عرباً) بسكون الراء وهى لغة تميم ، وقال غير واحد: هى للتخفيف كما فى عنق وعنق ﴿ أَتْرَابًا ٣٧ ﴾ مستويات فى سن واحد كما قال أنس . وابن عباس . ومجاهد . والحسن . وعكرمة .

وقتادة . وغيرهم كأنهن شبهن فى التساوى بالترائب التى هى ضلوع الصدر . أو كأنهن وقعن معاً على التراب أى الأرض وهن بنات ثلاث وثلاثين سنة وكذا أزواجهن .

وأخرج الترمذى عن معاذ مرفوعاً « يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاثين ، أو ثلاث وثلاثين » والمراد بذلك كمال الشباب ، وقوله تعالى: ﴿ لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ٣٨ ﴾ متعلق ـ بأنشانا ـ أو بجعلنا ، وقيل: متعلق ـ بأترابا ـ كقولك فلان ترب لفلان أى مساوله فهو محتاج إلى التأويل، وتعقب بأنه مع هذا ليس فيه كثير فائدة وفيه نظر، وقيل : بمحذوف هو صفة ـ لأبكاراً ـ أى كائنات لأصحاب اليمين ، وفيه إقامة الظاهر مقام الضمير لطول العهد أو للتأكيد والتحقيق، وقوله تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ٤٠ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هم ثلة ، أو خبر ثان لهم المقدر مبتدأ مع (فى سدر) أو (لأصحاب اليمين) فى قوله تعالى: (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين) أو مبتدأ خبره محذوف أى منهم، أو مبتدأ خبره الجار والمجرور قبله احتمالات اعترض الاخير منها بأن المعنى عليه غير ظاهر ولا طلاوة فيه ، وجعل اللام بمعنى من كما فى قوله :

* ونحن لكم يوم القيامة أفضل * لا يخفى حاله ـ والاولون والآخرون ـ المتقدمون والمتأخرون إما من الأمم وهذه الأمة ، أو من هذه الامة فقط على ماسمعت فيما تقدم، هذا ولم يقل سبحانه فى حق أصحاب اليمين ـ جزاءاً بما كانوا يعملون ـ كما قاله عز وجل فى حق السابقين رمزاً إلى أن الفضل فى حقهم متمحض كأن عملهم لقصوره عن عمل السابقين لم يعتبر اعتباره . ثم الظاهر أن ماذكر من حال أصحاب اليمين هو حالهم الذى ينتهون إليه فلا ينافى أن يكون منهم من يعذب لمعاص فعلها ومات غير تائب عنها ثم يدخل الجنة، ولا يمكن أن يقال: إن المؤمن العاصى من أصحاب الشمال لان صريح أوصافهم الآتية يقتضى أنهم كانوا كافرين ويلزم من جعل هذا قسما على حدة كون القسمة غير مستوفاة فليتأمل ، والله تعالى أعلم .

والكلام فى قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١ فِى سَمُومٍ ﴾ على نمط ماسلف فى نظيره ، والسموم قال الراغب : الريح الحارة التى تؤثر تأثير السم ، وفى الكشاف حرّ نار ينفذ فى المسام والتنوين للتعظيم وكذا فى قوله تعالى : ﴿ وَحَمِيمٍ ٤٢ ﴾ وهو الماء الشديد الحرارة ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ٤٣ ﴾ أى دخان أسود كما قال ابن عباس . وأبو مالك . وابن زيد . والجمهور وهى على وزن يفعول ، وله نظائر قليلة من الحممة القطعة من الفحم وتسميته ظلا على التشبيه التهكمى ، وعن ابن عباس أيضاً أنه سرادق النار المحيط بأهلها يرتفع من كل ناحية حتى يظلهم ، وقال ابن كيسان: هو من أسماء جهنم فانها سوداء وكذا كل مافيها أسود بهيم نعوذ بالله تعالى منها . وقال ابن بريدة. وابن زيد أيضاً : هو جبل فى النار أسود يفزع أهل النار إلى ذراه فيجدونه أشد شئ ، والجار والمجرور فى موضع الصفة ـ لظل ـ وكذا قوله سبحانه : ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤ ﴾ صفتان له ، وتقديم الصفة الجار والمجرور على الصفة المفردة جائز كما صرح به الرضى وغيره أى لا بارد كسائر الظلال ، ولا نافع لمن يأوى اليه من أذى الحر ـ وذلك كرمه ـ فهناك استعارة ، ونفى ذلك ليمحق توهم مافى الظل من الاسترواح اليه وإن وصف أولا بقوله تعالى : (من يحموم) والمعنى أنه ظل حار ضار إلا أن للنفى شأنا ليس للاثبات ومن ذلك جاء التهكم والتعريض بأن الذى يستأهل الظل الذى فيه برد وإكرام غير هؤلاء فيكون

أشجى لحلوقهم وأشد لتحسرهم ، وقيل : الكرم باعتبار أنه مرضى فى بابه،فالظل الكريم هو المرضى فى برده وروحه ، وفيه أنه لايلائم ماهنا لقوله تعالى : (لابارد) وجوز أن يكون ذلك نفياً لكرامة من يستروح اليه ونسب إلى الظل مجازاً ، والمراد أنهم يستظلون به وهم مهانون ، وقد يحتمل المجاس الردئ لنيل الكرامة، وفى البحر يجوز أن يكونا صفتين ـ ليحموم ـ ويلزم منه وصف الظل بهما ، وتعقب بأن وصف اليحموم وهو الدخان بذلك ليس فيه كبير فائدة ، وقرأ ابن أبى عبلة (لا بارد ولا كريم) برفعهما أى لا هو بارد ولا كريم على حد قوله ☆ فأبيت لا حرج ولا محروم ☆ أى لا أنا حرج ولا محروم ، وقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ٤٥ ﴾ تعليل لابتلائهم بما ذكر من العذاب ، وسلك هذا المسلك فى تعليل الابتداء بالعذاب اهتماما بدفع توهم الظلم فى التعذيب ، ولما كان إيصال الثواب مما ليس فيه توهم نقص أصلا لم يسلك فيه نحو هذا ، والمترف هنا بقرينة المقام هو المتروك يصنع مايشاء لايمنع ، والمعنى أنهم عذبوا لأنهم كانوا قبل ماذكر من العذاب فى الدنيا متبعين هوى أنفسهم وليس لهم رادع منها يردعهم عن مخالفة أوامره عز وجل وارتكاب نواهيه سبحانه كذا قيل ، وقيل : هو العاتى المستكبر عن قبول الحق والاذعان له ، والمعنى أنهم عذبوا لانهم كانوا فى الدنيا مستكبرين عن قبول ماجاءتهم به رسلهم من الايمان بالله عز وجل وماجاء منه سبحانه، وقيل : هو الذى أترفته النعمة أى أبطرته وأطغته ، وقريب منه ماقيل :هو المنعم المنهمك فى الشهوات، وعليه قول أبى السعود أى أنهم كانوا قبل ماذكر من سوء العذاب فى الدنيا منعمين بأنواع النعم من المآكل والمشارب والمساكن الطيبة والمقامات الكريمة منهمكين فى الشهوات فلا جرم عذبوا بنقائضها ، وتعقب بأن كثيراً من أهل الشمال ليسوا مترفين بالمعنى الذى اعتبره فكيف يصح تعليل عذاب الكل بذلك ولا يرد هذا على ماقدمناه من القولين كما لايخفى ☆

ومن الناس من فسر المترف بما ذكر وتفصى عن الاعتراض بأن تعليل عذاب الكل بما ذكر فى حيز العلة لا يستدعى أن يكون كل من المذكورات موجوداً فى كل من أصحاب الشمال بل وجود المجموع فى المجموع وهذا لا يضر فيه اختصاص البعض بالبعض فتأمله ، وقيل : المترف المجعول ذا ترفة أى نعمة واسعة والكل مترفون بالنسبة إلى الحالة التى يكونون عليها يوم القيامة ، وهو على مافيه لا يظهر أمر التعليل عليه ﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ ﴾ يتشددون ويمتنعون من الاقلاع ويداومون ﴿ عَلَى ٱلْحِنثِ ﴾ أى الذنب ﴿ ٱلْعَظِيمِ ٤٦ ﴾ وفسر بعضهم الحنث بالذنب العظيم لا بمطلق الذنب وأيد بأنه فى الاصل العدل العظيم فوصفه بالعظيم للمبالغة فى وصفه بالعظم كما وصف الطود وهو الجبل العظيم به أيضاً، والمراد به كما روى عن قتادة . والضحاك . وابن زيد الشرك وهو الظاهر ه

وأخرج عبد بن حميد عن الشعبى أن المراد به الكبائر وكأنه جعل المعنى ـ وكانوا يصرون على كل حنث عظيم ـ وفى رواية أخرى عنه أنه اليمين الغموس وظاهره الاطلاق، وقال التاج السبكى فى طبقاته :سألت الشيخ ـ يعنى والده تقى الدين ـ ما الحنث العظيم ؟ ـ فقال : هو القسم على إنكار البعث المشار اليه بقوله تعالى :(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) وهو تفسير حسن لأن الحنث وإن فسر بالذنب مطلقاً أو العظيم فالمشهور استعماله فى عدم البر فى القسم ، وتعقب بأنه يأباه قوله تعالى :

﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا ﴾ إلى آخره للزوم التكرار ، وأجيب بأن المراد بالأول

وصفهم بالثبات على القسم الكاذب وبالثاني وصفهم بالاستمرار على الانكار والرمز إلى استدلال ظاهر الفساد مع أنه لا محذور فى تكرار ما يدل على الانكار وهو توطئة وتمهيد لبيان فساده، والمراد بقولهم: - كنا ترابا وعظاما - كان بعض أجزائنا من اللحم والجلد ونحوهما ترابا وبعضها عظاما نخرة، وتقديم التراب لأنه أبعد عن الحياة التى يقتضيها ماهم بصدد إنكاره من البعث، - وإذا - متمحضة للظرفية والعامل فيها مادل عليه قوله تعالى:

﴿ أءنا لمبعوثون ٤٧ ﴾ لا مبعوثون نفسه لتعدد ما يمنع من عمل ما بعده فيما قبله - وهو نبعث - وهو المرجع للانكار وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيص إنكاره به فانهم منكرون للإحياء بعد الموت وإن كان البدن على حاله لتقوية الانكار للبعث بتوجيهه اليه فى حالة منافية له بالكلية وهذا كالاستدلال على ما يزعمونه، وتكرير الهمزة لتأكيد النكير وتحلية الجملة بأن لتأكيد الانكار لا لإنكار التأكيد، وقوله سبحانه: ﴿ أوءاباؤنا الأولون ٤٨ ﴾ عطف على محل - إن - واسمها. أو على الضمير المستتر فى مبعوثون وحسن للفصل بالهمزة وإن كانت حرفا واحداً - كما قال الزمخشري - ولا يضر عمل ما قبل هذه الهمزة فى المعطوف بعدها لأنها مكررة للتأكيد وقد زحلقت عن مكانها، وقولهم: الحرف إذا كرر للتأكيد فلا بد أن يعاد معه ما اتصل به أولا أو ضمير لا يسلم اطراده لورود * ولا - للما - بهم أبداً دواء * وأمثاله، وجوز أن يكون (آباؤنا) مبتدأ وخبره محذوف دل عليه ما قبل أى مبعوثون، والجملة عطف على الجملة السابقة وهو تكلف يغنى عنه العطف المذكور والمعنى - أيبعث أيضا آباؤنا - على زيادة الاستبعاد يعنون أنهم أقدم فبعثهم أبعد وأبطل، وقرأ قالون. وابن عامر (أو آباؤنا) بإسكان الواو وعلى هذه القراءة لا يعطف على الضمير إذ لا فاصل.

﴿ قل ﴾ رداً لإنكارهم وتحقيقاً للحق ﴿ إن الأولين والآخرين ٤٩ ﴾ من الامم الذين من جملتهم أنتم وآباؤكم، وتقديم الأولين للمبالغة فى الرد حيث كان إنكارهم لبعث آبائهم أشد من إنكارهم لبعثهم مع مراعاة الترتيب الوجودى ﴿ لمجموعون ﴾ بعد البعث، وقرئ (لمجمعون) ﴿ إلى ميقات يوم معلوم ٥٠ ﴾ وهو يوم القيامة ومعنى كونه معلوماً كونه معيناً عند الله عز وجل، والميقات ما وقت به الشئ أى حد، ومنه مواقيت الإحرام وهى الحدود التى لا يتجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرما، وإضافته (إلى يوم) بيانية كما فى خاتم فضة، وكون يوم القيامة ميقاتاً لأنه وقتت به الدنيا، و(إلى) للغاية والانتهاء، وقيل: والمعنى (لمجموعون) منتهين إلى ذلك اليوم، وقيل: ضمن معنى السوق فلذا تعدى بها ﴿ ثم إنكم أيها الضالون ﴾ عطف على (إن الأولين) داخل فى حيز القول، و(ثم) للتراخى الزمانى أو الرتبى ﴿ المكذبون ٥١ ﴾ بالبعث، أو بما يعمه وغيره ويدخل هو دخولا أولياً للسياق على ما قيل، والخطاب لأهل مكة وأضرابهم ﴿ لآكلون ﴾ بعد البعث والجمع ودخول جهنم ﴿ من شجر من زقوم ٥٢ ﴾ (من) الأولى لابتداء الغاية والثانية لبيان الشجر وتفسيره أى مبتدءون للأكل من شجر هو زقوم، وجوز كون الأولى تبعيضية و(من) الثانية على حالها، وجوز كون (من زقوم) بدلا من قوله تعالى: (من شجر) فمن تحتمل الوجهين، وقيل: الاولى زائدة، وقرأ عبد الله من شجرة فوجه التأنيث ظاهر فى قوله تعالى:

﴿ فمالئون منها البطون ٥٣ ﴾ أى بطونكم من شدة الجوع فانه الذى اضطرهم وقسرهم على أكل مثلها مما

لايؤكل ، وأما على قراءة الجمهور فوجهه الحمل على المعنى لأنه بمعنى الشجرة ، أو الاشجار إذا نظر لصدقه على المتعدد ، وأما التذكير على هذه القراءة فى قوله سبحانه : ﴿ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ ﴾ أى عقيب ذلك بلا ريث ﴿ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ٥٤ ﴾ أى الماء الحار فى الغاية لغلبة العطش فظاهر لايحتاج إلى تأويل ، وقال بعضهم: التأنيث أولا باعتبار المعنى والتذكير ثانيا باعتبار اللفظ ، فقيل عليه : إن فيه اعتبار اللفظ بعد اعتبار المعنى على خلاف المتعارف فلو أعيد الضمير المذكر على الشجر باعتبار كونه مأكولا ليكون التذكير والتأنيث باعتبار المعنى كان أولى وفيه بحث ، ووجهه على القراءة الثانية أن الضمير عائد على الزقوم أو على الشجر باعتبار أنها زقوم أو باعتبار أنها مأكول ، وقيل : هو مطلقاً عائد على الأكل ، وتعقب بأنه بعيد لأن الشرب عليه لا على تناوله مع ما فيه من تفكيك الضمائر وكونه مجازاً شائعاً وغير ملبس لايدفع البعد فتأمل .

﴿ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ٥٥ ﴾ قال ابن عباس . ومجاهد . وعكرمة . والضحاك جمع أهيم وهو الجمل الذى أصابه الهيام بضم الهاء وهو داء يشبه الاستسقاء يصيب الابل فتشرب حتى تموت ، أو تسقم سقماً شديداً ، ويقال إبل هيماء وناقة هيماء كما يقال : جمل أهيم قال الشاعر :

فأصبحت (كالهيماء لا الماء مبرد صداها) ولا يقضى عليها هيامها

وجعل بعضهم (الهيم) هنا جمع الهيماء ، وقيل : هو جمع هائم أو هائمة ، وجمع فاعل على فعل كبازل وبزل شاذ ، وعن ابن عباس أيضا . وسفيان (الهيم) الرمال التى لاتروى من الماء لتخلخلها ومفرده هيام بفتح الهاء على المشهور كسحاب وسحب ثم خفف وفعل به مافعل بجمع أبيض من قلب الضمة كسرة لتسلم الياء ويخف اللفظ فكسرت الهاء لاجل الياء وهو قياس مطرد فى بابه ، وقال ثعلب : هو بالضم كقراد وقرد ثم خفف وفعل به مافعل بما سمعت والعطف بالفاء قيل : لأن الافراط بعد الأصلى ، وقيل : لأن كلا من المتعاطفين أخص من الآخر فان شارب الحميم قد لايكون به داء الهيام ومن به داء الهيام قد يشرب غير الحميم ، والشرب الذى لايحصل الرى ناشئ عن شرب الحميم لانه لايبل الغليل ، والذى اختاره ماقاله مفتى الديار الرومية : إن ذلك كالتفسير لما قبله أى لايكون شربكم شربا معتاداً بل يكون مثل شرب الهيم ، والشرب بالضم مصدر ، وقيل : اسم لما يشرب ، وقرأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم - كما روى جماعة منهم الحاكم وصححه - عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما « شَرب » بفتح الشين وهو مصدر شرب المقيس ، وبذلك قرأ جمع من السبعة . والاعرج . وابن المسيب . وشعيب . ومالك بن دينار . وابن جريج ، وقرأ مجاهد . وأبو عثمان النهدى بكسر الشين وهو اسم بمعنى المشروب لامصدر كالطحن والرعى ﴿ هَٰذَا ﴾ الذى ذكر من ألوان العذاب ﴿ نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ٥٦ ﴾ يوم الجزاء فاذا كان ذلك نزلهم وهو مايقدم للنازل مما حضر فما ظنك بما لهم بعد مااستقر لهم القرار واطمأنت لهم الدار فى النار ، وفى جعله نزلا مع أنه مما يكرم به النازل من التهكم مالايخفى ، ونظير ذلك قوله :

وكنا إذ الجبار بالجيش ضافنا (جعلنا القنا والمرهفات له نزلا)

وقرأ ابن محيصن . وخارجة عن نافع . ونعيم . ومحبوب . وأبو زيد . وهرون . وعصمة . وعباس كلهم عن أبى عمرو نزلهم بتسكين الزاى المضمومة للتخفيف كما فى البيت ، والجملة مسوقة من جهته سبحانه وتعالى بطريق الفذلكة مقررة لمضمون الكلام الملقن غير داخلة تحت القول ، وقوله تعالى :

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ٥٧ ﴾ تلوين للخطاب و توجيه له إلى الكفرة بطريق الالزام والتبكيت والفاء لترتيب التحضيض على ماقبلها أى فهلا تصدقون بالخلق بقرينة (نحن خلقناكم) ولما لم يحقق تصديقهم المشعر به قوله تعالى: (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) عملهم حيث لم يقترن بالطاعة والاعمال الصالحة بل اقترن بماينبىء عن خلافه من الشرك والعصيان نزل منزلة العدم والانكار فحضوا على التصديق بذلك ، وقيل : المراد فهلا تصدقون بالبعث لتقدمه وتقدم إنكاره فى قولهم (أئنا لمبعوثون) فيكون الكلام إشارة إلى الاستدلال بالابداء على الاعادة فان من قدر عليه قدر عليها حتما ، والاول هو الوجه كما يظهر مما بعد إن شاء الله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾ أى ما تقذفونه فى الارحام من النطف ، وقرأ ابن عباس . وأبو السمال (تمنون) بفتح التاء من منى النطفة بمعنى أمناها أى أزالها بدفع الطبيعة ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ أى تقدرونه وتصورونه بشراً سوياً تام الخلقة ، فالمراد خلق مايحصل منه على أن فى الكلام تقديراً أو تجوزاً ، وجوز إبقاء ذلك على ظاهره أى (أأنتم تخلقونه) وتنشئون نفس ذات ماتمنونه ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ٥٩ ﴾ له من غير دخل شئ فيه - وأرأيتم - قد مر الكلام غير مرة فيه ، ويقال هنا : إن اسم الموصول مفعوله الأول والجملة الاستفهامية مفعوله الثانى ، وكذا يقال فيم بعد من نظائره وما يعتبر فيه الرؤية بصرية تكون الجملة الاستفهامية فيه مستأنفة لامحل لها من الاعراب ، وجوز فى - أنتم - أن يكون مبتدأ ، والجملة بعده خبره ، وأن يكون فاعلا لفعل محذوف والاصل أتخلقون فلما حذف الفعل انفصل الضمير ، واختاره أبو حيان ، و(أم) قيل : منقطعة لأن مابعدها جملة فالمعنى - بل أنحن الخالقون - على أن الاستفهام للتقرير ، وقال قوم من النحاة : متصلة معادلة للهمزة كأنه قيل : (أأنتم تخلقونه أم نحن) ثم جئ - بالخالقون - بعد بطريق التأكيد لابطريق الخبرية أصالة ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ قسمناه عليكم ووقتنا موت كل أحد بوقت معين حسبما تقتضيه مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة ، وقرأ ابن كثير (قدرنا) بالتخفيف ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٦٠ ﴾ أى لايغلبنا أحد ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ ﴾ أى على أن نذهبكم ونأتى مكانكم أشباهكم من الخلق فالسبق مجاز عن الغلبة استعارة تصريحية أو مجاز مرسل عن لازمه ، وظاهر كلام بعض الأجلة أنه حقيقة فى ذلك إذا تعدى بعلى ، والجملة فى موضع الحال من ضمير (قدرنا) وكأن المراد (قدرنا) ذلك ونحن قادرون على أن نميتكم دفعة واحدة ونخلق أشباهكم *

﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ٦١ ﴾ من الخلق والاطوار التى لاتعهدونها ، وقال الحسن: من كونكم قردة وخنازير ، ولعل اختيار ذلك لان الآية تنحو إلى الوعيد ، والمراد ونحن قادرون على هذا أيضا وجوز أن يكون أمثالكم جمع مثل بفتحتين بمعنى الصفة لاجمع مثل بالسكون بمعنى الشبه كما فى الوجه الاول أى ونحن نقدر على أن نغير صفاتكم التى أنتم عليها خَلْقاً وَخُلُقاً وننشئكم فى صفات لاتعلمونها ، وقيل : المعنى وننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا ، وقيل : المعنى وما يسبقنا أحد فيهرب من الموت أو يغير وقته الذى وقتناه ، على أن المراد تمثيل حال من سلم من الموت أو تأخر أجله عن الوقت المعين له بحال من طلبه طالب فلم يلحقه وسبقه ، وقوله تعالى : (على أن نبدل) الخ فى موضع الحال من الضمير المستتر فى مسبوقين أى حال كوننا قادرين

أو عازمين على تبديل أمثالكم، والجملة السابقة على حالها، وقال الطبرى: (على أن نبدل) متعلق ـ بقدرنا ـ وعلة له وجملة (وما نحن بمسبوقين) اعتراض، والمعنى نحن قدرنا بينكم الموت لان نبدل أمثالكم أى نميت طائفة ونبدلها بطائفة هكذا قرنا بعد قرن ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى ﴾ من خلقكم من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة؛ وقال قتادة: هى فطرة آدم عليه السلام من التراب ولا ينكرها أحد من ولده ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ٦٢ ﴾ فهلا تتذكرون أن من قدر عليها فهو على النشأة الأخرى أقدر وأقدر فانها أقل صنعا لحصول المواد وتخصيص الاجزاء وسبق المثال، وهذا ـ على ماقالوا ـ دليل على صحة القياس لكن قيل: لا يدل إلا على قياس الأولى لانه الذى فى الآية، وفى الخبر عجباً كل العجب للمكذب بالنشأة الآخرة وهو يرى النشأة الاولى، وعجباً للمصدق بالنشأة الآخرة وهو يسعى لدار الغرور *

وقرأ طلحة تذكرون بالتخفيف وضم الكاف ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ٦٣ ﴾ ماتبذرون حبه وتعملون فى أرضه ﴿ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ تنبتونه وتردونه نباتاً يرف وينمى إلى أن يبلغ الغاية ﴿ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ٦٤ ﴾ أى المنبتون لاأنتم والكلام فى ـ أنتم ـ و (أم) كما مر آنفا، وأخرج البزار. وابن جرير. وابن مردويه. وأبو نعيم. والبيهقى فى شعب الايمان ـ وضعفه ـ وابن حبان ـ كما قال الخفاجى ـ عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: « لايقولن أحدكم زرعت ولكن ليقل حرثت، ثم قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه ألم تسمعوا الله تعالى يقول: (أفرأيتم ماتحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) » يشير رضى الله تعالى عنه إلى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ النهى من هذه الآية فانه أسند الحرث إلى المخاطبين دون الزرع، وقال القرطبى: إنه يستحب للزارع أن يقول بعد الاستعاذة وتلاوة هذه الآية الله تعالى الزارع والمنبت والمبلغ اللهم صل على محمد وارزقنا ثمره وجنبنا ضرره واجعلنا لأنعمك من الشاكرين، قيل: وقد جرب هذا الدعاء لدفع آفات الزرع كلها وإنتاجه ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ هشيما متكسراً متفتتاً لشدة يبسه بعدما أنبتناه وصار بحيث طمعتم فى حيازة غلاله ﴿ فَظَلْتُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ تَفَكَّهُونَ ٦٥ ﴾ تتعجبون من سوء حاله إثر ماشاهدتموه على أحسن ما يكون من الحال على ماروى عن ابن عباس. ومجاهد. وقتادة، وقال الحسن: تندمون أى على ماتعبتم فيه، وأنفقتم عليه من غير حصول نفع، أو على مااقترفتم لأجله من المعاصى، وقال عكرمة: تلاومون على مافعلتم، وأصل التفكه التنقل بصنوف الفاكهة واستعير للتنقل بالحديث وهو هنا ما يكون بعد هلاك الزرع وقد كنى به فى الآية عن التعجب، أو الندم. أو التلاوم على اختلاف التفاسير، وفى البحر كل ذلك تفسير باللازم، ومعنى (تفكهون) تطرحون الفكاهة عن أنفسكم وهى المسرة، ورجل فكه منبسط النفس غير مكترث بشىء وتفكه من أخوات تحرج وتحوب أى إن التفعل فيه للسلب *

وقرأ أبو حيوة. وأبو بكر فى رواية العتكى عنه (فظلتم) بكسر الظاء كما قالوا: مست بالكسر ومست بالفتح، وحكاها الثورى عن ابن مسعود وجاءت عن الأعمش، وقرأ عبدالله. والجحدرى ـ فظللتم ـ بلامين أولاهما مكسورة، وقرأ الجحدرى أيضاً كذلك مع فتح اللام والمشهور ظللت بالكسر، وقرأ أبو حزام تفكنون بالنون بدل الهاء، قال ابن خالويه: تفكه بالهاء تعجب، وتفكن بالنون تندم ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ٦٦ ﴾ أى معذبون

مهلكون من الغرام وهو الهلاك قال الشاعر :

إن يعذب يكن (غراما) وإن يعـ ـط جزيلا فانـه لايبالى

والمراد مهلكون بهلاك رزقنا ، وقيل : بالمعاصى أو ملزمون غرامة بنقص رزقنا ، وقرأ الاعمش . والجحدرى . وأبو بكر - أئنا بالاستفهام والتحقيق ، والجملة على القراءتين بتقدير قول هو فى حيز النصب على الحالية من فاعل تفكهون أى قائلين،أو تقولون ذلك ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ٦٧ ﴾ محدودون لامجدودون أو محرومون الرزق كأنهم لما قالوا إنا مهلكون لهلاك رزقنا أضربوا عنه وقالوا : بل هذا أمر قدر علينا لنحوسة طالعنا وعدم بختنا ، أو لما قالوا: إنا ملزمون غرامة بنقص أرزاقنا أضربوا فقالوا : (بل نحن محرومون) الرزق بالكلية ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ٦٨ ﴾ عذباً فراتاً ، وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه لأن الشرب أهم المقاصد المنوطة به ﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ ﴾ أى السحاب واحدته مزنة ، قال الشاعر :

فلا (مزنة ودقت ودقها) ولا أرض أبقل إبقالها

وقيل : هو السحاب الأبيض وماؤه أعذب ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ٦٩ ﴾ له بقدرتنا ه

﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا ﴾ ملحاً ذعاقا لا يمكن شربه من الأجيج وهو تلهب النار . وقيل : الأجاج كل مايلذع الفم ولا يمكن شربه فيشمل الملح والمر والحار ، فإما أن يراد ذلك ، أو الملح بقرينة المقام وحذفت اللام من جواب لوههنا للقرينة اللفظية والحالية ومتى جاز حذف - لم أر - فى قول أوس :

حتى إذا الـكلاب قال لها (...) كاليوم مطلوبا ولاطلبا

والقرينة حالية فأولى أن يجوز حذفها وحدها لذلك على ما قرره الزمخشرى ، وقرر وجهاً آخر حاصله أن اللام لمجرد التأكيد فتناسب مقام التأكيد فأدخلت فى آية المطعوم دون المشروب للدلالة على أن أمره مقدم على أمره ، وأن الوعيد بفقده أشدّ وأصعب من قبل أن المشروب تبع له ألا يرى أن الضيف يسقى بعد أن يطعم ، وقد ذكر الأطباء أن الماء مبذرق ، ويؤيد ذلك تقديمه على المشروب فى النظم الجليل ، وللامام فى هذا المقام كلام طويل اعترض به على الزمخشرى وبين فيه وجه الذكر أولا والحذف ثانياً ، ولم أره أتى بما يشرح الصدر ، وخير منه عندى قول ابن الاثير فى المثل السائر : إن اللام أدخلت فى المطعوم دون المشروب لأن جعل الماء العذب ملحاً أسهل إمكاناً فى العرف والعادة والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب ، وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الاراضى المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة فلم يحتج فى جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد فلذا لم تدخل لام التأكيد المفيدة لزيادة التحقيق ، وأما المطعوم فان جعله حطاماً من الاشياء الخارجة عن المعتاد وإذا وقع يكون عن سخط شديد ، فلذا قرن باللام لتقرير إيجاده وتحقيق أمره انتهى ه

﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ٧٠ ﴾ تحضيض على شكر الـكل لأنه أفيد دون عذوبة الماء فقط كما ذهب اليه البعض ه

نعم أخرج ابن أبى حاتم عن أبى جعفر رضى الله تعالى عنه «أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان إذا شرب الماء قال: الحمد لله الذى سقانا عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحاً أجاجا بذنوبنا» ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ٧١ ﴾ أى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ ﴾ التى منها الزناد وهى المرخ والعفار ، وقيل:

المراد بالشجرة نفس النار كأنه قيل: نوعها أو جنسها فاستعير الشجرة لذلك وهو قول متكلف بلا حاجة ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ٧٢﴾ لها بقدرتنا والتعبير عن خلقها بالانشاء المنبئ عن بديع الصنع المعرب عن كمال القدرة والحكمة لما فيه من الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الأشجار التى لاتخلو عن النار حتى قيل ـ فى كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار ـ كما أن التعبير عن نفخ الروح بالانشاء فى قوله تعالى: (ثم أنشأناه) خلقاً آخر لذلك ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ استئناف معين لمنافعها أى جعلناها تذكيراً لنار جهنم حيث علقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها ويذكروا بها ما أوعدوا به ، أو جعلناها تذكرة وأنموذجا من جهنم لما فى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة عنه صلى الله تعالى عليه وسلم «ناركم هذه التى توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» وعلى الوجهين التذكرة من الذكر المقابل للنسيان ولم ينظر فى الأول إلى أنها من جنس نار جهنم أولا وفى الثانى نظر إلى ذلك ، وقيل: تبصرة فى أمر البعث لأن من أخرج النار من الشجر الأخضر المضاد لها قادر على إعادة ما تفرقت مواده ، وقيل : تبصرة فى الظلام يبصر بضوئها ، وفيه أن التذكرة لاتكون بمعنى التبصرة المأخوذة من البصر وكون المراد تذكرة لنار جهنم هو المأثور عن الكثيرين ، ومنهم ابن عباس . ومجاهد . وقتادة ﴿وَمَتَاعاً﴾ ومنفعة ﴿لِّلْمُقْوِينَ ٧٣﴾ للذين ينزلون القواء وهى القفر من أقوى دخل القواء كأصحر دخل الصحراء ، وتخصيص المقوين بذلك لانهم أحوج إليها فان المقيمين ، أو النازلين بقرب منهم ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح بالزناد ‌.

وقيل: (للمقوين) أى المسافرين ، ورواه جمع عن ابن عباس . وعبد بن حميد عن الحسن ، وهو . وابن جرير . وعبد الرزاق عن قتادة بزيادة كم من قوم قد سافروا ثم أرملوا فأججوا ناراً فاستدفئوا وانتفعوا بها ، وكان إطلاق المقوين على المسافرين لانهم كثيراً مايسلكون القفراء والمفاوز ، وقيل : (للمقوين) للفقراء يستضيئون بها فى الظلمة ويصطلون من البرد كأنه تصور من حال الحاصل فى القفر الفقر ، فقيل : ـ أقوى ـ فلان أى افتقر كقولهم أترب وأرمل ، وقال ابن زيد: للجائعين لانهم أقوت أى خلت بطونهم ومزاودهم من الطعام فهم يحتاجون اليها لطبخ مايأكلون وخصوا ـ على ماقيل ـ لأن غيرهم يتنعم بها لايجعلها متاعاً ، وتعقب بأنه بعيد لعدم انحصار مايهمهم ويستدخلتهم فيما لا يؤكل إلا بالطبخ ، وقال عكرمة . ومجاهد : المقوين المستمتعين بها من الناس أجمعين المسافرين والحاضرين يستضيئون بها ويصطلون من البرد وينتفعون بها فى الطبخ والخبز ، قال العلامة الطيبى . والطبرسى: وعلى هذا القول ـ المقوى ـ من الاضداد يقال للفقير : مقو لخلوه من المال ، وللغنى مقو لقوته على مايريد يقال : أقوى الرجل إذا صار إلى حال القوة والمعنى متاعا للاغنياء والفقراء لانه لاغنى لاحد عنها انتهى .

وفيه بحث لايخفى ، ولعل الأقرب عليه أنه أريد بالاقواء الاحتياج والمستمتع بها محتاج اليها فتدبر ، وتأخير هذه المنفعة للتنبيه على أن الأهم هو النفع الاخروى وتقديم أمر الماء على أمر النار لان الاحتياج اليه أشد وأكثر والانتفاع به أعم وأوفر ، وقال بعضهم : قدم أمر خلق الانسان من نطفة لان النعمة فى ذلك قبل النعمة فى الثلاثة بعد ، ثم ذكر بعده مابه قوام الانسان من فائدة الحرث وهو الطعام الذى لايستغنى عند الجسد الحى وذلك الحب الذى يختبز فيحتاج بعد حصوله إلى حصول الماء ليعجن به فلذا ذكر بعده ثم إلى النار لتصيره خبزاً فلذا ذكرت بعد الماء وهو كما ترى ، واستحسن بعضهم من القارىء أن يقول بعد كل جملة استفهامية من الجمل السابقة : بل أنت يارب ، فقد أخرج عبد الرزاق . وابن المنذر . والحاكم . والبيهقى فى سننه عن حجر المروى

قال : بت عند على كرم تعالى وجهه فسمعته وهو يصلى بالليل يقرأ فمر بهذه الآية (أفرأيتم ماتمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) فقال : بل أنت يارب ثلاثا ، ثم قرأ (أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) فقال : بل أنت يارب ثلاثا ، ثم قرأ (أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) فقال : بل أنت يارب ثلاثا ، ثم قرأ (أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) فقال : بل أنت يارب ثلاثا ، وأنت تعلم أن فى استحسان قول مثل ذلك فى الصلاة اختلافا بين العلماء ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ٧٤ ﴾ مرتب على ماعدد من بدائع صنعه عز وجل وودائع نعمه سبحانه وتعالى ، والمراد على ماقيل : أحدث التسبيح تنزيلا للفعل المتعدى منزلة اللازم وأريد من إحداثه استمراره لا إيجاده لانه عليه الصلاة والسلام غير معرض عنه ، وتعقبه الطيبى بأن هذا عكس مايقتضيه لفظ الإحداث ، فالمراد تجديد التسبيح ، وفى الكلام إضمار أى سبح بذكر اسم ربك ، أو الاسم مجاز عن الذكر فان إطلاق الاسم للشىء ذكره ، والباء للاستعانة أو الملابسة وكونها للتعدية كما هو ظاهر كلام أبى حيان ليس بشىء ، والعظيم صفة للاسم ، أو للرب ، وتعقيب الأمر بالتسبيح لماعدد إما لتنزيهه تعالى عما يقوله الجاحدون لوحدانيته عز وجل الكافرون بنعمه سبحانه مع عظمها وكثرتها ، أو للشكر على تلك النعم السابقة لان تنزيهه تعالى وتعظيمه جل وعلا بعد ذكر نعمه سبحانه مدح عليها فهو شكر للمنعم فى الحقيقة ، أو للتعجب من أمر الكفرة فى غمط تلك النعم الباهرة مع جلالة قدرها وظهور أمرها ؛ وسبحان ترد للتعجب مجازاً مشهوراً فسبح بمعنى تعجب ، وأصله فقل سبحان الله للتعجب وفيه بعد وماتقدم أظهر *

هذا وجوز أن لا يكون فى (باسم ربك) إضمار ولا مجاز بل يبقى على ظاهره فقد قالوا فى قوله تعالى :(سبح اسم ربك الأعلى) : كما يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته سبحانه عن النقائص يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لها عن سوء الأدب وهو أبلغ لانه يلزمه تقديس ذاته عز وجل بالطريق الاولى على طريق الكناية الرمزية ، وفيه أنه إنما يتأتى لو لم تذكر الباء ، وجعلها زائدة خلاف الظاهر ، وحال كونها للتعدية قد سمعته ، وجعل بعضهم على هذا الخطاب لغير معين فقال : إنه تعالى لما ذكر ماذكر من الأمور وكان الكل معترفين بأنها من الله تعالى وكان الكفار إذا طولبوا بالوحدانية قالوا : نحن لانشرك فى المعنى وإنما نتخذ أصناما آلهة وذلك إشراك فى الاسم ، والذى خلقنا وخلق السموات والارض هو الله تعالى فنحن ننزهه فى الحقيقة قال سبحانه :(فسبح باسم ربك) على معنى كما أنك أيها الغافل اعترفت بعدم اشتراكها فى الحقيقة اعترف بعدم اشتراكها فى الاسم ، لا تقل لغيره تعالى إلها فان الاسم يتبع المعنى والحقيقة ، فالخطاب كالخطاب فى قول الواعظ يامسكين أفنيت عمرك وما أصلحت أمرك لا يريد به أحداً بعينه ، وإنما يريد أيها المسكين السامع وهو كما ترى ، نعم احتمال عموم الخطاب مما لا ينكر لكن لا يتعين عليه هذا التقرير ، ثم الظاهر أن المراد بذكر الرب أو ذكر اسمه سبحانه على ماتقرر سابقاً ماهو المتبادر المعروف *

وفى الكشف إن المراد بذلك تلاوته صلى الله تعالى عليه وسلم للقرآن أو لهذه السورة الكريمة المتضمنة لاثبات البعث والجزاء ، ومراتب أهله لينطبق عليه قوله تعالى بعد : (فلا أقسم) وعلى الاول لابد من إضمار ـ أى فسبح باسم ربك وامتثل ماأمرت به ـ فأقسم أنه لقرآن ، والغرض تأكيد الامر بالتسبيح ، وأنا أقول يتأتى الانطباق على الظاهر أيضاً سوى أنه يعتبر فى الكلام إضمار ولا بأس بأن يقال : إنه تعالى لما ذكر ماذكر من النعم الجليلة الداعية لتوحيده سبحانه ووصفه بما يليق به عز وجل قال سبحانه : (فسبح باسم ربك) أى فنزهه تعالى عما يقولون فى وصفه سبحانه ، وأقبل على إنذارهم بالقرآن والاحتجاج عليهم به بعد الاحتجاج بما ذكرنا فأقسم أنه لقرآن كيت وكيت

فلا فى قوله عز وجل : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾ مزيدة للتأكيد مثلها فى قوله تعالى : (لئلا يعلم أهل الكتاب) أو هى لام القسم أشبعت فتحتها فتولدت منها ألف نظير مافى قوله * أعوذ بالله من العقراب * واختاره أبو حيان ثم قال : وهو وإن كان قليلا فقد جاء نظيره فى قوله تعالى : (فاجعل أفئيدة من الناس تهوى اليهم) بياء بعد الهمزة وذلك فى قراءة هشام *

ويؤيد قراءة الحسن . وعيسى . فلا قسم ـ وهو مبنى على ماذهب اليه تبعاً لبعض النحويين من أن فعل الحال يجوز القسم عليه فيقال : والله تعالى ليخرج زيد وعليه قول الشاعر * ليعلم ربى أن بيتى واسع * وحينئذ لا يصح أن يقرن الفعل بالنون المؤكدة لأنها تخلصه للاستقبال وهو خلاف المراد ، والذى اختاره ابن عصفور . والبصريون أن فعل الحال كما هنا لا يجوز أن يقسم عليه ومتى أريد من الفعل الاستقبال لزمت فيه النون المؤكدة فقيل : لأقسمن وحذفها ضعيف جداً ، ومن هنا خرجوا قراءة الحسن . وعيسى على أن اللام لام الابتداء والمبتدا محذوف لأنها لا تدخل على الفعل والتقدير فلأنا أقسم ، وقيل : نحوه فى قراءة الجمهور على أن الألف قد تولدت من الاشباع ، وتعقب بأن المبتدا إذا دخل عليه لام الابتداء يمتنع أو يقبح حذفه لأن دخولها لتأكيده وهو يقتضى الاعتناء به وحذفه يدل على خلافه ، وقال سعيد بن جبير . وبعض النحاة : ـ لا ـ نفى ورد لما يقوله الكفار فى القرآن من أنه سحر وشعر وكهانة كأنه قيل : فلا صحة لما يقولون فيه ثم استؤنف فقيل : (أقسم) الخ ، وتعقبه أبو حيان بأنه لا يجوز لما فيه من حذف اسم ـ لا ـ وخبرها فى غير جواب سؤال نحو ـ لا ـ فى جواب هل من رجل فى الدار ، وقيل : الاولى فيما إذا قصد بلا نفى لمحذوف واستئناف لما بعدها فى اللفظ الاتيان بالواو نحو ـ لا ـ وأطال الله تعالى بقاءك ، وقال : بعضهم إن ـ لا ـ كثيراً ما يؤتى بها قبل القسم على نحو الاستفتاح كما فى قوله :

(لا وأبيك) ابنة العامرى لا يدعى القوم إنى أفر

وقال أبو مسلم وجمع : إن الكلام على ظاهره المتبادر منه ، والمعنى لا أقسم إذ الامر أوضح من أن يحتاج إلى قسم أى لا يحتاج إلى قسم ما فضلا عن أن هذا القسم العظيم ، فقول مفتى الديار الرومية أنه يأباه تعيين المقسم به وتفخيمه ناشىء عن الغفلة على ما لا يخفى على فطن ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ ﴾ أى بمساقط كواكب السماء ومغاربها كما جاء فى رواية عن قتادة . والحسن على أن الوقوع بمعنى السقوط والغروب وتخصيصها بالقسم لما فى غروبها من زوال أثرها ، والدلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير ، ولذا استدل الخليل عليه السلام بالأفول على وجود الصانع جل وعلا ، أو لأن ذلك وقت قيام المتهجدين والمبتهلين إليه تعالى وأوان نزول الرحمة والرضوان عليهم *

وقد أخرج البخارى . ومسلم عن أبى هريرة مرفوعاً « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعونى فأستجيب له من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له » وعن الحسن أيضاً المراد مواقعها عند الانكدار يوم القيامة قيل : وموقع عليه مصدر ميمى أو اسم زمان ولعل وقوعها ذلك اليوم ليس دفعة واحدة والتخصيص لما فى ذلك من ظهور عظمته عز وجل وتحقق ماينكره الكفار من البعث ، وعن أبى جعفر . وأبى عبد الله على آبائهما وعليهما السلام المراد مواقعها عند الانقضاض إثر المسترقين السمع من الشياطين ، وقد مر لك تحقيق أمر هذا الانقضاض فلا تغفل ، وقيل : مواقع النجوم هى الأنواء التى يزعم الجاهلية

أنهم يمطرون بها ، ولعله مأخوذ من بعض الآثار الواردة فى سبب النزول وسنذكره إن شاء الله تعالى وليس نصاً فى إرادة الأنواء بل يجوز عليه أن يراد المغارب مطلقا *

وأخرج عبد الرزاق . وابن جرير عن قتادة أنها منازلها ومجاريها على أن الوقوع النزول كما يقال: على الخبير سقطت وهو شائع والتخصيص لأن له تعالى فى ذلك من الدليل على عظيم قدرته وكمال حكمته ما لا يحيط به نطاق البيان ، وقال جماعة منهم ابن عباس: النجوم نجوم القرآن ومواقعها أوقات نزولها *

وأخرج النسائى . وابن جرير . والحاكم وصححه . والبيهقى فى الشعب عنه أن قال: «أنزل القرآن فى ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم فرق فى السنين» وفى لفظ «ثم نزل من السماء الدنيا إلى الارض نجوماً ثم قرأ فلا أقسم بمواقع النجوم» وأيد هذا القول بأن الضمير فى قوله تعالى بعد : (إنه لقرآن) يعود حينئذ على ما يفهم من مواقع النجوم حتى يكاد يعد كالمذكور صريحا ولا يحتاج إلى أن يقال يفسره السياق كما فى سائر الأقوال، ووجه التخصيص أظهر من أن يخفى، ولعل الكلام عليه من باب * وثناياك إنها إغريض *

وقرأ ابن عباس . وأهل المدينة . وحمزة . والكسائى (بموقع) مفرداً مراداً به الجمع *

﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ ﴾ مشتمل على اعتراض فى ضمن آخر فقوله تعالى : (إنه لقسم) (عظيم) معترض بين القسم والمقسم عليه وهو قوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ٧٧ ﴾ وهو تعظيم للقسم مقرر مؤكد له ، وقوله عز وجل (لو تعلمون) معترض بين الصفة والموصوف وهو تأكيد لذلك التعظيم وجواب (لو) إما متروك أريد به نفى علمهم أو محذوف ثقة بظهوره أى لعظمتموه أو لعملتم بموجبه ، ووجه كون ذلك القسم عظيما قد أشير اليه فيما مر ، أو هو ظاهر بناءاً على أن المراد (بمواقع النجوم) ماروى عن ابن عباس والجماعة ، ومعنى كون القرآن كريماً أنه حسن مرضى فى جنسه من الكتب أو نفاع جم المنافع ، وكيف لا وقد اشتمل على أصول العلوم المهمة فى إصلاح المعاش ، والمعاد ، والكرم على هذا استعارة ـ كما قال الطيبى ـ من الكرم المعروف *

وقيل: الكرم أعم من كثرة البذل والاحسان والاتصاف بما يحمد من الأوصاف ككثرة النفع فانه وصف محمود فكونه كرما حقيقة ، وجوز أن يراد كريم على الله تعالى قيل: وهو يرجع لما تقدم ، وفيه تقدير من غير حاجة وأياما كان فمحط الفائدة الوصف المذكور قيل: إن مرجع الضمير هو القرآن لا من حيث عنوان كونه قرآنا فبمجرد الاخبار عنه بأنه قرآن تحصل الفائدة أى إنه لمقروء على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا أنه أنشأه كما زعمه الكفار ، وقوله تعالى : ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ٧٨ ﴾ وصف آخر للقرآن أى كائن فى كتاب مصون عن غير المقربين من الملائكة عليهم السلام لا يطلع عليه من سواهم ، فالمراد به اللوح المحفوظ كما روى عن الربيع بن أنس وغيره ، وقيل: أى فى كتاب مصون عن التبديل والتغيير وهو المصحف الذى بأيدى المسلمين ويتضمن ذلك الإخبار بالغيب لأنه لم يكن إذ ذاك مصاحف ، وأخرج عبد بن حميد . وابن جرير عن عكرمة أنه قال: فى كتاب أى التوراة والانجيل ، وحكى ذلك فى البحر ثم قال: كأنه قال: ذكر فى كتاب مكنون كرمه وشرفه، فالمعنى على هذا الاستشهاد بالكتب المنزلة انتهى *

والظاهر أنه أريد على هذا بالكتاب الجنس لتصح إرادة التوراة والانجيل ، وفى وصف ذلك بالمكنون خفاء ولعله أريد به جليل الشأن عظيم القدر فان الستر كاللازم للشئ الجليل ، وجوز إرادة هذا المعنى المجازى

على غير هذا القول من الأقوال ، وقيل : الكتاب المكنون قلب المؤمن وهو كما ترى *

وقيل : المراد من كونه فى كتاب مكنون كونه محفوظاً من التغيير والتبديل ليس إلا كما قال تعالى: (وإنا له لحافظون) والمعول عليه ماتقدم ، وجوز تعلق الجار بكريم كما يقال زيد كريم فى نفسه ، والمعنى إنه كريم فى اللوح المحفوظ وإن لم يكن كريما عند الكفار ، والوصفية أبلغ كما لا يخفى ، وقوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ٧٩ ﴾ إما صفة بعد صفة لكتاب مراداً به اللوح ، فالمراد بالمطهرون الملائكة عليهم السلام أى المطهرون المنزهون عن كدر الطبيعة ودنس الحظوظ النفسية ، وقيل : عن كدر الاجسام ودنس الهيولى والطهارة عليهما طهارة معنوية ، ونفى مسه كناية عن لازمه وهو نفى الاطلاع عليه وعلى ما فيه ، وإما صفة أخرى لقرآن *

والمراد بالمطهرون المطهرون عن الحدث الأصغر والحدث الأكبر بحمل الطهارة على الشرعية ، والمعنى لا ينبغى أن يمس القرآن إلا من هو على طهارة من الناس فالنفى هنا نظير مافى قوله تعالى : (الزانى لا ينكح إلا زانية) وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه » الحديث وهو بمعنى النهى بل أبلغ من النهى الصريح ، وهذا أحد أوجه ذكروها للعدول عن جعل - لا - ناهية ، وثانيها أن المتبادر كون الجملة صفة والاصل فيها أن تكون خبرية ولا داعى لاعتبار الإنشائية وارتكاب التأويل ، وثالثها أن المتبادر من الضمة أنها إعراب فالحمل على غيره فيه إلباس ، ورابعها أن عبد الله قرأ مايمسه وهى تؤيد أن لا نافية وكون المراد بالمطهرين الملائكة عليهم السلام مروى من عدة طرق عن ابن عباس ، وكذا أخرجه جماعة عن أنس . وقتادة . وابن جبير . ومجاهد . وأبى العالية . وغيرهم إلا أن فى بعض الآثار عن بعض هؤلاء ماهو ظاهر فى أن الضمير فى (لا يمسه) مع كون المراد بالمطهرين الملائكة عليهم السلام راجع إلى القرآن *

أخرج عبد بن حميد . وابن جرير عن قتادة أنه قال : فى الآية ذاك عند رب العالمين لا يمسه إلا المطهرون من الملائكة فأما عندكم فيمسه المشرك والنجس ، والمنافق الرجس ، وأخرجاهما . وابن المنذر . والبيهقى فى المعرفة عن الحبر قال : فى الآية الكتاب المنزل فى السماء لا يمسه إلا الملائكة ، ويشير اليه ماأخرج ابن المنذر عن النعيمى قال : قال مالك : أحسن ماسمعت فى هذه الآية (لا يمسه إلا المطهرون) أنها بمنزلة الآية التى فى عبس (كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة كرام بررة) وكون المراد بهم المطهرين من الاحداث مروى عن محمد الباقر على آبائه وعليه السلام . وعطاء . وطاوس . وسالم *

وأخرج سعيد بن منصور . وابن أبى شيبة فى المصنف . وابن المنذر . والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن زيد قال : كنا مع سلمان - يعنى الفارسى - رضى الله تعالى عنه فانطلق إلى حاجة فتوارى عنا فخرج الينا فقلنا لو توضأت فسألناك عن أشياء من القرآن ؟ فقال : سلونى فإنى لست أمسه إنما يمسه المطهرون ثم تلا (لا يمسه إلا المطهرون) ، وقيل : الجملة صفة لقرآن ، والمراد - بالمطهرون - المطهرون من الكفر ، والمس مجاز عن الطلب كاللمس فى قوله تعالى : (إنا لمسنا السماء) أى لا يطلبه إلا المطهرون من الكفر ، ولم أر هذا مرويا عن أحد من السلف ، والنفى عليه على ظاهره ، ورجح جمع جعل الجملة وصفاً للقرآن لأن الكلام مسوق لحرمته وتعظيمه لا لشأن الكتاب المكنون ، وإن كان فى تعظيمه تعظيمه . وصحح الامام جعلها وصفاً للكتاب - وفيه نظر - وعلى الوصفية للقرآن ذهب من ذهب إلى اختيار تفسير المطهرين بالمطهرين عن الحدث الاكبر والاصغر *

وفى الاحكام للجلال السيوطى استدل الشافعى بالآية على منع المحدث من مس المصحف وهو ظاهر فى

اختيار ذلك ، والاحتمال جعل الجملة صفة للكتاب المكنون أو للقرآن ، وكون المراد بالمطهرين الملائكة المقربين عليهم السلام على ماسمعت عن ابن عباس . وقتادة عدل الاكثرون عن الاستدلال بها على ذلك إلى الاستدلال بالاخبار ، فقد أخرج الامام مالك. وعبدالرزاق. وابن أبي داود . وابن المنذر عن عبدالله بن أبي بكر عن أبيه قال فى كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لعمرو بن حزم « ولا تمس القرآن إلا على طهور » *

وأخرج الطبرانى. وابن مردويه عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : «قال رسول الله ﷺ : لا يمس القرآن إلا طاهر » إلى غير ذلك ، وقال بعضهم : يجوز أن يؤخذ منع مس غير الطاهر القرآن من الآية على الاحتمالين الآخرين أيضاً ، وذلك لأنها أفادت تعظيم شأن القرآن وكونه كريماً ، والمس بغير طهر مخل بتعظيمه فتأباه الآية وهو كما ترى ، وأطال الامام الكلام فى هذا المقام بما لا يخفى حاله على من راجعه ، نعم لاشك فى دلالة الآية على عظم شأن القرآن ومقتضى ذلك الاعتناء بشأنه ولا ينحصر الاعتناء بمنع غير الطاهر عن مسه بل يكون بأشياء كثيرة كالإكثار من تلاوته والوضوء لها وأن لا يقرأه الشخص وهو متنجس الفم فانه مكروه *

وقيل: حرام كالمس باليد المتنجسة ، وكون القراءة فى مكان نظيف ، والقارىء مستقبل القبلة متخشعا بسكينة ووقار مطرقاً رأسه ، والاستياك لقراءته ، والترتيل ، والتدبر ، والبكاء ، أو التباكى ، وتحسين الصوت بالقراءة وأن لا يتخذه معيشة ، وأن يحافظ على أن لا ينسى آية أوتيها منه ، فقد أخرج أبو داود وغيره « عرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها ، وأن لا يجامع بحضرته فان أراد ستره، وأن لا يضع غيره من الكتب السماوية وغيرها فوقه، وأن لا يقلب أوراقه بأصبع عليها بزاق ينفصل منه شىء فقد قيل : بكفر من يفعل ذلك . إلى أمور أخر مذكورة فى محالها ، وفى وجوب كون القارىء طاهراً من الاحداث خلاف ، فعن ابن عباس فى رواية أنه يجوز للجنب قراءة القرآن، وروى ذلك أيضا عن الامام أبى حنيفة، وعن ابن عمر أحبّ إلىّ أن لا يقرأ إلا طاهر وكأنهم اعتبروه كسائر الاذكار والفرق مثل الشمس ظاهر *

وقرأ عيسى (المطهرون) اسم مفعول مخففاً من أطهر، وروىت عن نافع. وأبى عمرو ، وقرأ سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه (المطهرون) بتخفيف الطاء وتشديد الهاء وكسرها اسم فاعل من طهر أى (المطهرون) أنفسهم، أو غيرهم بالاستغفار لهم والالهام، وعنه أيضا (المطهرون) بتشديدهما وأصله المتطهرون فأدغم التاء بعد إبدالها فى الطاء ؛ وروىت عن الحسن. وعبد الله بن عون، وقرئ المتطهرون على الاصل ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٨٠ ﴾ صفة أخرى للقرآن أى منزل ، أو وصف بالمصدر لأنه ينزل نجوماً من بين سائر كتب الله تعالى فكأنه فى نفسه تنزيل ولذلك أجرى مجرى بعض أسمائه فقيل جاء فى التنزيل كذا ونطق به التنزيل *

وجوز كونه خبر مبتدأ محذوف أى هو تنزيل على الاستئناف ، وقرىء تنزيلا بالنصب على نزل تنزيلا ﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ ﴾ أى أتعرضون فبهذا الحديث الذى ذكرت نعوته الجليلة الموجبة لإعظامه وإجلاله والإيمان بما تضمنه وأرشد اليه وهو القرآن الكريم ﴿ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ٨١ ﴾ متهاونون به كمن يدهن فى الأمر أى يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاونا به ، وأصل الادهان كما قيل : جعل الأديم ونحوه مدهوناً بشىء من الدهن ولما كان ذلك مليناً ليناً محسوسا يراد به اللين المعنوى على أنه تجوز به عن مطلق اللين أو استعير له، ولذا سميت المداراة مداهنة وهذا مجاز معروف، ولشهرته صار حقيقة عرفية ، ولذا تجوز به هنا عن التهاون أيضا لأن المتهاون بالامر

لا يتصلب فيه، وعن ابن عباس. والزجاج (مدهنون) أي مكذبون، وتفسيره بذلك لان التكذيب من فروع التهاون؛ وعن مجاهد أي منافقون في التصديق به تقولون للمؤمنين آمنا به وإذا خلوتم إلى إخوانكم قلتم إنا معكم والخطاب عليه للمنافقين وما قدمناه أولى، والخطاب عليه للكفار كما يقتضيه السياق *

وجوز أن يراد بهذا الحديث ما تحدثوا به من قبل في قوله سبحانه: (وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون) فالكلام عود إلى ذلك بعد رده كأنه قيل: أفبهذا الحديث الذي تتحدثون به في إنكار البعث أنتم مدهنون أصحابكم أي تعلمون خلافه وتقولونه مداهنة أم أنتم به جازمون وعلى الإصرار عليه عازمون، ولا يخفى بعده، وفيه مخالفة لسبب النزول وستعلمه قريبا إن شاء الله تعالى ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ شكركم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ٨٢ ﴾ تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا، أخرج ذلك الامام أحمد. والترمذي وحسنه. والضياء في المختارة. وجماعة عن علي كرم الله تعالى وجهه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو إما إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى أن في الكلام مضافا مقدراً أي شكر رزقكم أو إشارة إلى أن الرزق مجاز عن لازمه وهو الشكر، وحكى الهيثم بن عدي أن من لغة ازدشنوءة ما رزق فلان فلاناً بمعنى شكره، ونقل عن الكرماني أنه نقل في شرح البخاري أن الرزق من أسماء الشكر واستبعد ذلك ولعله هو ما حكاه الهيثم، وفي البحر وغيره أن علياً كرم الله تعالى وجهه. وابن عباس قرءا - شكركم - بدل (رزقكم) وحمله بعض شراح البخاري على التفسير من غير قصد للتلاوة وهو خلاف الظاهر، وقد أخرج ابن مردويه عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: قرأ علي كرم الله تعالى وجهه (الواقعة) في الفجر فقال: (وتجعلون - شكركم - أنكم تكذبون) فلما انصرف قال: إني قد عرفت أنه سيقول قائل لم قرأها هكذا إني سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقرأ كذلك كانوا إذا أمطروا قالوا: أمطرنا بنوء كذا وكذا فأنزل الله تعالى - وتجعلون - شكركم أنكم إذا مطرتم تكذبون - ومعنى جعل شكرهم التكذيب جعل التكذيب مكان الشكر فكأنه عينه عندهم فهو من باب * تحية بينهم ضرب وجيع * ومنه قول الراجز:

وكان شكر القوم عند المنن (كي الصحيحات وفقء الأعين)

وأكثر الروايات أن قوله تعالى: (وتجعلون) الخ نزل في القائلين: مطرنا بنوء كذا من غير تعرض لما قبله وأخرج مسلم. وابن المنذر. وابن مردويه عن ابن عباس قال: «مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر قالوا: هذه رحمة وضعها الله وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا فنزلت هذه الآية (فلا أقسم بمواقع النجوم) حتى بلغ (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون)*

وأخرج نحوه ابن عساكر في تاريخه عن عائشة رضي الله تعالى عنها وكان ذلك على ما أخرج ابن أبي حاتم عن أبي عروة رضي الله تعالى عنه في غزوة تبوك نزلوا الحجر فأمرهم ﷺ أن لا يحملوا من مائه شيئاً ثم ارتحلوا ونزلوا منزلا آخر وليس معهم ماء فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقام عليه الصلاة والسلام فصلى ركعتين ثم دعا فأمطروا وسقوا فقال رجل من الانصار يتهم بالنفاق: إنما مطرنا بنوء كذا فنزل ما نزل، ولعل جمعا من الكفار قالوا نحو ذلك أيضا بل هم لم يزالوا يقولون ذلك، والأخبار متضافرة على أن الآية في القائلين بالانواء، بل قال ابن عطية: أجمع المفسرون على أنها توبيخ لأولئك، وظاهر مقابلة الشكر بالكفر في الحديث السابق أن المراد بالكفر كفران النعمة إذا أضيفت لغير موجدها جل جلاله؛

وقد صح ذكره مع الايمان ، أخرج البخارى . ومسلم . وأبوداود . والنسائى .وغيرهم عن زيدبن خالد الجهنى قال: صلى بنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الصبح بالحديبية فى إثرسماء كانت من الليل فلماسلم أقبل علينا فقال: هل تدرون ماقال ربكم فى هذه الليلة؟ قالوا: اللهورسوله أعلم فقال: قال: ماأنعمت على عبادى نعمة إلاأصبح فريق منهم بهاكافرين فأما من آمن بى وحمدنى على سقياى فذلك الذى آمن بى وكفر بالكوكب وأمامن قال مطرنا بنوء كذاوكذا فذلك الذى آمن بالكوكب وكفر بى» والآية على القول بنزولها فى قائلى ذلك ظاهرة فى كفرهم المقابل للايمان فكأنهم كانوا يقولونه عن اعتقاد أن الكواكب مؤثرة حقيقة موجدة للمطر وهو كفر بلا ريب بخلاف قوله مع اعتقاد أنه من فضل الله تعالى ، والنوء ميقات وعلامة له فانه ليس بكفر ، وقيل : تسميته كفراً لأنه يفضى إليه إذا اعتقد أنه مؤثر حقيقة *

هذا وقيل : معنى الآية ـ وتجعلون شكركم ـ لنعمة القرآن ـ أنكم تكذبون ـ به ، ويشير إلى ذلك مارواه قتادة عن الحسن بئس ما أخذ القوم لأنفسهم لم يرزقوا من كتاب الله تعالى إلا التكذيب *

وفى الارشاد أنه الأوفق لسياق النظم الكريم وسباقه ، وأقول ماقدمناه تفسير مأثور نطقت به السنة المقبولة ، وذهب اليه الجمهور وليس فيه ما يأبى إرادة معنى مطابق لسبب النزول وموافق لسياق النظم الكريم وسباقه ، وذلك بأن يقال : إنه عز وجل بعد أن وصف القرآن بما دل على جلالة شأنه وعزة مكانه وأشعر باشتماله على ما فيه تزكية النفوس وتحليتها بما يوجب كمالها من العقائد الحقة ونحوها حيث قال سبحانه :(تنزيل من رب العالمين) فعبر جل وعلا عن ذاته سبحانه بلفظ الرب الدال على التربية وهى تبليغ الشئ إلى كماله شيئاً فشيئاً *

وقد يستفاد ذلك من وصفه بكريم بناءاً على أن المراد به نفاع جم المنافع فانه لامنفعة أجل مما ذكر وكان قدذكر عز وجل غير بعيد مايدل على أنه تعالى هو المنزل لماء المطر لاغيره سبحانه استقلالا ولا اشتراكا قال عز قائلا : أفبهذا القرآن الجليل الشأن المشتمل على العقائد الحقة المرشد إلى مافيه نفعكم أنتم متهاونون فلا تشكرون الله تعالى عليه وتجعلون بدل شكركم أنكم تكذبون به، ومن ذلك أنكم تقولون إذا مطرتم مطرنا بنوء كذا وكذا فتسندون إنزال المطر إلى الكواكب وقد أرشدكم غير مرة إلى مايأبى ذلك من العقائد ، وهداكم إلى أنه تعالى هو المنزل للمطر لاالكواكب ولا غيرها أصلا ـ فما جاء من تفسير تكذبون بتقولون مطرنا بنوء كذا وكذا ليس المرادمنه إلا بيان نوع اقتضاه الحال من التكذيب بالقرآن المنعوت بتلك النعوت الجليلة وكون ذلك على الوجه الذى يزعمه الكفار تكذيباً به مما لاينتطح فيه كبشان ، وهذا لاتمحل فيه ، وقد يقال على تقدير أن يراد بالرزق المطر وكون (تكذبون) على معنى تكذبون بكونه ـ أى المطر ـ من الله تعالى حيث تنسبونه إلى الأنواء وإن لم أقف على التصريح به فى أثر يعول عليه ، المعنى أفبهذا القرآن الجليل المرشد إلى أن كل نعمة منه تعالى لاغير المصرح عن قريب بأنه المنزل للمطر وحده (أنتم مدهنون) أى تكذبون على ماسمعت عن ابن عباس. والزجاج ومن ذلك أنكم (تجعلون) موضع شكر مايرزقكم من المطر وينزله لكم أنكم تكذبون بكونه من الله تعالى وتنسبونه إلى الانواء ، والتبكيت الآتى مبنى على تكذيبهم بالقرآن المفهوم من (تكذبون) أو من قوله سبحانه :(أنتم مدهنون) لكن التكذيب به باعتبار التكذيب ببعض مانطق به بما سبق وتوقف المراد بالآية على الخبر غير بدع فى القرآن الكريم ، وحال عطف (تجعلون رزقكم انكم تكذبون) على ما قبله لايخفى على نبيه ، فتأمل والله تعالى الموفق لفهم كتابه الكريم *

وقرأ المفضل عن عاصم (تكذبون) بالتخفيف من الكذب وهو قولهم فى القرآن إنه ـ وحاشاه ـ افتراء ويرجع إلى هذا قولهم فى المطر : إنه من الأنواء لأن القرآن ناطق بخلافه ، وقوله تعالى :

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ٨٣ ﴾ الخ تبكيت كما سمعت وذلك باعتبار تكذيبهم بما نطق به قوله تعالى: (نحن خلقناكم) الخ أعنى الآيات الدالة على كونهم تحت ملكوته تعالى من حيث ذواتهم ومن حيث طعامهم وشرابهم وسائر أسباب معايشهم ـ ولولا ـ للتحضيض بإظهار عجزهم ، و(إذا) ظرفية ، و (الحلقوم) مجرى الطعام ؛ وضمير (بلغت) للنفس لانفهامها من الكلام وإن لم يجر لها ذكر قبل ، والمراد بها الروح بمعنى البخار المنبعث عن القلب دون النفس الناطقة فانها لاتوصف بما ذكر وكأنه مبنى على القول بتجرد النفس الناطقة وهى المسماة بالروح الامرية ، وأنها لاداخل البدن ولاخارجه ولاتتصف بصفات الاجسام كالصعود والنزول وغيرهما على مااختاره حجة الإسلام الغزالى وجماعة من المحققين ، ومذهب السلف أن النفس الناطقة وهى الروح المشار اليها بقوله تعالى : (يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) جسم لطيف جداً سار فى البدن سريان ماء الورد فى الورد وهو حى بنفسه يتصف بالخروج والدخول وغيرهما من صفات الاجسام ، وقد رد العلامة ابن القيم قول الغزالى ومن وافقه بأدلة كثيرة ذكرها فى كتابه الروح، ووصفها ببلوغ الحلقوم عليه ظاهر *

وأما على القول بالتجرد وعدم التحيز فقيل : المراد به ضعف التعلق بالبدن وقرب انقطاعه عنه فكأنه قيل: فلولا إذا حان انقطاع تعلق الروح بالبدن ﴿ وَأَنتُمْ ﴾ أيها الحاضرون حول صاحبها ﴿ حِينَئِذٍ ﴾ أى حين إذ بلغت الحلقوم ووصلت اليه أو حان انقطاع تعلقها ﴿ تَنظُرُونَ ٨٤ ﴾ إلى مايقاسيه من الغمرات ، وقيل : (تنظرون) حالكم ووجه أنهم يعلمون أن ماجرى عليه يجرى عليهم فكأنهم شاهدوا حال أنفسهم وليس بذاك *

وقرأ عيسى حينئذ بكسر النون اتباعا لحركة الهمزة فى إذ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ أى المحتضر المفهوم من الكلام ﴿ مِنكُمْ ﴾ والمراد بالقرب العلم وهو من إطلاق السبب وإرادة المسبب فان القرب أقوى سبب للاطلاع والعلم، وقال غير واحد: المراد القرب علماً وقدرة أى نحن أقرب اليه فى كل ذلك منكم حيث لاتعرفون من حاله إلا ماتشاهدونه من آثار الشدة من غير أن تقفوا على كنهها و كيفيتها وأسبابها الحقيقية ولاأن تقدروا على مباشرة دفعها إلا بمالاينجع شيئا ونحن المستولون لتفاصيل أحواله بعلمنا وقدرتنا أو بملائكة الموت ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ٨٥ ﴾ لاتدركون كوننا أقرب اليه منكم لجهلكم بشئوننا وقد علمت أن الخطاب للكفار ، وقيل: لاتدركون كنه مايجرى عليه على أن الاستدراك من تنظرون ؛ والابصار من البصر بالعين تجوز به عن الادراك أوهو من البصيرة بالقلب، وقيل: أريد بأقربيته تعالى اليه منهم أقربية رسله عز وجل أى ورسلنا الذين يقبضون روحه ويعالجون إخراجها أقرب اليه منكم ولكن لاتبصرونهم ﴿ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أى غير مربوبين من دان السلطان الرعية إذا ساسهم وتعبدهم ؛ ومنه قيل للعبد : مدين وللأمة مدينة قال الاخطل :

ربت وربا فى حجرها ابن (مدينة) تراه على مسحاته يتركل

والكلام ناظر إلى قوله تعالى : (نحن خلقناكم فلولا تصدقون)، وقيل : هو من دان بمعنى انقاد وخضع، وتجوز به عن الجزاء كما فى قولهم ـ كما تدين تدان ـ أى فلولا إن كنتم غير مجزيين وجعل ناظراً لإنكارهم البعث وليس بشئ ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ أى الروح إلى مقرها والقائلون بالتجرد يقولون أى ترجعون تعلقها كما كان أولا *

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٨٧﴾ فى اعتقادكم عدم خالقيته تعالى فان عدم تصديقهم بخالقيته سبحانه لهم عبارة عن تصديقهم بعدمها على مذهبهم، وفى البحر وغيره إن كنتم صادقين فى تعطيلكم وكفركم بالمحيى المميت المبدىء المعيد نسبتكم إنزال المطر إلى الأنواء دونه عز وجل، وترجعون المذكور هو العامل - بإذا - الظرفية فى (إذا بلغت الحلقوم) وهو المحضض عليه - بلولا - الأولى، و(لولا) الثانية تكرير للتأكيد، و(لولا) الأولى مع مافى حيزها دليل جواب الشرط الاول أعنى (إن كنتم غير مدينين) والشرط الثانى مؤكد للأول مبين له، وقدم أحد الشرطين على (ترجعونها) للاهتمام والتقدير - فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مربوبين صادقين فيما تزعمونه من الاعتقاد الباطل فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم - وحاصل المعنى أنكم إن كنتم غير مربوبين كما تقتضيه أقوالكم وأفعالكم فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن إذا بلغت الحلقوم وتردونها كما كانت بقدرتكم أو بواسطة علاج للطبيعة، وقوله تعالى: (وأنتم حينئذ تنظرون) جملة حالية من فاعل (بلغت) والاسمية المقترنة بالواو لا تحتاج فى الربط للضمير لكفاية الواو فلا حاجة إلى القول بأن العائد ما تضمنه حينئذ لأن التنوين عوض عن جملة أى فلولا ترجعونها زمان بلوغها الحلقوم حال نظركم اليه وما يقاسيه من هول النزع مع تعطفكم عليه وتوفركم على إنجائه من المهالك، وقوله سبحانه: (ونحن أقرب) الخ اعتراض يؤكد ماسيق له الكلام من توبيخهم على صدور مايدل على سوء اعتقادهم بربهم سبحانه منهم، وفى جواز جعله حالا مقال، وقال أبو البقاء: (ترجعونها) جواب (لولا) الأولى، وأغنى ذلك عن جواب الثانية، وقيل: عكس ذلك *

وقيل: (إن كنتم) شرط دخل على شرط فيكون الثانى مقدما فى التقدير - أى إن كنتم صادقين إن كنتم غير مربوبين فارجعوا الارواح إلى الابدان - وما ذكرناه سابقاً اختيار جار الله وأياً ما كان فقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٨٨﴾ إلى آخره شروع فى بيان حال المتوفى بعد الممات إثر بيان حاله عند الوفاة وضمير (كان) للمتوفى المفهوم مما مر أى فأما إن كان المتوفى الذى بين حاله من السابقين من الازواج الثلاثة عبر عنهم بأجل أوصافهم ﴿فَرَوْحٌ﴾ أى فله روح على أنه مبتدأ خبره محذوف مقدم عليه لأنه نكرة، وقيل: خبر مبتدأ محذوف أى فجزاؤه روح أى استراحة، والفاء واقعة فى جواب أما، قال بعض الأجلة: تقدير هذا الكلام مهما يكن من شئ فروح الخ إن كان من المقربين فحذف مهما يكن من شئ، وأقيم أما مقامه ولم يحسن أن يلى الفاء أما، فأوقع الفصل بين أما والفاء بقوله سبحانه: (إن كان من المقربين) لتحسين اللفظ كما يقع الفصل بينهما بالظرف والمفعول، والفاء فى (فروح) وأخويه جواب أما دون (إن)، وقال أبو البقاء: جواب أما (فروح)، وأما (إن) فاستغنى بجواب أما عن جوابها لأنه يحذف كثيراً، وفى البحر أنه إذا اجتمع شرطان فالجواب للسابق منهما، وجواب الثانى محذوف، فالجواب ههنا لأما، وهذا مذهب سيبويه *

وذهب الفارسى إلى أن المذكور جواب (إن) وجواب أما محذوف، وله قول آخر موافق لمذهب سيبويه *

وذهب الأخفش إلى أن المذكور جواب لهما معا، وقد أبطلنا المذهبين فى شرح التسهيل انتهى، والمشهور أنه لابد من لصوق الاسم - لأما - وهو عند الرضى وجماعة أكثرى لهذه الآية، والذاهبون إلى الأول قالوا: هى بتقدير فأما المتوفى (إن كان) وتعقب بأنه لايخفى أن التقدير مستغنى عنه ولادليل عليه إلا اطراد الحكم، ثم إن كون - أما - قائمة مقام مهما يكن أغلبي إذ لا يطرد فى نحو أما قريشاً فأنا أفضلها إذ التقدير مهما ذكرت قريشاً

فأنا أفضلها ، وتمام الكلام فى هذا المقام يطلب من كتب العربية *

وأخرج الامام أحمد . والبخارى فى تاريخه . وأبو داود . والنسائى . والترمذى وحسنه . والحاكم وصححه . وآخرون عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقرأ (فروح) بضم الراء ، وبه قرأ ابن عباس . وقتادة . ونوح القارى . والضحاك . والاشهب . وشعيب . وسليمان التيمى . والربيع بن خثيم . ومحمد بن على . وأبو عمران الجونى . والكلبى . وفياض . وعبيد . وعبد الوارث عن أبى عمرو . ويعقوب ابن حسان . وزيد . ورويس عنه . والحسن وقال: (الروح) الرحمة لأنها كالحياة للمرحوم ، أو سبب لحياته الدائمة فإطلاقه عليها من باب الاستعارة أو المجاز المرسل ، وروى هذا عن قتادة أيضا ، وقال ابن جنى: معنى هذه القراءة يرجع إلى معنى الروح فكأنه قيل : فله ممسك روح وممسكها هو الروح كما تقول: الهواء هو الحياة وهذا السماع هو العيش ، وفسر بعضهم الروح بالفتح بالرحمة أيضا كما فى قوله تعالى :(ولاتيأسوا من روح الله) وقيل: هو بالضم البقاء ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ أى ورزق كما روى عن ابن عباس . ومجاهد . والضحاك ، وفى رواية أخرى عن الضحاك أنه الاستراحة ، وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه قال : هو هذا الريحان أى المعروف *

وأخرج ابن جرير عنه أنه قال : تخرج روح المؤمن من جسده فى ريحانة ؛ ثم قرأ (فأما إن كان) الخ *

وأخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : لم يكن أحد من المقربين يفارق الدنيا حتى يؤتى بغصنين من ريحان الجنة فيشمهما ثم يقبض ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ٨٩ ﴾ أى ذات تنعم فالاضافة لامية أولادنى ملابسة ، وهذا إشارة إلى مكان المقربين بحيث يلزم منه أن يكونوا أصحاب نعيم *

وأخرج الامام أحمد فى الزهد . وابن أبى شيبة . وعبد بن حميد . وابن المنذر عن الربيع بن خيثم قال فى قوله تعالى : (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان): هذا له عند الموت ، وفى قوله تعالى: (وجنة نعيم) تخبأ له الجنة إلى يوم يبعث ولينظر ما المراد بالريحان على هذا ، وعن بعض السلف ما يقتضى أن يكون الكل فى الآخرة *

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ٩٠ ﴾ عبر عنهم بالعنوان السابق إذ لم يذكر لهم فيما سبق وصف ينبئ عن شأنهم سواه كما ذكر للفريقين الأخيرين ، وقوله تعالى: ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ٩١ ﴾ قيل: هو على تقدير القول أى فيقال لذلك المتوفى منهم سلام لك ياصاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين أى يسلمون عليك كقوله تعالى: (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما إلا قيلا سلاماً سلاماً) فالخطاب لصاحب اليمين ولا التفات فيه مع تقدير القول ، و(من) للابتداء كما تقول سلام من فلان على فلان وسلام لفلان منه *

وقال الطبرى : معناه فسلام لك أنت من أصحاب اليمين ، فمن أصحاب اليمين خبر مبتدأ محذوف والكلام بتقدير القول أيضاً ، وكأن هذا التفسير مأخوذ من كلام ابن عباس رضى الله تعالى عنهما *

أخرج ابن جرير . وابن المنذر عنه أنه قال فى ذلك: تأتيه الملائكة من قبل الله تعالى تسلم عليه وتخبره أنه من أصحاب اليمين ، والظاهر أن هذا على هذا المعنى عند الموت ، وأنه على المعنى السابق فى الجنة *

وجوز أن يكون المعنى فسلامة لك عما يشغل القلب من جهتهم فانهم فى خير أى كن فارغ البال عنهم لا يهمك أمرهم ، وهذا كما تقول لمن عاق قلبه بولده الغائب وتشوش فكره لا يدرى ماحاله كن فارغ البال من ولدك فانه فى راحة ودعة ، والخطاب لمن يصلح له أو لسيد المخاطبين صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعليه قيل: يجوز أن يكون

ذلك تسلية له عليه الصلاة والسلام على معنى أنهم غير محتاجين إلى شفاعة وغيرها، ولا يخفى أن كون جميع أصحاب اليمين غير محتاجين إلى ماذكر غير مسلم فالشفاعة لأهل الكبائر أمر ثابت عند أهل السنة ولا جائز أن يكونوا من أصحاب الشمال فصرائح الآيات أنهم كفار (ومالهم من ولى ولا شفيع يطاع) وكونهم من أصحاب اليمين أقرب من كونهم من السابقين وجعلهم قسما على حدة قد علمت حاله فتذكر فما فى العهد من قدم *

وذكر بعض الأجلة أن هذه الجملة كلام يفيد عظمة حالهم كما يقال فلان ناهيك به وحسبك أنه فلان إشارة إلى أنه ممدوح فوق حد التفصيل، وكأنى بك تختار ذلك فانه حسن لطيف *

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢ ﴾ وهم أصحاب الشمال عبر عنهم بذلك حسبما وصفوا به عند بيان أحوالهم بقوله تعالى: (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون) ذماً لهم بذلك وإشعاراً بسبب ماابتلوا به من العذاب، ولما وقع هذا الكلام بعد تحقق تكذيبهم ورده على أتم وجه ولم يقع الكلام السابق كذلك قدم وصف التكذيب هنا على عكس ماتقدم، ويجوز أن يقال فى ذلك على تقدير عموم متعلق التكذيب بحيث يشمل تكذيبه ﷺ فى دعوى الرسالة إن هذا الكلام إخبار من جهته سبحانه بأحوال الأزواج الثلاثة لم يؤمر عليه الصلاة والسلام بأن يشافه بكل جملة منه من هى فيه فقدم فيه وصف التكذيب الشامل لتكذيبه عليه الصلاة والسلام المشعر بسبب الابتلاء بالعذاب كرامة له ﷺ وتنويها بعلو شأنه، ولما كان الكلام السابق داخلا فى حيز القول المأمور عليه الصلاة والسلام بأن يشافه به أولئك الكفرة لم يحسن التقديم للكرامة إذ يكون حينئذ من باب مادح نفسه يقرئك السلام، ويجوز أن يقال أيضا إن الكلام فى حال الكافر المحتضر والتكذيب لكونه مقابل التصديق لايكون إلا بالقلب وهو لم يتعطل منه تعطل سائر أعضائه فلذا قدم هنا، ويرشد إلى هذا ماقالوه فى دعاء صلاة الجنازة اللهم من أحييته منا فأحيه على الاسلام ومن توفيته منا فتوفه على الايمان من وجه تخصيص الإسلام بالإحياء والإيمان بالاماتة *

وقال الامام فى ذلك: إن المراد من الضلال هناك ماصدر عنهم من الإصرار على الحنث العظيم فضلوا عن سبيل الله تعالى ولم يصلوا اليه ثم كذبوا رسله، (وقالوا أئذا متنا) الخ فكذبوا بالحشر فقال تعالى: (أيها الضالون) الذين أشركتم المكذبون الذين أنكرتم الحشر لآكلون ماتكرهون، وأما هنا فقال سبحانه لهم: أيها المكذبون الذين كذبتم بالحشر الضالون من طريق الخلاص الذين لايهتدون إلى النعيم، وفيه وجه آخر وهو أن الخطاب هناك مع الكفار فقال سبحانه: أيها الذين أشركتم أولا وكذبتم ثانياً، والخطاب هنا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يبين له عليه الصلاة والسلام حال الازواج الثلاثة كما يدل عليه. فسلام لك فقال سبحانه: المقربون فى روح وريحان وجنة ونعيم وأصحاب اليمين فى سلامة، وأما المكذبون الذين كذبوك وضلوا فقدم تكذيبهم إشارة إلى كرامته صلى الله تعالى عليه وسلم حيث بين أن أقوى سبب فى عقابهم تكذيبهم انتهى،

وعليك بالتأمل والانصاف والنظر لما قال دون النظر لمن قال، وقوله تعالى: ﴿ فَنُزُلٌ ﴾ بتقدير فله نزل أو فجزاؤه نزل كائن ﴿ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ قيل: يشرب بعد أكل الزقوم كما فصل فيما قبل ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤ ﴾ أى إدخال فى النار، وقيل: إقامة فيها ومقاساة لألوان عذابها وكل ذلك مبنى على أن المراد بيان مالهم يوم القيامة، وقيل: هذا محمول على مايجده فى القبر من حرارة النار ودخانها لأن الكلام فى حال التوفى وعقب قبض الأرواح والأنسب بذلك كون ما ذكر فى البرزخ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال فى الآية: لايخرج

الـكافر حتى يشرب كأسا من حميم ، وقرأ أحمد بن موسى . والمنقرى . واللؤلؤى عن أبى عمرو (وتصلية) بالجر عطفا على (حميم) ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ أى الذى ذكر فى السورة الـكريمة كما أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ٩٥ ﴾ اليقين على مايفهم من كلام الزمخشرى فى الجاثية اسم للعلم الذى زال عنه اللبس وبذلك صرح صاحب المطلع وذكر أنه تفسير بحسب المعنى وهو مأخوذ من المقام وإلا فهو العلم المتيقن مطلقاً والاضافة بمعنى اللام والمعنى ـ لهو عين اليقين ـ فهو على نحو عين الشئ ونفسه ولايخفى أن الاضافة من إضافة العام إلى الخاص وكونها بمعنى اللام قول لبعضهم ، وقال بعض آخر : إنها بيانية على معنى من ، وقدر بعضهم هنا موصوفا أى لهو حق الخبر اليقين وكونه لا يناسب المقام غير متوجه ، وفى البحر قيل : إن الإضافة من إضافة المترادفين على سبيل المبالغة كما تقول هذا يقين اليقين وصواب الصواب بمعنى أنه نهاية فى ذلك فهما بمعنى أضيف أحدهما إلى الآخر للمبالغة وفيه نظر ، والفاء فى قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ٩٦ ﴾ لترتيب التسبيح أو الأمر به ، فان حقية مافصل فى تضاعيف السورة الـكريمة مما يوجب التسبيح عما لا يليق مما ينسبه الـكفرة إليه سبحانه قالا أو حالا تعالى عن ذلك علواً كبيراً وأخرج الامام أحمد . وأبو داود . وابن ماجه . وابن حبان . والحاكم وصححه . وغيرهم عن عقبة بن عامر الجهنى قال : « لما نزلت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسبح باسم ربك العظيم قال : اجعلوها فى ركوعكم ولما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال : اجعلوها فى سجودكم » .

﴿ ومما قاله السادة أرباب الاشارة ﴾ متعلقا ببعض هذه السورة الـكريمة أن (الواقعة) اسم لقيامة الروح كما أن (الآزفة) اسم لقيامة الخفى ، و (الحاقة) اسم لقيامة السر ، و (الساعة) اسم لقيامة القلب ، وقالوا : إن الواقعة إذا وقعت ترفع صاحبها طوراً وتخفضه طوراً وتشعل نيران الغيرة وتفجر أنهار المعرفة وتحصل للسالك إذا اشتغل بالسلوك والتصفية ووصل ذكره إلى الروح وهى فى البداية مثل ستر أسود يجئ من فوق الرأس عند غلبة الذكر وكلما زاد فى النزول يقع على الذاكر هيبة وسكينة وربما يغمى عليه فى البداية ويشاهد إذا وقع على عينيه عوالم الغيب فيرى ماشاء الله تعالى أن يرى وتكشف له العلوم الروحانية ويرى عجائب وغرائب لاتحصى ، وإذا أفاق فليعرض ماحصل له لمسلـكه ليرشده إلى مافيه مصلحة وقته ويعبر له ماهو مناسب لحوصلته ويقوى قلبه ويأمره بالذكر والتوجه الـكلى حتى يكمل بصفو سر الواقعة فيكون سراً منوراً فربما يصير السالك بحيث إذا فتح عينيه بعد نزولها فى عالم الشهادة يشاهد ماكان مشاهداً له فيها وهى حالة سنية معتبرة عند أرباب السلوك ـ فليس لوقعتها كاذبة ـ بل هى صادقة لأن الشيطان يفر عندها والنفس لاتقدر أن تلبس على صاحبها وهى اليقظة الحقيقية ومابعده الناس يقظة هو النوم كما يشير اليه قول أمير المؤمنين على كرم الله تعالى وجهه : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، ثم أنهم تـكلموا على أكثر ما فى السورة الجليلة بما يتعلق بالأنفس ، وقالوا فى مواقع النجوم : إنها إشارة إلى اللطائف المطهرة لانها مواقع نجوم الواردات القدسية الخفية من السماء الجبروتية اللاهوتية ، وقيل : فى قوله تعالى : (لايمسه إلا المطهرون) إن فيه إشارة إلى أنه لاينبغى لمن لم يكن طاهر النفس من حدث الميل إلى صغائر الشهوات ـ وهو الحدث الاصغر ـ ومن حدث الميل إلى كبائر الشهوات ـ وهو الحدث الأكبر ـ أن يمس بيد نفسه وفـكره معانى القرآن الـكريم كما لاينبغى لمن لم يكن طاهر البدن من الحدثين المعروفين فى البدن أن يمس بيد بدنه وجسده ألفاظه المـكتوبة ، وقيل : أيضا يجوز أن يقال المعنى

لا يصل إلى أدنى حقائق أسرار القرآن الكريم إلا المطهرون من أرجاس الشهوات وأنجاس المخالفات ☼

وإذا كانت هذه الجملة صفة للكتاب المكنون المراد منه اللوح المحفوظ وأريد بالمطهرين الملائكة عليهم السلام، وكان المعنى لا يطلع عليه إلا الملائكة عليهم السلام كان فى ذلك ردّ على من يزعم أن الأولياء يرون اللوح المحفوظ ويطلعون على ما فيه ، وحمل المطهرين على ما يعم الملائكة والأولياء الذين طهرت نفوسهم وقدست ذواتهم حتى التحقوا بالملائكة عليهم السلام لا ينفع فى البحث مع أهل الشرع فإن مدار استدلالاتهم على الأحكام الشرعية الظواهر على أنه لم يسمع عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو هو أنه نظر يوماً وهو بين أصحابه إلى اللوح المحفوظ واطلع على شئ مما فيه . وقال لهم: إنى رأيت اللوح المحفوظ واطلعت على كذا و كذا فيه، وكذلك لم يسمع عن أجلة أصحابه الخلفاء الراشدين أنه وقع لهم ذلك ، وقد وقعت بينهم مسائل اختلفوا فيها وطال نزاعهم فى تحقيقها إلى أن كاد يغم هلال الحق فيها ولم يراجع أحد منهم لكشفها اللوح المحفوظ ☼

وذكر بعض العلماء أن سدرة المنتهى ينتهى علم من تحتها اليها وأن اللوح فوقها بكثير ، وبكل من ذلك نطقت الآثار، وهو يشعر بعدم اطلاع الأولياء على اللوح، ومع هذا كله من ادعى وقوع الاطلاع فعليه البيان وأنى به ، وهذا الذى سمعت مبنى على ما نطقت به الأخبار فى صفة اللوح المحفوظ وأنه جسم كتب فيه ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة ، وأما إذا قيل فيه غير ذلك انجر البحث إلى وراء ما سمعت، واتسعت الدائرة ☼

ومن ذلك قولهم: إن الالواح أربعة، لوح القضاء السابق على المحو والاثبات وهو لوح العقل الأول، ولوح القدر أى لوح النفس الناطقة الكلية التى يفصل فيها كليات اللوح الأول وهو المسمى باللوح المحفوظ ، ولوح النفس الجزئية السماوية التى ينتقش فيها كل ما فى هذا العالم شكله وهيئته ومقداره - وهو المسمى بالسماء الدنيا - وهو بمثابة خيال العالم كما أن الأول بمثابة روحه ، والثانى بمثابة قلبه ، ولوح الهيولى القابل للصورة فى عالم الشهادة ويقولون أيضاً ما يقولون وينشد المنتصر له قوله :

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

هذا ولا تظنن أن نفى رؤيتهم للوح المحفوظ نفى لكراماتهم الكشفية وإلهاماتهم الغيبية معاذ الله تعالى من ذلك، وطرق اطلاع الله تعالى من شاء من أوليائه على من شاء من علمه غير منحصر بإراءته اللوح المحفوظ ثم إن الإمكان مما لا نزاع فيه وليس الكلام إلا فى الوقوع ، وورود ذلك عن النبى ﷺ وأجلة أصحابه كالصديق. والفاروق. وذى النورين . وباب مدينة العلم . والنقطة التى تحت الباء رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، والله تعالى أعلم ☼

وقالوا فى قوله تعالى :(ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون) ما بنوه على القول بوحدة الوجود والكلام فيها شائع - وقد أشرنا اليه فى هذا الكتاب غير مرة - ولهم فى اليقين . وعين اليقين. وحق اليقين عبارات شتى، منها اليقين رؤية العيان بقوة الايمان لا بالحجة والبرهان، وقيل: مشاهدة الغيوب بصفاء القلوب وملاحظة الاسرار بمحافظة الافكار ، وقيل: طمأنينة القلب على حقيقة الشئ من يقن الماء فى الحوض إذا استقر ، وحق اليقين فناء العبد فى الحق والبقاء به علماً وشهوداً وحالا لا علماً فقط. فعلم كل عاقل الموت علم اليقين فاذا عاين الملائكة فهو عين اليقين ، وإذا ذاق الموت فهو حق اليقين ، وقيل: علم اليقين ظاهر الشريعة، وعين اليقين الاخلاص فيها، وحق اليقين المشاهدة فيها ، (وقيل: ، وقيل:) ونحن نسأل الله تعالى الهداية إلى أقوم سبيل، وأن يشرح صدورنا بأنوار علوم كتابه الكريم الجليل . وهو سبحانه حسبنا فى الدارين ونعم الوكيل ☼

﴿ سورة الحديد ﴾

أخرج جماعة عن ابن عباس أنها نزلت بالمدينة ، وقال النقاش . وغيره : هى مدنية باجماع المفسرين ولم يسلم له، فقد قال قوم: إنها مكية ، نعم الجمهور - كما قال ابن الفرس - على ذلك *

وقال ابن عطية : لاخلاف ان فيها قرآنا مدنياً لكن يشبه أن يكون صدرها مكياً ، ويشهد لهذا ماأخرجه البزار فى مسنده . والطبرانى . وابن مردويه . وأبو نعيم فى الحلية . والبيهقى . وابن عساكر عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه دخل على أخته قبل أن يسلم فاذا صحيفة فيها أول سورة الحديد فقرأه حتى بلغ (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) فأسلم ، ويشهد لمكية آيات أخر ماأخرج مسلم . والنسائى . وابن ماجه . وغيرهم عن ابن مسعود ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله تعالى بهذه الآية (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) إلا أربع سنين ، وأخرج الطبرانى . والحاكم وصححه وغيرهما عن عبد الله بن الزبير أن ابن مسعود أخبره أنه لم يكن بين إسلامهم وبين أن نزلت هذه الآية يعاتبهم الله تعالى بها إلا أربع سنين (ولا تكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل) الآية لكن سيأتى إن شاء الله تعالى آثار تدل على مدنية ماذكر ولعلها لاتصلح للمعارضة *

ونزلت يوم الثلاثاء على ماأخرج الديلمى عن جابر مرفوعا لاتحتجموا يوم الثلاثاء فان سورة الحديد أنزلت على يوم الثلاثاء ، وفيه أيضا خبر رواه الطبرانى . وابن مردويه عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما بسند ضعيف ، وهى تسع وعشرون آية فى العراق ، وثمان وعشرون فى غيره ، ووجه اتصالها - بالواقعة - أنها بدئت بذكر التسبيح وتلك ختمت بالأمر به ، وكان أو لها واقعاً موقع العلة للأمر به فكأنه قيل : (سبح باسم ربك العظيم) لانه سبح له ما فى السموات والارض ، وجاء فى فضلها مع أخواتها ماأخرجه الإمام أحمد . وأبو داود . والترمذى وحسنه . والنسائى . وابن مردويه . والبيهقى فى شعب الايمان عن عرباض بن سارية « أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ، وقال : إن فيهن آية أفضل من ألف آية » وأخرج ابن الضريس نحوه عن يحيى بن أبى كثير ثم قال : قال يحيى : نراها الآية التى فى آخر الحشر *

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ التسبيح على المشهور تنزيه الله تعالى اعتقاداً وقولا وعملا عما لايليق بجنابه سبحانه من سبح فى الارض والماء إذا ذهب وأبعد فيهما ، وحيث أسند ههنا إلى غير العقلاء أيضا فان مافى السموات والارض يعم جميع مافيهما سواء كان مستقراً فيهما أو جزءاً منهما بل المراد بما فيهما الموجودات فيكون أظهر فى تناول السموات والارض ويتناول أيضاً الموجودات المجردة عند القائل بها ، قال الجمهور : المراد به معنى عام مجازى شامل لما نطق به لسان المقال كتسبيح الملائكة والمؤمنين من الثقلين ، ولسان الحال كتسبيح غيرهم فان كل فرد من أفراد الموجودات يدل بإمكانه وحدوثه على الصانع القديم الواجب الوجود المتصف بكل كمال المنزه عن كل نقص ، وذهب بعض إلى أن التسبيح على حقيقته المعروفة فى الجميع وهو مبنى على ثبوت النفوس الناطقة والادراك لسائر الحيوانات والجمادات على مايليق بكل ، وقد صرح به جمع من الصوفية فتسبيح كل شئ عندهم قالى وإن تفاوت الامر ، وقيل: معنى سبح حمل رائيه العاقل على قول سبحان الله تعالى ونبهه عليه وهو كما ترى ، ومن يجوز استعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه معا لايحتاج إلى

عموم المجاز ، وجوز الطبرسى كون (ما) للعالم فقط مثلها فى قول أهل الحجاز كما حكى أبو زيد عند سماع الرعد ـ سبحان (ما) سبحت له ـ ولا يخفى أن عمومها العالم وغيره أولى، والظاهر أنها فى الوجهين موصولة، وقال بعضهم: إنها نكرة موصوفة وأن أصل الكلام مافى السموات ومافى الارض ثم حذفت (ما) الثانية وأقيمت صفتها مقامها ، ولا يحسن أن تكون موصولة لأن الصلة لا تقوم مقام الموصول عند البصريين وتقوم الصفة مقام الموصوف عند الجميع ، والحمل على المتفق عليه أولى من الحمل على المختلف فيه وكون المذكورة موصولة والمحذوفة نكرة موصوفة مما لا وجه له انتهى ٭

وأنت تعلم أن حذف الموصول الصريح فى مثل ذلك أكثر من أن يحصى وجيء باللام مع أن التسبيح متعد بنفسه كما فى قوله تعالى: (وتسبحوه) للتأكيد فهى مزيدة لذلك كما فى نصحت له وشكرت له، وقيل: للتعليل والفعل منزل منزلة اللازم أى فعل التسبيح وأوقعه لأجل الله تعالى وخالصاً لوجهه سبحانه ، وفيه شئ لا يخفى، وعبر بالماضى هنا وفى بعض الأخوات وبالمضارع فى البعض الآخر إيذانا بتحقق التسبيح فى جميع الأوقات ، وفى كل دلالة على أن من شأن ما أسند اليه التسبيح أن يسبحه وذلك هجيراه وديدنه ، أما دلالة المضارع عليه فللدلالة على الاستمرار إلى زمان الاخبار وكذلك فيما يأتى من الزمان لعموم المعنى المقتضى للتسبيح وصلوح اللفظ لذلك حيث جرد عن الدلالة على الزمان وأوثر على الاسم دلالة على تجدد تسبيح غب تسبيح ، وأما دلالة الماضى فللتجرد عن الزمان أيضا مع التحقيق الذى هو مقتضاه فيشمل الماضى من الزمان ومستقبله كذلك ، وقيل : الايذان والدلالة على الاستمرار مستفادان من مجموعى الماضى والمضارع حيث دل الماضى على الاستمرار إلى زمان الاخبار والمضارع على الاستمرار فى الحال والاستقبال فشملا معا جميع الازمنة ، وقال الطيبى : افتتحت بعض السور بلفظ المصدر وبعض بالماضى وبعض بالمضارع وبعض بالامر فاستوعب جميع جهات هذه الكلمة إعلاما بأن المكونات من لدن إخراجها من العدم إلى الوجود إلى الأبد مسبحة مقدسة لذاته سبحانه وتعالى قولا وفعلا طوعا وكرها (وإن من شئ إلا يسبح بحمده) ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ القادر الغالب الذى لا ينازعه ولا يمانعه شيء ﴿ ٱلْحَكِيمُ ١ ﴾ الذى لا يفعل إلا ماتقتضيه الحكمة والمصلحة ، والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله مشعر بعلة الحكم، وكذا قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أى التصرف الكلى فيهما وفيما فيهما من الموجودات من حيث الايجاد والاعدام وسائر التصرفات ، وقوله سبحانه : ﴿ يُحْيِى وَيُمِيتُ ﴾ أى يفعل الاحياء والاماتة استئناف مبين لبعض أحكام الملك وإذا جعل خبر مبتدأ محذوف أى هو يحيي ويميت كانت تلك الجملة كذلك وجعله حالا من ضمير له يوهم تقييد اختصاص الملك بهذه الحال ، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء التى من جملتها ما ذكر من الإحياء والإماتة ﴿ قَدِيرٌ ٢ ﴾ مبالغ فى القدرة تذييل وتكميل لما قبله ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ ﴾ السابق على جميع الموجودات فهو سبحانه موجود قبل كل شئ حتى الزمان لأنه جل وعلا الموجد والمحدث للموجودات ﴿ وَٱلْآخِرُ ﴾ الباقى بعد فنائها حقيقة أو نظراً إلى ذاتها مع قطع النظر عن مبقيها فان جميع الموجودات الممكنة إذا قطع النظر عن علتها فهى فانية ٭

ومن هنا قال ابن سينا : الممكن فى حد ذاته ليس وهو عن علته أيس فلا ينافى هذا كون بعض

الموجودات الممكنة لاتفنى كالجنة والنار ومن فيهما كما هو مقرر مبين بالآيات والاحاديث لأن فناءها فى حد ذاتها أمر لاينفك عنها ، وقد يقال : فناء كل ممكن بالفعل ليس بمشاهد ، والذى يدل عليه الدليل إنما هو إمكانه فالبعدية فى مثله بحسب التصور والتقدير ، وقيل : هو الأول الذى تبتدىء منه الأسباب إذ هو سبحانه مسببها (والآخر) الذى تنتهى اليه المسببات فالأولية ذاتية والآخرية بمعنى أنه تعالى اليه المرجع والمصير بقطع النظر عن البقاء الثابت بالأدلة ، وقيل : الأول خارجا لأنه تعالى أوجد الأشياء فهو سبحانه متقدم عليها فى نفس الأمر الخارجي والآخر ذهناً وبحسب التعلق لأنه عز شأنه يستدل عليه بالموجودات الدالة على الصانع القديم كما قيل : ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله تعالى بعده ، وقال حجة الاسلام الغزالى : إن الاول يكون أولا بالإضافة إلى شئ ، والآخر يكون آخراً بالاضافة إلى شئ ، وهما متناقضان فلا يتصور أن يكون الشئ الواحد من وجه واحد بالاضافة إلى شئ واحد أولا وآخراً جميعاً بل إذا نظرت إلى ترتيب الوجود ولاحظت سلسلة الموجودات المترتبة فالله تعالى بالاضافة اليها أول إذ كلها استفادت الوجود منه سبحانه وأما هو عز وجل فموجود بذاته وما استفاد الوجود من غيره سبحانه وتعالى عن ذلك ، ومهما نظرت إلى ترتيب السلوك ولاحظت منازل السالكين فهو تعالى آخر إذ هو آخر ما ترتقى اليه درجات العارفين وكل معرفة تحصل قبل معرفته تعالى فهى مرقاة إلى معرفته جل وعلا ، والمنزل الأقصى هو معرفة الله جل جلاله فهو سبحانه بالإضافة إلى السلوك آخر وبالاضافة إلى الوجود أول فمنه عز شأنه المبدأ أولا واليه سبحانه والمرجع والمصير آخراً انتهى *

والظاهر أن كونه تعالى أولا وآخراً بالنسبة إلى الموجودات أولى ولعل ماذكره أوفق بمشرب القوم .

﴿ وَالظَّاهِرُ ﴾ أى بوجوده لأن كل الموجودات بظهوره تعالى ظاهر ﴿ وَالْبَاطِنُ ﴾ بكنهه سبحانه فلا تحوم حوله العقول ، وقال حجة الاسلام : هذان الوصفان من المضافات فلا يكون الشئ ظاهراً لشئ وباطناً له من وجه واحد بل يكون ظاهراً من وجه بالاضافة إلى إدراك وباطناً من وجه آخر فان الظهور والبطون إنما يكون بالاضافة إلى الادراكات والله تعالى باطن إن طلب من إدراك الحواس وخزانة الخيال ظاهر إن طلب من خزانة العقل بالاستدلال والريب من شدة الظهور وكل ماجاوز الحد انعكس إلى الضد ، وإلى تفسير الباطن بغير المدرك بالحواس ذهب الزمخشرى ، ثم قال : إن الواو الاولى لعطف المفرد على المفرد فتفيد أنه تعالى الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية والأخيرة أيضا كذلك فتفيد أنه تعالى الجامع بين الظهور والخفاء ، وأما الوسطى فلعطف المركب على المركب فتفيد أنه جل وعلا الجامع بين مجموع الصفتين الاولين ومجموع الصفتين الأخريين فهو تعالى المستمر الوجود فى جميع الأوقات الماضية والآتية وهو تعالى فى جميعها ظاهر وباطن جامع للظهور بالادلة والخفاء فلا يدرك بالحواس ، وفى هذا حجة على من جوز إدراكه سبحانه فى الآخرة بالحاسة أى وذلك لانه تعالى مامن وقت يصح اتصافه بالاولية والآخرية إلا ويصح اتصافه بالظاهرية والباطنية معاً ، فاذا جوز إدراكه سبحانه بالحاسة فى الآخرة فقد نفى كونه سبحانه باطناً وهو خلاف ماتدل عليه الآية ، وأجاب عن ذلك صاحب الكشف فقال : إن تفسير الباطن بأنه غير مدرك بالحواس تفسير بحسب التشهى فان بطونه تعالى عن إدراك العقول كبطونه عن إدراك الحواس لان حقيقة الذات غير مدركة لاعقلا ولا حساً باتفاق بين المحققين من الطائفتين ، والزمخشري ممن سلم فهو الظاهر بوجوده والباطن بكنهه وهو سبحانه الجامع بين الوصفين أزلا

وأبداً ، وهذا لا ينافى الرؤية لأنها لا تفيد ذلك عند مثبتها انتهى ، وهو حسن فلا تغفل *

وعليه فالتذليل بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٣ ﴾ لئلا يتوهم أن بطونه تعالى عن الأشياء يستلزم بطونها عنه عز وجل كما فى الشاهد ، وقال الأزهرى : قد يكون الظاهر والباطن بمعنى العالم لما ظهر وبطن ؛ وذلك أن من كان ظاهراً احتجب عنه الباطن ومن كان باطناً احتجب عنه الظاهر فان أردت أن تصفه بالعلم قلت هو ظاهر باطن مثله قوله تعالى : (لا شرقية ولا غربية) أى لا شرقية فقط ولا غربية فقط ولكنها شرقية غربية ، وفى التذييل المذكور حينئذ خفاء ، وقريب منه من وجه مانقل أن الظاهر بمعنى العالى على كل شىء الغالب له من قولهم ظهر عليهم إذا علاهم وغلبهم ، والباطن الذى بطن كل شىء أى علم باطنه ، وتعقب بفوات المطابقة بين الظاهر والباطن عليه وأن بطنه بمعنى علم باطنه غير ثابت فى اللغة ، لكن قيل: فى الآثار ماينصر تفسير الظاهر بما فسر *

أخرج مسلم . والترمذى . وابن أبى شيبة . والبيهقى عن أبى هريرة قال: «جاءت فاطمة رضى الله تعالى عنها إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تسأله خادماً فقال لها: قولى اللهم رب السموات السبع ورب العرش الكريم العظيم ربنا ورب كل شىء منزل التوراة والانجيل والفرقان فالق الحب والنوى أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته أنت الأول فليس قبلك شىء وأنت الآخر فليس بعدك شىء وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن فليس دونك شىء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر» وقال الطيبى : المعنى بالظاهر فى التفسير النبوى الغالب الذى يغلب ولا يغلب فيتصرف فى المكونات على سبيل الغلبة والاستيلاء إذ ليس فوقه أحد يمنعه ، وبالباطن من لا ملجأ ولا منجى دونه يلتجئ اليه ملتجئ ، وبحث فيه بجواز أن يكون المراد أنت الظاهر فليس فوقك شئ فى الظهور أى أنت أظهر من كل شئ إذ ظهور كل شئ بك وأنت الباطن فليس دونك فى البطون شىء أى أنت أبطن من كل شىء إذ كل شئ يعلم حقيقته غيره وهو أنت وأنت لا يعلم حقيقتك غيرك ، أو لأن كل شىء يمكن معرفة حقيقته وأنت لا يمكن أصلا معرفة حقيقتك، وأيضاً فى دلالة الباطن على ماقال: خفاء جداً على أنه لو كان الامر كما ذكر ماعدل عنه أجلة العلماء فان الخبر صحيح، وقد جاء نحوه من رواية الامام أحمد . وأبى داود . وابن ماجه ، ويبعد عدم وقوف أولئك الأجلة عليه، وأبعد من ذلك أن يكون ماذكره ﷺ من أسمائه تعالى غير مافى الآية ، ويحتمل أنه عليه الصلاة والسلام أراد بقوله: «فليس دونك شىء» ليس أقرب منك شئ ، ويؤيده ماأخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات عن مقاتل قال : بلغنا فى قوله تعالى : (هو الاول) الخ هو الأول قبل كل شىء والآخر بعد كل شئ والظاهر فوق كل شىء والباطن أقرب من كل شىء، وإنما يعنى القرب بعلمه وقدرته وهو فوق عرشه والذى يترجح عندى ماذكر أولا، وعن بعض المتصوفة أهل وحدة الوجود أن المراد بقوله سبحانه : (هو الأول) الخ أنه لا موجود غيره تعالى إذ كل مايتصور موجوداً فهو إما أول أو آخر أو ظاهر أو باطن فاذا كان الله تعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن لا غيره كان كل مايتصور موجوداً هو سبحانه لا غيره ، وأيدوه بما فى حديث مرفوع أخرجه الإمام أحمد . وعبد بن حميد . والترمذى . وابن المنذر . وجماعة عن أبى هريرة «والذى نفسى بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله» قال أبو هريرة، ثم قرأ النبى ﷺ (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم) *

وحال القول بوحدة الوجود مشهور وأما الخبر فمن المتشابه ، وقد قال فيه الترمذى : فسر أهل العلم

الحديث فقالوا : أي لهبط على علم الله تعالى وقدرته وسلطانه ، ويؤيد هذا ذكر التذييل وعدم اقتصاره عليه الصلاة والسلام على ماقبله ، وهذه الآية ينبغي لمن وجد في نفسه وسوسة فيما يتعلق بالله تعالى أن يقرأها، فقد أخرج أبو داود عن أبي زميل أن ابن عباس قال له وقد أعلمه أن عنده وسوسة في ذلك :« إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل هو الاول » الآية *

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عمر وأبي سعيد رضي الله تعالى عنهم عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لايزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولوا هذا الله كان قبل كل شيء فماذا كان قبل الله فان قالوا لكم ذلك فقولوا هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » *

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ بيان لبعض أحكام ملكهما وقد مر تفسيره مراراً ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ مر بيانه في سورة سبأ ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ تمثيل لاحاطة علمه تعالى بهم وتصوير لعدم خروجهم عنه أينما كانوا، وقيل: المعية مجاز مرسل عن العلم بعلاقة السببية والقرينة السباق واللحاق مع استحالة الحقيقة، وقد أول السلف هذه الآية بذلك ، أخرج البيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس أنه قال فيها: عالم بكم أينما كنتم *

وأخرج أيضا عن سفيان الثوري أنه سئل عنها فقال : علمه معكم ، وفي البحر أنه اجتمعت الامة على هذا التأويل فيها وأنها لاتحمل على ظاهرها من المعية بالذات وهي حجة على منع التأويل في غيرها مما يجري مجراها في استحالة الحمل على الظاهر ، وقد تأول هذه الآية وتأول الحجر الأسود يمين الله في الارض ، ولو اتسع عقله لتأول غير ذلك مما هو في معناه انتهى *

وأنت تعلم أن الاسلم ترك التأويل فانه قول على الله تعالى من غير علم ولانؤول إلا ماأوله السلف ونتبعهم فيما كانوا عليه فان أولوا أولنا وإن فوضوا فوضنا ولا نأخذ تأويلهم لشيء سلماً لتأويل غيره ، وقد رأيت بعض الزنادقة الخارجين من ربقة الاسلام يضحكون من هذه الآية مع قوله تعالى:(ثم استوى على العرش) ويسخرون من القرآن الكريم لذلك وهو جهل فظيع وكفر شنيع نسأل الله تعالى العصمة والتوفيق *

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٤ ﴾ عبارة عن إحاطته بأعمالهم وتأخير صفة العلم الذي هو من صفات الذات عن الخلق الذي هو من صفات الافعال مع أن صفات الذات متقدمة على صفات الافعال لما أن المراد الإشارة إلى مايدور عليه الجزاء من العلم التابع للمعلوم ، وقيل : إن الخلق دليل العلم إذ يستدل بخلقه تعالى وإيجاده سبحانه لمصنوعاته المتقنة على أنه عز وجل عالم ومن شأن المدلول التأخر عن الدليل لتوقفه عليه ، وقوله تعالى :

﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تكرير للتأكيد وتمهيد لقوله سبحانه المشعر بالاعادة :

﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ٥ ﴾ أي اليه تعالى وحده لا إلى غيره سبحانه استقلالا أو اشتراكا ترجع جميع الأمور أعراضها وجواهرها ، وقرأ الحسن . وابن أبي اسحق . والاعرج (ترجع) مبنيا للفاعل من رجع رجوعا ، وعلى البناء للمفعول كما في قراءة الجمهور هو من رجع رجعا ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ مر تفسيره مراراً ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ ﴾ أي مبالغ في العلم ﴿ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٦ ﴾ أي بمكنوناتها

اللازمة لها بيان لإحاطة علمه تعالى بما يضمرونه من نياتهم بعد بيان إحاطته بأعمالهم التي يظهرونها ، وجوز أن يراد (بذات الصدور) نفسها وحقيقتها على أن الاحاطة بما فيها تعلم بالأولى .

﴿ ءامنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ أي جعلكم سبحانه خلفاء عنه عز وجل في التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة، عبر جل شأنه عما بأيديهم من الاموال بذلك تحقيقاً للحق وترغيباً في الانفاق فان من علم أنها لله تعالى وإنما هو بمنزلة الوكيل يصرفها إلى ماعينه الله تعالى من المصارف هان عليه الانفاق ، أو جعلكم خلفاء عمن كان قبلكم فيما كان بأيديهم فانتقل لكم ، وفيه أيضا ترغيب في الانفاق وتسهيل له لأن من علم أنه لم يبق لمن قبله وانتقل اليه علم أنه لا يدوم له وينتقل لغيره فيسهل عليه إخراجه ويرغب في كسب الأجر بإنفاقه ويكفيك قول الناس فيما ملكته لقد كان هذا مرة لفلان ، وفي الحديث « يقول ابن آدم : مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت » والمعنى الاول هو المناسب لقوله تعالى : (له ملك السموات والارض) وعليه ماحكى أنه قيل لاعرابي : لمن هذه الابل ؟ فقال : هي لله تعالى عندي ، ويميل اليه قول القائل :

وما المال والأهلون (إلا ودائع) ولا بد يوماً أن ترد الودائع

والآية على ماروي عن الضحاك نزلت في تبوك فلا تغفل ﴿ فالذين ءامنوا منكم وأنفقوا ﴾ حسبما أمروا به ﴿ لهم ﴾ بسبب ذلك ﴿ أجر كبير ٨ ﴾ وعد فيه من المبالغات مالا يخفى حيث جعل الجملة إسمية وكان الظاهر أن تكون فعلية في جواب الأمر بأن يقال مثلا آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا تعطوا أجراً كبيراً ، وأعيد ذكر الايمان والانفاق دون أن يقال فمن يفعل ذلك فله أجر كبير وعدل عن فللذين آمنوا منكم وأنفقوا أجر إلى ما في النظم الكريم وفخم الأجر بالتنكير ، ووصف بالكبير ، وقوله عز وجل : ﴿ ومالكم لا تؤمنون بالله ﴾ استئناف قيل : مسوق لتوبيخهم على ترك الايمان حسبما أمروا به بإنكار أن يكون لهم في ذلك عذر ما في الجملة على أن لا تؤمنون حال من ضمير لكم والعامل ما فيه من معنى الاستقرار أي أي شيء حصل لكم غير مؤمنين على توجيه الانكار والنفي إلى السبب فقط مع تحقق المسبب وهو مضمون الجملة الحالية أعني عدم الايمان فأي لانكار سبب الواقع ونفيه فقط، ونظيره قوله تعالى : (مالكم لا ترجون لله وقاراً) وقد يتوجه الانكار والنفي في مثل هذا التركيب لسبب الوقوع فيسريان إلى المسبب أيضاً كما في قوله تعالى : (ومالي لا أعبد) الخ ولا يمكن إجراء ذلك هنا لتحقق عدم الايمان وهذا المعنى مما لا غبار عليه ، وقوله تعالى : ﴿ والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ﴾ حال من ضمير (لا تؤمنون) مفيدة على ماقيل : لتوبيخهم على الكفر مع تحقق ما يوجب عدمه بعد توبيخهم عليه مع عدم ما يوجبه ، ولام (لتؤمنوا) صلة ـ يدعو ـ وهو يتعدى بها وبالي أي وأي عذر في ترك الايمان (والرسول يدعوكم) اليه وينبهكم عليه ، وجوز أن تكون اللام تعليلية وقوله سبحانه : ﴿ وقد أخذ ميثاقكم ﴾ حال من فاعل يدعوكم أو من مفعوله أي وقد أخذ الله ميثاقكم بالايمان من قبل كما يشعر به تخالف الفعلين مضارعاً وماضياً ، وجوز كونه حالا معطوفة على الحال قبلها فالجملة حال بعد حال من ضمير (تؤمنون) والتخالف بالإسمية والفعلية يبعد ذلك في الجملة ، وأياً ما كان فأخذ الميثاق إشارة إلى ما كان منه تعالى من نصب الأدلة الآفاقية والأنفسية

والتمكين من النظر فقوله تعالى: (والرسول يدعوكم) إشارة إلى الدليل السمعى وهذا إشارة إلى الدليل العقلى وفى التقديم والتأخير مايؤيد القول بشرف السمعى على العقلى *

وقال البغوى : هو ماكان حين أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم بأنه سبحانه ربهم فشهدوا ـ وعليه لامجاز ـ والاول اختيار الزمخشرى ، وتعقبه ابن المنير فقال :لاعليه أن يحمل العهد على حقيقته وهو المأخوذ يوم الذر وكل ما أجازه العقل وورد به الشرع وجب الايمان به، وروى ذلك عن مجاهد . وعطاء . والكلبى . ومقاتل، وضعفه الامام بأن المراد إلزام المخاطبين الايمان ونفى أن يكون لهم عذر فى تركه وهم لايعلمون هذا العهد إلا من جهة الرسول فقبل التصديق بالرسول لايكون سبباً لالزامهم الايمان به ، وقال الطيبى : يمكن أن يقال . إن الضمير فى (أخذ) إن كان لله تعالى فالمناسب أن يراد بالميثاق مادل عليه قوله تعالى : (قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى) الخ لأن المعنى (فإما يأتينكم منى هدى) برسول أبعثه اليكم وكتاب أنزله عليكم ، ويدل على الأول قوله سبحانه : (والرسول يدعوكم لتؤمنوا) وعلى الثانى (هو الذى ينزل على عبده آيات) الخ ، وإن كان للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فالظاهر أن يراد به مافى قوله تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) على أن يضاف الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الموثق لا الموثق عليه أى الميثاق الذى وثقه الأنبياء على أممهم، وهو الوجه لأن الخطاب مع الصحابة رضى الله تعالى عنهم كما يدل عليه مابعد، ولعل الميثاق نحو ماروينا عن الامام أحمد عن عبادة بن الصامت بايعنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على السمع والطاعة فى النشاط والكسل . وعلى النفقة فى العسر واليسر . وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وعلى أن نقول فى الله تعالى ولانخاف لومة لائم انتهى *

ويضعف الأول بنحو ماضعف به الامام حمل العهد على ماكان يوم الذر، وضعف الثانى أظهر من أن ينبه عليه *

والخطاب قال صاحب الكشف: عام يوبخ من لم يؤمن منهم بعدم الايمان ثم من آمن بعدم الانفاق فى سبيله *

وكلام أبى حيان ظاهر فى أنه للمؤمنين، وجعل آمنوا أمراً بالثبات على الايمان ودوامه (وما لكم لاتؤمنون) الخ على معنى كيف لاتثبتون على الايمان ودواعى ذلك موجودة *

وظاهر كلام بعضهم كونه للكفرة وهو الذى أشرنا اليه من قبل ، ولعل ماذكره صاحب الكشف أولى إلا أنه قيل عليه: إن آمنوا إذا كان خطاباً للمتصفين بالايمان ولغير المتصفين به يلزم استعمال الامر فى طلب أصل الفعل نظراً لغير المتصفين وفى طلب الثبات نظراً للمتصفين وفيه مافيه ، ويحتاج فى التفصى عن ذلك إلى إرادة معنى عام للامرين، وقد يقال أراد أنه عمد إلى جماعة مختلفين فى الاحوال فأمروا بأوامر شتى وخوطبوا بخطابات متعددة فتوجه كل أمر وكل خطاب إلى من يليق به وهذا كما يقول الوالى لأهل بلده :أذنوا وصلوا ودرسوا وأنفقوا على الفقراء وأوفوا الكيل والميزان إلى غير ذلك فان كل أمر ينصرف إلى من يليق به منهم فتأمل ، وقرئ (ومالكم لاتؤمنون) بالله ورسوله ، وقرأ أبو عمرو (وقد أخذ ميثاقكم) بالبناء للمفعول ورفع (ميثاقكم)

﴿ إن كُنتُم مُّؤْمنينَ ٨ ﴾ شرط جوابه محذوف دل عليه ماقبل، والمعنى إن كنتم مؤمنين لموجب ما فهذا موجب لاموجب وراءه ، وجوز أن يكون المراد إن كنتم ممن يؤمن فما لكم لاتؤمنون والحالة هذه، وقال الواحدى : أى إن كنتم مؤمنين بدليل عقلى أو نقلى فقد بان وظهر لكم على يدى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ببعثته وإنزال القرآن عليه ، وأياً ما كان فلا تناقض بين هذا وقوله تعالى : (وما لكم لاتؤمنون) وقال الطبرى

فى ذلك: المراد إن كنتم مؤمنين فى حال من الأحوال فآمنوا الآن؛ وقيل: المراد إن كنتم مؤمنين بموسى وعيسى عليهما السلام فآمنوا بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم فان شريعتهما تقتضى الايمان به عليه الصلاة والسلام أو إن كنتم مؤمنين بالميثاق المأخوذ عليكم فى عالم الذر فآمنوا الآن، وقيل المراد إن دمتم على الايمان فأنتم فى رتب شريفة وأقدار رفيعة، والكل كما ترى *

وظاهر الأخير أن الخطاب مع المؤمنين وهو الذى اختاره الطيبي، وقال فى هذا الشرط: يمكن أن يجرى على التعليل كما فى قوله تعالى: (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين) لان الكلام مع المؤمنين على سبيل التوبيخ والتقريع يدل عليه مابعد ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ حسبما يعن لكم من المصالح ﴿ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ واضحات، والظاهر أن المراد بها آيات القرآن، وقيل: المعجزات ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ أى الله تعالى إذ هو سبحانه المخبر عنه، أو العبد لقرب الذكر والمراد ليخرجكم بها ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الايمان، وقرئ فى السبعة ينزل مضارعا فبعض ثقل وبعض خفف.

وقرأ الحسن بالوجهين، وقرأ زيد بن على. والاعمش أنزل ماضياً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ٩﴾ مبالغ فى الرأفة والرحمة حيث أزال عنكم موانع سعادة الدارين وهداكم اليها على أتم وجه، وقرىء فى السبعة (لرؤوف) بواوين، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟﴾ توبيخ على ترك الانفاق إما للمؤمنين الغير المنفقين أولا ولئك الموبخين أولا على ترك الايمان، وبخهم سبحانه على ذلك بعد توبيخهم على ترك الايمان بانكار أن يكون لهم فى ذلك أيضاً عذر من الأعذار، و(أن) مصدرية لا زائدة كما قيل، واقتضاه كلام الاخفش والكلام على تقدير حرف الجر، فالمصدر المؤول فى محل نصب أو جر على القولين وحذف مفعول الانفاق للعلم به مما تقدم وقوله تعالى: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لتشديد التوبيخ، والمراد به كل خير يقربهم اليه تعالى على سبيل الاستعارة التصريحية أى أى شئ لكم فى أن لا تنفقوا فيما هو قربة إلى الله تعالى ماهو له فى الحقيقة وإنما أنتم خلفاؤه سبحانه فى صرفه إلى ماعينه عز وجل من المصارف، أو ما انتقل اليكم من غيركم وسينتقل منكم إلى الغير *

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أى يرث كل شئ فيهما ولا يبقى لأحد مال على أن ميراثهما مجاز أو كناية عن ميراث مافيهما لأن أخذ الظرف يلزمه أخذ المظروف *

وجوز أن يراد يرثهما ومافيهما، واختير الأول أنه يكفى لتوبيخهم إذ لا علاقة لأخذ السموات والارض هنا، والجملة حال من فاعل لا تنفقوا أو مفعوله مؤكدة للتوبيخ فان ترك الانفاق بغير سبب قبيح منكر ومع تحقق مايوجب الانفاق أشد فى القبح وأدخل فى الانكار فان بيان بقاء جميع مافى السموات والأرض من الأموال بالآخرة لله عز وجل من غير أن يبقى لأحد من أصحابها شئ أقوى فى إيجاب الانفاق عليهم من بيان أنها لله تعالى فى الحقيقة، أو أنها انتقلت اليهم من غيرهم كأنه قيل. ومالكم فى ترك إنفاقها فى سبيل الله تعالى، والحال أنه لا يبقى لكم ولا لغيركم منها شئ بل تبقى كلها لله عز وجل، وإظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لزيادة التقرير وتربية المهابة، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ﴾ بيان لتفاوت درجات المنفقين حسب تفاوت أحوالهم فى الانفاق بعد بيان أن لهم أجراً كبيراً على الاطلاق حثاً لهم على تحرى الأفضل،

وعطف القتال على الانفاق للايذان بأنه من أهم مواد الانفاق مع كونه فى نفسه من أفضل العبادات وأنه لايخلو من الانفاق أصلا وقسيم (من أنفق) محذوف أى لا يستوى ذلك وغيره ، وحذف لظهوره ودلالة مابعد عليه ، والفتح فتح مكة على ماروى عن قتادة . وزيد بن أسلم . ومجاهد - وهو المشهور - فتعريفه للعهد أو للجنس ادعاء ، وقال الشعبي : هو فتح الحديبية وقد مر وجه تسميته فتحاً فى سورة الفتح ، وفى بعض الآثار مايدل عليه *

أخرج ابن جرير . وابن أبى حاتم . وابن مردويه . وأبو نعيم فى الدلائل من طريق زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عام الحديبية حتى إذا كان بعسفان قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : يوشك أن يأتى قوم يحتقرون أعمالكم مع أعمالهم قلنا : من هم يارسول الله أقريش ؟ قال : لا ولكن هم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبا ، فقلنا : أهم خير منا يارسول الله ؟ قال : لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه ماأدرك مد أحدكم ولا نصيفه ألا إن هذا فصل مابيننا وبين الناس (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح) الآية *

وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما (قبل) بغير (من) ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى من أنفق ، والجمع بالنظر إلى معنى (من) كما أن إفراد الضميرين السابقين بالنظر إلى لفظها ، ووضع اسم الاشارة البعيد موضع الضمير للتعظيم والاشعار بأن مدار الحكم هو إنفاقهم قبل الفتح وقتالهم . ومحله الرفع على الابتداء؛ والخبر قوله تعالى: ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾ أى أولئك المنعوتون بذينك النعتين الجليلين أرفع منزلة وأجل قدراً *

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ ﴾ بعد الفتح ﴿ وَقَـٰتَلُواْ ﴾ وذهب بعضهم إلى أن فاعل (لا يستوى) ضمير يعود على الانفاق أى لا يستوى هو أى الانفاق أى جنسه إذ منه ماهو قبل الفتح ومنه ماهو بعده ، و(من أنفق) مبتدأ ، وجملة (أولئك أعظم) خبره وفيه تفكيك الكلام وخروج عن الظاهر لغير موجب فالوجه ماتقدم ، ويعلم منه التزاما التفاوت بين الانفاق قبل الفتح والانفاق بعده ، وإنما كان أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا بعد لأنهم إنما فعلوا مافعلوا عند كمال الحاجة إلى النصرة بالنفس والمال لقلة المسلمين وكثرة أعدائهم وعدم ماترغب فيه النفوس طمعاً من كثرة الغنائم فكان ذلك أنفع وأشد على النفس وفاعله أقوى يقيناً بما عند الله تعالى وأعظم رغبة فيه ، ولا كذلك الذين أنفقوا بعد ﴿ وَكُلًّا ﴾ أى كل واحد من الفريقين لا الأولين فقط ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أى المثوبة الحسنى وهى الجنة على ماروى عن مجاهد . وقتادة ، وقيل : أعم من ذلك والنصر والغنيمة فى الدنيا ، وقرأ ابن عامر . وعبد الوارث - وكل - بالرفع ، والظاهر أنه مبتدأ والجملة بعده خبر والعائد محذوف أى وعده كما فى قوله :

وخالد (يحمد) ساداتنا بالحق لايحمد بالباطل

يريد يحمده والجملة عطف على أولئك أعظم درجة وبينهما من التطابق ماليس على قراءة الجمهور ، ومنع البصريون حذف العائد من خبر المبتدا ، وقالوا : لايجوز إلا فى الشعر بخلاف حذفه من جملة الصفة وهم محجوجون بهذه القراءة ، وقول بعضهم : فيها إن كل خبر مبتدا تقديره ، وأولئك كل ، وجملة (وعد الله) صفة - كل - تأويل ركيك ، وفيه زيادة حذف ، على أن بعض النحاة منع وصف - كل - بالجملة لانه معرفة بتقدير وكلهم ، وقال الشهاب : الصحيح ماذهب اليه ابن مالك من أن عدم جواز حذف العائد من جملة الخبر

فى غير -كل- وماضاهاها فى الافتقار والعموم فانه فى ذلك مطرد لكن ادعى فيه الاجماع وهو محل نزاع ۞
﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١٠ ﴾ عالم بظاهره وباطنه ويجازيكم على حسبه فالكلام وعد ووعيد، وفى الآيات من الدلالة على فضل السابقين المهاجرين والانصار مالايخفى ، والمراد بهم المؤمنون المنفقون المقاتلون قبل فتح مكة أوقبل الحديبية بناءاً على الخلاف السابق ، والآية على ماذكره الواحدى عن الكلبى نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أى بسببه ، وأنت تعلم أن خصوص السبب لايدل على تخصيص الحكم ، فلذلك قال: (أولئك) ليشمل غيره رضى الله تعالى عنه ممن اتصف بذلك ، نعم هو أكمل الأفراد فانه أنفق قبل الفتح وقبل الهجرة جميع ماله وبذل نفسه معه عليه الصلاة والسلام ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «ليس أحد أمنّ على بصحبته من أبى بكر» وذلك يكفى لنزولها فيه ، وفى الكشاف إن أولئك هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً مابلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه» قال الطيبى: الحديث من رواية البخارى . ومسلم . وأبى داود . والترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: لاتسبوا أصحابى فلو أن أحداً أنفق مثل أحد ذهباً مابلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه» ، وتعقبه فى الكشف بأنه على هذا لايختص بالسابقين الأولين كما أشار فى الكشاف إليه وهو مبنى على أن الخطاب فى لاتسبوا ليس للحاضرين ولا للموجودين فى عصره صلى الله تعالى عليه وسلم بل لكل من يصلح للخطاب كما فى قوله تعالى: (ولو ترى إذ وقفوا) الآية وإلا فقد قيل: إن الخطاب يقتضى الحضور والوجود ولابد من مغايرة المخاطبين بالنهى عن سبهم فهم السابقون الكاملون فى الصحبة ۞

وأقول شاع الاستدلال بهذا الحديث على فضل الصحابة مطلقاً بناءاً على ماقالوا: إن إضافة الجمع تفيد الاستغراق وعليه صاحب الكشف ، واستشكل أمر الخطاب ، وأجيب عنه بما سمعت وبأنه على حدّ خطاب الله تعالى الأزلى لكن فى بعض الأخبار مايؤيد أن المخاطبين بعض من الصحابة والممدوحين بعض آخر منهم فتكون الاضافة للعهد أو يحمل الأصحاب على الكاملين فى الصحبة ۞

أخرج أحمد عن أنس قال: «كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام فقال خالد لعبد الرحمن ابن عوف: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها فبلغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: دعوا لى أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أنفقتم مثل أحد - أو مثل الجبال - ذهباً ما بلغتم أعمالهم» ثم فى هذا الحديث تأييد مّا لكون أولئك هم الذين أنفقوا قبل الحديبية لأن إسلامه رضى الله تعالى عنه كان بين الحديبية وفتح مكة كما فى التقريب وغيره، والزمخشرى فسر الفتح بفتح مكة فلا تغفل، قال الجلال المحلى: كون الخطاب فى «لاتسبوا» للصحابة السابين ، وقال: نزلهم صلى الله تعالى عليه وسلم بسبهم الذى لايليق بهم منزلة غيرهم حيث علل بما ذكره وهو وجه حسن فتدبر؛ وقوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ ندب بليغ من الله تعالى إلى الانفاق فى سبيله مؤكد للامر السابق به وللتوبيخ على تركه فالاستفهام ليس على حقيقته بل للحث ، والقرض الحسن الانفاق بالاخلاص وتحرى أكرم المال وأفضل الجهات، وذكر بعضهم أن القرض الحسن مايجمع عشر صفات. أن يكون من الحلال فان الله تعالى طيب لايقبل إلا طيباً . وأن يكون من أكرم مايملكه المرء . وأن يكون والمرء صحيح شحيح يأمل العيش ويخشى الفقر . وأن يضعه فى الأحوج الأولى: وأن يكتم ذلك. وأن لايتبعه بالمنّ

والاذى.وأن يقصد به وجه الله تعالى.وأن يستحقر مايعطى وإن كثر.وأن يكون من أحب أمواله اليه.وأن يتوخى فى إيصاله للفقير ما هو أسر لديه من الوجوه كحمله إلى بيته.ولا يخفى أنه يمكن الزيادة والنقص فيما ذكر *

وأيما كان فالكلام إما على التجوز فى الفعل فيكون استعارة تبعية تصريحية أو التجوز فى مجموع الجملة فيكون استعارة تمثيلية وهو الأبلغ أى من ذا الذى ينفق ماله فى سبيل الله تعالى مخلصاً متحريا أكرمه وأفضل الجهات رجاء أن يعوضه سبحانه بدله كمن يقرضه ﴿ فَيُضَـٰعِفَهُ لَهُ ﴾ فيعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً أضعافا كثيرة من فضله *

﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١١ ﴾ أى وذلك الأجر المضموم اليه الإضعاف كريم مرضى فى نفسه حقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون ، ففيه إشارة إلى أن الأجر كما أنه زائد فى الكم بالغ فى الكيف فالجملة حالية لاعطف على (فيضاعفه)، وجوز العطف والمغايرة ثابتة بين الضعف والأجر نفسه فان الاضعاف من محض الفضل والمثل فضل هو أجر، ونصب يضاعفه على جواب الاستفهام بحسب المعنى كأنه قيل : أيقرض الله تعالى أحد فيضاعفه له فان المسئول عنه بحسب اللفظ وإن كان هو الفاعل لكنه فى المعنى هو الفعل إذ ليس المراد أن الفعل قد وقع السؤال عن تعيين فاعله كقولك : من جاءك اليوم ؟ إذا علمت أنه جاءه جاء لم تعرفه بعينه وإنما أورد على هذا الأسلوب للمبالغة فى الطلب حتى كأن الفعل لكثرة دواعيه قد وقع وإنما يسأل عن فاعله ليجازى ولم يعتبر الظاهر لانه يشترط بلا خلاف فى النصب بعد الفاء أن لا يتضمن ماقبل وقوع الفعل نحو لِمَ ضربت زيداً فيجازيك فانه حينئذ لا يتضمن سبق مصدر مستقبل وعلى هذا يؤول كل مافيه نصب وما قبل متضمن للوقوع ، وقرأ غير واحد (فيضاعفه) بالرفع على القياس نظراً للظاهر المتضمن للوقوع وهو إما عطف على يقرض أو على (فهو يضاعفه)

وقرئ فيضعفه بالرفع والنصب ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾ ظرف لما تعلق به له أوله أولقوله تعالى: (فيضاعفه) أو منصوب بإضمار اذكر تفخيماً لذلك اليوم ، والرؤية بصرية والخطاب لكل من تتأتى منه أو لسيد المخاطبين صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقوله عز وجل : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم ﴾ حال من مفعول ترى والمراد بالنور حقيقته على ماظهر من شموس الأخبار ـ واليه ذهب الجمهور ـ والمعنى يسعى نورهم إذا سعوا *

﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم ﴾ أخرج ابن أبى شيبة . وابن جرير . وابن المنذر . وابن أبى حاتم .والحاكم وصححه. وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال . « يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم نوراً من نوره على إبهامه يطفأ مرة ويقد أخرى » وظاهره أن هذا النور يكون عند المرور على الصراط ، وقال بعضهم : يكون قبل ذلك ويستمر معهم إذا مروا على الصراط ، وفى الأخبار مايقتضيه كما ستسمعه قريباً إن شاء الله تعالى ، والمراد أنه يكون لهم فى جهتين جهة الامام [illegible] اليمين وخصا لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم ، وفى البحر الظاهر أن النور قسمان : نور بين أيديهم يضئ الجهة التى يؤمونها . ونور بأيمانهم يضئ ماحواليهم من الجهات ، وقال الجمهور : إن النور أصله بأيمانهم والذى بين أيديهم هو الضوء المنبسط من ذلك، وقيل : الباء بمعنى عن أي وعن أيمانهم والمعنى فى جميع جهاتهم ، وذكر الأيمان لشرفها انتهى ، ويشهد لهذا المعنى

ماأخرج ابن أبي حاتم . والحاكم وصححه . وابن مردويه عن عبد الرحمن بن جبير بن نضير أنه سمع أبا ذر . وأبا الدرداء قالا : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول من يؤذن له فى السجود يوم القيامة وأول من يؤذن له فيرفع رأسه فأرفع رأسي فأنظر بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى فأعرف أمتى بين الامم فقيل : يارسول الله وكيف تعرفهم من بين الامم مابين نوح عليه السلام إلى أمتك ؟ قال : غر محجلون من أثر الوضوء ولا يكون لأحد غيرهم وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم وأعرفهم بسيماهم فى وجوههم من أثر السجود وأعرفهم بنورهم الذى يسعى بين أيديهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم » وظاهر هذا الخبر اختصاص النور بمؤمنى هذه الامة وكذا إيتاء الكتب بالأيمان وبعض الأخبار يقتضى كونه لكل مؤمن ، أخرج ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال : « تبعث ظلمة يوم القيامة فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه حتى يبعث الله تعالى بالنور للمؤمنين بقدر أعمالهم » الخبر ، وأخرج عنه الحاكم وصححه . وابن أبي حاتم من وجه آخر . وابن المبارك . والبيهقى فى الاسماء والصفات خبراً طويلا فيه أيضا ماهو ظاهر فى العموم ، وكذا ماأخرج ابن جرير . والبيهقى فى البعث عن ابن عباس قال : بينما الناس فى ظلمة إذ بعث الله تعالى نوراً فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلا لهم من الله عز وجل إلى الجنة ، ولا ينافى هذا الخبر كونهم يمرون بنورهم على الصراط كما لا يخفى ، وكذا إيتاء الكتب بالأيمان ، فى هداية المريد لجوهرة التوحيد ظاهر الآيات والاحاديث عدم اختصاصه يعنى أخذ الصحف بهذه الأمة وإن تردد فيه بعض العلماء انتهى *

ويمكن أن يقال : إن مايكون من النور لهذه الامة أجلى من النور الذى يكون لغيرها أو هو ممتاز بنوع آخر من الامتياز ، وأما إيتاء الكتب بالأيمان فلعله لكثرته فيها بالنسبة إلى سائر الامم تعرف به ، وفى هذا المطلب أبحاث أخر تذكر إن شاء الله تعالى فى محلها ، وقيل : أريد بالنور القرآن ، وقال الضحاك : النور استعارة عن الهدى والرضوان الذى هم فيه ، وقرأ سهل بن شعيب السهمى . وأبو حيوة (وبإيمانهم) بكسر الهمزة ، وخرج ذلك أبو حيان على أن الظرف يعنى بين أيديهم متعلق بمحذوف والعطف عليه بذلك الاعتبار أى كائناً بين أيديهم وكائناً بسبب إيمانهم وهو كما ترى ، ولعله متعلق بالقول المقدر فى قوله تعالى :

﴿ بُشْرَىٰكُمُ الْيَوْمَ جَنَّٰتٌ ﴾ أى وبسبب إيمانهم يقال لهم ذلك ، وجملة القول ، إما معطوفة على ماقبل أو استئناف أو حال ويجوز على الحالية تقدير الوصف منه أى مقولا لهم ، والقائل الملائكة الذين يتلقونهم *

والمراد بالبشرى مايبشر به دون التبشير والكلام على حذف مضاف أى ماتبشرون به دخول جنات يصح بدونه أى ماتبشرون به جنات ، ويصح بدونه أى ماتبشرون به جنات ، وماقيل : البشارة لا تكون بالأعيان فيه نظر ، وتقدير المضاف لا يغنى عن تأويل البشرى لأن التبشير ليس عين الدخول ، وجملة قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ﴾ فى موضع الصفة لجنات ، وقوله سبحانه : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ حال من جنات ، قال أبو حيان : وفى الكلام التفات من ضمير الخطاب فى (بشراكم) إلى ضمير الغائب فى (خالدين) ولو أجرى على الخطاب لكان التركيب خالداً أنتم فيها :

﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٢ ﴾ يحتمل أن يكون من كلامه تعالى فالاشارة إلى ماذكر من النور والبشرى بالجنات ، ويحتمل أن يكون من كلام الملائكة عليهم السلام المتلقين لهم ، فالاشارة إلى ماهم فيه من النور وغيره أو إلى الجنات بتأويل ماذكر أو لكونها فوزاً على ماقيل ، وقرىء ذلك الفوز بدون (هو) *

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَـٰفِقُونَ وَالْمُنَـٰفِقَـٰتُ ﴾ بدل من (يوم ترى) ، وجوز أن يكون معمولا لاذكر *
وقال ابن عطية : يظهر لى أن العامل فيه ذلك هو الفوز العظيم ، ويكون معنى الفوز عليه أعظم كأنه قيل: إن المؤمنين يفوزون يوم يعترى المنافقين والمنافقات كذا وكذا لأن ظهور المرء يوم خمول عدوه مضادة أبدع وأفخم ، وتعقبه فى البحر بأن ظاهر تقريره أن يوم منصوب بالفوز وهو لا يجوز لانه مصدر قد وصف قبل أخذ متعلقاته فلا يجوز إعماله ولو أعمل وصفه وهو العظيم لجاز - أى الفوز الذى عظم - أى قدره يوم انتهى، وفى عدم جواز إعمال مثل هذا المصدر فى مثل هذا المعمول خلاف ، ثم إن تعلق هذا الظرف بشئ من تلك الجملة خلاف الظاهر ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا ﴾ أى انتظرونا ﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ نصب منه وذلك أن يلحقوا بهم فيستنيروا به *
وقيل : فيأخذوا شيئاً منه يكون معهم تخيلوا تـأتى ذلك فقالوه ، وأصل الاقتباس طلب القبس أى الجذوة من النار ، وجوز أن يكون المعنى انظروا إلينا نقتبس الخ لأنهم إذا نظروا اليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به فانظرونا على الحذف والايصال لان النظر بمعنى مجرد الرؤية يتعدى بإلى فان أريد التأمل تعدى بفى لـكن حمل الآية على ذلك خلاف الظاهر ؛ وقولهم :للمؤمنين ذلك لأنهم فى ظلمة لا يدرون كيف يمشون فيها ، وروى أنه يكون ذلك على الصراط *
وفى الآثار دلالة على أنهم يكون لهم نور فيطفأ فيقولون ذلك ، أخرج الطبرانى. وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأمهاتهم ستراً منه على عباده وأما عند الصراط فان الله تعالى يعطى كل مؤمن نوراً وكل منافق نوراً فاذا استووا على الصراط أطفأ الله نور المنافقين والمنافقات فقال المنافقون: انظرونا نقتبس من نوركم، وقال المؤمنون : أتمم لنا نورنا فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً *
وفى حديث آخر مرفوع عنه أيضاً إن نور المنافق يطفأ قبل أن يأتى الصراط ، وأخرج عبد بن حميد . وابن المنذر عن أبى فاختة يجمع الله تعالى الخلائق يوم القيامة ويرسل الله سبحانه على الناس ظلمة فيستغيثون ربهم فيؤتى الله تعالى كل مؤمن منهم نوراً ويؤتى المنافقين نوراً فينطلقون جميعاً متوجهين إلى الجنة معهم نورهم فبينما هم كذلك إذ أطفأ الله تعالى نور المنافقين فيترددون فى الظلمة ويسبقهم المؤمنون بنورهم بين أيديهم فيقولون: انظرونا نقتبس من نوركم الخبر، والاخبار فى إيتاء المنافق نوراً ثم إطفائه كثيرة وليس فى الآية ما يأباه *
وقرأ زيد بن على . وابن وثاب . والاعمش. وطلحة . وحمزة (أنظرونا) بقطع الهمزة وفتحها وكسر الظاء من النظرة وهى الامهال يقال أنظر المديون أى أمهله ، وضع (انظرونا) بمعنى المهلة وإنظار الدائن المديون موضع اتئاد الرفيق ومشيه الهوينا ليلحقه رفيقه على سبيل الاستعارة بعد سبق تشبيه الحالة بالحالة مبالغة فى العجز وإظهار الافتقار، وقيل: هو من أنظر أى أخر، والمراد اجعلونا فى آخركم ولا تسبقونا بحيث تفوتونا ولا نلحق بكم *
وقال المهدوى: (أنظرونا. وانظرونا) بمعنى وهما من الانتظار تقول العرب: أنظرته بكذا وانتظرته بمعنى واحد والمعنى امهلونا ﴿ قِيلَ ﴾ القائلون على ماروى عن ابن عباس المؤمنون، وعلى ماروى عن مقاتل الملائكة عليهم السلام *
﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ ﴾ قال ابن عباس : أى من حيث جئتم من الظلمة أو إلى المكان الذى قسم فيه النور على ماصح عن أبى أمامة ﴿ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ هناك ، قال مقاتل : هذا من الاستهزاء بهم كما استهزءوا بالمؤمنين

فى الدنيا حين قالوا آمنا وليسوا بمؤمنين،وذلك قوله تعالى : (الله يستهزئ بهم) أى حين يقال لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، وقال أبو أمامة: يرجعون حين يقال لهم ذلك إلى المكان الذى قسم فيه النور فلايجدون شيئاً فينصرفون اليهم وقد ضرب بينهم بسور وهى خدعة الله تعالى التى خدع بها المنافقين حيث قال سبحانه: (يخادعون الله وهو خادعهم) ، وقيل : المراد ارجعوا إلى الدنيا والتمسوا نوراً أى بتحصيل سببه وهو الايمان أو تنحوا عنا والتمسوا نوراً غير هذا فلا سبيل لكم إلى الاقتباس منه ، والغرض التهكم والاستهزاء أيضاً *

وقيل : أرادوا بالنور ماوراءهم من الظلمة الكثيفة تهكما بهم وهو خلاف الظاهر ، وأياً ما كان فالظاهر أن وراءكم معمول لارجعوا *

وقيل: لامحل له من الاعراب لأنه بمعنى ارجعوا فكأنه قيل: ارجعوا ارجعوا كقولهم (وراءك) أوسع لك أى ارجع تجد مكاناً أوسع لك ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم ﴾ أى بين الفريقين ، وقرأ زيد بن على.وعبيد بن عمير (فضرب) مبنياً للفاعل أى فضرب هو أى الله عز وجل ﴿ بِسُور ﴾ أى بحاجز ،قال ابن زيد: هو الاعراف، وقال غير واحد: حاجز غيره والباء مزيدة ﴿ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ ﴾ أى الباب كما روى عن مقاتل أو السور وهو الجانب الذى يلى مكان المؤمنين أعنى الجنة ﴿ فيه الرَّحْمَةُ ﴾ الثواب والنعيم الذى لايكتنه ﴿ وَظَاهِرُهُ ﴾ الجانب الذى يلى مكان المنافقين أعنى النار ﴿ من قِبَله ﴾ أى من جهته ﴿ الْعَذَابُ ١٣ ﴾ وهذا السور قيل: يكون فى تلك النشأة وتبدل هذا العالم واختلاف أوضاعه فى موضع الجدار الشرقى من مسجد بيت المقدس *

أخرج عبد بن حميد عن أبى سنان قال: كنت مع على بن عبد الله بن عباس عند وادى جهنم يعنى المكان المعروف عند بيت المقدس فحدث عن أبيه أنه قال: وقد تلا قوله تعالى:(فضرب بينهم بسور)هذا موضع السور عند وادى جهنم ، وأخرج هو . وابن جرير . وابن المنذر . والحاكم وصححه وغيرهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : إن السور الذى ذكره الله تعالى فى القرآن (فضرب بينهم بسور) هو سور بيت المقدس الشرقى (باطنه فيه الرحمة) المسجد (وظاهره من قبله العذاب) يعنى وادى جهنم وما يليه *

وأخرج عن عبادة بن الصامت أنه كان على سور بيت المقدس الشرقى فبكى فقيل: ما يبكيك؟ فقال : ههنا أخبرنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه رأى جهنم ولايخفى أن هذا ونظائره أمور مبنية على اختلاف العالمين وتغاير النشأتين على وجه لاتصل العقول إلى إدراك كيفيته والوقوف على تفاصيله ، فان صح الخبر لم يسعنا إلا الايمان لعدم خروج الامر عن دائرة الامكان ، وأبو حيان حكى عمن سمعت . وعن كعب الاحبار أنه الجدار الشرقى من مسجد بيت المقدس واستبعده ثم قال : ولعله لايصح عنهم ﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل: فماذا يفعلون بعد ضرب السور ومشاهدة العذاب؟ فقيل: ينادى المنافقون والمنافقات المؤمنين والمؤمنات ﴿ أَلَمْ نَكُن ﴾ فى الدنيا ﴿ مَعَكُمْ ﴾ يريدون به موافقتهم لهم فى الظاهر ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ كنتم معنا كما تقولون ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ محنتموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ وشككتم فى أمور الدين ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ الفارغة التى من جملتها الطمع فى انتكاس الاسلام،

وقال ابن عباس : (فتنتم أنفسكم) بالشهوات واللذات (وتربصتم) بالتوبة(وارتبتم) قال محبوب الليثى: شككتم فى الله (وغرتكم الامانى)طول الآمال ، وقال أبو سنان:قلتم سيغفرلنا ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾أى الموت ﴿ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ الشيطان قال لكم : إن الله عفو كريم لايعذبكم *

وعن قتادة كانوا على خدعة من الشيطان والله مازالوا عليها حتى قذفهم الله تعالى فى النار *

وقرأ سماك بن حرب الغرور بالضم ، قال ابن جنى : وهو كقوله :وغركم بالله تعالى الاغترار ،وتقديره على حذف المضاف أى وغركم بالله تعالى سلامة الاغترار (١) ومعناه سلامتكم منه اغترار كم *

﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ ﴾ أيها المنافقون ﴿ فِدْيَةٌ ﴾فداء وهو ما يبذل لحفظ النفس عن النائبة والناصب ليوم الفعل المنفى بلا ،وفيه حجة على من منع ذلك ،وقرأ أبوجعفر. والحسن. وابن أبى إسحق . والاعرج. وابن عامر. وهرون عن أبى عمرو لاتؤخذ بالتاء الفوقية ﴿ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أى ظاهراً وباطناً فيغاير المخاطبين المنافقين، ثم الظاهر إن المراد بالفدية ماهو من جنس المال ونحوه، وجوز أن يراد بها مايعم الإيمان والتوبة فتدل الآية على أنه لا يقبل إيمانهم وتوبتهم يوم القيامة وفيه بعد، وفى الحديث إن الله تعالى يقول للكافر: أرأيتك لوكان لك أضعاف الدنيا أكنت تفتدى بجميع ذلك من عذاب النار ، فيقول: نعم يارب فيقول الله تبارك وتعالى: قدسألتك ما هو أيسر من ذلك وأنت فى ظهر أبيك آدم أن لاتشرك بى فأبيت إلا الشرك ﴿ مَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ محل أويكم ﴿ هِىَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أى ناصركم من باب ـ تحية بينهم ضرب وجيع ـ والمراد نفى الناصر على البتات بعد نفى أخذ الفدية وخلاصهم بها عن العذاب ، ونحوه قولهم :أصيب بكذا فاستنصر الجزع، ومنه قوله تعالى: (يغاثوا بماء كالمهل) وقال الكلبى . والزجاج . والفراء . وأبو عبيدة : أى أولى بكم كما فى قول لبيد يصف بقرة وحشية نفرت من صوت الصائد :

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها

أى فغدت كلا جانبيها الخلف والامام تحسب أنه أولى بأن يكون فيه الخوف، قال الزمخشرى : وحقيقة مولاكم هى على هذا محراكم ومقمنكم أى المكان الذى يقال فيه هو أولى بكم كما قيل : هو مئنة للكرم أى مكان لقول القائل: إنه لكريم فأولى نوع من اسم المكان لوحظ فيه معنى أولى إلا أنه مشتق منه كما أن المئنة ليست مشتقة من إن التحقيقية ، وفى التفسير الكبير إن قولهم ذلك بيان لحاصل المعنى وليس بتفسير اللفظ لأنه لو كان مولى وأولى بمعنى واحد فى اللغة لصح استعمال كل منهما فى مكان الآخر وكان يجب أن يصح هذا أولى فلان كما يقال : هذا مولى فلان ولما بطل ذلك علمنا أن الذى قالوه معنى وليس بتفسير، ثم صرح بأنه أراد بذلك رد استدلال الشريف المرتضى بحديث الغدير من كنت مولاه فعلىّ مولاه على إمامة الامير كرم الله تعالى وجهه حيث قال : أحد معانى المولى الاولى *

وحمله فى الخبر عليه متعين لأن إرادة غيره يجعل الاخبار عبثاً كإرادة الناصر والصاحب وابن العم ، أو يجعله كذبا كالمعتق والمعتق ولا يخفى على المنصف أنه إن أراد بكونه معنى لا تفسير ما أشار اليه الزمخشرى من التحقيق

---

(١) هكذا فى الاصل فليتنبه ه ادارة

فهو لايرد الاستدلال إذ يكفى للمرتضى أن يقول : المولى فى الخبر بمعنى المكان الذى يقال فيه أولى إذ يلزم على غيره العبث أو الكذب وإن أراد أن ذلك معنى لازم لما هو تفسير له كأن يكون تفسيره القائم بمصالحكم ونحوه مما يكون ذلك لازماً له فى رده الاستدلال أيضاً تردد ، وإن أراد شيئاً آخر فنحن لاندرى ماهو ـ وهو لم يبينه ـ والحق أنه ولو جعل المولى بمعنى الأولى أو المكان الذى يقال فيه الاولى لايتم الاستدلال بالخبر على الامامة التى تدعيها الامامية للامير كرم الله تعالى وجهه لما بين فى موضعه ، وفى التحفة الاثنى عشرية مافيه كفاية لطالب الحق *

وقال ابن عباس أى مصيركم وتحقيقه على ماقال الامام : إن المولى بمعنى موضع الولى وهو القرب والمعنى هى موضعكم الذى تقربون منه وتصلون اليه ، وأنت تعلم أن الاخبار بذلك بعد الاخبار بأنها مأواهم ليس فيه كثير جدوى على أن وضع اسم المكان للموضع الذى يتصف صاحبه بالمأخذ حال كونه فيه والقرب من النار وصف لأولئك قبل الدخول فيها ولايحسن وصفهم به بعد الدخول ولو اعتبر مجاز الكون كما لايخفى ، وجوز بعضهم اعتبار كونه اسم مكان من الولى بمعنى القرب لكن على أن المعنى هى مكان قربكم من الله سبحانه ورضوانه على التهكم بهم ؛ وقيل : أى متوليكم أى المتصرفة فيكم كتصرفكم فيما أوجبها واقتضاها فى الدنيا من المعاصى والتصرف استعارة للاحراق والتعذيب ، وقيل : مشاكلة تقديرية ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ١٥ ﴾ أى النار وهى المخصوص بالذم المحذوف لدلالة السياق ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ استئناف لعتاب المؤمنين على الفتور والتكاسل فيما ندبوا اليه والمعاتب على ماقاله الزجاج طائفة من المؤمنين وإلا فمنهم من لم يزل خاشعاً منذ أسلم إلى أن ذهب إلى ربه ، وما نقل عن الكلبى . ومقاتل أن الآية نزلت فى المنافقين فهم المراد بالذين آمنوا مما لايكاد يصح ، وقد سمعت صدر السورة الكريمة ماروى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه *

وأخرج ابن المبارك . وعبدالرزاق . وابن المنذر عن الاعمش قال : لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة فأصابوا من لين العيش ماأصابوا بعد ماكان لهم من الجهد فكأنهم فتروا عن بعض ماكانوا عليه فعوتبوا فنزلت (ألم يأن) الآية *

وأخرج ابن أبى حاتم . وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن الله تعالى استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال سبحانه : (ألم يأن) الآية ، وفى خبر ابن مردويه عن أنس بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن *

وأخرج عن عائشة قالت : خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على نفر من أصحابه فى المسجد وهم يضحكون فسحب رداءه محمراً وجهه فقال : أتضحكون ولم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم وقد نزل على فى ضحككم آية (ألم يأن للذين) الخ ؟ قالوا : يارسول الله فما كفارة ذلك ؟ قال : تبكون بقدر ماضحكتم ، وفى خبر أن أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام قد ظهر فيهم المزاح والضحك فنزلت ، وحديث مسلم ومن معه السابق مقدم على هذه الآثار على مايقتضيه كلام أهل الحديث ، و (يأن) مضارع أنى الأمر أنياً وأناءاً وإناءاً بالكسر إذا جاء أناه أى وقته ، أى ألم يجئ وقت أن تخشع قلوبهم لذكره عز وجل *

وقرأ الحسن . وأبو السمال ـ ألما ـ بالهمزة ، ولما النافية الجازمة كلم إلا أن فيه أن المنفى متوقع *

وقرأ الحسن يئن مضارع آن أينا بمعنى أنى السابق، وقال أبو العباس: قال قوم: إن يئين أينا الهمزة مقلوبة فيه عن الحاء وأصله حان يحين حيناً وأصل الـكلمة من الحين ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ أى القرآن وهو عطف على ذكر الله فان كان هو المراد به أيضا فالعطف لتغاير العنوانين نحو * هو الملك القرم وابن الهمام * فانه ذكر وموعظة كما أنه حق نازل من السماء وإلا بأن كان المراد به تذكير الله تعالى إياهم فالعطف لتغاير الذاتين على ما هو الشائع فى العطف وكذا إذا أريد به ذكرهم الله تعالى بالمعنى المعروف ، وجوز العطف على الاسم الجليل إذا أريد بالذكر التذكير وهو كما ترى ، وقال الطيبي : يمكن أن يحمل الذكر على القرآن وما نزل من الحق على نزول السكينة معه أى الواردات الالهية ويعضده ماروينا عن البخارى . ومسلم . والترمذى عن البراء كان رجل يقرأ سورة الـكهف وعنده فرس مربوط بشطنين فغشيته سحابة فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فذكر له ذلك فقال : تلك السكينة تنزل للقرآن *
وفى رواية اقرأ فلان فانها السكينة تنزل عند القرآن أو للقرآن انتهى، ولا يخفى بعد ذلك جداً ولعلك تختار حمل الذكر وما نزل على القرآن لما يحس بما بعد من نوع تأييد له، وفسر الخشوع للقرآن بالانقياد التام لاوامره ونواهيه والعكوف على العمل بما فيه من الاحكام من غير توان ولا فتور، والظاهر أنه اعتبر كون اللام صلة الخشوع ، وجوز كونها للتعليل على أوجه الذكر فالمعنى ألم يأن لهم أن ترق قلوبهم لاجل ذكر الله تعالى وكتابه الحق النازل فيسارعوا إلى الطاعة على أكمل وجوهها، وفى الآية حض على الخشوع، وكان ابن عمر رضى الله تعالى عنهما كما أخرجه ابن المنذر إذا تلاها بكى ثم قال: بلى يارب بلى يارب، وعن الحسن أما والله لقد استبطأهم وهم يقرءون من القرآن أقل مما تقرءون فانظروا فى طول ماقرأتم وما ظهر فيكم من الفسق ، وروى السلمى عن أحمد بن أبى الحوارى قال بينا أنا فى بعض طرقات البصرة إذ سمعت صعقة فأقبلت نحوها فرأيت رجلا قد خر مغشياً عليه فقلت: ماهذا؟ فقالوا: كان رجلا حاضر القلب فسمع آية من كتاب الله فخر مغشياً عليه فقلت : ماهى ؟ فقيل : قوله تعالى : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) فأفاق الرجل عند سماع كلامنا فأنشأ يقول :

أما آن للهجران أن يتصرما ... وللغصن غصن البان أن يتبسما
وللعاشق الصب الذى ذاب وانحنى ... ألم يأن أن يبكى عليه ويرحما
كتبت بماء الشوق بين جوانحى ... كتابا حكى نقش الوشى المنمنما

ثم قال: إشكال إشكال إشكال فخر مغشياً عليه فحركناه فاذا هو ميت ، وعن أبى بكر رضى الله تعالى عنه إن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاءاً شديداً فنظر إليهم فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب ، ولعله أراد رضى الله تعالى عنه أن الطراز الأول كان كذلك حتى قست قلوب كثير من الناس ولم يتأسوا بالسابقين وغرضه مدح أولئك القوم بما كان هو ونظراؤه عليه رضى الله تعالى عنهم ، ويحتمل أن يكون قد أراد ماهو الظاهر ، والكلام من باب هضم النفس كقوله رضى الله تعالى عنه: أقيلونى فلست بخيركم، وقال شيخ الاسلام أبو حفص السهروردى قدس سره : معناه تصلبت وأدمنت سماع القرآن وألفت أنواره فما تستغرب به حتى تتغير كما تغير هؤلاء السامعون انتهى وهو خلاف الظاهر ، وفيه نوع انتقاص للقوم ورمز إلى أن البكاء عند سماع القرآن لا يكون من كامل كما يزعمه بعض جهلة الصوفية القائلين: إن ذلك لا يكون إلا لضعف القلب عن تحمل الواردات الإلهية النورانية ويجل عن ذلك كلام الصديق رضى الله تعالى عنه، وقرأ غير واحد

من السبعة (وما نزل) بالتشديد ، والجحدرى . وأبوجعفر . والأعمش. وأبو عمرو فى رواية يونس. وعباس عنه (نزل) مبنياً للمفعول مشدداً ، وعبد الله ـ أنزل ـ بهمزة النقل مبنياً للفاعل *

﴿ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتب من قبل ﴾ (لا) نافية ومابعدها منصوب معطوف على تخشع *

وجوز أن تكون ناهية ومابعدها مجزوم بها ويكون ذلك انتقالا إلى نهى أولئك المؤمنين عن مماثلة أهل الكتاب بعد أن عوتبوا بماسمعت وعلى النفى هو فى المعنى نهى أيضاً ، وقرأ أبو بحرية . وأبو حيوة . وابن أبى عبلة . وإسماعيل عن أبى جعفر ، وعن شيبة . ويعقوب . وحمزة فى رواية عن سليم عنه (ولا تكونوا) بالتاء الفوقية على سبيل الالتفات للاعتناء بالتحذير ، وفى (لا) ماتقدم ، والنهى مع الخطاب أظهر منه مع الغيبة *

﴿ فطال عليهم الأمد ﴾ أى الأجل بطول أعمارهم وآمالهم ، أو طال أمد مابينهم وبين أنبيائهم عليهم السلام وبعد العهد بهم ، وقيل : أمد انتظار القيامة والجزاء ، وقيل : أمد انتظار الفتح ، وفرقوا بين الامد والزمان بأن الامد يقال باعتبار الغاية والزمان عام فى المبدأ والغاية ، وقرأ ابن كثير فى رواية الأمدّ بتشديد الدال أى الوقت الأطول ﴿ فقست قلوبهم ﴾ صلبت فهى كالحجارة ، أو أشد قسوة ﴿ وكثير منهم فسقون ١٦ ﴾ خارجون عن حدود دينهم رافضون لما فى كتابهم بالكلية ، قيل : من فرط القسوة وذكر أنه مأخوذ من كون الجملة حال ، وفيه خفاء والأظهر أنه من السياق ، والمراد بالكتاب الجنس فالموصول يعم اليهود والنصارى وكانوا كلهم فى أوائل أمرهم يحول الحق بينهم وبين كثير من شهواتهم وإذا سمعوا التوراة والانجيل خشعوا لله تعالى ورقت قلوبهم فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة وزالت عنهم الروعة التى كانت يجدونها عند سماع الكتابين وأحدثوا ما أحدثوا واتبعوا الأهواء وتفرقت بهم السبل ، والقسوة مبدأ الشرور وتنشأ من طول الغفلة عن الله تعالى ، وعن عيسى عليه السلام لاتكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتقسو قلوبكم فان القلب القاسى بعيد من الله عز وجل ولا تنظروا إلى ذنوب العباد كأنكم أرباب وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عبادو الناس رجلان مبتلى ومعافى فارحموا أهل البلاء واحمدوا على العافية ومن أحس بقسوة فى قلبه فليهرع إلى ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه يرجع إليه حاله كما أشار إليه قوله عز وجل : ﴿ اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها ﴾ فهو تمثيل ذكر استطراداً لاحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة باحياء الارض الميتة بالغيث للترغيب فى الخشوع والتحذير عن القساوة ﴿ قد بينا لكم الأيت ﴾ التى من جملتها هذه الآيات ﴿ لعلكم تعقلون ١٧ ﴾ كى تعقلوا مافيها وتعملوا بموجبها فتفوزوا بسعادة الدارين *

﴿ إن المصدقين والمصدقت ﴾ أى المتصدقين والمتصدقات ، وقد قرأ أبىّ كذلك ، وقرأ ابن كثير . وأبو بكر . والمفضل . وأبان . وأبو عمرو فى رواية هرون بتخفيف الصاد من التصديق لا من الصدقة كما فى قراءة الجمهور أى الذين صدقوا واللاتى صدقن الله عز وجل ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والقراءة الأولى أنسب بقوله تعالى : ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ وقيل : الثانية أرجح لأن الإقراض يغنى عن ذكر التصدق ، وأنت ستعلم إن شاء الله تعالى فائدته ، وعطف (أقرضوا) على معنى الفعل من المصدقين على مااختاره أبو على . والزمخشرى لأن أل بمعنى الذين ، واسم الفاعل بمعنى الفعل فكأنه قيل : إن الذين اصدقوا أو صدقوا على القراءتين (وأقرضوا)

وتعقبه أبو حيان وغيره بأن فيه الفصل بين أجزاء الصلة إذ المعطوف على الصلة صلة بأجنبي وهو المصدقات، وذلك لا يجوز ، وقال صاحب التقريب : هو محمول على المعنى كأنه قيل : إن الناس الذين تصدقوا وتصدقن وأقرضوا فهو عطف على الصلة من حيث المعنى بلا فصل ، وتعقب بأنه لا محصل له إلا إذا قيل : إن أل الثانية زائدة لئلا يعطف على صورة جزء الكلمة ، وفيه بعد ، ولا يخفى أن حديث اعتبار المعنى يدفع ما ذكر ، ومن هنا قيل: إنه قريب ولا يبعد تنزيل ما تقدم عن أبي علي، والزمخشري عليه ، وقيل: العطف على صلة أل في المصدقات واختلاف الضمائر تأنيثا وتذكيراً لا يضر لأن أل تصلح للجميع فيراد بها معنى اللاتى عند عود ضمير جمع الإناث عليها ومعنى الذين عند عود ضمير جمع الذكور عليها وهو كما ترى ، ومثله ما قيل: هو من باب كل رجل وضيعته أي إن المصدقين مقرونون مع المصدقات في الثواب والمنزلة ، أو يقدر خبر أي - إن المصدقين والمصدقات يفلحون - (وأقرضوا) في الوجهين ليس عطفاً على الصلة بل مستأنف ويضاعف بعد صفة قرضاً أو استئناف ومن أنصف لم ير ذلك مما ينبغي أن يخرج عليه كلام أدنى الفصحاء فضلا عن كلام رب العالمين ، واختار أبو حيان تخريج ذلك على حذف الموصول لدلالة ما قبله عليه كأنه قيل : والذين أقرضوا فيكون مثل قوله:

فمن يهجو رسول الله منكم (ويمدحه وينصره) سواء

وهو مقبول على رأي الكوفيين دون رأي البصريين فإنهم لا يجوزون حذف الموصول في مثله ، وبعض أئمة المحققين بعد أن استقرب توجيه التقريب ولم يستبعد تنزيل ما سمعت عن الزمخشري . وأبي علي عليه قال: وأقرب منه أن يقال : إن (المصدقات) منصوب على التخصيص كأنه قيل : (إن المتصدقين) عاماً على التغليب وأخص المتصدقات منهم كما تقول : إن الذين آمنوا ولا سيما العلماء منهم وعملوا الصالحات لهم كذا *

ووجه التخصيص ما ورد في قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا معشر النساء تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار » يحضهن على الصدقة بأنهن إذا فعلن ذلك كان له تعالى أقبل وجزاؤه عنه سبحانه أوفر وأفضل ، ثم قال : ولما لم يكن الاقراض غير ذلك التصدق قيل: وأقرضوا أي بذلك التصدق تحقيقا لكينونته وأنهم مثل ذلك ممثلون عند الله تعالى بمن يعامل مع أجود الأجودين معاملة برضاه، ولو قيل: والمقرضين لفاتت هذه النكتة انتهى *

ولا يخفى أن نصب المصدقات على التخصيص خلاف الظاهر ، وأما ما ذكره في نكتة العدول عن المقروضين فحسن وهو متأت على تخريج أبي علي . والزمخشري ، وعلى تخريج أبي حيان ، وقال الخفاجي: القول - أي قول أبي البقاء - بأن أقرضوا الخ معترض بين اسم إن وخبرها أظهر وأسهل ، وكأن النكتة فيه تأكيد الحكم بالمضاعفة ، وزعم أن الجملة حال بتقدير قد أو بدونها من ضميري المصدقين والمصدقات لا يخفى معنى وعربية فتدبر ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ الضمير لجميع المتقدمين الذكور والاناث على التغليب كضمير أقرضوا ، والجار والمجرور نائب الفاعل ، وقيل : هو ضمير التصدق أو ضمير القرض على حذف مضاف أي يضاعف ثواب التصدق أو ثواب القرض لهم ، وقرأ ابن كثير . وابن عامر - يضعف - بتشديد العين، وقرئ يضاعف بالبناء للفاعل أي يضاعف الله عز وجل لهم ثواب ذلك ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١٨ ﴾ قد مر الكلام فيه *

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ قد بين كيفية إيمانهم في خاتمة سورة البقرة، والموصول مبتدأ أول ، وقوله تعالى :﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ مبتدأ ثان ، وهو إشارة إلى الموصول وما فيه من معنى البعد لما مر مراراً ، وقوله سبحانه:

﴿ هُمُ ﴾ مبتدأ ثالث ، وقوله عز وجل : ﴿ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَاءُ ﴾ خبر الثالث ، والجملة خبر الثانى وهو مع خبره خبر الاول أو هم ضمير فصل وما بعده خبر الثانى ، وقوله تعالى : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ متعلق على ماقيل: بالثبوت الذى تقتضيه الجملة أى أولئك عند ربهم عز وجل وفى حكمه وعلمه سبحانه هم الصديقون والشهداء.

والمراد أولئك فى حكم الله تعالى بمنزلة الصديقين والشهداء المشهورين بعلو الرتبة ورفعة المحل وهم الذين سبقوا إلى التصديق ورسخوا فيه واستشهدوا فى سبيل الله جل جلاله وسمى من قتل مجاهداً فى سبيله تعالى شهيداً لان الله سبحانه وملائكته عليهم السلام شهود له بالجنة ، وقيل : لأنه حى لم يمت كأنه شاهد أى حاضر ، وقيل : لأن ملائكة الرحمة تشهده ، وقيل : لأنه شهد ماأعد الله تعالى له من الكرامة ، وقيل : غير ذلك فهو إما فعيل بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول على اختلاف التأويل ، وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ خبر ثان للموصول على أنه جملة من مبتدأ وخبر ، أو (لهم) الخبر ومابعده مرتفع به على الفاعلية وضمير (لهم) للموصول ، والضميران الاخيران للصديقين والشهداء ، والغرض بيان ثمرات ماوصفوا به من نعوت الكمال أى أولئك لهم مثل أجر الصديقين والشهداء ونورهم المعروفين بغاية الكمال وعزة المنال ، وقد حذف أداة التشبيه تنبيهاً على قوة المماثلة وبلوغها حد الاتحاد كما فعل ذلك أولا حيث قيل : أولئك هم الصديقون والشهداء وليست المماثلة بين ماللفريق الاول من الأجر والنور . وبين تمام ماللفريقين الأخيرين بل بين تمام ماللأول من الأصل والإضعاف وبين ماللأخيرين من الاصل بدون الإضعاف ، فالإضعاف هو الذى امتاز به الفريقان الاخيران على الفريق الاول وقد لا يعتبر تشبيه بليغ فى الكلام أصلا ويبقى على ظاهره والضمائر كلها للموصول أى أولئك هم المبالغون فى الصدق حيث آمنوا وصدقوا جميع أخبار الله تعالى وأخبار رسله عليهم الصلاة والسلام والقائمون بالشهادة لله سبحانه بالوحدانية وسائر صفات الكمال ولهم بما يليق بهم من ذلك لهم الأجر والنور الموعودان لهم ، وقال بعضهم: وصفهم بالشهادة لكونهم شهداء على الناس كما نطق به قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) فعند ربهم متعلق بالشهداء ، والمراد والشهداء على الناس يوم القيامة ، وجوز تعلقه بالشهداء أيضا على الوجه الاول على معنى الذين شهدوا مزيد الكرامة بالقتل فى سبيل الله تعالى يوم القيامة أو فى حظيرة رحمته عز وجل أو نحو ذلك ، ويشهد لكون الشهداء معطوفا على الصديقين آثار كثيرة.

أخرج ابن جرير عن البراء بن عازب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن مؤمنى أمتى شهداء ، ثم تلا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم) ، وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة أنه قال يوما لقوم عنده : كلكم صديق وشهيد قيل له : ماتقول ياأباهريرة ؟ قال : اقرءوا (والذين آمنوا بالله ورسله) الآية ، وأخرج عبدالرزاق . وعبد بن حميد عن مجاهد قال : كل مؤمن صديق وشهيد ثم تلا الآية ، وأخرج عبد بن حميد نحوه عن عمرو بن ميمون ، وأخرج ابن حبان عن عمرو ابن مرة الجهنى قال : « جاء رجل إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : يارسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وصليت الصلوات الخمس وأديت الزكاة وصمت رمضان وقمته فمن أنا ؟ قال : من الصديقين والشهداء » وينبغى أن يحمل الذين آمنوا على من لهم كمال فى ذلك يعتد به ولا يتحقق إلا بفعل طاعات يعتد بها وإلا فيبعد أن يكون المؤمن المنهمك فى الشهوات الغافل عن الطاعات صديقاً شهيداً ،

ويستأنس لذلك بما جاء من حديث عمر رضى الله تعالى عنه مالكم إذا رأيتم الرجل يخرق أعراض الناس أن لاتعيبوا عليه؟ قالوا : نخاف لسانه قال : ذلك أحرى أن لا تكونوا شهداء ، قال ابن الاثير : أى إذا لم تفعلوا ذلك لم تكونوا فى جملة الشهداء الذين يستشهدون يوم القيامة على الامم التى كذبت أنبياءها ، وكذا بقوله عليه الصلاة والسلام: اللعانون لا يكونون شهداء بناءاً على أحد قولين فيه * وفى بعض الاخبار ماظاهره إرادة طائفة من خواص المؤمنين ، أخرج ابن مردويه عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من فر بدينه من أرض إلى أرض مخافة الفتنة على نفسه ودينه كتب عند الله صديقاً فاذا مات قبضه الله شهيداً وتلا هذه الآية (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء) ثم قال: هذه فيهم ثم قال : والفرارون بدينهم من أرض إلى أرض يوم القيامة مع عيسى ابن مريم فى درجته فى الجنة » ويجوز أن يراد من قوله : « هذه فيهم » أنها صادقة عليهم وهم داخلون فيها دخولا أولياً ، ويقال : فى قوله عليه الصلاة والسلام : «مع عيسى فى درجته » المراد معه فى مثل درجته وتوجه المماثلة بما مر والخبر إذا صح يؤيد الوجه الأول فى الآية *

وروى عن الضحاك أنها نزلت فى ثمانية نفر سبقوا أهل الارض فى زمانهم إلى الاسلام وهم أبو بكر . وعمر . وعثمان . وعلى . وحمزة . وطلحة . والزبير . وسعد . وزيد رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، وهذا لا يضر فى العموم كما لا يخفى ، وقيل : الشهداء مبتدأ و (عند ربهم) خبره، وقيل: الخبر (لهم أجرهم) والكلام عليهما قد تم عند قوله تعالى :(الصديقون)، وأخرج هذا ابن جرير عن ابن عباس . والضحاك قالا :(والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون) هذه مفصولة سماهم صديقين ، ثم قال :والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم *

وروى جماعة عن مسروق مايوافقه، واختلفوا فى المراد بالشهداء على هذا فقيل :الشهداء فى سبيل الله تعالى* وحكى ذلك عن مقاتل بن سليمان، وقيل: الانبياء عليهم السلام الذين يشهدون للامم عليهم، وحكى ذلك عن مسروق. ومقاتل بن حيان . واختاره الفراء . والزجاج، وزعم أبو حيان أن الظاهر كون الشهداء مبتدا وما بعده خبر، ومن أنصف يعلم أنه ليس كما قال ، وأن الذى تقتضيه جزالة النظم الكريم هو ماتقدم، ثم النور على جميع الأوجه على حقيقته ، وعن مجاهد . وغيره أنه عبارة عن الهدى والكرامة والبشرى *

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى بجميعها على اختلاف أنواعها وهو إشارة إلى كفرهم بالرسل عليهم السلام جميعهم ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الموصوفون بتلك الصفة القبيحة ﴿ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ١٩ ﴾ بحيث لا يفارقونها أبداً

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ بعدما بين حال الفريقين فى الآخرة شرح حال الحياة التى اطمأن بها الفريق الثانى ، وأشير إلى أنها من محقرات الامور التى لا يركن اليها العقلاء فضلا عن الاطمئنان بها بأنها لعب لا ثمرة فيها سوى التعب (ولهو) تشغل الانسان عما يعنيه ويهمه (وزينة) لا يحصل منها شرف ذاتى كالملابس الحسنة والمراكب البهية والمنازل الرفيعة (وتفاخر) بالأنساب والعظام البالية (وتكاثر) بالعدد والعدد ، وقرأ السلمى (وتفاخر بينكم) بالاضافة * ثم أشير إلى أنها مع ذلك سريعة الزوال وشيكة الاضمحلال بقوله سبحانه : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ مطر ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ ﴾ أى راقهم ﴿ نَبَاتُهُ ﴾ أى النبات الحاصل به ، والمراد بالكفار إما الحراث على ماروى عن ابن مسعود لانهم يكفرون أى يسترون

البذر فى الارض ووجه تخصيصهم بالذكر ظاهر ، وأما الكافرون بالله سبحانه ووجه تخصيصهم أنهم أشد إعجابا بزينة الدنيا فان المؤمن إذا رأى معجباً انتقل فكره إلى قدرة موجده عز وجل فأعجب بها ، ولذا قال أبو نواس فى النرجس :

عيون من لجين شاخصات على أطرافها ذهب سبيك
على قضب الزبرجد شاهدات (بأن الله ليس له شريك)

والكافر لا يتخطى فكره عما أحس به فيستغرق إعجاباً ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يتحرك إلى أقصى ما يتأتى له، وقيل : أى يجف بعد خضرته ونضارته ﴿فَتَرَاهُ﴾ يامن تصح منه الرؤية ﴿مُصْفَرًّا﴾ بعد ما رأيته ناضراً مونقا، وقرىء مصفاراً وإنما لم يقل فيصفر قيل : إيذانا بأن اصفراره غير مقارن لهيجانه وإنما المترتب عليه رؤيته كذلك ، وقيل: للاشارة إلى ظهور ذلك لكل أحد ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ هشيما متكسراً من اليبس، ومحل الكاف قيل : النصب على الحالية من الضمير فى (لعب) لأنه فى معنى الوصف، وقيل: الرفع على أنه خبر بعد خبر للحياة الدنيا بتقدير المضاف اليه أى مثل الحياة كمثل الخ، ولتضمن ذلك تشبيه جميع ما فيها من السنين الكثيرة بمدة نبات غيث واحد يفنى ويضمحل فى أقل من سنة جاءت الإشارة إلى سرعة زوالها وقرب اضمحلالها ، وبعد ما بين حقارة أمر الدنيا تزهيداً فيها وتنفيراً عن العكوف عليها أشير إلى فخامة شأن الآخرة وعظم ما فيها من اللذات والآلام ترغيبا فى تحصيل نعيمها المقيم وتحذيراً من عذابها الأليم ، وقدم سبحانه ذكر العذاب فقال جل وعلا :

﴿وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لأنه من نتائج الانهماك فيما فصل من أحوال الحياة الدنيا ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة ﴿مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ عظيم لا يقادر قدره ، وفى مقابلة العذاب الشديد بشيئين إشارة إلى غلبة الرحمة وأنه من باب « لن يغلب عسر يسرين » *

وفى ترك وصف العذاب بكونه من الله تعالى مع وصف ما بعده بذلك إشارة إلى غلبتها أيضاً ورمز إلى أن الخير هو المقصود بالقصد الاول ﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَـٰعُ الْغُرُورِ ٢٠﴾ لمن اطمأن بها ولم يجعلها ذريعة للآخرة ومطية لنعيمها ، روى عن سعيد بن جبير الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة ، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله تعالى وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ أى سارعوا مسارعة السابقين لأقرانهم فى المضمار إلى أسباب مغفرة عظيمة كائنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ والكلام على الاستعارة أو المجاز المرسل واستعمال اللفظ فى لازم معناه وإنما لزم ذلك لأن اللازم أن يبادر من يعمل ما يكون سبباً للمغفرة ودخول الجنة لا أن يعمله أو يتصف بذلك سابقاً على آخر ، وقيل: المراد سابقوا ملك الموت قبل أن يقطعكم بالموت عن الأعمال الموصلة لما ذكر، وقيل: سابقوا إبليس قبل أن يصدكم بغروره وخداعه عن ذلك وهو كما ترى *

والمراد بتلك الأسباب الأعمال الصالحة على اختلاف أنواعها ، وعن على كرم الله تعالى وجهه أنه قال فى الآية: كن أول داخل المسجد وآخر خارج ، وقال عبد الله: كونوا فى أول صف القتال، وقال أنس: اشهدوا تكبيرة الاحرام مع الامام وكل ذلك من باب التمثيل ، واستدل بهذا الأمر على أن الصلاة بأول وقتها أفضل من التأخير ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ﴾ أى كعرضهما جميعاً لو ألصق أحدهما بالآخر وإذا

كان العرض وهو أقصر الامتدادين موصوفاً بالسعة دل على سعة الطول بالطريق الاولى فالاقتصار عليه أبلغ من ذكر الطول معه ، وقيل: المراد بالعرض البسطة ولذا وصف به الدعاء ونحوه مما ليس من ذوى الابعاد وتقدم قول آخر فى تفسير نظير الآية من سورة آل عمران وتقديم المغفرة على الجنة لتقدم التخلية على التحلية *

﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِه ﴾ أى هيئت لهم ، واستدل بذلك على أن الجنة موجودة الآن لقوله تعالى (أعدت) بصيغة الماضى والتأويل خلاف الظاهر ، وقد صرح بخلافه فى الأحاديث الصحيحة وتمام الكلام فى علم الكلام ، وعلى أن الايمان وحده كاف فى استحقاق الجنة لذكره وحده فيما فى حيز مايشعر بعلة الإعداد وإدخال العمل فى الايمان المعدى بالباء غير مسلم كذا قالوا ، ومتى أريد بالذين آمنوا المذكورين من لهم درجة فى الايمان يعتد بها ، وقيل : بأنها لاتحصل بدون الأعمال الصالحة على ماسمعته منا قريباً انخدش الاستدلال الثانى فى الجملة كما لايخفى ، وذكر النيسابورى فى وجه التعبير هنا ـ بسابقوا ـ وفى آية آل عمران ـ بسارعوا ـ وبالسماء هنا ، وبالسموات هناك ـ وبكعرض ـ هنا ـ وبعرض ـ بدون أداة تشبيه ثم كلاماً مبنياً على أن المراد بالمتقين هناك السابقون المقربون ، وبالذين آمنوا هنا من هم دون أولئك حالا فتأمل ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى الذى وعد من المغفرة والجنة ﴿ فَضْلُ اللَّهِ ﴾ عطاؤه الغير الواجب عليه ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ إيتاءه ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ فلا يبعد منه عز وجل التفضل بذلك على من يشاء وإن عظم قدره ، فالجملة تذييل لإثبات ماذيل بها *

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾ أى نائبة أىّ نائبة وأصلها فى الرمية وهى من أصاب السهم إذا وصل إلى المرمى بالصواب ثم خصت بها *

وزعم بعضهم أنها لغة عامة فى الشر والخير وعرفا خاصة بالشر ، و(مِنْ) مزيدة للتأكيد ، وأصاب جاء فى الشر كما هنا ، وفى الخير كقوله تعالى : (ولئن أصابكم فضل من الله) وذكر بعضهم أنه يستعمل فى الخير اعتباراً بالصوب أى بالمطر وفى الشر اعتباراً بإصابة السهم ، وكلاهما يرجعان إلى أصل وتذكير الفعل فى مثل ذلك جائز كتأنيثه ، وعليه قوله تعالى : (ماتسبق من أمة أجلها) والكلام على العموم لجميع الشرور أى مصيبة أى مصيبة ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ كجدب وعاهة فى الزرع والثمار وزلزلة وغيرها ﴿ وَلَا فِى أَنفُسِكُمْ ﴾ كمرض وآفة كالجرح والكسر ﴿ إِلَّا فِى كِتَابٍ ﴾ أى إلا مكتوبة مثبتة فى اللوح المحفوظ ، وقيل : فى علم الله عز وجل *

﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ أى نخلقها ، والضمير على ماروى عن ابن عباس . وقتادة . والحسن . وجماعة للأنفس وقيل : للارض ، واستظهر أبو حيان كونه للمصيبة لأنها هى المحدث عنها ، وذكر الأرض والأنفس إنما هو على سبيل ذكر محلها ، وذكر المهدوى جواز عوده على جميع ماذكر ، وقال جماعة : يعود على المخلوقات وإن لم يجر لها ذكر ، وقيل : المراد بالمصيبة هنا الحوادث من خير وشر وهو خلاف الظاهر من استعمال المصيبة إلا أن فيما بعد نوع تأييد له وأيّاما كان فى الأرض متعلق بمحذوف مرفوع أو مجرور صفة لمصيبة على الموضع أو على اللفظ ، وجوز أن يكون ظرفا لأصاب أو للمصيبة ، قيل : وإنما قيدت المصيبة بكونها فى الأرض والأنفس لأن الحوادث المطلقة كلها ليست مكتوبة فى اللوح لانها غير متناهية ، واللوح متناه وهو لا يكون

ظرف الغير المتناهي ولذا جاء « جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة » وفى الآية تخصيص آخر وهو أنه سبحانه لم يذكر أحوال أهل السموات لعدم تعلق الغرض بذلك مع قلة المصائب فى أهلها بل لا يكاد يصيبهم سوى مصيبة الموت ، وماذكره فى وجه التخصيص الأول لا يتم إذا أريد بالكتاب علمه سبحانه ، وقيل : بأن كتابة الحوادث فيه على نحو كتابتها فى القرآن العظيم بناءاً على مايقولون : إنه مامن شئ إلا ويمكن استخراجه منه حتى أسماء الملوك ومددهم ومايقع منهم ولو قيل فى وجهه - إن الأوفق بما تقدم من شرح حال الحياة الدنيا إنما هو ذكر المصائب الدنيوية فلذا خصت بالذكر - لكان تاماً مطلقاً ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ أى إثباتها فى كتاب ﴿ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ لاغيره سبحانه ﴿ يَسِيرٌ ٢٢ ﴾ لاستغنائه تعالى فيه عن العدة والمدة ، وإن أريد بذلك تحققها فى علمه جل شأنه فيسره لأنه من مقتضيات ذاته عزوجل ، وفى الآية رد على هشام بن الحكم الزاعم أنه سبحانه لا يعلم الحوادث قبل وقوعها ، وفى الإكليل إن فيها رداً على القدرية ، وجاء ذلك فى خبر مرفوع ، أخرج الديلمى عن سليم بن جابر الجهيمى قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « سيفتح على أمتى باب من القدر فى آخر الزمان لايسده شىء يكفيكم منه أن تلقوه بهذه الآية ماأصاب من مصيبة » الآية.

وأخرج الإمام احمد . والحاكم وصححه عن أبى حسان أن رجلين دخلا على عائشة رضى الله تعالى عنها فقالا : « إن أباهريرة يحدث أن نبى الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقول إنما الطيرة فى المرأة والدابة والدار فقالت : والذى أنزل القرآن على أبى القاسم صلى الله تعالى عليه وسلم ما هكذا كان يقول ، ولكن كان رسول الله ﷺ يقول : كان أهل الجاهلية يقولون : إنما الطيرة فى المرأة والدابة والدار ، ثم قرأت (ماأصاب من مصيبة) الآية ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا ﴾ أى أخبرناكم بذلك لئلا تحزنوا ﴿ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ من نعم الدنيا ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ ﴾ أى أعطاكموه الله تعالى منها فان من علم أن الكل مقدر يفوت ماقدر فواته ويأتى ماقدر إتيانه لامحالة لا يعظم جزعه على مافات ولافرحه بما هو آت ، وعلم كون الكل مقدراً مع أن المذكور سابقاً المصائب دون النعم وغيرها لأنه لاقائل بالفرق وليس فى النظم الكريم اكتفاء كما توهم ، نعم إن حملت المصيبة على الحوادث من خير وشر كان أمر العلم أوضح كما لا يخفى وترك التعادل بين الفعلين فى الصلتين حيث لم يسندا إلى شئ واحد بل أسند الأول إلى ضمير الموصول والثانى إلى ضميره تعالى لان الفوات والعدم ذاتى للاشياء فلو خليت ونفسها لم تبق بخلاف حصولها وبقائها فانه لابد من استنادهما اليه عز وجل كما حقق فى موضعه ، وعليه قول الشاعر :

فلا تتبع الماضى سؤالك لم مضى وعرج على الباقى وسائله لم بقى

ومثل هذه القراءة قراءة عبد الله - أوتيتم - مبنياً للمفعول أى أعطيتم ؛ وقرأ أبو عمرو - أتاكم - من الاتيان أى جاءكم وعليها بين الفعلين تعادل ، والمراد نفى الحزن المخرج إلى مايذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله تعالى ورجاء ثواب الصابرين ونفى الفرح المطغى الملهى عن الشكر ، وأما الحزن الذى لا يكاد الانسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله تعالى والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس بهما.

أخرج جماعة منهم الحاكم وصححه عن ابن عباس أنه قال فى الآية : ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح ولكن من أصابته مصيبة جعلها صبراً ومن أصابه خير جعله شكراً ، وقوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ٢٣ ﴾ تذييل يفيد أن الفرح المذموم هو الموجب للبطر والاختيال والمختال المتكبر عن تخيل فضيلة تراءت له من نفسه، والفخور المباهى فى الاشياء الخارجة عن المرء كالمال والجاه *

وذكر بعضهم أن الاختيال فى الفعل والفخر فيه وفى غيره، والمراد من لايحب يبغض إذ لا واسطة بين الحب والبغض فى حقه عز وجل وأولا بالاثابة والتعذيب ، ومذهب السلف ترك التأويل مع التنزيه ، ومن لايحب كل مختال لايحب كل فرد فرد من ذلك لأنه لايحب البعض دون البعض ويرد بذلك على الشيخ عبد القاهر فى قوله: إذا تأملنا وجدنا إدخال كل فى حيز النفى لايصلح إلا حيث يراد أن بعضاً كان وبعضاً لم يكن، نعم إن هذا الحكم أكثرى لا كلى ، وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ بدل من (كل مختال) بدل كل من كل فان المختال بالمال يضن به غالباً ويأمر غيره بذلك ، والظاهر أن المراد أنهم يأمرون حقيقة، وقيل: كانوا قدوة فكأنهم يأمرون أوهو خبر مبتدأ محذوف أى هم الذين الخ ، أومبتدأ خبره محذوف تقديره يعرضون عن الانفاق الغنى عنه الله عز وجل، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ٢٤ ﴾ فان معناه ومن يعرض عن الانفاق فان الله سبحانه غنى عنه وعن إنفاقه محمود فى ذاته لايضره الاعراض عن شكره بالتقرب إليه بشئ من نعمه جل جلاله، وقيل: تقديره مستغنى عنهم، أوموعودون بالعذاب أومذمومون، وجوز أن يكون فى موضع نصب على إضمار أعنى أو على أنه نعت ـ لكل مختال ـ فانه مخصص نوعاً ما من التخصيص فساغ وصفه بالمعرفة وهذا ليس بشئ، وقال ابن عطية: بجواز مثل ذلك مذهب الأخفش ولايخفى ما فى الجملة من الاشعار بالتهديد لمن تولى، وقرأ نافع. وابن عامر ـ فان الله الغنى ـ بإسقاط ـ هو ـ وكذا فى مصاحف المدينة والشام وهو فى القراءة الأخرى ضمير فصل ، قال أبو على: ولا يحسن أن يكون مبتدأ وإلا لم يجز حذفه فى القراءة الثانية لأن ما بعده صالح لان يكون خبراً فلا يكون هناك دليل على الحذف وهذا مبنى على وجوب توافق القراءتين إعرابا وليس بلازم ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ﴾ أى من بنى آدم كما هو الظاهر ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى الحجج والمعجزات ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ أى جنس الكتاب الشامل للكل ، والظرف حال مقدرة منه على ماقال أبو حيان ، وقيل: مقارنة بتنزيل الاتصال منزلة المقارنة ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ الآلة المعروفة بين الناس كما قال ابن زيد وغيره ، وإنزاله إنزال أسبابه ، ولو بعيدة ، وأمر الناس باتخاذه مع تعليم كيفيته *

﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ علة لانزال الكتاب والميزان والقيام بالقسط أى بالعدل يشمل التسوية فى أمور التعامل باستعمال الميزان، وفى أمور المعاد باحتذاء الكتاب وهو لفظ جامع مشتمل على جميع ماينبغى الاتصاف به معاشاً ومعاداً *

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ قال الحسن: أى خلقناه كقوله تعالى: (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) وهو تفسير بلازم الشيء فان كل مخلوق منزل باعتبار ثبوته فى اللوح وتقديره موجوداً حيث ماثبت فيه *

وقال قطرب : هيأناه لكم وأنعمنا به عليكم من نزل الضيف ﴿ فِيهِ بَأْسٌ ﴾ أى عذاب ﴿ شَدِيدٌ ﴾ لأن آلات الحرب تتخذ منه ، وهذا إشارة إلى احتياج الكتاب والميزان إلى القائم بالسيف ليحصل القيام بالقسط فان الظلم من شيم النفوس، وقوله تعالى: ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أى فى معايشهم ومصالحهم إذ مامن صنعة إلا

والحديد أو ما يعمل به آلتها للايماء إلى أن القيام بالقسط كما يحتاج إلى الوازع وهو القائم بالسيف يحتاج إلى ما به قوام التعايش ، ومن يقوم بذلك أيضا ليتم التمدن المحتاج اليه النوع ، وليتم القيام بالقسط ، كيف وهو شامل أيضاً لما يخص المرء وحده ، والجملة الظرفية فى موضع الحال ، وقوله سبحانه :

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ ﴾ عطف على محذوف يدل عليه السياق أو الحال لأنها متضمنة للتعليل أى لينفعهم وليعلم الله تعالى علماً يتعلق به الجزاء من ينصره ورسله باستعمال آلات الحرب من الحديد فى مجاهدة أعدائه والحذف للاشعار بأن الثانى هو المطلوب لذاته وأن الاول مقدمة له ، وجوز تعلقه بمحذوف مؤخر والواو اعتراضية أى وليعلم الخ أنزله أو مقدم والواو عاطفة والجملة معطوفة على ما قبلها وقد حذف المعطوف وأقيم متعلقه مقامه ، وقوله تعالى : ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ حال من فاعل ينصر ، أو من مفعوله أى غائباً منهم أو غائبين منه ، وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ٢٥ ﴾ اعتراض تذييلى جئ به تحقيقاً للحق وتنبيها على أن تكليفهم الجهاد وتعريضهم للقتال ليس لحاجته سبحانه فى إعلاء كلمته وإظهار دينه إلى نصرتهم بل إنما هو لينتفعوا به ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب وإلا فهو جل وعلا غنى بقدرته وعزته عنهم فى كل ما يريده ٭

هذا وذهب الزمخشرى إلى أن المراد بالرسل رسل الملائكة عليهم السلام أى أرسلناهم إلى الأنبياء عليهم السلام، وفسر ـ البينات ـ كما فسرنا بناءاً على الملائكة ترسل بالمعجزات كإرسالها بالحجج لتخبر بأنها معجزات وإلا فكان الظاهر الاقتصار على الحجج وإنزال الكتاب أى الوحى مع أولئك الرسل ظاهر ، وإنزال الميزان بمعنى الآلة عنده على حقيقته ، قال: روى أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح عليه السلام ، وقال: مُرْ قومك يزنوا به ،وفسره كثير بالعدل،وعن ابن عباس فى إنزال الحديد نزل مع آدم عليه السلام الميقعة والسندان والكلبتان ، وروى أنه نزل ومعه المرّ والمسحاة ، وقيل : نزل ومعه خمسة أشياء من الحديد السندان والكلبتان والابرة والمطرقة والميقعة ، وفسرت بالمسن ، وتجئ بمعنى المطرقة أو العظيمة منها، وقيل : ماتحد به الرحى ، وفى حديث ابن عباس نزل آدم عليه السلام من الجنة بالباسنة وهى آلات الصناع ، وقيل : سكة الحرث وليس بعربى محض والله تعالى أعلم ٭

واستظهر أبو حيان كون ـ ليقوم الناس بالقسط ـ علة لإنزال الميزان فقط وجوز ما ذكرناه وهو الاولى فيما أرى ، وقوله تعالى . ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ نوع تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى :(لقد أرسلنا رسلنا) وتكرير القسم لاظهار مزيد الاعتناء بالأمر أى وبالله لقد أرسلنا نوحا وإبراهيم ٭

﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ ﴾ بأن استنبأناهم وأوحينا اليهم الكتب ، وقال ابن عباس : الكتاب الخط بالقلم ، وفى مصحف عبد الله ـ والنبية ـ مكتوبة بالياء عوض الواو ﴿ فَمِنْهُم ﴾ أى من الذرية ؛ وقيل : أى من المرسل اليهم المدلول عليهم بذكر الارسال والمرسلين ﴿ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ٢٦ ﴾ خارجون عن الطريق المستقيم ، ولم يقل ـ ومنهم ـ ضال مع أنه أظهر فى المقابلة لأن ما عليه النظم الكريم أبلغ فى الذم لأن الخروج عن الطريق المستقيم بعد الوصول بالتمكن منه ، ومعرفته أبلغ من الضلال عنه ولإيذانه بغلبة أهل الضلال على غيرهم ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا ﴾ أى أرسلنا بعدهم رسولا بعد رسول ،وأصل التقفية جعل

الشئ خلف القفا، وضمير آثارهم لنوح وإبراهيم ومن أرسلا اليهم من قومهما . وقيل : لمن عاصرهما من الرسل عليهم السلام *

واعترض بأنه لو عاصر رسول نوحا فإما أن يرسل إلى قومه كهرون مع موسى عليهما السلام أو إلى غيرهم كلوط مع إبراهيم عليهما السلام ولا مجال للاول لمخالفته للواقع ولا إلى الثانى إذ ليس على الارض قوم غيره ، وأجيب بأن ذاك توجيه لجمع الضمير وكون لوط مع إبراهيم كاف فيه ، وقيل : للذرية ، وفيه أن الرسل المقفى بهم من الذرية فلو عاد الضمير عليهم لزم أنهم غيرهم أو اتحاد المقفى والمقفى به وتخصيص الذرية مرجع الضمير بالأوائل منهم خلاف الظاهر من غير قرينة تدل عليه ﴿ وَقَفَّيْنَا بعيسى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ جعلناه بعد *

وحاصل المعنى أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى الارسال إلى عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ بأن أوحيناه اليه وليس هو الذى بين أيدى النصارى اليوم أعنى المشتمل على قصة ولادته وقصة صلبه المفتراة؛ وقرأ الحسن (الأنجيل) بفتح الهمزة، قال أبو الفتح : وهو مثال لانظير له ، قال الزمخشرى : وأمره أهون من أمر البرطيل بفتح الباء والكسر أشهر وهو حجر مستطيل واستعماله فى الرشوة مولد مأخوذ منه بنوع تجوز لأنه عجمى وهذا عربى وهم يتلاعبون بالعجمى ولا يلتزمون فيه أوزانهم ، وزعم بعض أن لفظ الانجيل عربى من نجلت بمعنى استخرجت لاستخراج الاحكام منه ﴿ وَجَعَلْنَا فى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ أى خلقنا أو صيرنا ـ فى قلوب ـ فى موضع المفعول الثانى وأيآما كان فالمراد جعلنا ذلك فى قلوبهم فهم يرأف بعضهم ببعض ويرحم بعضهم بعضاً ، ونظيره فى شأن أصحاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (رحماء بينهم) والرأفة فى المشهور الرحمة لكن قال بعض الافاضل : إنها إذا ذكرت معها يراد بالرأفة مافيه درء الشر ورأب الصدع ، وبالرحمة مافيه جلب الخير ولذا ترى فى الاغلب تقديم الرأفة على الرحمة وذلك لأن درء المفاسد أهم من جلب المصالح وقرئ رآفة على فعالة كشجاعة ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر أى وابتدعوا رهبانية *

﴿ ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ فهو من باب الاشتغال ، واعترض بأنه يشترط فيه ـ كما قال ابن الشجرى . وأبو حيان ـ أن يكون الاسم السابق مختصاً يجوز وقوعه مبتدأ والمذكور نكرة لامسوغ لها من مسوغات الابتداء ، ورد بأنه على فرض تسليم هذا الشرط الاسم هنا موصوف معنى بما يؤخذ من تنوين التعظيم كما قيل فى قولهم : شر أهر ذا ناب *

وبما يدل عليه من النسبة كما ستسمعه إن شاء الله تعالى أو منصوب بالعطف على ماقبل ، وجملة (ابتدعوها) فى موضع الصفة والكلام على حذف مضاف أى وجعلنا فى قلوبهم رأفة ورحمة وحب رهبانية مبتدعة لهم ، وبعضهم جعله معطوفا على ماذكر ولم يتعرض للحذف ، وقال : الرهبانية من أفعال العباد لأنها المبالغة فى العبادة بالرياضة والانقطاع عن الناس ، وأصل معناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان وهو الخائف فعلان من رهب كخشيان من خشى ، وأفعال العباد يتعلق بها جعل الله تعالى عند أهل الحق وهى فى عين كونها مخلوقة له تعالى مكتسبة للعبد ، والزمخشرى جوز العطف المذكور وفسر الجعل بالتوفيق كأنه قيل: وفقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية واستحداثها بناءاً على مذهبه أن الرهبانية فعل العبد المخلوق له باختياره، وفائدة (فى قلوب) على هذا التصوير على ماقيل ، ولا يخفى مافى هذا التفسير من العدول عن الظاهر لكن الانصاف أنه لا يحسن العطف بدون هذا

تأويل أو أعتبار حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه على ما تقدم أو تفسير الرهبانية بما هو من أفعال القلوب كالخوف المفرط المقتضى للغلو فى التعبد ويرتكب نوع تجوز فى ابتدعوها وما بعده كأن يكون المراد ابتداع أعمالها وآثارها أو ارتكاب استخدام فى الكلام بأن يعتبر للرهبانية معنيان الخوف المفرط مثلا ، ويراد فى جعلنا فى قلوبهم رهبانية والاعمال التعبدية الشاقة كرفض الدنيا وشهواتها من النساء وغيرهن ، ويراد فى ابتدعوها) وما بعده وليس الداعى للتأويل الاعتزال بل كون الرهبانية بمعنى الاعمال البدنية ليست مما تجعل فى القلب كالرأفة والرحمة فتأمل *

وقرئ (رهبانية) بضم الراء وهى منسوبة إلى الرهبان بالضم وهو كما قال الراغب: يكون واحداً وجمعا فالنسبة إليه باعتبار كونه واحداً ومن ظن اختصاص المضموم بالجمع قال: إنه لما اختص بطائفة مخصوصة أعطى حكم العلم فنسبته إليه كما قالوا فى أنصار وأنصارى أو أن النسبة إلى رهبان المفتوح وضم الراء فى المنسوب من تغييرات النسب كما فى دهرى بضم الدال ، وقوله تعالى: «(مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ)» جملة مستأنفة ، وقوله سبحانه : ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ ﴾ استثناء منقطع أى ما فرضناها نحن عليهم رأساً ولكن ابتدعوها وألزموا أنفسهم بها ابتغاء رضوان الله تعالى . وقوله تعالى: ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أى ما حافظوا عليها حق المحافظة ذم لهم من حيث أن ذلك كالنذر وهو عهد مع الله تعالى يجب رعايته لاسيما إذا قصد به رضاه عز وجل *

واستدل بذلك على أن من اعتاد تطوعاً كره له تركه ، وجوز أن يكون قوله تعالى: (ما كتبناها) الخ صفة أخرى لرهبانية والنفى متوجه إلى قيد الفعل لا نفسه كما فى الوجه الأول، وقوله سبحانه: (إلا ابتغاء) الخ استثناء متصل من أعم العلل أى ما قضيناها عليهم بأن جعلناهم يبتدعونها لشىء من الأشياء إلا ليبتغوا بها رضوان الله تعالى ويستحقوا بها الثواب ، ومن ضرورة ذلك أن يحافظوا عليها ويراعوها حق رعايتها فما رعوها كذلك والوجه الأول مروى عن قتادة . وجماعة ، وهذا مروى عن مجاهد ولا مخالفة عليه بين (ابتدعوها) و(ما كتبناها عليهم) الخ حيث أن الأول يقتضى أنهم لم يؤمروا بها أصلا والثانى يقتضى أنهم أمروا بها لابتغاء رضوان الله تعالى لما أشرنا إليه من معنى (ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء) الخ ، ودفع بعضهم المخالفة بأن يقال: الأمر وقع بعد ابتداعها أو يؤول ابتدعوها بأنهم أول من فعلها بعد الأمر ويؤيد ما ذكره فى الجملة أولا ما أخرجه أبو داود وأبو يعلى . والضياء عن أنس «أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فان قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم فتلك بقاياهم فى الصوامع والديارات رهبانية ما ابتدعوها ما كتبناها عليهم» يعنى الآية ، والظاهر أن ضمير فما رعوها لأولئك الذين ابتدعوا الرهبانية، والمراد نفى وقوع الرعاية من كلهم على أن المعنى فما رعاها كلهم بل بعضهم ، وليس المراد بالموصول فيما سبق أشخاصاً بأعيانهم بل المراد به ما يعم النصارى إلى زمان الاسلام ولا يضر فى ذلك أن أصل الابتداع كان من قوم مخصوصين لأن إسناده على نحو الاسناد فى ـ بنو تميم قتلوا زيداً ـ والقاتل بعضهم *

وقال الضحاك . وغيره : الضمير فى (فما رعوها) للاخلاف الذين جاءوا بعد المبتدعين والاول أوفق بالصناعة ، والمراد بالذين آمنوا فى قوله تعالى: ﴿ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ ﴾ الذين آمنوا إيمانا صحيحا وهو لمن أدرك وقت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الايمان به عليه الصلاة والسلام أى فآتينا الذين آمنوا منهم

إيماناصحيحاً بعدرعاية رهبانيتهم ﴿ أَجْرَهُمْ ﴾ أى مايختص بهم من الأجر وهو الأجر على ماسلف منهم والاجر على الإيمان به عليه الصلاة والسلام ، وليس المراد بهم الذين بقوا على رعاية الرهبانية إلى زمان البعثة ولم يؤمنوا لأن رعايتها لغو محض وكفر بحت وإنما لها استتباع الاجر ، ويجوز أن يقال : إن الذين لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها هم الذين كذبوه عليه الصلاة والسلام ، قال الزجاج : قوله تعالى : (فما رعوها حق رعايتها) على ضربين : أحدهما أن يكونوا قصروا فيما ألزموه أنفسهم ، والآخر وهو الأجود أن يكونوا حين بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يؤمنوا فكانوا تاركين لطاعة الله تعالى فما رعوا تلك الرهبانية ، ودليل ذلك قوله تعالى : (فآتينا الذين آمنوا منهم) الخ انتهى ، فحمل الذين آمنوا على من أدرك وقته عليه الصلاة والسلام منهم وآمن به صلى الله تعالى عليه وسلم والفاسقين فى قوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ٣٧ ﴾ على الذين لم يؤمنوا به صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومقتضى حمل الذين آمنوا على ماسمعت أولا حمله على الاعم الشامل لمن خرج عن اتباع عيسى عليه السلام من قبل وحمل الفريقين على من مضى من المراعين لحقوق الرهبانية قبل النسخ والمخلين بها إذ ذاك بالتثليث والقول بالاتحاد وقصد السمعة ونحو ذلك من غير تعرض لإيمانهم برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكفرهم به مما لايساعده المقام *

وفى الآثار مايأباه ففى حديث طويل أخرجه جماعة منهم الحاكم وصححه . والبيهقى فى شعب الايمان من طرق عن ابن مسعود « اختلف من كان قبلنا على ثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرها فرقة وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله وعيسى ابن مريم ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك فأقاموا بين ظهرانى قومهم فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى فقتلتهم الملوك ونشرتهم بالمناشير ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بالمقام معهم فساحوا فى الجبال وترهبوا فيها وهم الذين قال الله : (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) الذين آمنوا بى وصدقونى (وكثير منهم فاسقون) الذين جحدوا بى وكفروا بى » وهذا الخبر يؤيد مااستجوده الزجاج ، ويعلم منه أيضاً سبب ابتداع الرهبانية وليس فى الآية مايدل على ذم البدعة مطلقا ، والذى تدل عليه ظاهراً ذم عدم رعاية ماالتزموه ، وتفصيل الكلام فى البدعة ماذكره الامام محيي الدين النووى فى شرح صحيح مسلم . قال العلماء : البدعة خمسة أقسام واجبة ومندوبة . ومحرمة . ومكروهة . ومباحة(١) فمن الواجبة تعلم أدلة المتكلمين للرد على الملاحدة والمبتدعين وشبه ذلك ، ومن المندوبة تصنيف كتب العلم وبناء المدارس والربط وغير ذلك ، ومن المباحة التبسط فى ألوان الاطعمة وغير ذلك ، والحرام والمكروه ظاهران ، فعلم أن قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « كل بدعة ضلالة » من العام المخصوص *

وقال صاحب جامع الاصول : الابتداع من المخلوقين إن كان فى خلاف ما أمر الله تعالى به ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فهو فى حيز الذم والانكار وإن كان واقعاً تحت عموم ماندب الله تعالى اليه وحض عليه أو رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فهو فى حيز المدح وإن لم يكن مثاله موجوداً كنوع من الجود والسخاء

---

(١) هذا التقسيم لايصح أن يكون للبدع بالمعنى الشرعى إذ ماذكره دل عليه الكتاب والسنة وإنما يصح للبدع بالمعنى اللغوى وقد أشبع الكلام على ذلك صاحب الاعتصام فراجعه اه إدارة الطباعة المنيرية

وفعل المعروف ، ويعضد ذلك قول عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى صلاة التراويح : نعمت البدعة هذه

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا ﴾ استظهر أبو حيان كون الخطاب لمن آمن من أمته صلى الله تعالى عليه وسلم غير أهل الكتاب والآثار تؤيد ذلك ، أخرج الطبرانى فى الاوسط عن ابن عباس . وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قالا : إن أربعين من أصحاب النجاشي قدموا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فشهدوا معه أحداً فكانت فيهم جراحات ولم يقتل منهم أحد فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة قالوا : يارسول الله إنا أهل ميسرة فأذن لنا نجئ بأموالنا نواسى بها المسلمين فأنزل الله تعالى فيهم (الذى آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) إلى قوله سبحانه : (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) فجعل لهم أجرين فلما نزلت هذه الآية قالوا : يامعشر المسلمين أما من آمن منا بكتابكم فله أجران ومن لم يومن بكتابكم فله أجر كأجوركم فأنزل الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا) الآية أى أى راداً عليهم قولهم : ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم *

وفى الكشاف إن قائل ذلك من لم يكن آمن من أهل الكتاب قالوه حين سمعوا تلك الآية يفخرون به على المسلمين ، والمعنى يا أيها الذين اتصفوا بالايمان ﴿ اتَّقُوا اللهَ ﴾ اثبتوا على تقواه عز وجل فيما نهاكم عنه *

﴿ وَءامِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ واثبتوا على الايمان برسوله الذى أرسله اليكم وهو محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى التعبير عنه بذلك ما لا يخفى من الدلالة على جلالة قدره عليه الصلاة والسلام ﴿ يُؤْتِكُمْ ﴾ بسبب ذلك *

﴿ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ قال أبو موسى الأشعرى : ضعفين بلسان الحبشة، وقال غير واحد : نصيبين، والمراد إيتاؤهم أجرين لمؤمنى أهل الكتاب كأنه قيل : يؤتكم ماوعد من آمن من أهل الكتاب من الأجرين لأنكم مثلهم فى الايمان بالرسل المتقدمين وبخاتمهم صلى الله تعالى عليه وسلم عليهم أجمعين لا تفرقون بين أحد من رسله *

وقال الراغب : الكفل الحظ الذى فيه الكفاية كأنه تكفل بأمره ، والكفلان هما المرغوب فيهما بقوله تعالى : (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة) ولا دلالة على التخصيص *

﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يوم القيامة وهو النور المذكور فى قوله تعالى : (يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ما سلف منكم ﴿ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٨ ﴾ أى مبالغ فى المغفرة والرحمة فلا بدع إذا فعل سبحانه مافعل ، وقوله تعالى : ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللهِ ﴾ قيل : متعلق بمضمون الجملة الطلبية المتضمنة لمعنى الشرط إذ التقدير إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله يؤتكم كذا وكذا لئلا الخ ، وقيل : متعلق بالأفعال الثلاثة قبله على التنازع ، أو بمقدر كفعل ذلك وأعلمهم ونحوه و (لا) مزيدة مثلها فى قوله تعالى : (مامنعك أن لا تسجد) ويجوز زيادتها مع القرينة كثيراً و (أن) مخففة من الثقيلة واسمها المحذوف ضمير أهل الكتاب أى أنهم ، وقيل : ضمير الشأن ومابعد خبرها والجملة فى حيز النصب على أنها مفعول يعلم أى ليعلم أهل الكتاب القائلون من آمن بكتابكم منا فله أجران ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم أنهم لاينالون شيئاً من فضل الله من الأجرين وغيرهما ولا يتمكنون من نيله مالم يؤمنوا بمحمد ﷺ وحاصله الإعلام بأن إيمانهم بنبيهم لاينفعهم شيئاً مالم يؤمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام فقولهم : من لم يؤمن بكتابكم فله أجر باطل *

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال : لما نزلت (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بماصبروا) فخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا : لنا أجران ولكم أجرفاشتد ذلك على أصحابه عليه الصلاة والسلام فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) الخ فجعل لهم سبحانه أجرين مثل مالمؤمنى أهل الكتاب ، وقال الثعلبي : فأنزل الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله) الآية فجعل لهم أجرين وزادهم النور ثم قال سبحانه : (لئلا يعلم) الخ ، وحاصله على هذا ليعلموا أنهم ليسوا ملاك فضله عز وجل فيزووه عن المؤمنين ويستبدوا به دونهم ، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾ عطف على أن لايقدرون داخل معه فى حيز العلم ، وقوله سبحانه: ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ خبر ثان لان أو هو الخبر وماقبله على ماقيل:حال لازمة أواستئناف ، وقوله عزوجل: ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ٢٩ ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ماقبله *

وذهب بعض إلى أن الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب اليهود والنصارى أولمن لم يؤمن منهم بعد: فالمعنى ياأيها الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام آمنوا بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم أى اثبتوا على الايمان به أوأحدثوا الايمان به عليه الصلاة والسلام يؤتكم نصيبين من رحمته نصيباً على إيمانكم بمن آمنتم به أولا ونصيباً على إيمانكم بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم آخراً ليعلم الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب أنهم لاينالون شيئاً مما يناله المؤمنون منهم ولا يتمكنون من نيله حيث لم يأتوا بشرطه الذى هو الايمان برسوله ﷺ ،وأيد ذلك بما فى صحيح البخارى « من كانت له أمة علمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها وأعتقهاو تزوجهافله أجران ، وأيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى فله أجران ، وأيما مملوك أدى حق الله تعالى وحق مواليه فله أجزان» ولا إشكال فى ذلك بالنسبة إلى النصارى ، ولذا قيل:الخطاب لهم لأن ملتهم غيرمنسوخة قبل ظهور الملة المحمدية ومعرفتهم بهافيثابون على العمل بها حتى يجب عليهم الايمان بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فاذا آمنوا أثيبوا أيضاً فكان لهم ثوابان ، نعم قد يستشكل بالنسبة إلى غيرهم لأن مللهم منسوخة بملة عيسى عليه السلام والمنسوخ لاثواب فى العمل به ، ويجاب بأنه لا يبعد أن يثابوا على العمل بملتهم السابقة وإن كانت منسوخة ببركة الاسلام *

وأجاب بعضهم أن الإثابة على نفس إيمان ذلك الكتابى بنبيه وإن كان منسوخ الشريعة فان الايمان بكل نبي فرض سواء كان منسوخ الشريعة أم لا ، وقيل : إن (لا) فى (لأن لايعلم) غيرمزيدة وضمير لايقدرون للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين أى فعلنا مافعلنا لئلا يعتقد أهل الكتاب أن الشأن لايقدر النبي ﷺ والمؤمنون به على شئ من فضل الله تعالى الذى هو عبارة عما أوتوه من سعادة الدارين ولا ينالونه ، أوأنهم أى النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنون لايقدرون الخ ، على أن عدم علمهم بعدم قدرتهم على ذلك كناية عن علمهم بقدرتهم عليه فيكون قوله سبحانه : (وأن الفضل) الخ معطوفا على ـ أن لايعلم ـ داخلا معه فى حيز التعليل دون أن لايقدر فكأنه قيل : فعلنا مافعلنا لئلا يعتقدوا كذا ولأن الفضل بيد الله فيكون من عطف الغاية على الغاية بناءاً على المشهور ولتكلف هذا القيل مع مخالفته لبعض القراءات لم يذهب اليه معظم المفسرين ، وقرأ خطاب بن عبد الله ـ لأن لا يعلم ـ بالاظهار ، وعبد الله بن مسعود . وابن عباس . وعكرمة . والجحدرى . وعبد الله بن سلمة على اختلاف ليعلم ، وقرأ الجحدرى أيضا ـ ولييعلم ـ على أن أصله لئن يعلم فقلبت الهمزة ياءاً

لكسرة ماقبلها وأدغمت النون فى الياء بغير غنة ، وروى ابن مجاهد عن الحسن - ليلا - مثل ليلى اسم المرأة (يعلم) بالرفع، ووجه بأن أصله - لأن لا - بفتح لام الجر وهى لغة وعليه قوله :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل

فحذفت الهمزة اعتباطاً وأدغمت النون فى اللام فصار - للا - فاجتمعت الامثال وثقل النطق بها فأبدلوا من اللام المدغمة ياءاً نظير مافعلوا فى قيراط ودينار حيث أن الاصل قراط ودنار فأبدلوا أحد المثلين فيهما ياءاً للتخفيف فصار - ليلا - ورفع الفعل لأن أن هى المخففة من الثقيلة لا الناصبة للمضارع ، وروى قطرب عن الحسن أيضا - ليلا - بكسر اللام ووجهه كالذى قبله إلا أن كسر اللام على اللغة الشهيرة فى لام الجر ؛ وعن ابن عباس كى يعلم ، وعنه أيضا لكيلا يعلم ، وعن عبد الله . وابن جبير . وعكرمة لكى يعلم ٭ وقرأ عبد الله أن لا يقدروا بحذف النون على أن إن هى الناصبة للمضارع ، والله تعالى أعلم ٭

﴿ ومما ذكره المتصوفة قدست أسرارهم فى بعض آياتها ﴾ (هو الاول والآخر والظاهر والباطن) قالوا : هو إشارة إلى وحدانية ذاته سبحانه المحيطة بالكل ، وقالوا فى قوله تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) إشارة إلى أنهم لا وجود لهم فى جميع مراتبهم بدون وجوده عز وجل ، وقوله تعالى : (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) إشارة إلى ظهور تجلى الجلال فى تجلى الجمال وبالعكس (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) إشارة للمشايخ الكاملين إلى تربية المريدين بافاضة مايقوى استعدادهم مما جعلهم الله تعالى متمكنين فيه من الاحوال والملكات ٭

وقال سبحانه : (اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها) لئلا يقنط القاسي من رحمته تعالى ويترك الاشتغال بمداواة القلب الميت (فما رعوها حق رعايتها) أوردها الصوفية فى باب الرعاية وقسموها إلى رعاية الاعمال والأحوال والأوقات - ويرجع ماقالوه فيها - على ماقيل - إلى حفظها عن إيقاع خلل فيها (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته) أى نصيبين نصيباً من معارف الصفات الفعلية ونصيبا من معارف الصفات الذاتية (ويجعل لكم نوراً) من نور ذاته عز وجل وهو على ماقيل: إشارة إلى البقاء بعد الفناء، وقيل: هذا النور إشارة إلى نور الكشف والمشاهدة رتب سبحانه جعله للمؤمن على تقواه وإيمانه برسوله الاعظم صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقيل : هو نور العلم النافع الذى يتمكن معه من السير فى الحضرات الالهية كما يشير اليه وصفه بقوله عز وجل: (تمشون به) ؛ وفى بعض الآثار « من عمل بما علم علمه الله تعالى علم مالم يعلم » وقال سبحانه : (اتقوا الله ويعلمكم الله) وكل ذلك فى الحقيقة فضل الله تعالى والله عز وجل ذو الفضل العظيم نسأله سبحانه أن لا يحرمنا من فضله العظيم ولطفه العميم وأن يثبتنا على متابعة حبيبه الكريم عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأكمل التسليم ٭

تم بعونه تعالى وتوفيقه الجزء السابع والعشرون ، ويليه الجزء الثامن والعشرون أوله

﴿ سورة المجادلة ﴾

فهرست

﴿ الجزء السابع والعشرين من تفسير روح المعانى ﴾

تمت الفهرست والحمد لله اولا واخرا